ندوة

التحرّكات البشريّة والهجرات اليمانيّة

إلى الشام وشرق وشمال أفريقيا

قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره

الرباط - المغرب



تحرير:

د. محمود أحمد أبوصوّة

د. سعيد بنسعيد العلوي

د. يوسف محمد الصواني

المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر



ندوة:

التحركات البشرية والهجرات اليمانيّة

إلى بلاد الشام وشرق وشمال أفريقيا

قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره



المركز العالمي
لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر



كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الخامس



المركز العربي
للدراسات الاستراتيجية

ندوة:

التحركات البشرية والهجرات اليمانيّة

إلى بلاد الشام وشرق وشمال أفريقيا
قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره

تحرير:
د. محمود أحمد أبوصوة
د. سعيد بنسعيد العلوي
د. يوسف محمد الصواني

الندوة العلمية حول:

التحركات البشرية والهجرات اليمانية، إلى بلاد الشام وشرق وشمال أفريقيا

قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره

23- 24/ 11/2004 الرباط – المغرب

نظّمت بالتعاون بين:

المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس – الجماهيرية العظمى

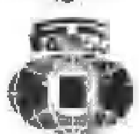
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط – المملكة المغربية

المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، دمشق – الجمهورية السورية

الطبعة الأولى ـ 2005



منشورات



المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر

❖❖❖

رقم الايداع: 6518- 2005

ر.د.م.ك 5- 108- 26- 9959 I.S.B.N

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد

دار الكتب الوطنية ـ بنغازي

❖❖❖

تنفيذ



تانيت

tanit@africamail.com

المحتويات

المحور الثاني

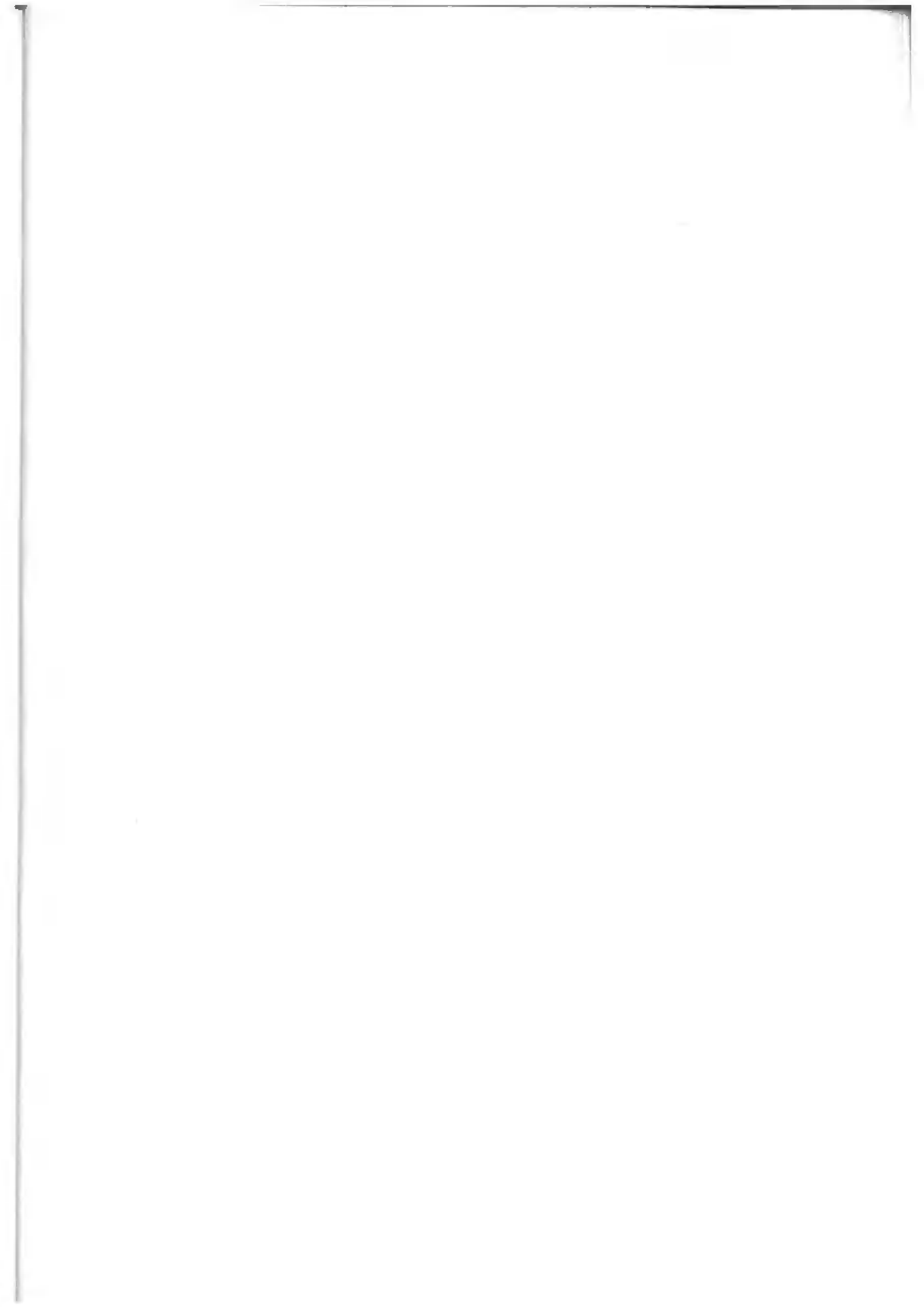
الهجرات اليمانية قبل ظهور الإسلام

المحور الثالث

الهجرات اليمانية والتحركات البشرية بعد ظهور الإسلام

المحور الرابع

التمازج البشري وأهميته في ربط المغرب بالمشرق



كلمة د. عبدالله عثمان عبدالله

أمين اللجنة الشعبية للمركز العالمي
لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر

حضرات السيدات والسادة

السلام عليكم، وبعد...

فيشرفني المثول أمامكم في هذا الجمع الكريم والأساتذة والعلماء الأجلاء، وهذه المناسبة الطيبة حيث نلتقي للحوار حول قضية من قضايا أمتنا في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، والعالم من حولنا يصطخب بشتى التيارات ومختلف الإيديولوجيات، بل والسياسات والبرامج المعدة أوالتي تعد من قبل التكتلات الإقليمية والقارات المتعددة النوايا والاتجاهات.

وإنكم لتعلمون جيداً أنه لا حياة حرة كريمة في هذا العصر العولمي المتماوج لأية أمة لا تحصّن نفسها ضد الغزوالخارجي في أية صورة من صوره كانت، وضد عوامل التحلل الداخلي، في أي شكل كان، وأنه لابد من الوعي الكامل بحقائق التاريخ وواقع الجغرافيا وما يتبعهما من تفصيلات وتفريعات. من هنا كانت هذه الندوة المباركة بتعاون محمود ما بين المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر في طرابلس والمركز العربي الاستراتيجي بدمشق وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس في رباط الفتح، لتجمع ثُلة من العلماء والباحثين الجادين المُجددين ممن سنستمع إلى بحوثهم وأفكارهم ونتائج دراساتهم ونستفيد من خلاصات جهودهم المشكورة.

وإن كان لي من كلمة هنا عن المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر فهي توضح ان هذا المركز الذي أتشرف بأمانة إدارته ليس مجرد أداة درس في موضوع واحد معين بذاته وإنما هوأداة بحث شامل في مختلف الموضوعات التي تهم أمتنا بالدرجة الأولى وتهم

الإنسانية قاطبة، فهومركز منفتح ومتفتح ومفتوح الأبواب على مصاريعها باعتباره مركزاً عالمياً لا يخص قطراً بعينه ولا مجموعة خاصة، وإن كان لابد أن تكون متخصصة.

إن فكرة (العالمية) مبدأ عربي إسلامي منذ مئات السنين ودينا الحنيف جاء للناس كافة ودعوته إلى إسلام الوجه لرب العالمين تقوم على الإقناع والاقتناع في أساسها المتين، ومن المؤسف حقاً أن يحول بعض من يروم الهيمنة على مصائر البشر أجمعين هذه الفكرة العظيمة إلى (عولمة) تفرض فرضاً بقوة الاقتصاد أوقوة السلاح، الأمر الذي يجب أن تقف شعوب العالم في وجهه حتى تحافظ على حريتها وهويتها وكينونتها بل ووجودها المادي والمعنوي معاً.

سيداتي سادتي

إننا أبناء الأمة العربية مستهدفون جميعاً باستراتيجيات وتكتيكات بات واضحاً أنها لا تريد لنا خيراً وهي تتربص بنا وتحيك المكائد من حولنا وفي داخل قلاعنا. وها قد اتضحت النوايا واتضحت الصورة ليس فقط عن سبيل ما يحدث في العراق وفلسطين بل في أجزاء كثيرة من وطننا العربي الكبير ولعل من أسوأ الخطط وأبلغها أثراً تلك التفرقة المفتعلة ما بين المشرق والمغرب، وتلك النزعات التي تظهر هنا وهناك داعية إلى مزيد من الفرقة والتمزق وصرف النظار عن الخطر الخارجي المُحدق بنا من كل جانب. ولعل هذا ما يحفّزنا إلى مزيد من الحذر والبحث العلمي الموضوعي الجاد في ما يجمعنا ويوحّدنا كتلة واحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

نعم.. أيها السيدات والسادة، إن الحرية بكل معانيها ومقوماتها، هي المطلب الأول لكي يحقق الإنسان وجوده وكرامته، وإن حرية التعبير عن الذات ضرورة لا غنىً عنها لخلق مجتمع متوحد متوازن، ولكن هناك أسساً ومبادئ كبرى يجب أن تكوّن منطلقات مسلماً بها لأية جماعة متفقة تكون امة بالمعنى الواسع الشامل المحيط. وهذا في تصوري، ما تسعى إليه هذه الندوة وأمثالها لكي يَترسخ في أذهان الأجيال المتعاقبة ذلك الشعور الواعي بالانتماء والإحساس المدرك بالاعتزاز لهذا الوطن الكبير الذي يتشكل من مجموعة أوطان صغيرة،

وهو أمر طبيعي، تماماً كما تشكل لوحة الفسيفساء الجميلة من قطع صغيرة إنه التنوع في الوحدة والوحدة في التنوع.. سنة الله " ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ".

سيداتي سادتي..

أبارك هذه الندوة، وأشكر للباحثين جهودهم المحمودة، وأشكر لكم حضوركم وتجشمكم عناء السفر والحضور إلى أرض المملكة المغربية الرابطة، واحمد لكم كل سعي في سبيل الحق والخير والجمال.

ولا يفوتني أن أوجه الشكر أيضاً إلى الأخ د. سعيد العلوي، عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس، وكل العاملين بالكلية على ما وفروه من جهد لإنجاح هذه الندوة.

كلمة الرئيس علي ناصر [illegible]

رئيس المركز العربي للدراسات الاستراتيجية[1]

أيها الحضور الكريم..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بدأ التفكير بإقامة هذه الندوة منذ عام 1995 ، وفي عام 1997 تم الاتفاق بين المركز العربي للدراسات الاستراتيجية بدمشق ومركز دراسات البحر المتوسط في طرابلس على إقامة هذه الندوة وحددت أهدافها بموجب محضر اجتماع مشترك على أنها :

- بناء محاور تأسيسية لتجذير الثقافة العربية، وتوطيد الصلات المعاصرة للأمة ما بين أقطار الوطن العربي اعتماداً على السمات العربية المشتركة لموروثها الحضاري.

- إبراز الدور الحضاري المتبادل بين الوحدات الجغرافية والديمغرافية العربية عبر العصور وتقليل فعاليات الحدود السياسية في العزل التجزيئي للجماهير العربية.

- تصعيد الدور العربي . المتوسطي للمشروع الحضاري من خلال تعزيز الفعاليات الثقافية، والطبيعية من أجل العمل على تأكيد وحدة الانتماء القومي للأمة العربية.

- تجذير الثقافة العربية، وبناء مدرسة عربية لكتابة التاريخ، وبرؤية تتطلع لصياغة المستقبل العربي، تعتمد الموروثات الحضارية، بما فيها النقوش العربية القديمة.

ورغم الاتفاق على أسماء المشاركين والمحاضرين، وعلى محاور البحوث التي ستقدم إلى الندوة، فقد حالت ظروف ومعوقات دون انعقادها في ذلك الوقت.

وتجددت المساعي في العام الماضي لعقد هذه الندوة، في لقاء تم بدمشق بين المركز العربي

---

1 - قدّمها الدكتور منير الحمش المدير العام للمركز العربي للدراسات الاستراتيجية

للدراسات الاستراتيجية والمركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر. وبالتحديد في 2004/2/4 حيث تم الاتفاق على عنوان الندوة ومحاورها، بما في ذلك تحديد المواعيد المناسبة. وتقرير ان يتم الاتصال مع الجهات الأكاديمية في الجزائر والمغرب لاستضافة الندوة، ووضعت تصورات محاور الندوة التي تلبي الهدف النهائي من إقامتها ولتغطي كبر مساحة من هذا الموضوع الهام، وهي خمسة محاور:

المحور الأول: الهجرات اليمانية قبل الإسلام.

المحور الثاني: الهجرات اليمانية بعد الإسلام.

المحور الثالث: اثر الهجرات في العمران الحضري.

المحور الخامس: علاقة الهجرات بالمشروع الوحدوي في الحقب التاريخية المختلفة من العصر الإسلامي.

وكانت خلفيات هذه المحاور تهدف إلى إبراز الهجرات والتحركات البشرية اليمنية باتجاه بلاد الشام وشمال أفريقيا قبل الإسلام وبعده، وأثرها في حركة التواصل التاريخية بين البلدان العربية وإبراز دور اللغة والآداب والفكر والعلوم والعادات والتقاليد في تمتين أواصر العلاقات بين السكان التي تعزز عبر السنين حضارياً في العمران وإقامة شبكة المواصلات والمدن والاقتصاد والتجارة.

وقد تكللت الاتصالات بالنجاح حين تم الاتفاق مع كلية الآداب والعلوم الإنسانية — جامعة محمد الخامس، على عقد الندوة في هذا الوقت وفي هذا المكان بالذات.

أيها الأخوات والأخوة..

يكتسب انعقاد هذه الندوة في المغرب الشقيق أهمية خاصة، في الوقت الذي تعمل بعض القوى على طمس الهوية الثقافية العربية الإسلامية، وإحلال هوية وثقافة مغايرة لطبيعة شعوبنا وتراثنا. فضلاً عن إثارة النعرات والخلافات الطائفية والعرقية، مما يبعدنا عن معالجة مشكلاتنا الحقيقية والنهوض بمجتمعاتنا والتصدي لتحديات التنمية ورفع مستوى المعيشة

والخروج من دائرة التخلف والجهل والبطالة والفقر.

أن ما يجري الآن على الساحة العربية إنما هوحلقة من سلسلة طويلة من الممارسات الخارجية التي تستهدف وجود هذه الأمة وهويتها. ومن هنا تأتي أهمية انعقاد هذه الندوة من حيث كونها تأكيداً للروابط البشرية ما بين البلدان العربية على نحويضرب بجذوره في أعماق التاريخ فقد أرسى الامتزاج السكاني والحضاري في المنطقة العربية من خلال الحركات البشرية والهجرات، حقائق وثوابت تاريخية وطبيعية وثقافية وروحية عميقة. الأمر الذي يشكل رداً حاسماً على المخططات الهادفة إلى طمس الهوية الثقافية – العربية – الإسلامية، وإلى عزل المغرب العربي عن المشرق العربي.

ولا ريب ان التحركات البشرية والهجرة العربية، واليمانية منها على وجه الخصوص، قد أرست الثوابت البشرية والروحية والحضارية لوطننا العربي. وعندما فتح الإسلام صفحة جديدة في تاريخ العرب، لم تكن هذه الصفحة منعزلة عن التاريخ العربي القديم. ذلك ان تأثير الحضارة العربية الجنوبية في اليمن، كان أوسع بكثير مما يبدوفي تطور المجتمع الإسلامي. وقاد هذه التأثيرات الهجرة اليمانية إلى الأمصار المفتوحة بعد الإسلام. حاملة معها مضامين حضارية سامية وأهداف تحررية نبيلة. فقد كان الفتح العربي الإسلامي، إلى جانب أهدافه في نشر الدعوة الإسلامية، ضرورة لمواجهة التحديات الخارجية، وتأكيداً على أهمية وجود استراتيجية إقليمية في مواجهة الأخطار التي تهدد المنطقة، من الشرق والغرب.

وتكتسب الهجرات اليمنية إلى بلاد الشام والعراق وشمال وشرق أفريقيا، أهميتها التاريخية من دورها الرئيسي في وحدة المنطقة جغرافياً وتاريخياً وحضارياً، وفي تأكيد وحدة النسيج الوطني داخل الوطن الواحد الذي يحترم جميع الثقافات والتوجهات التي يجمعها الوطن. إلى جانب التأكيد على وحدة الأرض والإنسان، التي صيغت عبر تاريخ المنطقة الطويل، وقد كانت منطقة الشمال (العراق – السام – مصر) والشمال الإفريقي مجالاً حيوياً لهجرة سكان الجزيرة العربية منذ فجر التاريخ، حيث تم تثبيت أبجديات الهوية والحضارة لامتنا العربية الإسلامية.

إلا أن هذا يجب ألا ينسينا حقائق تاريخية أخرى، تتمثل في هجرات وتحركات من الشمال الأفريقي نحو الشرق وهذا ربما يكون محوراً لندوة أخرى تستكمل ما بدأناه في هذه الندوة.

أخيراً..

أوجه من هذا المنبر تحية امتنان وشكر إلى جلالة الملك محمد السادس وحكومته لاستضافتهم انعقاد هذه الندوة الأكاديمية في رحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة محمد الخامس.

كما أوجه الشكر والامتنان إلى جامعة محمد الخامس ورئيسها وأساتذتها، وإلى الأساتذة الدكتور سعيد بن سعيد العلوي عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مشيراً إلى الجهود التي بذلها الأستاذ الدكتور عبدالله عثمان والأستاذ الدكتور يوسف الصواني في تذليل العقبات والعمل الدءوب من أجل انعقاد هذه الندوة. كما أشكر جميع من أسهم في تنظيم وترتيب انعقادها من الجهات الثلاثة المنظمة، على أرض المغرب الشقيق.

وإليكم وإلى جميع المشاركين والباحثين جزيل الشكر والامتنان. راجياً لكم التوفيق فيما تسعون إليه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



تقديم

د. محمود أحمد أبوصوة

لقد أشار السيد رئيس المركز العربي للدراسات الاستراتيجية بدمشق في كلمة الافتتاح إلى أنه كان من المفترض أن يعقد هذا المؤتمر منذ عشر سنوات تقريبا ! ولا أعتقد بأن المجال مناسب هنا للتطرق لأسباب هذا التأخير؛ فالمهم أنه، وبفضل جهود الجهات الثلاث المنظمة له، رأى النور أخيرا. ففي مدينة الرباط بالمغرب الشقيق، وطوال يومي الثلاثاء والأربعاء 23 و24 نوفمبر، سنة 2004، تم عرض ومناقشة ما يزيد عن العشرين دراسة تقدم بها أساتذة من سوريا واليمن، وليبيا وتونس والمغرب وموريتانيا. ولكن الأمر الذي في حاجة للتنويه هو لماذا موضوع الهجرات والتحركات البشرية؟ ولماذا الآن ؟

من المنطقي أن تقام المؤتمرات، ولكنه من غير المنطقي أن لا تكون لهذه المؤتمرات أسباب؟ كأن تكون الأسباب علمية مثلا، أوسياسية/ استراتيجية. صحيح أن لهذا المؤتمر "رائحة" أوفلتقل "نكهة" سياسية ! ولكن منذ متى كان السياسي والعلمي على غير وفاق ! فقد كان على العلمي، وعبر العصور، الانصياع للسياسي! فالعلم، يقول المثل، يتبع الراية ! بناء عليه فإنه من حق الكثيرين أن يشككوا في طبيعة ودوافع هذا النوع من المؤتمرات التي تبدو في ظاهرها علمية، ولكن باطنها يعكس أيضا رؤى سياسية تدعولها أنظمة بعينها وتؤازرها. وهذه بالمناسبة واحدة من الانتقادات التي وجهت لهذا المؤتمر علنا مرة، وخلف "الكواليس" مرات. فقد رأى البعض في هذا المؤتمر مجرد استجابة لمسعى أيديولوجي مفاده إلغاء التنوع الإثني في بلاد المغرب وحصره في أصل واحد، أي في الأصل المشرقي. فبعد أن سعت مدرسة الإستشراق الفرنسية، يقول هؤلاء ولعقود، إلى اعتبار المغاربة من أصل أوروبي، يذهب الآن منظموهذا المؤتمر إلى اعتبار" البربر" من أصل مشرقي.

والحقيقة أن مسألة قبول فرضية ورفض أخرى كانت ولا تزال تثير الجدل ليس فقط في

هذه الجزئية، بل وفي كل ما يتعلق بتاريخ المغرب في جميع عصوره. ففكرة الثنائية والتي تعمل الواحدة على إلغاء الأخرى تعد بمثابة الخيط الرابط لجميع جوانب تاريخ المغرب. فالهمج والبربر في تاريخ المنطقة القديم، ووفقا لأطروحة المدرسة الفرنسية، هما وجهان لعملة واحدة؛ ولكن حين دخلت المنطقة التاريخ، أي مباشرة بعد قدوم الفينيقيين، تحضر جزء بسيط من سكان المنطقة، أي سكان الساحل، أما أغلبية سكانها فإنها لم تكتف بمعاداة أهل الساحل، بل واعتنقت ثقافة ترفض التحضر وتعادي معتنقيه. وبقدوم الرومان تأكدت القطيعة بين المحليين والقادم الجديد وتقلص عدد المتحضرين حتى كاد ينحصر في الرومان. وهكذا أصبح الجميع يتحدث عن انقسام بلاد المغرب إلى أغلبية غير متحضرة من البدو/ المحليين، وأقلية من الحضر القادمة من الشمال. وانقسام المجتمع المغربي إلى بدو وحضر هو حقيقة لا يمكن تجاهلها، ولكن ماذا عن بقية الفئات؟ ولماذا الإصرار على أن وجود إحداها يستوجب نفي/ إلغاء الأخرى؟ ليس هذا فحسب، بل إن عرض تاريخ المنطقة وتحليل مراحله المختلفة وفق منظور الانقسام أحدث فتقا لا يمكن رتقه، فتق لامس جميع ملامح حياة المنطقة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بل وحتى الدينية\ المذهبية!

إنه وبفضل هذه الرؤية التي تعتمد مبدأ الثنائية، وهي ثنائية يجب التذكير بأنها غير عاقلة، صنف تاريخ المغرب الوسيط أيضا. فباجتماع العرب الذين تغلب عليهم البداوة، والبربر الذين يشاركونهم هذه الخلفية، انتصرت البداوة واختفت مظاهر المنطقة الحضارية؛ فالعرب، تقول هذه الأعمال، تسببوا في إرجاع أراضي المنطقة إلى مستوى بدائي شبيه بالمستوى الذي كانت عليه قبل الاحتلال القرطاجني. من ناحية أخرى وبسبب غلبة النمط البدوي على سكان المنطقة، عاد الجميع لحياة البداوة والرعي!! غير أن حتى هذا التشابه والذي لم يقصد به غير تحقير كل ما هو غير غربي، لم يلغ مبدأ الثنائية. فوفقا لاستراتيجية صممتها مدرسة الاستشراق الفرنسية تقاسم مؤرخوها الأدوار، تبنى فريق الدفاع عن الفاتحين المسلمين ومهاجمة المغاربة، وتولى فريق آخر الدفاع عن المغاربة وتحميل المسلمين مسؤولية تخريب البلاد وتخريب اقتصادها. فليفي بروفنسال، على سبيل المثال، يتهم العرب صراحة بتخريب المنطقة زاعما بأنهم" المسؤولون الحقيقيون عما أصاب إفريقية من خراب

اقتصادي وزراعي بعد ذلك (أي بعد الفتح) بسنوات" ولا ريب يستطرد بروفنسال من أن "العرب هم الذين نسبوا إلى بطلة الأوراس(يعني الكاهنة) هذه الجريمة التي لا بد أن نضيفها إلى حسابهم دون أدنى ظل من الشك أوالتردد"[1]. فالمدرسة الفرنسية، كانت ولا تزال، تصر على استبعاد القواسم المشتركة، واعتماد فرضية الاختلاف العرقي بين المغاربة والمشارقة. وليس من قبيل الصدفة أن تكرس فرنسا جهودها طوال احتلالها الجزائر أوفترة الحماية للمغرب لتعميق الاختلاف بين الجزائريين والمغاربة، وتعمل بعد رحيلها على تأسيس الأكاديمية البربرية في باريس بعد استقلال الجزائر وليس قبله!

لذلك فإن الأسباب التي تدعولإقامة مؤتمرات تناقش فيها مثل هذه القضايا وغيرها، حتى وإن كانت تمثل استجابة لرغبات سياسية، أراها أكثر من مهمة. والأهمية التي أعنيها لا علاقة لها بدعم موقف أيديولوجي ما، بل لها علاقة بتنشيط ذاكرة سكان المنطقة.فمن لا ذاكرة له، يقول المثل، يسهل التلاعب به أكثر. ففي غياب مؤتمرات محلية تلفت النظر لكل ما له علاقة بذاكرة الشعوب يتعرض الآن العديد من شبان دول المغرب العربي (المغرب، والجزائر وتونس) لحركة تنصير. صحيح أن هذه الظاهرة تعود إلى مرحلة الاحتلال ولكن ومن منطلق العولمة، وخوف هذه الدول من أن يتهمها الغرب اتهامات أقلها التعصب الديني نراها تتجاهل هذه الظاهرة! وهذه الأخيرة، والتي لا تلتفت إليها المؤسسات العربية، تكاد تسبب نفس الأضرار التي يقوم بها الآن دعاة اختلاف المغاربة العرقي عن المشارقة. فهذان العاملان والذي ما انفك الغرب، فرنسا تحديدا، يعمل على توظيفهما من أجل تفتيت تناغم المجتمع المغاربي منذ مرحلة الاستعمار، يعودان للسطح من جديد. أمام هكذا تطورات هل يمكن للباحث المغاربي أن يقف مكتوف الأيدي، ويمتنع عن المشاركة وإبداء الرأي بحجة أن هذا النوع من المؤتمرات لا يمثل إلا رأي هذا النظام أوذاك؟ أعتقد أن تقاعس الأنظمة السياسية عن هذه المسائل هوالذي من المفترض أن يدعوالباحث المغاربي ليس فقط للتعجب والاستغراب، بل ولمطالبة أنظمة المنطقة بضرورة تمويل هذا النوع من المؤتمرات ورعايتها.

1- إن الشواهد ذات العلاقة بالأدبيات الفرنسية كثيرة ولا أرى ما يستوجب التوقف عندها خاصة و أن بحث الدكتور محمد الشريف، المنشور ضمن أعمال المؤتمر، يتعرض لهذه المسألة بالعرض والتحليل..

والاهتمام بهذه القضايا لا يعني تجاهل التنوع. ولأن الجهات المنظمة لم تكن رافضة لهذا المبدأ فقد كانت حريصة على ضرورة عقد المؤتمر في المغرب ؛ ففي هذا الأخير، وكما يعلم الجميع، يوجد عدد لا بأس به من دعاة البربرية. من ناحية أخرى، إن الدعوة لم تقتصر على فئة بعينها، فضلا عن أن الجهات المنظمة لم تضع شروطا غير شرط الالتزام بمحاور المؤتمر؛ وحتى هذه الأخيرة لم يلتزم المشتركون بها كثيرا! هذا وتجدر الإشارة إلى أن المؤتمر، وبالإضافة إلى انه لم يعقد في السر، فإن الجرائد المغربية نشرت محاوره. كما أن المتمعن في الأبحاث التي ألقيت يلاحظ بأن المصطلحات والمفاهيم لم تكن موحدة. لذلك فحتى وإن كان دافع هذا المؤتمر الرئيسي سياسيا، فإن الرغبة في إثارة هذا الموضوع، ووفق رؤى ليست بالضرورة متجانسة، لم يكن لها من دافع سوى كشف/ تعرية الفرضيات المغرضة، واقتراح وجهات نظر بديلة.

صحيح أن المقترحات في مجملها لم ترق إلى مستوى اقتراح البديل. وهذا أمر طبيعي ومنطقي، فمن غير المعقول أن يتمكن مجموعة من الأساتذة وفي مؤتمر واحد ليس فقط من تعرية الأطروحة الفرنسية، بل ومن اقتراح واحدة بديلة. فكذا عمل يتطلب تضافر جهود العديد من المؤسسات والأفراد ولعقود. لذلك فقد أبدى الكثير من المشاركين رغبتهم في عقد مؤتمر ثان تثار خلاله إشكاليات الهجرات في تاريخ المنطقة العربية بصفة عامة، والهجرات المشرقية لبلاد المغرب، وهجرات المغاربة للمشرق على وجه التحديد هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، ولأن الهدف من إقامة هذا المؤتمر هوالمساهمة في إزاحة الكثير من العتمة حول موضوع الهجرات وعلاقتها بالتركيبة السكانية لبلاد المغرب العربي، فإنه، وكما لم توضع في هذا المؤتمر أي عراقيل على مستوى المشاركة وإبداء الرأي، أكدت الجهات المنظمة على أنه في حالة إقامة مؤتمر ثان فإن باب الاجتهاد سيكون مرة أخرى مفتوحا للجميع. فمن غير المعقول أن تستبدل في المستقبل أحادية ببديل، ومهما كان صدقه، أحادي.

والسؤال الثاني هولماذا الآن؟ أظن أن ما دار وما يدور في العراق يستوجب من الجميع وقفة تأمل وتدبر أيضا! فدخول الغرب الآن، وبصرف النظر عن ما قيل وما يقال، يصعب تفهمه خارج التراث الاستعماري في المنطقة، أوفلنقل خارج عنصر الحنين للماضي. ولسنا في

حاجة للتذكير باستراتيجية المستعمر في المنطقة العربية أثناء الاحتلال، إذ أنها لم تتغير كثيرا حتى بعد رحيله. فالتركيز على الاختلاف داخل المنطقة العربية، ورعاية هذا الجانب على حساب الآخر كانت ولا تزال من أهم ركائز استراتيجية الغرب القائمة على مبدأ " فرق تسد"! فحرص الغرب على ضرورة استمرار فكرة انقسام المنطقة العربية على المستوى الفوقي، وعلى انشطاريته على المستوى التحتي جعلته يبادر، مباشرة بعد احتلاله العراق إلى تقسيمه إلى ثلاثة محاور/ مناطق نفوذ(الجنوب الشيعي، والوسط السني، والشمال الكردي)! ومن يعتقد بأن مسألة التقسيم ستنتهي عند هذا الحد فهولا محالة متفائل! فالغرب، والذي يعمل على إبراز أهمية المرجعية الدينية من ناحية ودور العشائر في تقرير مصير العراق من ناحية أخرى، سيعمل بكل تأكيد على إنهاء كل مظهر من مظاهر ليس وحدة العراق فحسب، بل وربما وحدة كل ضلع من ضلوع هذا المثلث !!

وحجة التدخل، أي الاحتلال، في غير العراق قائمة. ولا نريد أن نتوقف عند خصوصية كل دولة عربية. ولكن يجب التنبيه إلى أن ما يدور في العراق سوف لن ينتهي عند حدود هذا الأخير. فلن يترك الغرب إيران تخوض تجربتها، ولا سوريا في حالها، ومن الطبيعي أن لا تترك مصر! والذين يشغلهم ما يدور في العراق الآن عن الذي دار منذ أكثر من عقد في الجزائر، عليهم أن يعوا بأن التركيز على ثنائية الجزائر لم تنته فصولها بعد، فالجزائر، على أهميتها في المغرب العربي، ليست المستهدف الوحيد. لذلك فإصرار الغرب(فرنسا تحديدا) الآن، وبطبيعة الحال إصرار دعاة البربرية، على إبراز خصوصية الثقافة المحلية، والتعبير عنها بلغة غير اللغة العربية، الفرنسية تحديدا، عليهم أن يعوا بأن حجة استخدام الفرنسية التي هي أكثر قدرة على التعبير، وأكثر ملاءمة للتطور العلمي، هي في الأصل حجة واهية، فاللغة الفرنسية الآن في حاجة للدفاع عن نفسها وفي عقر دارها! فأكثر من 85٪ مما ينجز الآن في مجال المعرفة في العالم يكتب باللغة الإنجليزية! فماذا على دعاة استبدال اللغة العربية بالفرنسية العمل الآن؟ وماذا لو أن الثقافة الصينية أصبحت في العقود القادمة هي الثقافة المسيطرة!إن الأمر المدهش أن أتباع/ أنصار هذه السياسة على دراية بأن اختيار البديل غير العربي في السابق لم يحقق للجانب المحلي أي فائدة. ولسنا في

حاجة للتذكير مثلا بما عاناه أنصار فرنسا في الجزائر(الحركي) بعد رحيلهم مع المستعمر إلى دياره، وما يعانيه أبناءهم الآن من بعدهم.

إنه، ومن هذا المنطلق عقد المؤتمر الأول للهجرات اليمانية والتحركات البشرية إلى الشام وشرق وشمال أفريقيا قبل ظهور الإسلام وبعد ظهوره. وكنا نأمل أن تتضمن محاور هذه الندوة مواضيع تتصل بمستقبل المنطقة؛ غير أن هكذا مهمة ما كان لها أن تتحقق إلا بمشاركة علماء الاجتماع، والأنثربولوجيا، والاقتصاد والسياسة. فمسألة الهجرة، والتحرك البشري، لا يمكن التطرق إليهما من وجهة نظر تاريخية صرفة. فالعالم اليوم، وبفضل تعددية الأنظمة المعرفية، لم يعد يعترف، حين يتعلق الأمر بكل ما هوبشري / بيئي، بأحادية التناول. مع ذلك فإن مشاركة غير المؤرخين في هذه الندوة كانت حاضرة؛ فبالإضافة لبعض اللغويين، كانت هناك مساهمة لأستاذ في علم اجتماع (الدكتور عبده علي عثمان من اليمن) وأخرى لأستاذ في الفلسفة (الدكتور علي فهمي خشيم من ليبيا). وبالنظر إلى أن الأستاذين محمد فتيحة وعبد الحفيظ قدما تقريرا مفصلا حول الأعمال التي ألقيت في المؤتمر، فإنني رأيت أن أتجاوز عن عرض ما ورد في المؤتمر من بحوث وأحيل القارئ لتقريريهما.

تقرير عن أشغال الندوة

انتظمت الندوة العلمية المنعقدة يومي 23 و24 نوفمبر 2004 بمدرج الشريف الإدريسي، كلية الآداب الرباط، والمنظمة من طرف كل من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس أكدال، الرباط؛ والمركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر بطرابلس؛ والمركز العربي للدراسات الاستراتيجية بدمشق، حول موضوع:

"التحركات البشرية والهجرات اليمنية إلى بلاد الشام

وشرق وشمال إفريقيا قبل ظهور الإسلام وبعده"

لقد توزعت أعمال الندوة على ست جلسات علمية همت ثلاث منها بشكل خاص الجوانب المتصلة بالموضوع خلال فترة ما قبل الإسلام، في حين همت الثلاث الأخرى فترة ما بعد الإسلام. مع الإشارة إلى أن هذا التقرير هو في الواقع تقرير جزئي لمضمون تلك الجلسات، لكون طول بعض المداخلات لم يسمح لأصحابها بتقديم كل العناصر الواردة في أبحاثهم.

بالنسبة **للجلسة الأولى**، فقد تطرق **الأستاذ علي فهمي خشيم** إلى **الصلات القائمة بين القبائل الليبية القديمة والجزيرة العربية**، موضحا أن المقصود بالقبائل الليبية هو كل ساكنة المغرب بمعناه الاصطلاحي الممتد من غرب مصر إلى المحيط الأطلسي. وقد اعتمد الباحث على مصادر قديمة، مصرية ويونانية ولاتينية ورومانية، وعلى ما سماه بـ"المنهج العروبي" الذي يتمثل في إرجاع الأعلام الجغرافية والأسماء إلى أصولها العربية. وقد حرص الباحث على التذكير بأن ارتفاع عدد القبائل (150) قد أدى بالضرورة إلى تحريف في الأسماء، وأن عملية تبادل الحروف والأصوات قد أدت بدورها إلى اختلاف في المعاني. وبعد تقديم الباحث لمجموعة من الأمثلة توضح أهمية التدقيق اللغوي في دراسة أسماء القبائل الليبية واستعمالاتها في اللغات القديمة بهدف تصحيح أخطاء ومغالطات مقصودة أحيانا، أكد على

ضرورة "النظر من جديد في المكتشفات الأثرية لأهمية ذلك في تجديد وتدقيق معارفنا بأسماء القبائل".

وأكد من جهته الأستاذ عبد المنعم محمد المحجوب في مداخلته "مقاربات جنيالوجية في اللغة والحراك السوسيو- ثقافي" على حصول تلاقح أفرو- أسيوي في اللغة والحضارة، وأن مسارات هذا التأثير لم تكن أحادية بل اخترقت المجال والدين والمجتمع، مشيراً في الوقت نفسه إلى أن انعكاسات فهم هذا التأثير أدت إلى قراءات خارجية غربية أومتأثرة بها وما نتج عنها من مسلمات لم يتم تجاوزها إلى الآن.

وقد قسم بحثه إلى محاور: يتصل الأول باللغة والحضارة، فاللغة تمثل نسقا قديما ما يزال قائما إلى اليوم باعتبارها وسيلة للتفوق ونزع الاعتراف، وقدم في هذا الباب أمثلة من قبيل إطلاق الإغريق لكلمة بربر على غيرهم. وتناول في محور آخر مسألة اللغة كرمز جمعي ووسيلة للتميّز، فوقف عند المظاهر المتعددة لتأويل اللغة والكتابة التي كانت في الشرق استحضاراً للمقدس وكانت عند اليونان فعلاً مدنساً وعند الفينيقيين فعلاً إنسانياً. وخلص في الأخير إلى أن السومرية تبقى حاضرة كمقاطع وأصوات في أغلب اللغات الأفرو- أسيوية بخلاف التصور الاستشراقي.

وتعرض الأستاذ رفعت هزيم في مداخلته عن "الهجرات اليمانية حتى القرن الثالث الميلادي" إلى نوعية المصادر المعتمدة في دراسة تاريخ اليمن من آثار ونقوش مكتوبة بلغات قديمة مختلفة وكتابات الآشوريين والرومان واليونان وكتب التراث. وبعد استعراضه لمجموعة من النصوص المتعلقة بالهجرات اليمنية، حاول تفنيد الفرضية القائلة بأهمية هذه الهجرات وتتابعها حتى القرن الثالث الميلادي، لكون ما يرد بالمصادر والنقوش لا يؤكد تلك الأهمية وذلك التتابع، معتبرا كخلاصة أن هذه الهجرات كانت هجرات في كلا الاتجاهين، وأنها لم تكن هجرات قبائل بل هجرات جماعات فقط وفي فترات متعاقبة، وأن هذه التحركات التدريجية هي التي أدت إلى تكون اللغة العربية في وقت مبكر وبكيفية تدريجية.

وقد انصبت المناقشة التي تلت هذه الجلسة على العناصر التالية:

- ضرورة الاهتمام بالمصادر اليمنية القديمة المكتوبة بخط المسند لكونها أكثر مصداقية من الروايات اللاحقة.

- التحرز من مسألتي الفينية والأسبقية لانعدام الأدلة العلمية.

- إعادة النظر في المفهوم المجالي لما يصطلح على تسميته بشبه الجزيرة العربية خلال الفترات السابقة عن الإسلام.

أما مداخلات الجلسة الثانية فقد همت أبحاث ثلاث :

فقد أكد الأستاذ محمد محفل في البداية أن مداخلته تسعى بالأساس إلى الوقوف عند الأسماء الجغرافية- التاريخية المتداولة بين شبه الجزيرة العربية وشمال إفريقيا قبل الإسلام، متسائلا عن سبب اقتصار الندوة عن اليمن والشام، لكون شبه الجزيرة العربية كانت تمتد في الواقع نحوالشمال وبلاد الرافدين، ولارتباط التحركات البشرية التي شهدتها هذه الأخيرة بمثيلاتها في الشام.

ثم استعرض الباحث بعد ذلك مجموعة من الأسماء مثل : لوبيون وبربر ومورروس، مبينا الاستعمالات المتماثلة لجذور نفس الأسماء في المجالين معا وبنفس الدلالات، وخلص في النهاية إلى أهمية تدقيق تلك الاستعمالات اعتمادا على ما يرد بالنقوش والكتابات القديمة بالأساس.

أما بحث الأستاذة هدى عبد الرحمن العلام محمد حول "أثر هجرة قبيلتي الحبشان (حبشت) والجاعز من اليمن إلى شرق إفريقيا قبل الإسلام"، فقد اعتمد فترة زمنية تمتد من الألف الثالثة قبل الميلاد إلى ما بعد مجيء الإسلام، فقدمت تعريفا بالقبيلتين قبل التطرق إلى ظرفيات وملابسات انتقالهما إلى شرق إفريقيا من خلال الوقوف عند الخلافات القائمة بين الباحثين حول كيفية وتاريخ الانتقال، وعند الآثار المترتبة عنه على المستوى السياسي والاقتصادي والديني واللغوي، وكذلك انعكاسات هذا الانتقال على اليمن، الموطن الأصلي للقبيلتين.

وأكدت الباحثة في الخاتمة على الأثر المهم لانتقال القبيلتين في شرق إفريقيا وفي اليمن نفسها، وعلى ضرورة تعميق البحث في جملة من القضايا المرتبطة بالموضوع مثل تحديد موطن قبيلة الحبشان ودولة سبأ.

وتناول الأستاذ محمد مختار العرباوي في بحثه مسألة "الهجرات القديمة لشمال إفريقيا". وبعد الإشارة إلى النظريات الثلاث المتعلقة بأصول البربر: نظرية الأصل الأوروبي ونظرية الأصل الحامي والنظرية الأنتروبولوجية، توقف الباحث عند توظيف النظرية الأخيرة من طرف باحثين محليين سعوا إلى تأصيل البربر في المنطقة اعتمادا على ارتباطهم بإنسان ما قبل التاريخ. وحاول الباحث بعد ذلك تفنيد التأويلات التي ذهب إليها هؤلاء الباحثون وتقديم أدلة تجزم بالأصول اليمنية المشرقية للبربر.

وقد همت مناقشة عروض هذه الجلسة مسألتي:

- أهمية الطوبونيمية في دراسة موضوع هذه التحركات البشرية لوجود الكثير من المواقع تحمل نفس الأسماء في المجالين معا.

- ضرورة التروي في إصدار الأحكام التي لا تتطابق وما هومتوافر في النقوش والمصادر.

وفيما يخص عرضي الجلسة الثالثة، فقد تناول في أولهما الأستاذ محمد علي عيسى موضوع: "العلاقة بين اللغة الليبية القديمة ولغات الشرق الأدنى القديمة"، حيث أشارة إلى ارتباط اللغة الليبية القديمة، أي الأمازيغية الحديثة، باللغات السامية المختلفة لارتباط ذلك بالهجرات المتتالية إلى خارج شبه الجزيرة العربية.

ثم قدم بعد ذلك مجموعة من الأمثلة على ارتباط اللغة الليبية القديمة بكل من الأكادية والهيروغليفية والكنعانية والآرامية ولغات شمال شبه الجزيرة العربية، ليخلص في النهاية إلى كون "كل القرائن تدل على أن اللغة الليبية القديمة ذات صلة وثيقة بلغات الشرق الأدنى القديمة".

أما العرض الثاني ضمن هذه الجلسة فقد تناول من خلاله الأستاذ أحمد بلحاج موضوع "الجذور المشتركة لمنطقة الشمال الإفريقي"، حيث ذكر في مرحلة أولى المعلومات المتداولة لدى كبار المؤرخين والنسابين العرب وعلماء الآثار حول الأصول المشرقية للبربر وأنسبهم ومواطنهم، وأشار في مرحلة ثانية إلى ارتباط فكرة النزعة البربرية بخضوع المنطقة للاستعمار الأوروبي وشيوع الأفكار الساعية إلى نفي انحدار اللغات السامية والعربية والبربرية من أصل واحد.

وأكد الأستاذ على فهمي خشيم في نهاية هذه الجلسة على ضرورة استثمار الأفكار والآفاق التي تفتحها مثل هذه العروض إلى مشاريع بحث ستعمق بكل تأكيد معرفتنا بهذه التحركات والهجرات.

أما عروض الجلسة الرابعة فقد تناولت قضايا تتعلق بالهجرات العربية إلى شرق وشمال إفريقيا.

وهكذا، اهتم الأستاذ راضي دغفوس بموضوع "اليمانيون في إفريقيا في القرون الأولى للهجرة"، حيث أشار في محور أول إلى الأصول المشتركة بين سكان اليمن وساكنة إفريقية من خلال ذكر النظريات المتعلقة بمسألة أصول البربر، وكذا الموجات المتعاقبة للهجرات العربية في اتجاه المنطقة، وبشكل خاص الموجة الأخيرة التي توافق انتشار الإسلام في شمال إفريقيا. أما المحور الثاني، فقد حاول فيه الباحث مناقشة مدى مساهمة اليمنيين الوافدين على المنطقة ودورهم في انتشار الإسلام بها، وذكر في هذا الباب أمثلة عديدة لقبائل ولقادة يمنيين لعبوا أدوارا أساسية في انتشار الإسلام. وهي أدوار لا تقل أهمية عما قامت به القبائل اليمنية في بلاد المشرق. أما المحور الثالث، فقد خصص للحديث عن الأدوار المهمة التي لعبتها العناصر اليمنية في إفريقية على المستوى العسكري والسياسي والاقتصادي والديني والثقافي، وهو ما ترتب عنه انتشار الإسلام واللغة العربية بإفريقية خاصة وببلاد المغرب عامة.

وتناول عرض الأستاذ علي حسين الشطشاط موضوع "الهجرات العربية إلى شرق إفريقيا ودورها في نشر الإسلام والعروبة". وفيه توسع الباحث في الحديث عن دور العرب في

كشف سواحل شرق إفريقيا من خلال الهجرات والتبادل التجاري، قبل التوقف مطولا عند مختلف الجوانب التي تبرز من خلالها آثار الهجرات العربية على شرق إفريقيا سواء على المستوى السياسي أوالديني أوالثقافي أوالاقتصادي. وهي كلها معطيات تؤكد على أهمية تلك الهجرات العربية إلى المنطقة وتغييرها لمعالم الحياة التي كانت سائدة بها قبل ذلك.

وتعرض الأستاذ محمد الشريف في البحث الثالث والأخير من هذه الجلسة لموضوع "الهجرات الهلالية من خلال الدراسات الفرنسية المعاصرة". فتطرق إلى إشكالية المصادر المتعلقة بدراسة الموضوع والصور المتعاقبة التي كونها مؤلفوتلك المصادر عن الهجرات الهلالية ؛ ثم ميز بعد ذلك بين اتجاهين كبيرين في أبحاث المؤرخين الفرنسيين المعاصرين حول هذه الهجرات الهلالية وآثارها المختلفة على بلاد المغرب. اتجاه أول غلبت عليه النظرة السلبية لتلك الهجرات، كما هوواضح من خلال كتابات جورج مارسي وروجي أدريس وهنري طراس، التي يجب فهمها على ضوء الخلفية الإيديولوجية الكامنة وراءها، والانعكاسات المترتبة عن الترجمات الغيرسليمة للمصادر الأساسية حول الموضوع إلى اللغة الفرنسية. أما الاتجاه الثاني فيمثله باحثون من أمثال جاك بيرك وجان بونسي وكلود كاهن الذين تصدوا للأحكام والمغالطات الواردة في كتابات مؤرخي المجموعة الأولى. وأكد الباحث في النهاية على أن هذا التباين بين الباحثين الفرنسيين حول الهجرات الهلالية يؤكد على ضرورة مواصلة البحث في هذا الموضوع بالقراءة المتأنية للمصادر والسعي إلى توظيف ما قد يتم اكتشافه من شواهد جديدة.

وركزت المناقشة بشكل خاص على أهمية النوازل ووثائق الكنيزة في دراسة موضوع الهجرات إلى بلاد المغرب، ودور القبائل اليمنية في تفكك الوحدة السياسية للمنطقة وقيام إمارات مستقلة عن المشرق.

استؤنفت الجلسة الخامسة بمداخلة الأستاذ محمد المغراوي "الهجرة العربية الكبرى إلى المغرب الأقصى في عهد يعقوب المنصور الموحدي"، وهي هجرة تمت كما هومعروف بقرار اتخذه الخليفة الموحدي وتحكمت فيه اعتبارات مختلفة منها ما يتعلق بالمشاكل التي أثارتها هذه القبائل للدولة الموحدية في إفريقية لاسيما بعد تحالفها مع بني غانية ؛ ومنها ما يتصل بما يمكن

لهذه الدولة أن تجنيه من جراء تهجير بني هلال نحو المغرب وتوطينهم في سهوله الغربية وتوظيفهم كطاقة عسكرية بالأندلس في مواجهة حروب الاسترداد. وكان الباحث قد استهل بحثه بالتعريف ببني هلال والتذكير بالهجرات العربية الأولى نحو بلاد المغرب وبمحاولات عبد المومن نقلهم إلى المغرب الأقصى بغرض إعادة تشكيل التوازنات العصبية.

وبالنظر إلى ما ورد في المصادر عن ندم المنصور الموحدي على قراره ذلك، فلا شك أن النتائج لم تكن في مستوى تطلعاته، فالعرب اضطروا إلى التحول إلى مزارعين وهذا أمر لم يألفوه واستمروا في إحداث الاضطرابات في المناطق الأطلنطية، لكن هذا لا ينفي بعض النتائج الإيجابية ومنها المساهمة في تعريب المنطقة.

ويتصل بهذه المداخلة البحث الذي قدمه الأستاذ محمود أحمد أبوصوة حول "التواجد اليمني بالأراضي الليبية ودوره في ربطها بالمشرق" الذي استهله بالتطرق إلى إشكالية تسمى إلى التأصيل لتاريخ ليبيا القديم والوسيط بتجاوز مقاربتين أوشكلين من التطرف في التعامل مع التاريخ المحلي، واقتراح توجه ثالث عن طريق الانفتاح على أفق الوجود اليمني باعتباره الحلقة الغائبة في تاريخ ليبيا. وهكذا، يثير الباحث صعوبة كتابة تاريخ ليبيا خارج دائرة التبعية بسبب شح المصادر وغياب كيان سياسي عبر عنه بـ"السلطنة"، وهوما حكم على من تناول هذا التاريخ باقتراف جريرتين، الأولى غربية تتمثل في كتابة التاريخ المحلي لليبيا انطلاقا من دور الوافد وتجاهل دور المحليين؛ أما الثانية فهي أسلامية وقد تناولت هذا التاريخ في إطار التبعية لإفريقيا أولمصر، وأهملت المحليين وركزت على الوافدين الجدد ومن قاومهم لا غير. لكل هذا، يعتقد الباحث، ودون استبعاد هذه التواريخ، أن هناك ضرورة لكتابة تاريخ آخر بالتركيز على الوجود اليمني.

وكان آخر المتدخلين في هذه الجلسة الأستاذ حماه الله ولد السالم حول "الهجرة اليمنية إلى موريتانيا". وهي مداخلة تأتي بكثير من الأسئلة والمراجعات المفاهيمية في موضوع النسب والتعريب والقراءات الثنائية للتاريخ التي اشتهرت بها الكتابات الكلونيالية، وتدعوإلى ضرورة التجاوز بتجديد السؤال واستعمال مفاهيم العلوم الإنسانية الغربية. ليخلص بإيجاز إلى إجمال الروافد الإنسانية العربية بموريتانيا في:

- التشكيلات اليمنية، ومن أهمها بني حسان المتحدرة من قبائل المعقل.
- والتشكيلات القرشية المنتمية إلى النسب القرشي أوإلى النسب الشريف.

ولا شك أن نزوح هاتين التشكيلتين قد ارتبط بالتحولات السياسية التي كان يعرفها المغرب الأقصى منذ العهد المرابطي.

أم الجلسة السادسة والأخيرة، فقد تعرضت جل مداخلاتها إلى مجال الغرب الإسلامي من خلال دولة المنصور بن أبي عامر ودولتي المرابطين والموحدين، إضافة إلى مداخلة عن التواصل الحضاري والثقافي بين اليمن وأجزاء من شرق إفريقيا.

تناول الأستاذ محمد حناوي قضية الإصلاح العسكري العامري الذي عمل من خلال دمج قبائل البربر في جنده على توفير فعالية أكبر لهذه المؤسسة وخلق تراتبيات جديدة في البلاد كان الهدف منها تجنب استئساد قادة العرب والصقالبة عليه، وضبط التوازنات السياسية والاجتماعية لدولته، مطبقا بذلك سياسة وأفكارا معروفة عن كيفية تدبير أمور الحكم استقاها من الآداب السلطانية.

وقد أثار الأستاذ محمد رابطة الدين في عرضه موضوع التحولات الناتجة عن استقرار قبائل صنهاجة في منطقة تانسيفت، وما كان له من تأثير على مجال مدينة مراكش المباشر طيلة حكم المرابطين والموحدين من خلال تشكيل الخريطة البشرية للمنطقة والمتأثرة بالضرورة بالتحولات السياسية التي عرفها مجال مراكش على امتداد الفترة الممتدة من أواسط القرن الخامس إلى العقد السادس من القرن السابع الهجري.

وقد صحب هذا الحدث تفاعل مع المجال يتجسد في تعمير دؤوب للمنطقة بما أحدث فيها من قرى وضياع وبناء، وازدهار مراكش حاضرة الجنوب والمغرب آنذاك وبعض المدن والقرى كجلير وتاوتي وتاقايط.

وتطرق الموضوع الذي قدمه الأستاذ صالح معيوف مفتاح إلى "التواصل الفكري بين المشرق والمغرب وأثره في بناء دول المغرب خلال العصر الوسيط" من خلال شخصية ابن

تومرت، وإن كان المرابطون قد أرسوا من قبل معالم الدولة المركزية. وقد ركز الباحث تحليله على دور المشرق في بناء الشخصية الفكرية لمحمد بن تومرت زعيم الموحدين ومؤسس دولتهم وأكد على أن المعارضة السياسية كانت ترتكز دائما على المقوم الديني. ولتأكيد هذا الرأي فقد رجع بنا إلى بدايات الدولة الإسلامية الثورات الخارجية.

وتناولت مداخلة الأستاذ عبده علي عثمان موضوع "التواصل الحضاري والثقافي بين اليمن والمستوطنات الحضارية في شرق إفريقيا"، الذي توقف في بدايته عند تشابه سمات وتجارب مجتمعات البحر الأحمر الحضارية الذي يعكس الصلات والعلاقات بين الجهتين في ميادين كثيرة كالتجارة والفلاحة والحياة الدينية والاجتماعية. وقد استدل على ذلك بما وقف عليه في الأسماء والطوبونيميا من تشابه كما تدل عليه النقوش الموجودة في إثيوبيا المكتوبة باللغة الجعزية والسبئية. ولعل العامل المهيمن هوتجارة المرور التي زادت من أهمية التواصل بين شبه الجزيرة العربية وشرق إفريقيا أوما سماه طريق البخور ودرب الأربعين.

إن المدن التي نشأت على سواحل البحر الأحمر والبحر العربي كانت محطات للاستقرار وسهلت تيارات الهجرة بين المجالين. وقد أورد الباحث أسماء عدد منها كعدن وقنا وبيلول وزيلع وغيرها. وقد توسع الباحث في ذكر دور هذه المدن في تكثيف التواصل الحضاري والتبادل التجاري وفي استقطاب الهجرات اليمنية إلى شرق إفريقيا.

مقررا الندوة:

محمد فتحة وعبد الحفيظ الطبايلي



المحور الأول

وحدة اللغة والأصل



الصلات الحضارية والثقافية

بين اليمن والمستوطنات الحضرية في شرق أفريقيا

عبده علي عثمان

جامعة صنعاء

إن تشابه السمات والتجارب الحضارية لمجتمعات البحر الأحمر عبر مراحل تاريخية مختلفة لا تنم عن أهمية المكان فحسب ولكنها تعكس أيضاً انتشار النماذج والعلاقات الحضارية لجماعات المحليات وخاصة في ميدان التجارة والزراعة والعلاقات الدينية وأنماط الحياة الاجتماعية للسكان.إن تشابه أسماء المدن والأماكن والجبال والوديان والآبار والأسماء المدنية وأسماء القبائل ليس صدفة ولكنها تدل على العلاقات الحضارية المتبادلة التي تكونت بين مجتمعات البحر الأحمر خلال فترات تاريخية طويلة ؛ فالمدن التي تكونت قبل الإسلام والمدن التي ازدهرت أيضاً بعد ظهوره كانت محطات تجارية هامة على سواحل البحر الأحمر. وكانت هذه المدن تقوم بوظائف اقتصادية هامة في تجارة الترانزيت بين مجتمعات الجزيرة العربية من ناحية وبين مجتمعات شرق أفريقيا من ناحية أخرى. إضافة إلى بعض البلدان الأخرى التي نشأت معها علاقات تجارية في الشرق وفي الغرب أذكر منها الصين والهند ومصر واليونان.

وقد مثلت هذه المدن التي نشأت على سواحل البحر الأحمر والبحر العربي مجتمعات سكانية مستقرة وظهرت تيارات متزايدة للهجرات البشرية من جنوب الجزيرة العربية إلى شرق أفريقيا وكذلك من السواحل الأفريقية إلى جنوب الجزيرة العربية ذاتها.ومن المدن التي ازدهرت قبل الإسلام مدينة السوا ومدينة عدن وميناء قنا على السواحل اليمنية. كما ازدهرت عدد من المدن على الساحل الإفريقي المقابل ومنها مدينة بيلول ، زيلع ، ثم معدر

رحيتا، وعد، تاجوري، طيعووديري على السواحل الأفريقية.[1]

كما تطورت بعض المدن الأخرى في الفترة الإسلامية ومنها مدينة زبيد وعدن ومدينة سواكن في السودان، وقد استمرت هذه المدن بمثابة الشريان الذي يربط خطوط التجارة والصلات الحضارية بين السكان وتواصلهم على سواحل البحر الأحمر والجزيرة العربية وقد أسهم في ذلك أيضاً مواسم الحج إلى مكة والكعبة المشرفة.ويذكر بعض المؤرخين الأثيوبيين ان الصلات التي تكونت بين المهاجرين اليمنيين والأثيوبيين تشبه تأثير اليونانيين على الرومان عبر الصلات الحضارية أكثر من أي عوامل أخرى.[2]

هذا ويشير بعض المؤرخين أيضاً أن الصلات والعلاقات التي تكونت بين اليمن والساحل العفري قديمة ومستمرة وقد اتسمت الصلات بين المنطقة العفرية وبين المعافر وأهل تهامة بالديمومة وأن العوامل الطاردة من اليمن قد ساعدت على هجرة اليمنيين إلى الجانب العفري من البحر الأحمر. هذا بالإضافة إلى العوامل الجاذبة لليمنيين إلى المنطقة العفرية وبقية مناطق شرق أفريقيا.[3]

وبالإشارة إلى هذه العلاقات يذكر صاحب كتاب Periplus بأن ميناء المخا Muza كان يزدحم بمالكي السفن والبحارة وفيه حركة تجارية نشطة. وأن العرب كانوا يتاجرون مع "ساحل الجانب البعيد" The far- side cost (وتشمل السواحل العفرية والصومالية وسواحل كينيا وزنجبار)، كما يذكر أن الربان العرب (اليمانية) كانوا يترددون على هذه الموانئ ويتحدثون لغة الأهالي ويتزاوجون منهم. وتشير بعض المصادر إلى أ ن هناك أربعة أسواق تجارية هي سوق الشحر، وسوق عدن، وسوق صنعاء، وسوق رابعة حضرموت. هنا كما أضاف المؤرخ الهمداني إلى أسواق العرب القديمة أسواقا أخرى مثل سوق الجند

1 - الشامي، جمال الدين، وابنه هاشم جمال الشامي، المنهل في تاريخ وأخبار العفر(الدنكال)، القاهرة، 1997.

2 - سلاسي، سرجو، تاريخ أثيوبيا، 1972.

3 - الشامي، المنهل.

وسوق نجران، وكانت هذه الأسواق لها علاقات تجارية مع سواحل أفريقيا والهند وشمال الجزيرة العربية.[1]

ومن المعروف أن لقريش رحلتان وهما رحلة الشتاء إلى بلاد اليمن والحبشة ورحلة الصيف إلى بلاد الشام ومنهاالى العراق، وكانت أكثر هذه الأسواق ذات طبيعة مختلطة نظراً لموقعها الجغرافي ووضعها على ساحل البحر مثل عدن وصحار ودبا (في عمان)، وفيها يجتمع تجار الحبشة والهند والصين وفارس. وكان يغلب عليها الطابع التجاري أكثر من تأثير السمات المحلية، ويرجع ذلك إلى ترابط المصالح المشتركة والعلاقات الحضارية خاصة إذا أخذ في الاعتبار أن الحضارات تتعاون بحسب ما يقدم للإنسان من الأمان والكفاية والاطمئنان والتفاهم، وأن الحضارة هي ثمرة أي جهود يقوم بها الإنسان لتحسين ظروف حياته وأن مقياس الحضارة هومدى ذلك التحسن مادياً ومعنوياً.[2]

ومن الملاحظ أيضاً أن تجارة القوافل كان لها دورها الحضاري في فترات تاريخية مختلفة وخاصة في ازدهار الأسواق التجارية والمواني التي نشأت على سواحل البحر الأحمر وارتباطها بخطوط التجارة البحرية في الجزيرة وخطوط القوافل التجارية الأخرى في أفريقيا. ومن المعروف أن طريق القوافل في الجزيرة العربية كانت في الأساس الطريق الذي أشتهر بإسم طريق البخور، حيث كانت تجمع المنتجات العربية من سواحل حضرموت وبلاد قتبان وسبأ، إضافة إلى السلع التي كانت تصل إلى اليمن عن طريق البحرين من الحبشة والهند. وكانت تتحرك القوافل شمالاً إلى أرض الجوف ثم نجران ومن نجران يتفرع هذا الطريق ليتوجه نحوالشمال الشرقي ماراً بوادي الدواسر عند قرية القاوومنها إلى الافلاج مروراً بمنطقة الخرج الوفيرة بالمياه، ثم شرقاً إلى اليمامة وهجر، ومنها على سواحل الخليج تتجه شمالاً إلى وادي الرافدين ثم بلاد الشام.[3] أما طريق البخور الرئيسية فتواصل مسيرها شمالاً إلى يثرب

1- إبراهيم، محمد كريم، أسواق اليمن التجارية حتى ظهور الدعوة الإسلامية. اليمن، عدد(17) العام 2003، عدن، عدن.

2 - مؤنس، حسين، الحضارة. سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1978، 53، 55.

3 - الأنصاري، عبد الرحمن، قرية الفاو، جامعة الرياض، 1982.

ومن يثرب يمر بواحة العلا (ديدان) ثم مدائن صالح (الحجر). ثم يخرج طريق فرعي نحوالشمال الشرقي ليذهب إلى تيماء ومنها إلى دومة الجندل لينتهي في لاأسواق العراقية.أما الطريق الرئيسي فيواصل مسيره نحوالشمال ليصل إلى البتراء وهي النافذة الرئيسية لتجارة العرب ومحطة كبيرة لقوافلهم.[1] وتذكر بعض المصادر التاريخية أن كثيراً من هذه الخطوط البرية بقيت نشيطة إلى صدر الإسلام.

ومن أهم طرق القوافل البرية التي كانت تتصل بمناطق البحر الأحمر درب الأربعين أي طريق الأربعين يوماً وهوأحد الطرق التي كانت حلقة الاتصال التجاري والحضاري والتي عبر الإسلام بها إلى القارة والتي بواسطتها سارت قوافل الحجاج من غرب القارة إلى سواحل البحر الأحمر الغربية والشرقية لأداء فريضة الحج. وقد ازدهر درب الأربعين في مرحلة ازدهار الممالك الاسلامية في أفريقيا ومنها سلطنة دارفور الاسلامية (في القرن السابع عشر) وقد احتلت هذه السلطنة مكاناً مرموقاً بين الممالك الاسلامية في بلاد السودان الغربية والأوسط والشرقي أي المنطقة الممتدة من البحر الأحمر شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً وبين الصحراء الكبرى في الشمال والغابات الاستوائية في الجنوب.[2] وقد قدر طول درب الأربعين بحوالي 1117 ميلاً (وهي المسافة من الفاشر في دارفور إلى أسيوط) وكان درب الأربعين يمتلىءُ بالقوافل التجارية وكان يصل متوسط حجم القافلة حوالي 500 جمل، وبعض الأحوال يصل إلى 2000 جمل[3]. وتذكر بعض المصادر أن هذه القوافل وهي متجهة شمالاً كانت تحمل العاج وقرن الخرتيت وريش النعام والصمغ والعرديب والأبنوس بالإضافة إلى الجمال. ثم تعود القوافل إلى دارفور محملة بالعنبر والخرز. والأحجار الكريمة والفضة والحلي والأقمشة والسيوف والمرايا والكحل والأسلحة النارية والبن والخرز والأحذية والبهارات

---

1 - دياب، أحمد إبراهيم وآخرون، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن (19). بغداد، 1984، 107.

2 - المرجع نفسه، 109.

3 - المرجع نفسه، 115.

وورق الكتابة والصابون [1]. ولعل أقدم الطرق أيضاً التي كانت ترتبط بدارفور بالخارج هوالذي كان يبدأ من أقاصي بلدان السودان الغربية ماراً بيونووداي ثم بدارفور ومملكة الفونج إلى البحر الأحمر وموانيه الغربية ثم إلى الحجاز وهوطريق الحج.[2]

الصلات الدينية والثقافية بين مجتمعات البحر الأحمر :

لا شك أن الظروف الطبيعية للبحر الأحمر سهلت وسائل التواصل الحضاري والتجاري وبعض المصادر تقيس البحر الأحمر من مسافة 140كم شمال جزيرة ميون، ورأي آخر يبدأ من الخط الموازي لحصن مراد في اليمني ورأس سيان في أفريقيا، وذلك يضم باب المندب وأجزاء منه على البحر الأحمر. ويمتد البحر الأحمر طولاً إلى 2000 كم أي 1380 ميلاً بحرياً ومتوسط عمق 490 متراً، كما أن عرض البحر الأحمر في المتوسط يصل إلى 240 كم وأضيقها يقع عند مضيق باب المندب الذي يبلغ عرض البحر فيه من الشاطئ الشرقي إلى الغربي نحو32 كيلومترا.

ويعيش في البحر الأحمر ما يزيد عن 300 نوع من الأسماك المختلفة الصالحة للاستهلاك البشري والحيواني. كما أن البحر الأحمر غني بثرواته من الأصداف وذوات المحار كما أن الحيوانات المرجانية منتشرة بكثرة [3]؛ والجدير بالذكر أن هذه السمات للبحر الأحمر قد سهلت التواصل بين المجتمعات المحيطة في مختلف المجالات المادية والثقافية بما في ذلك التأثيرات الدينية.ومن المعروف أن القبائل والممالك اليمنية كانت بشكل عام تعبد في العصور القديمة القمر والشمس أوالزهرة، وكانت قبائل حضرموت تطلق على إله القمر (سين) وكان الأوسانيون والمعينيون يطلقون عليه "ود" في حين كان السبئيون يطلقون على إله القمر إسم "المقه".[4]

---

1 - المرجع نفسه، 115.

2 - دياب، تجارة القوافل، 114.

3 - بورجي، عبد الله، اليمن والبحر الأحمر، صنعاء، 1999، 12.

4 - الشامي، المنهل، 137.

كما نجد في المقابل أن التاريخ الشفهي للعفر يحدثنا عن ممارستهم لعبادة إله الليل في موقع يسمى ديري، وفيها الميناء والمدينة المشهورة في الساحل الغربي من مضيق باب المندب (في المنطقة العفرية) وقد لاحظت أثناء بعض الزيارات لمنطقة في آل عواض في اليمن وجود آثار معبد قديم يطلق عليه معبد الليل. وتشير بعض المصادر أن قوم العفر يطلق اسم "ال س" Al-sa على القمر. وبالنسبة لإله "المقه" أوإله القمر لدى السبئيين فهناك منطقة عفرية اسمها "مقه" أو"مقو" بالإضافة إلى أن هناك منطقة تسمى "مقه رسو" أي بلاد مقه. ومقه رسولا يبعد سوى عشرات الكيلومترات من الموقع المرجح للمدينة السبئية (Sabean city). كما أن لفظ "مقو" Mago تعني بالعفرية "دبن" أوقرض. أما لفظ نكرح عند السبئيين ترمز إلى إله الشمس، وكلمة نكرح أونك رح، تعني بالعفرية " إشرب من النبع "، ويحتمل معنى الإجلال أوالإكبار.

وقد ظهرت بعض الرسومات تحمل قرن الثور في الأراضي العرفية حيث شاهد الجيولوجي الإيطالي باولوفيناسا عام 1935 في منطقة مريوم بالقرب من ساحل البحر الأحمر "ظهور رسم" بقرنين طويلين ويحتمل أنها ترمز إلى القمر أي الإله المقه، كما هوالحال في الديانات العربية الجنوبية القديمة.[1] وتشير بعض المصادر أن هناك تواصل بين حضرموت وسقطره وشرق أفريقيا ويشير إلى ذلك كتاب الرفيق النافع في شرح منظومتي الملاح با طائع.ويذكر المؤرخون أن السفن الحضرمية تتجه إلى سيحوث بالمهرة ثم تتجه إلى الجنوب الغربي حتى تصل إلى جزيرة عبد الكوري ثم تأخذ مجراها حتى تحاذي الساحل الأفريقي.[2]

الآثار وأسماء الأماكن

تذكر بعض المصادر أن بين مئتين وثلاثمائة نقش عثر عليها في أثيوبيا ترجع إلى مرحلة 450 – 300 ق م. وهناك خمسين نقشا منها" كتبت باللغة الجعزية ؛ أما النقوش الباقية فقد كتبت باللغة السبئية. ومن المحتمل أن النقوش السبئية التي عثر عليها ث. بيتوم وهي كتابات

---

1 - الشامي، المنهل، 148.

2 - المرجع نفسه، 148.

غير واضحة تتشابه مع ما رآه بجانب أكسوم وتعود مثل هذه النقوش ايضاً إلى تلك المرحلة. ومن المحتمل أيضاً أن هذا الوقت كان يتزامن مع التأثير السبئي في المناطق المجاورة.[1]

ومن الغريب أيضاً أن المصريين استنتجوا من خلال بعض الكتابات بعض التأثيرات بين عدد من المناطق المجاورة للبحر الأحمر وباب المندب، وتذكر بعض المصادر أنهم أطلقوا تسمية بلاد بونت على المناطق التي تقع على جانبي مضيق باب المندب. وهناك إشارات أخرى تصف الرسوم الموجودة في دير البحري إلى جانب الحيوانات من بلاد بونت وهي رسوم لأبقار صغيرة بدون سنام. وهذه الأبقار لا توجد حتى الآن إلا في جزيرة سقطرى.[2] ومن أسماء الأماكن التي تذكرها بعض المصادر سهل كرب أوكرب بحري وتتشابه مع أسماء لمواضع من اليمن. وهذه المواضع موجودة في بلاد العفر في شرق أفريقيا. وهناك قرية أيضاً اسمها تنداحوTandaho. ومن المعروف أن اسم تندحه إحدى أودية جرش في اليمن. وقد ذكر المؤرخ الهمداني في صفة جزيرة العرب، بأن تندحه وهي العين من أودية جرش وفيها أعناب وآبار، وسكانها هم من الأزد.[3]

ومن حيث اللغات نجد أن هناك عدد من اللغات التي سادت على ظفتي البحر الأحمر ومنها اللغة اليمنية القديمة والأثيوبية والأمهرية. أما اللغة اليمنية فهي تشمل على المهرية، الشحرية (الحكلية) الحرسوسية والبطرحية وهي اللغات المنتشرة على شواطئ الجنوب الغربي في المهرة (اليمن) وظفار (عمان)، والسقطرية لغة سكان جزيرة سقطرى، وقد تنحدر من السبئية.[4]

ويشير المؤرخون أن هناك عدد من العناصر الهامة في تاريخ العلاقات اليمنية والأثيوبية؛ فالأثيوبيون واليمنيون كما يذهب المؤرخون يتنازعون (أسطورة) اعتبار أنفسهم ورثة الملكة

1 - ناومكين، سقطره، عدن، 30.

2 - المرجع نفسه، 19.

3 - الشامي، المنهل، 153.

4 - ناومكين، سقطره، 19.

بلقيس، كما يعتقد الأثيوبيون أن الملكة السبئية حكمت في أكسوم. وتروي مختلف أساطير الأدب الأثيوبي قصة سفرها في ضيافة الملك سليمان الحكيم. كما أن اليمنيين من جانبهم يعتبرون أن الملكة بلقيس حكمت أرض سبأ في اليمن. وعموماً فإن الأسطورة عن هذه الملكة تؤكد وشائج القرابة المتبادلة بين اليمنيين والأثيوبيين وكذلك صلاتهم القديمة مع السكان الساميين في الجزيرة العربية وفلسطين.[1] وتذهب بعض المصادر أن كثيراً من أهل اليمن، وخاصة من كان في تهائمها قد تحبشوا وإلى حد أن المرتادات الأغريقية القديمة تسم حمير بالأثيوبيين.[2]

من ناحية أخرى تذكر بعض المصادر أن العرب في جاهليتهم كانت تطلق الإسم "الأسود" على ساكني الجزيرة. مثل ما فعل الأتراك العثمانيون في القرن 16 حيث أقاموا ولاية اسموها ولاية الحبش وتضم عصب ومصوع وسواكن وجعلوا جده قاعدة لها.[3] وتشير بعض المصادر أن الحبشة لفظة يقصد بها القوم الذين اصطلحت على إطلاق هذا الاسم عليهم كما تعني كذلك الأرض التي يقطنها هؤلاء القوم. ويقال أن الجذر (ح ب ش) يفيد الاختلاط. وكل قوم لا ينتمون إلى جد واحد فهم حبشة وحبشان وأحبوش. وهناك تشابه بين أسماء الأماكن من أرض اليمن وأرض الحبشة، ويقال أن (حبشت) هي هضاب مرتفعة في بلاد المهرة. وقد نزح قسم كبير من ساكني (حبشت) إلى تهامه واستقروا فيها حيناً من الزمن، ثم قطعوا بحر القلزم واستقروا في الضفة الغربية للبحر الأحمر منفصلين من منطقة موزع.[4] ولعل مثل هذه المعلومات تحتاج إلى مزيد من الدراسات والشواهد التاريخية. ومع ذلك فهناك بعض الشواهد الثقافية والأنثروبيولوجية التي يمكن تجسد أمامنا العلاقات الحضارية بين اليمن ومجتمعات شرق أفريقيا وخاصة العادات والموسيقى والأزياء ولون البشرة واللهجات

---

1 - ناومكين، سقطره، 29.

2 - يذكر جعفر الظفاري أن هجرة الصحابة إلى أرض "الحبشة" في تهامة اليمن. أنظر: مجلة جامعة عدن (17)، سنة 2003، 152.

3 - المرجع نفسه، 153.

4 - المرجع نفسه، 152.

والمساكن وغيرها من السمات الثقافية.

أسماء المدن

هناك عدد من المدن على سواحل البحر الأحمر والتي نشأت بينها علاقات تجارية وحضارية خلال فترات مختلفة من التاريخ. ويمكن أن نذكر منها على الساحل الأفريقي مدينة زيلع، عصب، وبيلول، معدر، رحيتا، تاجوري، وبرعصولي، وطيعوومرسي فاطمة وحيو(أبح) وجيبوتي. وبعض هذه المدن قديمة وبعضها حديثة العهد مثل عصب وجيبوتي وطيعوومرسى فاطمة. وتعتبر زيلع مدينة عفرية قديمة وكانت من أحد مراكز إمارة عدال العفرية وبعد خروج الدولة المصرية منها كانت أغلب سكانها من الصومال في القرن التاسع عشر. وليس زيلع جزيرة كما توهم الهمداني إنما هي الميناء الأول للحبشة بعد إندثار ميناء عدول وتقع اليوم في الصومال بعد أن انتزعها الإنجليز وأدمجوها فيما سمي حينه الصومال البريطاني.وقد أقيمت أول دولة إسلامية في الحبشة في إقليم زيلع وهي مدخل أهل اليمن إلى أرض الحبشة.[1]

أما جيبوتي فقد نشأ فيها الميناء في القرن 19 والمقيمون فيها من العفر واليمنيين، واليمنيون فيها ملاك وأصحاب تجارة. وفي بداية القرن العشرين كانت السفن العفرية من بيلول وبرعصولي ومعدر وتاجوري تنقل البضائع بين عدن وجيبوتي أوبين جيبوتي وبعض أجزاء اليمن.[2] ومدينة عصب فهي مدينة عفرية تشبه في سوقها وتخيلها إحدى مدائن اليمن وكان يسكنها عدد من اليمنيين الذين انتقلوا إليها من البلاد المقابلة في تهامة وتجارتها في الغالب في يد العرب النازلين فيها قديماً وحديثاً وذلك حتى العقد الخامس من القرن العشرين.

ومن المدن التاريخية الهامة ميناء ديرى Deire وتشير بعض المصادر أنه يبعد عن إمارة (جبا) بالمعافر بحوالي 80 ميلاً. وتذكر بعض المصادر أن مضيق باب المندب تبعد عنه ميناء ديرى بحوالي 10 كيلومترات فقط. ويرجح البعض أن ميناء ديرى في الجانب العفري ربما

---

1 - الظفاري، 193.

2 - الشامي، المتهل، 440.

تكون أقدم من Acila في الجانب اليمني. ويمكن الإشارة في أن مدينة ديرى العفرية في الساحل الغربي من باب المندب ربما عاصرت بداية مملكة معين (1400 ق.م).[1] وفي مدينة برعصولي تسكن قبيلة من قبائل الشام (هثيم) من شمال الجزيرة العربية وقد انتقلت هذه القبيلة من مدينة (ضبا) قرب وادي عينونه من شمال الحجاز. ونزلوا في جزيرة (تلا) ومنها إلى دهلك وبرعصولي وعصب. ويقال أن من أسباب انتقالهم من الحجاز هوظلم القبائل العفرية التي كانت تسيطر على أموالهم ومواشيهم وما يكسبونه من البحر، وهم يعملون في صيد السمك والصدف.[2]

أما مدينة تاجوري فإن أهاليها يعملون في البحر كما يعرفون أعمال البر ويقال أنها عمرت في القرون الوسطى، كما ذكرت في كتاب المغازي. ويذكر أنها المدينة الوحيدة التي تعرف العوائد في الأحكام الشرعية (قبل الاحتلال الفرنسي وحتى بداية القرن 20) وهي مدينة العلماء ورواد القضاء ومأوى التجار. وفيها آثار آبار وقبور ومساجد ومزارع تدل على أنها كانت عامرة وأهم قبائلها (عد علي وحسوبا وعديتو).[3] وتذكر المصادر أن (طيعو) من المدن العفرية وتشبه مدن اليمن الساحلية مثل (ذباب) عند الشيخ سعيد وسكانها من أخلاط البدووهاجروا إليها من البادية وتحضروا فيها في أوائل القرن 14 الهجري وكانوا يصيدون (اللخم) أي قروش البحر ويصنعون الشباك من خيوط يشترونها من أسواق عدن. ويقال أنهم تعلموا الصنعة من قبائل الحكم في ذباب والمخا وباب المندب.[4] أما مدينة (عد) فتسكنها قبيلة (عدولا) وهم من أقدم ملاحيها، وكانت سفنهم تسافر إلى عدن والشحر والمكلا وإلى شواطئ اليمن الأخرى مثل المخا والحديدة. وهم يصيدون صغار الحوت (الوزف). وكان له رواج في أسواق عدن وشرق أفريقيا، وفي أوربا يستخدم في تسميد الأطيان وعلف الدواب.[5]

---

1 - الشامي، المنهل، 109.

2 - المرجع نفسه، 442.

3 - المرجع نفسه، 445.

4 - المرجع نفسه، 441.

5 - المرجع نفسه، 441.

ومن أهم المدن في الحبشة بيلول وهي ميناء الحبشة قبل (أبخ Obokh) والطريق إلى الحج ومدينة التجار وكانت مورد الأسلحة والذخائر إلى الحبشة إلى أن قضت على أهميتها مدينة عصب ، ثم أصبحت طريق للقوافل في الخمسينيات من القرن العشرين إلى عصب. وحول المدينة غابات من شجر الدوم وكانت تصدر منها كميات إلى مصوع وعدن وكانت معظم هذه المدن المذكورة تربطها علاقات تجارية وحضارية بالمدن اليمنية في السواحل الشرقية من البحر الأحمر وذلك في فترات تاريخية مختلفة.

علاقات الأنساب بين مدن السواحل الأفريقية والساحل اليمني

سبق أن ذكر أن من العفر من ينتسب إلى الجماعات العربية منذ القدم ، وقد ذكر الشيخ جمال الدين الشامي في كتابه المنهل في تاريخ وأخبار العفر الكثير من الشواهد والمعلومات وأكثر ما ذكر في كتب الأنساب مثل كتاب الفقيه أحمد طاهر الصومالي في نسب عماره (اسماعيل الجبرتي) وما ورد لأحد علماء (كبرتو) من قبيله حرلا العفرية في كتاب " مغازي موديتو" ، وكتاب صلاح الدين الحضرمي في نسب القبائل الحضرمية ، وكذلك ما تبين في نسب عماره (حذ الماحس) يوسف اليمني وغير ذلك من قبائل شتى.[1] ومن أكبر القبائل العفرية قبيلة داهميلا ، وهي كما تذكر المصادر قبيلة عربية شأنها شأن قبيلة إيكالا وشأن المنحدرين من حذ الماحس (حفيد يوسف اليمني) وحسب التاريخ الشفوي العفري يعتبر قبيلة داهميلا قبيلة وحرلا العفرية من القرشيين من ذرية محمد بن عقيل بن أبي طالب القرشي.أما قبيلة تجرتوأوتقريتوفهم ينسبون إلى بني النجار الموجودين في الزيدية في اليمن ، وتوجد فخائذ من بني النجار في معدر ، وطيعووجزيرة بكع وجزر هواكل. وحول قبيلة الحضارم التي قطنت في بلاد العفر فهم ينحدرون من قبيلة حضرمية ويتصل نسبهم إلى وائل بن حجر بن ربيعه بن وائل الحضرمي. وينزل المنحدرون من هذه القبائل في تاجوري وفي هواش ومعدر وكذلك في سديحا عبلا وفي أوسا وبوري. أما قبيلة حسوبا فهي تسكن في تاجوري. ومن العفر من يقول أن أفراد هذه القبيلة رحلوا من اليمن إلى مصوع ومنها إلى

---

1 - الشامي ، المنهل ، 468.

منطقة تاجوري.

وبالمثل فإن عائلة بني الأهدل فقد نزحت إلى المنطقة العفرية قبل 200 سنه تقريباً وهي متواجدة في شبه جزيرة بوري وعصب وينحدرون من قبائل الأهدل في تهامه اليمن. ورجالهم معروفون بالعلم والورع. ومن الأنساب المعروفين التي هاجرت إلى بلاد العفر قبيلة بلوسوى Balou suwa وهي قبيلة جاءت من اليمن (حسب التاريخ الشفوي العفري) حيث قدم أفرادها من الساحل الغربي من باب المندب جنوب عصب ثم توغلوا بعد فترة إلى منطقة سوى Suwa جنوب غرب عِد، وتقيم أفراد هذه القبيلة في شبه جزيرة بوري وبدا وساموتي ودعكه.[1]

ومعظم هذه الجماعات القبلية أتت إلى المنطقة العفرية بعد ظهور رسالة الإسلام وذلك بعد فترة من القرن السابع الميلادي. ولكن هناك مجموعة من القبائل العفرية ربما هاجرت من الجزيرة العربية قبل آلاف السنين والذين ميزهم صاحب كتاب المنهل تاريخ وأخبار العفر بمصطلح الكوشيين العفر الأصليين. وقد هاجر هؤلاء حسب المصادر التاريخية من حضرموت وساحل تهامه وممالك اليمن القديمة في مرحلة المعينيين والسبئيين والكوشيين. ربما كان الجزء الأكبر من هؤلاء قد عبروا باب المندب إلى الجانب الغربي قبل ثلاث آلاف السنين قبل الميلاد وحتى القرن الثالث بعد الميلاد.

وتتشابه العديد من الأماكن والقبائل اليمنية القديمة التي وجدت في سقطره وفي الجزر اليمنية وبعض مناطق اليمن مع بعض أسماء قبائل الكوشيين العفر القدماء وبعض الأسماء الموجودة في شرق أفريقيا. ومثال ذلك في اليمن دوكم، دوبعه أو(دبع)، كسمه (من أكسوم) والنجيشة (من نجاشي)، و(بلعوسوى) وتشبه اسم السوى في الحجرية، وقبيلة (مقو) ولعله اسم يشبه (المقه) وهوإله القمر عند اليمنيين.

وفي ختام هذه الورقة يمكن التأكيد أن الهجرات اليمنية قبل وبعد الأسلام الى شرق أفريقيا كانت عاملا مهما في التواصل الحضاري والثقافي وفي نشر الأسلام، أما ظواهر

---

1 – الشامي، المنهل، 502.

الأستمرارية في الهجرات اليمنية الحديثة فقد تميزت بهجرة العمل وقد بدأت في أواخر القرن 19 وأوائل القرن العشرين وقد أرتبطت بشكل مباشر في نظر بعض الباحثين بالتواجد الغربي على سواحل شرق أفريقيا.[1] وخاصة التواجد الإيطالي والفرنسي والبريطاني.ويردد البعض أن هجرة اليمنيين كانت ولم تزل حقيقة كبرى في حياة اليمنيين قديما وحديثا وحتى يمكن القول بأن الأنسان اليمني قد أعتاد الهجرة مثلما أعتاد النهر الجريان. ويلاحظ احد الباحثين ان الهجرة بهذا التفسير كأنها خاصة طبيعية وليست أجتماعية. اذ أن الهجرة الحديثة منقطعة الصلة بتلك الهجرات القديمة ولا توجد صلة بين هجرة اليمنيين أيام أنهيار السد وفي عصر الفتوحات الأسلامية وبين الهجرة الحديثة.[2]

---

1 - القصير، أحمد، شرخ في بنية الوهم، الهجرة والتحول في اليمن، دار ثابت، 1990، 19.

2 - المرجع نفسه، 19.



في الأسماء الجغرافية – التاريخية ومداولاتها

نموذج: التفاعل البشري بين عرب اليمن والشام وسكان الجناح العربي الأفريقي عبر العصور

د. محمد محفل

1 - المقدمة

تعرضت بُلدانُ الشمال الأفريقي ولاسيما المغرب العربي للمحنة، منذ سقوط غرناطة (1492). فالغارات والجوائح الاسبانية - البرتغالية، وما ذكر حسن الوزّان[1] Leo Africanus ، وسبته[2] ومليلة وغيرها إلا شواهد على ما نقول - ثم عدوان الاستعمار الأوروبي منذ مطلع القرن التاسع عشر - بعد حملة نابليون بونابرت على مصر في نهاية القرن الثامن عشر - بعمليات وحملات احتلال الجزائر منذ عام 1837، فدور تونس (تحت الحماية بموجب معاهدة Bardo باردو1881)، قبل المملكة المغربية (1912)، والاحتياج الإيطالي لليبية في نفس العام... وقد رافق كلَّ ذلك، كما نعلم، دورُ عمليات "الفرنسة"[3] "وتلهيج"

1- وُلد حسن الوزّان في غرناطة، ما بين عامي (878 هـ / 1489م – و 884 هـ / 1495م) على قول المستشرق الفرنسي Massignon ودرس في (جامعة القرويين) العريقة، في فاس، (تأسست في القرن 3 هـ/9م). وكان قد بلغ الثلاثين من عمره حين وقع أسيراً في يد قراصنة أوروبيين قادوه إلى ميناء نابولي ومن هناك إلى روما، حيث أهدوه إلى البابا، الذي عمّده، باسم (لاون الأفريقي)؛ ظلّ في الاسر حوالي (اثني عشر سنة). وعلى الأرجح، وضع الوزّان كتابه (وصف أفريقية) مباشرة بالايطالية اعتماداً على مذكراته العربية ولا نعرف حالياً إلا النص الايطالي. ونعتمد الترجمة العربية للدكتور عبدالرحمن حميدة، وصف أفريقية، مراجعة د. علي عبدالواحد وافي، جامعة محمد بن سعود الاسلامية، الرياض 1399 هجري.

2- تقع سبته على مضيق جبل طارق المتوسطي شرقاً مقابل طنجة غرباً، أسسها الكنعانيون مع قادش (الاسبانية) وعتيقة وحضرموت وقرطاجة (قرت حدشت) اعتباراً من القرن الثاني عشر (ق.م).

3- الفرنسة: محاولة تحويل سكان المغرب العربي لغوياً إلى ناطقين باللغة الفرنسية مع محولة جعل البربرية بكتابتها اللاتينية كبديل عن العربية في اللغة والكتابة... وكل من له علم بالموضوع يدرك فحوى كلامنا،

العربية و"التبشير المسيحي"[2] وإثارة النعرات "المنهجية العرقية"[3] الخ...

نلاحظ من العنوان المقترح للندوة ذكر بلاد الشام فقط مع اليمن في جنوب شبه الجزيرة العربية، ولنا على ذلك ملاحظات :

أولاً :

لا يمكن فصل تاريخ بلاد الشام عبر العصور لاسيما في أجزئها الشرقية عن العراق (بلاد الرافدين)، اعتباراً من الألف الخامس (ق.م)، وكيف نسقط التفاعل الحضاري بين حضارات (العصر الحجري قبل الفخاري P.P.N) بأدواره المختلفة C/B/A/ الخ...، ثم الكتابة المسمارية المقطعية وانتشارها في بلاد الشام انطلاقاً من الكتابة المسمارية المقطعية السومرية، والتي نجد (رُقُمَتها / ألواحها) بعشرات الألوف في ماري (تل الحريري) وإبلا (تل مرديخ)، وفي آلالخ (تل عطشانة) الخ... طبعاً إضافة لما عُثر عليه في (تل العمارنة) المصرية (القرن 14 ق.م). ومتى كان لبلاد الشام والرافدين (العراق حالياً)، حدودٌ فاصلة مانعة قبل (سايكس – بيكو) بعد الحرب الكونية الأولى... وأين يقع (تل براك) الأثرى، حيث عثرنا على قصر (نارام سين) حفيد شاركون (سرجون الأكدي)، من القرن (21 ق.م)، ثم (تل ليلان / شخنة)، عاصمة العاهل الآشوري (شمشي أدد الأول القرن 19 ق.م)... ألا نجد الموقعين في الجزيرة الشامية الفراتية ؟! ومن أين انطلق الكديون والبابليون ومن أين انتقلوا

ولا مجال لضيق الزمان والمكان للمزيد .

1- التلهيج : بمعنى تشجيع ونشر اللهجات المحليّة الدارجة لتحلّ محل العربية الفصحى : عاميات تونسية. مما يسهل عمليات الدمج والإلحاق.

2- التبشير المسيحي : هذا الأمر لم نعرفه في المشرق العربي، إلا في حالات نادرة / شاذة وفي أمكنة محدودة / معزولة أما في المغرب فارتباط العروبة بالاسلام جذري وموغل في القدم ومن هنا نفهم وندرك دور (الكاردينال Lavigerie) وجمعية (الآباء البيض Congrégation Des Péres Blancs أما في المشرق العربي، فالدور الإيجابي للنصارى العرب معروفٌ قديماً وحديثاً، من المناذرة والغساسنة إلى (آل البستني وآل ناصيف وآل معلوف وآل شدياق) الخ ... فالموضوع سياسي وليس دينياً.

3- المذهبية العرقية : لتفريق العرب عن إخوانهم البربر/ المزيغ ... ولنا عودة إلى ذلك.

إلى بلاد الرافدين... وهنا نأتي إلى الملاحظة الثانية.

ثانياً:

نحن نعتقد، اعتماداً على مختل الدراسات المقارنة – في اللغة والدين والفولكلور وعلم النساب وسائر العلوم المساعدة للتاريخ، أن نظرية الهجرات البشرية التي أطلق عليها (الراهب/الكاهن النمساوي شلوتر) في نهاية القرن الثامن عشر أسم (الهجرات السامية) قد أصبحت بالية بل ولا علمية، فلم يكن هنالك هجرات بشرية منتظمة ومحدّدة في الزمان والمكان، بل جولانٌ دائم ومستمر، منذ الألف الخامس (ق.م)، ولا نحصر شبه الجزيرة العربية بما نعرفه حالياً في (المملكة العربية السعودية والجمهورية اليمنية والإمارات العربية... الخ)، بل نراها في حدودها القصوى، حيث جبال زاغروس وطوروس مع بلاد الرافدين والشام،... ومن هنا نقول أنه من الأفضل والمستحسن ألا نقتصر على ذكر اليمن والشام فقط، مع عدم إهمال الهجرات من جنوب الجزيرة العربية إلى الحبشة والسودان فمصر فالشمال الأفريقي، عبر مياه البحر الأحمر.

نرجو طرح الموضوع لتعديل عنوان الندوة، مع الموافقة على التعديل في عنوان دراستنا.

2- الموضوع المُشكل: ندرة المصادر وقلّة الوثائق المادية

كما نعلم، تنحصر مصادرنا الكتابية حتى يومنا هذا، بالنسبة إلى الجزيرة العربية، بحدودها السياسية الحالية، بنقوش القلم المسند اليمني (من سبأ إلى حمير) مع النقوش الثمودية واللحيانية والصفائية (قلنا صفائية لتمييزها عن الصفوية الفارسية) بمختلف خطوط المسند الجنوبي، ولا ننسى هنا دور الباحثين الأساتذة العرب الأجانب (بافقية والغول وبنستون وروبين الخ...)، ولكن يجب أن نعترف بأننا مازلنا في أول الطريق، فأقدمها لا يرقى إلى أبعد من القرن الثامن (ق.م) هذا بالنسبة إلى اليمن، أما في وسط شبه الجزيرة العربية وشمالها وجنوب سورية، فجاءت بعد ذلك بعدة قرون، بل أكثر من ذلك، فهي كما نُعْرِفُها حتى الآن، محدودة الجدوى والنفع بالنسبة لموضوع ندوتنا... طبعاً لدينا النسّابين والمؤرخين والجغرافيين العرب، ولكن نقع هنا بين الأسطورة والواقع الحقيقي... ثم لدينا بعض الكتّاب

الكلاسيكيين (بطليموس سترابون، آميانوس مرقليفوس الخ...) ولكن هنا أيضاً الجدوى محدودة... ويبقى لنا علم الآثار، وهنا أيضاً النتائج ضئيلة إذا ما قارناها بما تراكم من معلومات فائقة الهيمنة في بلاد الرافدين والشام ووادي النيل، منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى الآن. فبعض مناطق شبه الجزيرة العربية مازالت مجهولة الأعماق (أثرياً)، وبعضها الآخر شحيحة المعلومات، وما نعلمه حتى الآن محدود في الزمان والمكان... وكيف السبيل إلى الوصول إلى عالم الألف الخامس والرابع والثالث الخ... (ق.م)... هذا بالنسبة للجناح المشرقي الجنوبي (شبه الجزيرة العربية)...

أما بالنسبة للجناح العربي الأفريقي، لدينا بعض الكتابات اللوقبة وغيرها، ولكن أين هو(الكنز القرطاجي) بعد لعنة (سكيبيوالافريقي) Delenda Est Carthago (يجب تدمير قرطاجة).. أما بالنسبة للكيان العربي الأول في الشمال الأفريقي، فكما نعلم، تنحصر أخبارنا بمصدرين: أبن القوطية (ت257م) في "تاريخ افتتاح الأندلس"، طبعاً إضافة إلى بعض المعلومات في المصادر العربية المتأخرة، من أشهرها: ابن حيّان (5/4هـ/ 10 – 11م) في "المقتبس في تاريخ رجال الأندلس" وإبن عذاري المراكشي (ت 695 هـ/1295م) في "البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب"؛ والمقري التلمساني (ت1041هـ/1631م) في"نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"... وهنا أيضاً علم الآثار لا يسعفنا كثيراً بالنسبة للجناح العربي المغربي في الدوار الموغلة في القدم، اعتباراً من الألف الخامس ق.م. وما بعد، حتى مطلع الألف الأول، ما عدا ما نجده في الوثائق المصرية العتيقة. أما بالنسبة للأنواع والجناس البشرية لحضارات ما قبل التاريخ، في شمال أفريقية (الضبمانية والوهرانية والقفصية وغيرها) فليس لها مكانٌ في دراستنا هذه، ونتركها لغيرنا من علماء الإناسة (انثروبولوجية).

3-بعض الأسماء العربية الشرقية / المغربية والكلاسيكية والغربية

ونذكرها من الأقدم إلى الأحدث:

1- عند هوموروس نجد Λυβε'η (ليْبوِه Libye' ليبية) والمقصود بها المنطقة الممتدة من مصر حتى المحيط الظلسي. نجد المزيد حول الموضوع في المعجم اليوناني – الفرنسي

صفحة 1190 مادة: Bailly, Dictionnaire Greco-Francais (ΛυΒεα/ΛυΒε'η)

ثم نجد لدى هرودوتس[1] (الكتاب الثاني /32) ذكر ليبُوا مع (قورينة). وفيما بعد، نجد لدى الكاتب اللاتيني الجغرافي بلينيوس (القرن الأول م) في (التاريخ الطبيعي) أسماً يربط الليبيين بالمصريين Libyaegyptii.

2- بالنسبة لاسم البربر، يرى بعضهم أن الجذر عربي الأصل... أما نحن فنلتقي، بادئ ذي بدء، بذكر ما ادركنا » في المصادر القديمة اليونانية واللاتينية فالشرقية والعربية. لدى هرودوتس (الكتاب الثاني/ 57) لدينا فعل (بربريْرو) Βαρθρυ'ξω (iso) Barbrizo (υσω) (برْبْرِيْترو/ يْوْ) (تكلم بلغة غير واضحة، غامضة). وفيما بعد نجد لدى المؤرخ اليوناني (ثوميديدس 460 – 431ق.م)[2]، في تاريخه (حرب البلزيونسوس) النص التالي: ".. فكان ذلك (المقصود الحرب بين آثينة وسبارطة م.م) الاهتزاز الأكبر الذي زعزع سكينة العالم الإغريقي وبعض أصقاع البرابرة (Βαρθαρος بربـاروس)، بل سائر الجنس البشري"، المقصود بالبرابرة هنا (الفرس وشعوب آسية الصغرى والرافدين الخ...). (I.6)

ويضيف (ثوميديدس) في نفس المكان: ".. يمكننا أن نذكر أيضاً عديداً من الأمثلة تظهر أن الاغريق القدماء كانوا يعيشون كبرابرة اليوم Βαρθαρυχο'ς - Barbaricos - بربَاريكوس).

أما كسنوفون[3] Xe'nophon، فيقول في مؤلفه: "الهلنيات، الكتاب الخامس، الفصل

1- هرودوتس (480 ؟ ـ 425 ؟)، الشهير بأب التاريخ. يروي لنا اخبار الصراع الفارسي اليوناني خلال القرن الخامس (ق.م) وعلى الرغم أنه يخلط الأساطير بالواقع، يعتبر (تاريخه) كأفضل مصدر لمعرفة أحوال العالم القديم. زار عدة بلدان عربية.

2- مؤرخ يوناني وقائد سياسي / عسكري آثيني. له (تاريخ حرب البليوبو نسوس) التي اشترك فيها وارخها دون تحيز. لهذا يعتبر أصدق المؤرخين القدماء وأعمقهم.

3- كسنوفون (427 ؟ـ 355 ق.م) كاتب تاريخي وفيلسوف وقائد اثني. اشتهر بمؤلفه (أناباسيس / الصمود) (أو الرحلة) وفيه وصفُ سيره على رأس (10 آلاف محارب مرتزق من الفرات إلى البحر الأسود.

الثاني ، 35) : ".. أما إسمنياس فقد أتهم بأنه نصير البرابرة. ويذكر أيضاً في تصنيفه الشهير (الصمود Anabasis - Αυαθασυ`ς) (أناباسيس الكتاب الأول ، الفصل الخامس 6 ، 7) " مخيم قورش الاخميني " باسم (Barbaricos - Βαρθαρυκο'ς) (باريكوس). وفي عدّة أمكنة من مؤلفه (الصمود) يذكر البلاد الاجنبية باسم (برباروس Βαρθαρος) ولوكانت حضارية ، مقابلة مع (هلن Ελλημυ/ أي هلنية)، في (الكتاب الأول ، الفصل الثالث الخ...).

أما الكاتب والشاعر المسحي ايسخولوس (525 — 456 ق.م)[1] ، فيذكر في مسرحيته الشهيرة (الفرس بيت الشعر 187) ما يلي "كانتا شقيقتين سكنت الأولى في بلاد الإغريق ، بينما رمى القدرُ الثانية في الأرض البربرية" (المقصود هنا غير يونانية/غربية). وفي (بيت الشعر 337) يقول " وعلنا أن نعلم أنه بالنسبة لعدد السفن الحربية ، كان تعدادها (رقمها) لصالح البرابرة (المقصود هنا الفرس). وقد يأتي معنى (Barbaros - Βαρθαρος - برباروس) سوى (غريب ، هجين ، بدائي... وبتعبير آخر كل " من هوغير هلني هو(برباروس/بربري).

وكذلك الحال بالنسبة للمصادر اللاتينية ، فكل ما هوغير يوناني أولاتيني هو(بربري).

يجب القول أننا نجد جذراً فعلياً لكلمة (بربر) في اللغتين اليونانية واللاتينية. وكما نعلم ، أخذت كلمة (بربر) أحياناً دلالة معنى (أعجمي) فيما بعد في العربية ، كاليونانية واللاتينية. ما هوأصل الكلمة ؟ من الشرق أم من الغرب ، ورأينا أنها شائعة في المصادر الكلاسيكية منذ القرن الخامس (ق.م) أي قبل العربية الفصحى العدنانية بحوالي (12 أثنى عشر قرناً) ، علماً أننا نجدها أيضاً في الفارسية القديمة بنفس المعنى.

وكما نعلم ، كان للفرس الخمينيين علاقات مع العالم اليوناني منذ القرن الخامس (ق.م) ، لا سيّما خلال الصراع (الأخميني — اليوناني / الحروب الميدية — القرن الخامس

1- أيسخولوس : شاعر يوناني انصرف إلى الفن المسرحي ، فابدع في المأساة (التراجيدية)، حتى أصبح حقاً " أب الفن التمثيلي " بقوة خياله وعمق عاطفته الإنسانية . من روائعه المسرحية ، الفرس (معركة سلاميس)، (برمثيوس المقيد بالسلاسل) وآغا ممنون (الزعيم اليوناني الاسطوري لحرب طروادة) .

(ق.م)، فمن اقتبس عن الآخر... الفرس أوالأغريق ؟!

وكلمة (بربر)، التي أصبحت الشغل الشاغل حالياً لمغربنا العربي، ظهرت لدينا قديماً بعد ذكرها في المصادر اليونانية واللاتينية... كما رأينا لا تفيد معاني عرقية / جنسية، بل صفات حضارية / لغوية / اجتماعية الخ...

يقول جوزيف رنوJ. Reinaud:

Invasion Des Sarrasins En France En Savoie, En Piemont Et Dans La Suisse, Pendant Les Huitieme, Neuvieme Et Dixieme Siecle De Notre Terre, D'aprés Les Auteurs Chretiens Et Mahometans.

وقد صدر الكتاب بالعربية عن دار الحداثة بالتعاون مع ديوان المطبوعات العربية بالجزائر، الطبعة الأولى 1984) بعنوان: "الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرة في القرون الثامن والتاسع والعاشر للميلاد" تعريب وتعليق الحواشي وتقديم الدكتور إسماعيل العربي.

يقول (ج. رنو، صفحة 23): ان الرواة والمؤرخين الفرنجة أطلقوا أسم "البربر" على العرب لأنهم "ادخلوا إلى الأندلس عن طريق أفريقية الشمالية، حيث انضم إليهم العديد من المقاتلين الأفريقيين". ونحن نعلم أيضاً أن المصادر التي راحت تغير على تخوم الإمبراطورية الرومانية، قبل أن تجتاحها، في نهاية القرن الخامس للميلاد.

3- ومن الأسماء القديمة الغامضة في مدلولها وأصولها، أسم: مُوْر Maure، ومنها مورطانية، واسم موريسكوس Moriscos، العرب الذين ظلوا في أسبانية بعد سقوط غرناطة (1492)، قبل استبعادهم النهائي في القرن السابع عشر. ونجد الاسم مراراً لدى الكتاب اللاتين، لا سيما اعتباراً من صالوستيوس Sallustius (86 – 35 ق.م) في حديثه عن القائد الأفريقي النوميدي يوغورطا Jugurtha. فما هوأصل التسمية ومعناها؟

في المصادر الكلاسيكية القديمة (اليونانية)، نجد صدى للتسمية، اعتباراً من القرن الخامس (ق.م). ونجد أيضاً أسم (ΜαεRoεσσυα) (موروسيا) (الجزائر الغربية).

من المفيد ان نلفت الانتباه أن التسمية موجودة بشكل أوبآخر في المصادر الكنعانية (التوراتية) وفي السريانية وفي العربية فيما بعد. ففي (نشيد الانشاد 1/0) نجد نبات المر اليمني מ״ררע (موري)، وكذلك في (سفر الخروج 30/23) نجد (מר مر). ونجد في القدس القديمة جبل (موريا מוריּא). ثم ما هي علاقة المورين (المور) بالأمورين (الهكسوس) الذين دخلوا مصر في القرن الثامن عشر (ق.م). والاله (آمورو/ور) هواله الطقس والسماء لدى الأموريين ونجد للاشوريين علاقة أيضاً باسم الههم (آشور). وفي السريانية، لدينا: (مُورا/ المُرّ) النبات اليمني، طيب الرائحة مرّ الطعم (انظر: جبرائيل قوراحي الباب، قاموس سرياني – عربي، مطبعة ألف باء الديب، دمشق 1994، مادة طوْرْ، صفحة 691). وفي السريانية اليعقوبية نجد)مُورُو) وفي النسطورية (مُاْرًا) وفي المجموع المجزوم (مُوْر) وفي اسم التصغير (مارون) ومنها أسم مار (القديس / السيد) مارون.

4- ثم نأتي إلى أسم سارّاكِنُوس Sarracenus. يقول (ج. رِنُو) في كتابه المشار إليه أعلاه: ".. سنتحدث عن مختلف الشعوب التي اختلطت بالعرب، والذين أوشكوا أن – يُخضعوا أوروبا كلها لحكم القرآن، وأطلق أحياناً أسلافنا على هؤلاء الأقوام أسم "سارازن" وهوأسم مجهول الاشتقاق، ولكنه يُطلق على العرب الرحّل عادةً". ويضيف في نفس المرجع ص 209": ".. ولكن ما هوأصل اشتقاق كلمة سارازن.. ؟! أصل الكلمة من اللاتينية وهي مأخوذة من الإغريق (Sarracenus / Σαρακ ηνος) ساراكنوس وقد ظهرت لأول مرة في كتب المؤلفين الذين كانوا يكتبون في القرون الأولى للميلاد، وهي تُطلق على البدوالرُحَل، الذين كانوا يحتلون الجزيرة العربية ومنطقة الجزيرة بين دجلة والفرات.

ولقد ذهب الناس مذاهب شتى وأعربوا عن آراء كثيرة حول الأصل الذي اشتقت منه هذه الكلمة، ولكنه لا يوجد رأي اجتمع عليه أكثر الباحثين هوأن الكلمة مشتقة من الكلمة العربية " شرقي". والواقع، إن العرب الرُحل في الجزيرة الشامية وفي الجزيرة العربية كانوا يقعون على التخوم الشرقية للإمبراطورية الرومانية. أما رأي المسيحيين في العصور الوسطى

الذي يستند إلى القديس جيروم[1]، والذي يجعل كلمة (سارازان) مشتقة من اسم (سارة) زوجة ابرهيم، فهورأيٌ لا يستحق الوقوف عنده، حيث أن العرب لا تربطهم صلة بسارة أم إسحاق..".

نجد أسم (ساراكنوس)، إشارة إلى أقوام بلاد العرب الصخرية (بلاد الأنباط)، والتي اشتهرت لاحقاً باسم Provincia Arabia (الولاية العربية)، منذ أن ألحقها الإمبراطور الروماني (تريانوس Trajanus 52- 117م بالإمبراطورية الرومانية، نجد هذا الاسم لدى سترابون[2]، وبلينيوس[3]، المذكور سابقاً، وبطليموس[4] وفيما بعد لدى (أمياتوش مار قلينوس)[5]، ثم كما قلنا لدى القديس جيروم (في شروحاته التوراتية على (سفر اشعيا) وفي نفس الفترة تقريباً، نجد إشارة إلى الاسم لدى (سينيوس Synesios 370/ 144م.)، الفيلسوف الاسكندراني، أسقف (قورينة الليبية) قائلاً (ساراكنستي Σαρακηνυσζυ = على طريقة العرب).

أما في مصادرنا القديمة، نجد في (سفر الجامعة 7/50) (بلهجته التوراتية الكنعانية) جذر

1- من آباء وعلماء الكنيسة اللاتينية الرومانية (324 – 420م). ترجم الكتاب (العهد القديم) إلى اللغة اللاتينية المعروف باسم (VULGATA / الولجاتا = الشعبية). له دراسات وشروحات على العهد القديم / التوا\راة).

2- جغرافي يوناني (58 ق.م ؟ - 28 م) له كتاب (الجغرافية)، نجد فيه أخباراً عن بلاد العرب، لا نجدها لدى غيره من الكُتاب الكلاسيكيين.

3- بلينيوس الأكبر، قائد عسكري ومن علماء الطبيعة اللاتين، وله مساهمة جغرافية، صنّف موسوعة التاريخ الطبيعي H. N. من (37 سفراً).

4- Ptolemaios، وُلد في صعيد مصر (القرن الثاني م.). اشتهر بمعارفه الفلكية والجغرافية والرياضية. من مؤلفاته الموسوعة الجغرافية، والمجسطي (الأكبر)، وفيه القواعد لمعرفة إثبات الأوضاع الفلكية والأرضية بأدلتها التفصيلية. عرّبه عن اليونانية (حنين بن اسحق 810 – 873م). توفي قرب الاسكندرية في عام 167م.

5- اميانوس مارقليتوس (330؟ - 400) مؤرخ لاتيني تابع أخبار الإمبراطورية الرومانية، من حيث توقف إبن جلدته، المؤرخ (تاكيتوس 00؟ - 120 م.) في تاريخه.

(שרק/סרק سَرَق) بمعنى (شَرَق/ شرقت الشمس/ سَطَعَت/ لمعت)، كذلك في الآشورية (شاركو)، وفي السبئي (شَرَق) بنفس المعنى.

وكذلك (مَشْرِق) بمعنى الشرق، وصفة (شَرْقَن) للإله المُضيء، الشارق، وكذلك اسم قبيلة يمنية...

5- ولدينا اسم آخر يفيد معنى البدوالرُحّل وهونوميديا، من الأصل اليوناني (υoωας نوماس، υoωαςος نوماروس) (انظر معجم يوناني فرنسي Bailly، υoωας، صفحة 1331) وفي الفرنسية Nomades (القبائل العربية الرحل)، قبل ان يكتسب الاسم مدلولاً جغرافياً، في شمال أفريقية (ما بين بلاد قرطاجة وموريطانية). ونجد أصداءً للتسمية الجغرافية الأفريقية، في بلاد الشام، لا سيما في الكتابات الكلاسيكية (اليونانية / اللاتينية)، دلالةً على سكان البادية الشامية.

ونعود إلى "البربر" في عالمنا العربي، في اللغة والجغرافية:

أ. في اللغة: جاء في (اللسان / إبن منظور) في مادة (بَرَرَ) ".. والبربرة كَثْرة الكلام والجلبة باللسان، وقيل الصياح، ورجل بَرْبار، إذا كان كذلك، وقد بَرْبَرَ إذا هذى... والبربرة: الصوت وكلامٌ من غضب... وقد بَرْبَرَ فهوبربار... (انظر لمحات شيقة في كتاب الأستاذ محمد المختار العرباوي (البربر عرب قدامى)، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، الطبعة الأولى 1993، ص 219- 213.

ب. الجغرافية: نجد أسماء أماكن منتشرة في جنوب الجزيرة العربية وما جاورها من المناطق الأفريقية.

منها بَرْبَرَة: بلاد بين الحبشة والزنج تقع على ساحل البحر المتصل باليمن، ذكرها المسعودي في مروج الذهب ومعادن الجوهر (شرح الدكتور مفيد محمد قيمحة، دار الكتب العلمية، بيروت 1986، ج 1، صفحة 447). والهَمْداني، وعنه أخذ ياقوت الحموي في: معجم البلدان (بيروت 1965، ج 1، صفحة 369).

بحر بَرْبَرَة: وهوالخليج البربري (عدن) المسعودي (المصدر السابق، ج 1، ص. 106).

بربر: مدينة في الصومال.

جزيرة بَرْبَرِيّ: ذكرها الهمداني (صفحة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط3، صنعاء 1983، صفحة 93. وهي (سُقَطْرَى) القديمة، ولغة أهلها المهرية.

وادي بَرْبَرْ: ذكره علاّل الفاسي في: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي (لجنة نشر تراث زعيم التحرير، الرباط 1950، ط4، صفحة 9).

سوق بَرْبَرْ: وهي سوق كانت توجد بالفسطاط في مصر... الخ...

6- أمازيغ: من الأسماء القديمة في شمال أفريقية وتعني الكلمة: الرجل الحر، النبيل، الأصيل. (انظر دراسة جيدة ومفيدة للأمازيغ في (البربر، عرب قدامى. للأستاذ العرباوي، المذكور أعلاه ص 33 / 231).

4- وفي الملخّص والنتائج

1- ما رأينا أعلاه، كلمة (بربر) لا تدلّ على عنصر أوعرقٍ أوجنسٍ بعينه، بل كما وردت في المصادر الكلاسيكية القديمة تدل على كل ما هوأعجمي غريب، بدائي، عنيف الخ.

2- تظهر الدراسات اللغوية المقرنة صلاتٍ تشابه وقربى في اللغة والكتابة بين بعض اللهجات البربرية ولهجات شبه جزيرة العرب. وبين خط التيفناغ والقلم المسند اليمني بأشكاله المختلفة.

3- كما يقول (الحسن الوزّان)، لم يكن قلم التيفناغ معروفاً في عصره، (انظر وصف أفريقية، ص 79 الخ...)

4- لا نعتقد أن المقارنات العرقية (الاثنولوجية) بين ما وجدناه في المشرق العربي وما وُجد حتى يومنا هذا في شمال أفريقية، وترقى إلى العصور الحجرية: الوسيط والحديث، تفيدنا كثيراً لتأكيد أونفي أصول البربر / الامازيغ وعلاقتهم بمشرقنا العربي، ولا سيّما في

اليمن، للأسباب الوجيهة، التي أوردناها، في البند (2) (الموضوع المشكل وندرة المصادر وقلة الوثائق المادية).

5- محاولات الغرب الأوروبي في ميدان (صراع الحضارات) ما زالت قائمة: في القديم (تدميرقرطاجة) وما رأيناه منذ القرن التاسع عشر من محاولات "فرنسية" و"تلهيج العربية الفصحى" و"التبشير الديني" و"إثارة النعرات العرقية" الخ... والخطر جدّي ومستمر حتى يومنا هذا.

6- مما لا شك فيه أن اللقى الأثرية المغمورة حتى الآن في أعماق الأرض في المشرق العربي وفي مغربه قد تلقي أضواءً جديدة على موضوع العلاقات البشرية بين مشرقنا ومغربنا، في حال الكشف عنها.

مقاربات جينيالوجية

في اللغة والحراك السوسيو-ثقافي الأفرو-آسيوي

د. عبدالمنعم المحجوب

رئيس تحرير مجلة فضاءات- ليبيا

مدخل

في الورقة ثلاثة موجّهات يمكن ترتيبها كالآتي:

1- إن التآثر اللغوي والاجتماعي الأفروآسيوي كان وما زال ظاهرة لا تخلومنها مرحلة من مراحل التاريخ، بغض النظر عن سجلات هذه الظاهرة، ما حفظته الشواهد الأركيولوجية والأنثروبولوجية، وما لم تحفظه منها.

2- إن مسارات هذا التآثر، جيئة وذهاباً، من غرب أفريقيا إلى شرق وشمال شرق الجزيرة، لم تكن أحاديةً، ولا يمكن التسليم بنسقيّتها، استناداً إلى خضوعها لظروف متغيرة، متبدلة، منها ما هوبيئي، ومنها ما هواجتماعي وديني.

3- إن انعكاس فهم هذا التآثر على البحث العلمي في تاريخ الحضارات وفي اللغويات التاريخية على الأخص، يستند في أغلبه إلى قراءات من خارجه، وضعها ورسّخها غربيّون أومحليّون واصلوا نهجهم وساروا على خطاهم. والكثير هذه القراءات أنتج مسلّمات للبحث لم نستطع تجاوزها إلا مؤخراً، وأعتقد أننا يجب ألا نتوقف عن مساءلتها في ضوء ما نتوصل به من نتائج قد تعتبر خاطئةً وفقاً لمنطق البحث التقليدي.

أولاً: اللغة والحضارة

يعتقد كل شعب أن لغته تتميز عن لغات غيره من الشعوب، بكمالها، أوبقدسيتها، أوباستطاعتها استيعاب نصوص وآداب أكثر براعة، كما يعتقد أن غيره من الشعوب يظل أقلّ قدرة منه على امتلاك ناصية التعبير بالكلمات عن المعنوي واللامرئي والغائب.

والنظر إلى اللغة الأم ولغة الآخر على هذا النحو، هوجزء من مخيال وصفي عام يتمركز حول الذات، ويشي بتوضيع الآخر على أطراف مسارات التواصل، سالباً منه قدرته على الإسهام في تفعيل هذه المسارات، فالآخرون في مثل هذا الخطاب، القائم على نزع الاعتراف، تعوزهم على الدوام خصائص الاكتمال، وهم يتدرجّون من مرتبة أدنى تُنزَع عنهم فيها صفتهم البشرية، إلى مراتب أكثر اعتدالاً تصفهم بالتخلف أوالجهل. ومبدأ هذا الخطاب مازال يواصل اشتغاله إلى يوم الناس هذا، إلا أنه قديم قدم اكتشاف البشر لاختلاف ألسنتهم، ويمكننا التفكير في الكثير من الشواهد التي أنتجتها الحضارات كافةً، إلا أننا أحيلكم إلى بليني الأكبر الذي نقل عن هيرودوت أغرب ما يمكن أن يقرأه المرء في تاريخ معرفة الآخر، وأضاف إليه الأكثر غرابة و"إمحافاً".. يقول بلبني أن قبائل ليبية من سكان الأطلس لا لسان لها، وأنها "تهمهم" و"تومئ" كي تتمكن من التواصل، هناك بالطبع صور أخرى (مثل أن قبائل أخرى لا ترى أحلاماً في منامها) ولكن هذا الاقتباس يفي بالغرض.[1]

ومن أقدم الأمثلة على مبدأ سلب الاعتراف بالآخر، أن قدماء المصريين ميّزوا أنفسهم باعتباهم هم "الناس"، في مقابل الليبيين أوالآسيويين أوالأفارقة، فكلمة "أناس" كانت تعني المصريين وحدهم متى وردت، لا غيرهم. نحن "البشر" الذين لا يعوزهم شيء من الإنسانية، أم الآخرون فلا. كما أن كلمة "الأرض" لم تكن لتعني سوى أرض مصر نفسها.[2]

هكذا أطلق الإغريق كلمة *barbaros* على غيرهم من الشعوب التي لم يتصلوا لغوياً بها، وهي كلمة كانت تدلّ، قبل أن يجري وقفها على هذا المعنى، على العي وعدم استطاعة الكلام بطلاقة، المعنى الذي نكتشفه من مقارنة هذا اللفظ باللفظ اللاتيني *barbarus* الذي يدلّ على من يتمتم في الكلام. وكمثال حديث فإن الروس وصفوا الألمان بأنهم أصحاب الألسنة المعقودة أوالبكم.

لكن الأوصاف المصرية والإغريقية واللاتينية للغات الأغراب، لم تكن في الغالب

---

1 - أنظر: خشيم، علي فهمي، نصوص ليبية.

2 - فرانكفورت، ما قبل الفلسفة، 45 – 46.

تشمل أولئك الذين يهاجرون لينوطنوا في مصر أوأثينا أوروما، والشعور السائد لم يكن نوعاً من "الإكزنوفوبيا" أوكره الغريب، بل مسألة جغرافيا وعرف وعادة، فالذين "يسكنون مصر، دون تفريق في الأصل أواللون، ويتعلمون اللغة المصرية، ويتزيؤون بالملابس المحليّة، يُقبلون كجزء من "الناس" أيضاً. بل قد يبلغون مرتبة الملك- الإله، الذي يمتلك الشعب بأسره.[1]

كلمة "بربر"، إذن، لم يخترها الأمازيغيون أنفسهم، وهي في ذلك مثل كلمة سومر، التي أعتقد أن المصريين القدماء أطلقوها عليهم، بمعنى الحلفاء، من *su* أي الناس، البشر و*mer* أي الأصدقاء، وأرى أن بحث الأركيولوجيين عن هذه المدينة في العراق سينتهي بلا طائل، لأن سومر ليست سوى صفة لسكان المدن القديمة مثل أور وأوروك وشروباك وغيرها، دون أن يعني ذلك مكاناً بعينه.

لكننا بالاستفاضة في تأمل هذه الكلمة، يمكننا مقاربة مظهر من مظاهر التواصل اللغوي، وما أودّ الإشارة إليه هنا هوالعلاقة بين بربر وبابل (أو: باب إل *bab-el*). ويمكن تأثيلها سومرياً أيضاً. فالإبدال بين صوتي الراء واللام ظاهرة تسود المتوسط وجواره وما هو أبعد، فكأنما اللسان (بإطلاقه) قابل دائماً لإبدال الصوتين أحدهما بالآخر، بما يتوفّر له من تهيؤ اجتماعي وثقافي، وفي ذلك أمثلة عديدة لا تعدّ ولا تحصى، فـ*Barber* و*Babel* إذن هما هما. وللعرب في تأكيد هذه التسمية دور ولابد، لقد جعلوا بابل من بلبل، قيل بلبل الله ألسنتهم، أي أنشأ فيها الرطانة فلم يعد أحد يفهم أحداً، وذلك هوأصل التسمية "بربر"، ارتحل إلى اليونانية *Barbarous*.

أما العرب فإنهم جعلوا من الشعوب المحيطة بهم أصحاب رطانات غير مفهومة، فوصفوا الروم بالعجم، وهي كلمة تشترك في نفس الجذر مع الأعاجم، أي الحيوانات البكماء. وأنزلوا لغتهم منزلة مقدسة، فجعلوا لها أصلاً إلهياً، بها كلّم الله أول خلقه، وبها أنزل كتابه، وبها سيتكلم يوم القيامة، ولهم في وصفها وتبجيلها، ببيان تميّزها، مصنّفات كثيرة. كما جعلوا منها أصل اللغات، وهوما يشتركون فيه مع الطورانيين، واليهود، وغبرهم

---

1 - فرانكفورت، 46.

من الشعوب التي رأت في لغاتها أصولاً تفرعت عنها لغات الأرض. وهوتوجّه ميثي رفده البحث العلمي بالركون إلى أصل افتراضي كلما جيءَ إلى بحث التأثر اللغوي، كما في مثالي: الهندوأوروبية الأم، والسامية الأم.. فالقرابة بين اللغات أدت على الدوام إلى فرضية الأصل الغائب الذي حاول الجميع اكتشافه في لغتهم، وترجيح أمثلته وشواهده بالاعتماد على ثلاثة افتراضات ضمنية: الأول هوالأسبقية الزمنية، أي افتراض وجود لغة مكتملة النمو مؤهلة لأن تضفي تأثيرها على غيرها من اللغات، والثاني هو افتراض نسق أحادي الاتجاه يسمح بالتأثر أوالتأثير بين اللغات، لا التأثر المشترك. والثالث: هو قصْر العلاقة بين اللغات على المستويين المعجمي والصرْفي، أي ضمن حدود اللغوي فقط، دون التركيز على دور المعطيات الأنثروبولوجية والإثنية والمعتقدية والتاريخية في هذه العلاقة.

ثانياً: التأويل الميثي للغة

تأخذ اللغة لدى معظم الشعوب سمة الرمز الجمعي باعتبارها مكوّناً ميثياً ميّز شعباً ما عن سواه، أو أفرد لشعب ما استحقاقاً يُخَصّ به فترعاه الآلهة وتباركه، بينما تترك غيرهم من الأقوام يكدحون لينالوا أهليتهم بالعبودية بفعل منجز إنساني، بل أن بعضهم لُعنوا ولا سبيل أمامهم لنيل رضى الآلهة مهما بلغ منجزهم من إعجاز. في التوراة قامت الآلهة بالدفاع عن نفسها بأن شتّت البشر وبلبلت ألسنتهم كي تستطيع أن تهيمن عليهم إلى الأبد، بعد أن أصبح في إمكانهم أن يتكلموا "لساناً واحداً".

فالإنسان المقيّد إلى الأرض في علاقته بالسماء، وإلى لغته في علاقته بالآخر، يستطيع مضاهاة الآلهة بهذين الشرطين: الارتفاع ووحدة اللغة. فالارتفاع يعني المعرفة، لأنه يجعل الإنسان يطأ سكن الآلهة ويطّلع على معاشها ويكشف أسرارها، ووحدة اللغة تعني أن البشر جميعاً أصبحوا "واحداً" له القدرة على الخلق، لأن اللغة الواحدة هي التي تجمع الآلهة على اختلافها وخلانها، وتعطيها قدرةً أن تخلق.

والخلْق بالكلمة صورة متكررة في النصوص المقدسة، اليهودية والمسيحية والإسلامية، كما أن عهد الإله مع البشر، هوعهد لغوي، وهويشكّل أيضاً جزءاً من المشترك الميثي للشرق

الأدنى، ضمن مشتركات ميثية أخرى لعل أبرزها الخلق من فخار (صلصال)، أي من لوح الكتابة، بتحويل الكلمات (الروح) إلى أشياء (جسد)، فالصلصال أمام يد الإله هو جسد الإنسان، وأمام يد الإنسان هو جسد الكتابة.

وفكرة الخلق من صلصال، كما هي فكرةُ عهدِ الآلهة، اعتقاد يعود، ضمن معتقدات عديدة أخرى تتمحور حول اللغة والكتابة، إلى السومريين.

لقد كانت الكتابة في معتقدات الشرق القديم هي استظهار المقدّس، وكان الكاتب سيداً وهوالأقرب إلى الآلهة. كان أشوربانيبال يفتخر أن الآلهة وهبته "علم الكتابة"، ولكنه كان أيضاً يتمنى الأكثر: أن يقرأ "ألواح ما قبل الطوفان" التي لم يستطع فكّ رموزها، لأنه لم يكن مهيّأً لمعرفة سرّ التكوين، الذي يعني أيضاً سرّ الخلود، وهوامتياز وُهب لأوتنابشتيم وحده، وعجز حفيده غلغامش عن بلوغه ليعيش بقية عمره مقيّداً بشرط الموت كإنسان فان. أما مع اليونانيين فإن الكتابة ستتحول إلى فعل مدنّس، سيصبح الكاتب عبداً، وفعل الكتابة تحقير لا يليق بالسادة الأثينيين، ونستطيع بدءاً من أفلاطون أن نتحدث عن "الكتابة المدنّسة"، كما يقول جاك دريدا، ربما مع الفينيقيين في البحر المتوسط ستصبح الكتابة فعلاً إنسانياً، وشرطَ معرفةٍ، وتكتسب بعداً حسيّاً جديداً.

إن هذه المظاهر المتعددة، المتباينة، للغة والكتابة تؤشر على ضرورة تأويل قِدم تأثر وتواتر الألسن، باستظهار آلية هجراتها وتنقلاتها. مثلما هوالأمر بالنسبة لإعادة بناء تصور نظري عام لانتشار وتأثر اللغات تاريخياً. وقد كانت المهمة التي اضطلع بها كتابي (ما قبل اللغة) مبعث اعتراضات كثيرة، ولكن ما يعني الكثير بالنسبة لفرضيات هذا الكتاب، هوالقيام بما أعتبره خطوة أولى لبدء بحث جاد يُسقط عن نوازعه أصولاً تحكّمت طويلاً في تفكيرنا، أعني على وجه التحديد ما صنعته بنا الأسس الميثية في تناول مسألة اللسان واللغة.

لقد كان عملي في كتاب "ما قبل اللغة" يرتكز على تتبّع واستظهار التغيرات الصوتية (الفونيطيقية) التي أصابت سلسلة الألسن الشرقية. وخلصت فيه إلى أن العائلة الأفروآسيوية متحدّرة من السومرية، وإن المقاطع السومرية المفردة والمثنّاة متوطّنة قارّة في العربية والآرامية

والأمازيغية والأمهرية.. وغيرها من بقية لغات الفروع والمجموعات الأفروآسيوية. أما المعجم التأثيلي المتاح الآن فإنه يلبي اشتراطات هذه الفرضية، بدءا من استظهار الفونيمات المفردة إلى الكلمات المقطعية السومرية في تحولاتها التدرّجية إلى جذور ثنائية وثلاثية.

لقد عُدّت السومرية لغة منعزلة، لم تُفلح مقارنتها بالعديد من اللغات المجاورة لها، ولم تسفر عن شيء. وهذه في الأصل قراءة استشراقية انتشرت وغلبت على الوسط العلمي، فتحدّث بها الدارسون من علماء الأشوريات، وجعلوا التسلسل السامي يبدأ من الأكادية، التي كتبت بالخط المسماري المقطعي نفسه الذي كتبت به اللغة السومرية، دون أن يقيموا تماثلاً بين اللغتين، إلا أن تتبّع المقطع السومري يشي بمسارات شتى هاجرت فيها المفردات، تبدّلت وتحوّرت، كَمَنَتْ وظهرت، اتصلت وانعزلت، إلى آخر ذلك من أشكال التأثر والتواصل. وقد نشأت عن هذا المنهج في تتبع وتأثيل اللغة العربية فرضية تذهب إلى أن هذه اللغة كانت قائمة قبل ظهور العرب أنفسهم، أي قبل أن يُعرفوا باسمهم هذا بزمن طويل، وقد يجد الكثيرون أن طرحاً كهذا غير قابل للإثبات تاريخياً، نعم، إننا خارج اللغة لا نجد إلا حدّاً أدنى من الشواهد المباشرة، هذا صحيح، وقد سبق لدي سوسير أن أشار إلى الوهم الكبير الكامن وراء القول بإمكانية العودة عبر العصور لإعادة بناء ألسنة تحدثت بها شعوب ما قبل التاريخ، في عملية تتداخل فيه اللغات بالأنساق الإجتماعية، بحيث يتوزع البحث بين الكلمات والعادات والمعتقدات في توليفة لغوية، أنثروبولوجية، إثنولوجية. لكن اعتراضه كان يتعلق أساساً بالذهاب إلى أبعد مما تتيحه لنا المعرفة اللغوية، كأن نعمد من وراء قرابة لغوية إلى بحث قرابة سلالية أوعرقية (إثنية) لا منطق يسوّغها سوى عدد من التشابهات المعجمية. إننا نستطيع التأكيد على أن مطابقة ما تجري بين "الحقيقة اللغوية" و"الحقيقة التاريخية" سوف تقود إلى فتح القراءة على تأويلات لا منتهية، إلا أننا نستطيع التأكيد من ناحية أخرى على أن هذين الحدّين تجمعهما تماسات ثابتة هي أوضح من أن يتم إغفالها.

يمكننا أن نلجأ بمنهج استرجاعي إلى إعادة تصور ما تمكن تسميته "وضعاً لغوياً" لمنطقة الشرق الأدنى الذي يشمل شمال الجزيرة وجنوبها، وشمال أفريقيا وشرقها، مع ما يمكن أن يرفده من شواهد أنثروبولوجية وأركيولوجية، وتتيح لنا الصلة بالسومرية إعادة التفكير على

أساس الانتشار المتحوّل، دون أن يعني ذلك الوقوع في الإطلاق والتعميم، فالإطلاق والتعميم لا يقودان سوى إلى بعث ميثيّة جديدة.

ثالثاً: المثال القرطاجي

جعل الفينيقيون والإغريق واللاتين حوض البحر المتوسط مجالاً لغوياً متعدداً، ولا يجانبنا الصواب إذا قلنا أنه كان يندر وجود بلد من بلدان المتوسط لم يتجاور فيه لسانين أوأكثر في نفس الوقت. فعندما تأسست قرطاج كمحطة تجارية للفينيقيين في القرن السابع ق.م. سادت الفينيقية إلى جانب النوميدية، لغة السكان الأصليين، وفي مرحلة لاحقة من القرن الثالث ق. م. جاورت اللاتينية هاتين اللغتين، بالإضافة إلى اليونانية التي تحدث وكتب بها مثقفو قرطاج، ولكن البونيقية، وهي الفينيقية بتأثيرات نوميدية، ظلت منتشرة حتى القرن السابع ب. م. لتحلّ العربية محلها مع الفتح العربي الذي وصل قرطاج نفسها عام 641 وقد كانت آنذاك مجرد أطلال ضخمة تحيط بها قرى صغيرة يسكنها خليط تاريخي تكوّن عبر المراحل الفينيقية الرومانية؛ أما النوميدية القديمة فقد انحسرت في اللهجات الأمازيغية المحلية التي تأثرت عبر مراحل لاحقة بالعربية أولاً، ثم بالفرنسية بدءا من القرن التاسع عشر، مع التأكيد على أنها قد حملت منذ البدء سمات لغة عربية جنوبية هي السبأية، بالإضافة إلى السمات المصرية القديمة. وهي السمات التي أرى أن يتم البحث عن صيغتها الأولية في السومرية لا في غيرها.

الملاحظ في المثال القرطاجي أن الوحدات اللسانية لم تنحل بفعل نفاذية لغة واحدة، بل حافظت جميع اللغات على وجودها، اليونانية واللاتينية تراجعتا إلى خارج قرطاج، النوميدية انسحبت إلى مواطنها الأصلية، الفينيقية وحدها تلاشت بفعل السيادة الكاملة للعربية التي ترسّخت في كل مكان من الشمال الأفريقي، لكن هذه الحدود العامة للتفكير في تجاور اللغات الأربع لا يلغي ما اقتبسته وما تأثرت به بين بعضها البعض، كما لا يلغي أن وجود العربية إلى جانب الأمازيغية قد مدّ الأخيرة بذخيرة معجمية جديدة، استعادت فيها وبها تلك الآصرة الأفروآسيوية المفقودة، وغذتها من جديد.. فإذا ما استثنينا اليونانية واللاتينية اللتين احتلتا شمال أفريقيا ردحاً من الزمن نجد أن العربية والأمازيغية قد اتصلتا

أولاً لالتقائهما في الأصل السومري البعيد، وثانياً لأن اتصالهما يستند أيضاً إلى أكثر من التشابهات المعجمية والصرفية، بحيث يمكن القول أنهما شكلان متحوّلان للسان واحد. دون أن يعني ذلك إقامة تطابقات وتشابهات معجمية منتزعة من سياقها الاجتماعي والتاريخي، ذلك لأقول أن القياسات والاقتباسات المعجمية المجرّدة، أي تلك التي لا تدرس الظاهرة اللغوية ضمن اشتراطاتها وتفاعلاتها الاجتماعية والتاريخية، ستكون عاجزة عن فهم ترحال الكلمات والمعاني، من مكان إلى آخر، وفي زمان وآخر، لأنها- بإهمالها لهذا الجانب- تعمل خارج الزمن، أي خارج القابلية الاجتماعية للتطور والتغير، وكل قابلية للتطور والتغيّر خارج هذا التحديد، قد تكون قابلية صائبة من باب تجريدي فقط.. وهوما لا ينطبق على العلاقة بين الأمازيغية والعربية اللتين لا تتصلان فقط، بل وتكملان فجوة قائمة في تفسير ما مرّ بالمنطقة من حراك اجتماعي وثقافي.

رابعاً: القرابة المعتقدية-اللغوية

مظهر آخر للتفاعل المعتقدي، يتمثل في أن شمال أفريقيا قد ترسبت فيه المعتقدات الماترياركية/ الأمومية، والتي تعتبر عبادة الإلهة تانيت، ربة الخصب والنماء، أحد أبرز مظاهرها، ويمكننا هنا أن نلجأ إلى مستويين في فهم التفاعل الأفرو- سيوي في هذا الإطار:

1- بالتواصل مع المعتقدات الماترياركية في مراحل ضارية في القدم، وخاصة تلك التي كانت سائدة في بلاد الرافدين والمتمثلة في تجسيد وعبادة الإلهة الأم Mother Goddess، نشأت عبادة تانيت.. إن ارتحال طقوس هذه العبادة وتنقلاتها بين المنطقتين يكاد يكون أمراً مجهولاً الآن وغير قابل للتتبع والملاحقة، بفعل الافتقاد إلى المدوّنات اللازمة، سوى ما نجد من نقوش فخارية يمكن استشفاف التصورات المعتقدية من خلالها. ومجال ذلك يمكن تقديره اعتماداً على شواهد أركيولوجية منذ ستة آلاف سنة ق. م.

2- في حين ظل تبجيل الإلهة تانيت سائداً في شمال أفريقيا، حصراً وبشكل مباشر بين أواسط ليبيا وأواسط الأطلس شمالاً، ومعظم مدن وواحات الصحراء الكبرى جنوباً، وهي الإلهة الموصوفة بالوفيّة لبلادها، أي أن عبادتها لم تغادر هذه المنطقة، ما أعرّفه بمجال

ميثولوجيا الساحل والصحراء، بالإضافة إلى دخول معتقدات باطرياركية/ أبوية جديدة مثل عبادة بعل، الذي قُرن عادةً بتانيت.. فإن صحراء الجزيرة كانت أكثر انفتاحاً على تغير وتطور المعتقدات فيها بتأثير الشمال، حتى أن كعبة مكة أصبحت "بانثيون" عربياً يضم مئات الآلهة، بالإضافة إلى "كعبات" عديدة أخر، لعل أشهرها "الحديقة" في الجنوب.

هذا بالإضافة إلى التأثير المصري.. إننا بتوفر ما يكفي من الشواهد نستطيع الحديث عن تواصل معتقدي بين مصر وصحراء الجزيرة، كما نجد أن حركة ترحال القبائل الليبية القديمة إلى مصر كانت متصلة، إن على شكل هجرات جماعية، وإن على شكل غزو، عادة ما كان ينتهي باندماج هذه القبائل سلمياً في الجسم الاجتماعي لمصر القديمة، ويبدو أن نوعاً من السجلّ النّسابي كان سائداً هناك إلى الحد الذي يحتفظ فيه "الأجنبي" بنسابته، حتى وإن وُلد في بلاط الفرعون، ولعلّ مثالنا الأشهر على ذلك هو شيشنق، الفرعون الذي صاهر سليمان النبي، حسب الأسطورة.. وعبرت جيوشه بلاد ما بين النهرين، خالقاً بذلك أوّل فضاء قارّي أفروآسيوي موحّد. ومجال هذه المرحلة الفترة الواقعة بين أربعة آلاف وألفي سنة ق.م.

3- في مرحلة لاحقة، وكانت الجزيرة قد شهدت ظهور الديانتين الموسوية والعيسوية، قبل مئات السنين من ظهور الديانة المحمدية، أنتج تعاظم الحراك الاجتماعي-الثقافي بين المنطقتين، مهّد انتشار مشاهدة بؤر لليهودية والمسيحية في مدن وواحات الساحل والصحراء، ولا نكاد نعثر على واقعة ذات أهمية تدلّ على الصراع والاقتتال بين الديانات السابقة، الماترياركية بتأثير بطرياركي غير مكتمل، وبين الديانتين الباطرياركيتين الجديدتين، لقد انسحبت اليهودية لتصنع لها معاقل منتشرة هنا وهناك، وما أن أصبحت المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية، حتى تحولت إلى دين شعبي في شمال أفريقيا. وعلى عكس المرحلة السابقة تماماً، فإن الكثيرين من أبناء شمال أفريقيا أسهموا في جعل هاتين الديانتين تنتشران وتتسمان بأول أبعادهما الكونيّة.. بل أن بعضهم قد أمدّ المسيحية بروح جديدة جعلت استمرارها ممكناً بعد أن تخاطفت أطرافها الخلافات المذهبية والإقليمية، أعني سانت أوغسطين.

مجيء الإسلام، قلب الموازين رأساً على عقب، لقد آمنت به الغالبية العظمى، وبقدرته

على توظيف المقولات، وأشدّها أثراً وفعالية هي مقولة النسخ في المأثرة التي تقول: الإسلام يجبّ ما قبله، أصبح عدم الإيمان به عبئاً على الكاهل (كالجزية)، بينما الانتماء إليه يضفي عدداً من المزايا الاجتماعية على الأفراد، وهكذا شهد الساحل والصحراء الأفريقيين تحوّلاً تدريجياً، بعد عمليات الفتح القليلة، المتوزعة هنا وهناك، والتي تُصوّر لنا على يد المستشرقين على أنها اكتساح شامل لم يترك، بقوة السيف، لا أخضر ولا يابس يصمد في طريقه.

خامساً: في الحراك السوسيو-ثقافي والتواصل

تعرف أن منطقة الجزيرة العربية تمتد من خليج البصرة مروراً ببادية الشام حتى خليج العقبة وصحراء سيناء. وقد تميّز جنوب الجزيرة بموقع بحري أتاح لليمنيين الاتصال بالمصريين والأحباش من خلال البحر الأحمر. على مدى التاريخ، بل أن ترجيحاً علمياً بالغ الأهمية لدى الجيولوجيين يذهب إلى أن شرق أفريقيا وغرب آسيا كانا متصلين، ويجعل من هذا البحر مستنقعاً كبيراً كان من الممكن عبوره كبحيرة مغلقة حتى قبل أربعين ألف سنة، وأشير هنا إلى أن التواصل الأفروآسيوي كان خبرةً بريّة، في الأساس، إلى أن أضاف له الفينيقيون خبرتهم البحرية. بل أن الجزيرة أقرب في وجهة نظر بعض الجغرافيين إلى أفريقيا منها إلى آسيا، إذ مع الأولى يمكن التفكير في شبه المنحرف، المتضائل تدريجياً، الذي يصنعه البحر الأحمر كفاصل بين القارتين، بينما يجب التفكير في الهوة المتسعة التي يحدثها الخليج العربي كلما اتجهنا جنوباً كفاصل بينهما.

أما الجزيرة في حد ذاتها، فقد كانت، وما زالت، "حقْلُ قَحْلٍ كبير، ولكن قسمها الغربي أي الشريط الساحلي لشرق البحر الأحمر، من خليج العقبة شمالاً حتى اليمن جنوباً، كان خلال آلاف الأعوام مساراً مأهولاً حقق للسكان واحداً من أهم أسباب استقرارهم، المسار الذي توطّن في المخيال الإسلامي باسم "رحلة الشتاء والصيف". ومن هنا يمكننا فهم نقط الالتقاء الشهيرة، مثل مكة، باعتبارها بؤراً تلتقي فيها المسارات اللغوية والثقافية والاجتماعية، فلقد توسّطت شمال وجنوب الجزيرة، وامتصت تأثيرات شرق أفريقيا، أما من الناحية الاجتماعية والنّسابية، فإن أساطير عديدة تجعل منها أيضاً بؤرة تلتقي

وتذوب فيها الأعراق، قصة إبراهيم، العرب العاربة، كما هو الأمر بالنسبة لقصة بلقيس، التي ينتسب إلى سليمان عبرها، على سبيل المثال. فالمخيال العربي الجاهلي جعل من هذه المنطقة بالذات جذراً لكل نِسَابةٍ، من بلاد الرافدين إلى أثيوبيا.

وإذا كان التواصل بين جنوب الجزيرة ووسطها وشمالها مثبَتاً تاريخياً، فإن السؤال يتصل غالباً بالتواصل بين شمال وجنوب الجزيرة وبين شمال وشرق أفريقيا.. فالأول تجتمع فيه الشواهد اللغوية والتاريخية والاجتماعية، أما الثاني فقد كانت تتم إحالته حتى وقت قريب على التواصل الغوي وحده، دون كبير تركيز على التواصل التاريخي والاجتماعي.

لقد أورد الجغرافي القديم: ستيفانوس البيزنطي، نقلاً عن أورانيوس أن الأحباش من أصل عربي قدموا من اقليم يقع وراء سبأ وحضرموت. ولكن، حتى دون أن نذهب هذا المذهب، يمكننا اكتشاف دلالة هذا النص القديم في المقارنة بين "حبستي" البربائية (الهيروغليفية) وبين "حبش" الحجازية، ومؤدى المعنى في المعجمين: جَمَعَ، وقد رأى غليسر منذ سنة 1895 أن هذه التسمية تطلق منذ القدم على مزارعي وجامعي اللّبان، الذين "يجمعون" (يحبشون) من الأرض وشجرها.

وترى الدراسات الحديثة أن "قبائل الجزيرة العربية عبرت مضيق باب المندب من اليمن إلى شرق أفريقيا وعبرت القارة على طول خطوط العرض حتى استقرت في بلاد اليوربا، غربي نيجيريا، وفي السودان الغربي، وأوغلت جنوباً عن طريق بحر العرب والمحيط الهندي إلى زنجبار وشواطئ كينيا وتانجانيقا ومن هناك توغلت على خطوط العرض حتى عرفت جبال القمر وهضبة البحيرات".[1] ولهذا السبب نجد أن الكثير من المواطن ظلت تحتفظ بأسمائها اليمانية القديمة، ومنها: سبأ، سَحرت، هَوزن، سراة، مأرب.[2] ولا سبيل إلى تأويل هذا التماثل إلا بترجيح الحراك الاجتماعي الثقافي بين الطرفين، وبالأخص بالاتجاه من الشرق إلى الغرب.

لقد أصبحت منطقة وادي النيل، بعد انحسار آخر عصر جليدي، أوما يعرف بالجفاف

1-Seligman, C.G, Races of Africa Oxford, 1957,87.
2- Ullendorff,E, The Ethiopians, Oxford, 1961, 122.

العظيم، قبل 10.000 سنة، وقد كانت قبل ذلك مستنقعاً، صالحةً للتوطّن والاستزراع، كما سبقتها جزيرة ما بين النهرين في ذلك، مما سمح باستقبال الراحلين من الغرب (الصحراء الليبية الآن) ومن الشرق (صحراء الجزيرة العربية الآن)، (المنطقتان اللتان شهدتا عصوراً مطيرة مصنّفة ولها سجلاتها الجيولوجية والأركيولوجية، وانتشرت في ربوعها أنماط من العيش غلب عليها الصيد واللقْط)، بالاستقرار في أطرافها، شمالاً وجنوباً.

بعد ذلك بستة آلاف سنة، أي في الألف الرابع قبل الميلاد، توحدت مملكتا الشمال والجنوب في مصر، وبرز إلى الوجود واحد من أعظم تراثات الإنسانية. ولكن الحديث عن نقل ثقافات مختلفة من الشرق والغرب إلى مصر هوحديث لا طائل منه، ما لم نتمكن من رصد سجلات هذه الثقافات المهاجرة. لقد كانت خارج التدوين، وهي لهذا السبب تقود إلى اعتبار مصر بعد نشأة الهيروغليفية مركزاً لا يمكن إغفال أثره للحديث عن التحول الديموغرافي والسوسيولوجي للمنطقة.

إن مراحل تطور اللغة المصرية القديمة مفتاح رئيسي لفهم أحجية التساكن هذه، ولكنها تبدو بغية بعيدة المنال، لأننا لا نعثر منها إلا على ما هومدوّن في الهيروغليفية، وهي تفقد ضرورتها لأنها خارج إمكانية المقارنة بما رافقها من متغيرات، ولي رأي في هذا الشأن يقول أن نقوش ورسومات الكهوف في تدرارت أكاكوس، وما زامنها، قد تُفصح عن أكثر مما هومعروف الآن عن نشأة "الكتابة" الهيروغليفية، وذلك بافتراض أشكال تصويرية أولية Proto-Pictorial تغيرت تدريجياً لتنتج أشكال الكتابة الأولية pictograms. إن الأمر نفسه إذا تمّ اعتماده مع الرواسم الفخارية الرافيدينية، التي أنتجت الدور شبه الكتابي Proto-literal في شمال شرق الجزيرة، فإنه سيلقي ضوءا جديداً على هذه النشأة في شمال شرق أفريقيا. ومدّ البحث إلى هذا المدى في التاريخ، لا يكتمل إلا إذا اتصل بسومر، لغةً وكتابةً وغط حياة، بشكل تتم فيه معالجة الوحدات البحثية المفردة، أوالتفاصيل المحلية، بتوافقاتها بين مكان وآخر، ومعالجة تحوّلات وتطورات هذه الوحدات بمنهجية تفرز المتصل من المنفصل، والشبيه من المختلف، والسابق من اللاحق في سلسلة التطوّر والتحوّل اللغوية الاجتماعية.

القبائل الليبية والعربية القديمة:
هل من صلة !

د. علي فهمي خشيم
مجمع اللغة العربية – طرابلس

تحتل مسألة (القبائل الليبية) القديمة حيزاً بالغ الأهمية في تاريخ الشمال الأفريقي أوما نعرفه الآن باسم المغرب العربي الكبير (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا) تماماً مثلما هوالحال في شبه الجزيرة العربية، على غير واقع تاريخ بقية مناطق الوطن العربي وحضاراتها في بلاد الرافدين والشام ووادي النيل. وربما كان السبب هوأن هذه المناطق الأخيرة كانت منذ البداية مناطق استقرار زراعي نظراً لوجود مصادر المياه المتمثلة في الأنهار الدائمة الجريان مما أدى إلى ضرب من التمازج والتداخل بين مكونات مجموعاتها فاختفت صفة (القبلية) عنها وجعلتها كتلة موحدة لا تستند إلى عصبية قبلية ذات طبيعة معينة في بيئة بذاتها.

يحاول هذا البحث أن ينظر في هوية هذه القبائل الليبية القديمة ويركز بصورة جلية محدَّدة على صلتها الإثنية والثقافية بأرض المشرق، وهي التي انتشرت في أرض المغرب، كما يلفت النظر إلى تلك العلاقات الخفية، أوالمخفّية، بين كتلتي وطننا الكبير في جناحيه العظيمين. وغنيٌّ عن القول الإشارة إلى أن تاريخ الشمال الأفريقي العتيق استند في أغلبه إلى مصادر أجنبية، يونانية ولاتينية، الأمر الذي انتهى به إلى أن يكتبه الأغيار قديماً وأن يدرسوه حديثاً، ونتيجة هذا الواقع سيطرة شبه كاملة من قبل الآخرين على تاريخنا ثم تفسير هذا التاريخ بحسب هواهم وغاياتهم وأهدافهم، والمؤسف أن المؤرخين العرب – في أغلبهم – اتّبعوا هذا المنهج وحذوا حذوعلماء الغرب في نظرتهم إلى هذا التاريخ وتفسيره وتحليله واستخلاص النتائج البالغة الخطورة والخطر.

إن عدد القبائل الليبية (والمقصود ما قبل مجيء العرب المسلمين) لا يكاد يقع تحت

الحصر، في مصادر النقوش الهيروغليفية المصرية ثم في الكتابات اليونانية ومن بعد في الكتابات اللاتينية / الرومانية[1]. ولعل أول من عددها وذكرها في المؤلفات الحديثة (أوريك بيتس) في كتابة الشهير (الليبيون الشرقيون) الصادر سنة 1912 م. أما آخر من اهتم بها بشكل دقيق ومتابعة حريصة فهوالمرحوم الأستاذ محمد مصطفي بازامة في مؤلفه (سكان ليبيا في التاريخ) الصادر سنة 1994 م. وبين هذين المؤرّخين هناك أعمال أخري كثيرة انشغلت بهذه المسألة بصورة أوبأخرى في ثنايا الدراسات المتعددة الأغراض والغايات من أهمها مؤلف الدكتور مصطفي عبد العليم (دراسات في تاريخ ليبيا القديم) الصادر سنة 1966 م. أما الأستاذ الدكتور محمد الجراري فقد قدم لنا مصدراً رئيسياً بترجمته مؤلف كور يپّوس (الحروب الليبية) مع مقدمات وشروح وإشارات مهمة

إننا نحصي في كتاب الأستاذ بازامة وحده مثلاً ما يقرب من مائة وخمسين قبيلة حاول تحديد مواقعها على مختلف العصور المتعاقبة استناداً إلى ما ذكره السابقون، كما حاول في الوقت نفسه تقديم تعريب (أوعروبة) أسمائها وإن اعتمد منهج التخريج اللفظي وليس فهم معنى الاسم (أوترجمته عند بعض المؤرخين والكتاب) وهونفس المنهج الذي اتبعه الأستاذ داود حلّاق في كتابه (عمود السماء) مما ابتعد بهما عن التحليل الفيلولوجي الصحيح وجعل تخريجاتهما مجرد حدس وتخمين لا يقومان على أسس علمية قوية، كما أنهما حصرا جهدهما في الحديث عن القبائل التي عرفت في القطر الليبي بدلالته السياسية اليوم ولم يهتما كثيراً بالامتداد الطبيعي - تاريخاً وبيئةً - لهذه القبائل في بقية أقطار الشمال الأفريقي.

هنا لابد من بعض الملاحظات:

1- تختلف مواطن هذه القبائل من مكان إلى آخر حسب العصر التاريخي، فما يعيّنه هذا المؤرخ، أوالجغرافي، أوالشاعر، نجده تزحزح عن ذاك شرقاً أوغرباً أوشمالاً أوجنوباً.

2- ثمة تحويرات وتغييرات في كتابة أسماء القبائل نتيجة العجمة في اللسانين اليوناني

---

1 - أولهم هيرودوت ثم: سكيلاكس، استرابون، ديو دورس الصقلي، بليني، وإيتالكوس، وبطليموس، وكوريپّوس، وغيرهم.

واللاتيني وحتى في النقوش الهيروغليفية المصرية، إذ يرد اسم ما أحياناً بصورة قد تبعده عن الأصل وتجعله مستغلقاً حتى ليصعب فهمه والمقصود به وحدث الشيء نفسه في المصادر العربية بعد ذلك.

3- هناك قبائل مهمة كان لها دورها على مدى القرون يتردد ذكرها عند الكتاب المتوالين، كما أن هناك البعض مما يرد ذكره مرة واحدة في عصر ما ثم يتلاشى ولا يعود له ذكر.

4- من الملاحظ أن أسماء بعض القبائل استمرت منذ عهود سحيقة ولا تزال حتى يومنا هذا وإن ألبست التسمية لباس الأسطورة أولباس النسب المفتعل.

5- يتضح عند الكتاب العرب (ابن خلدون خاصة) الرغبة الملحة في إرجاع اسم القبيلة إلى جد أعلى تنتسب إليه ـ مثلما هي العادة عند النسابين العرب. وهذا ليس ضرورياً ؛ إذ لعل للاسم أصلاً بيئياً أونعتيّاً لسبب من الأسباب.

نبدأ ـ في ما يلي ـ بالنظر بإيجاز في أمر بعض القبائل الواردة في الآثار الهيروغليفية المصرية باعتبار نقوشها الأقدم تاريخيّاً ونخص بالنظر أشهرها وأعرفها في التاريخ القديم ونشير إلى أنه سبق للكاتب التعرض بالتفصيل لهذه القبائل في مؤلفه (آلهة مصر العربية) نأمل أن يرجع إليه من رام التوسع في الموضوع.

- ربو: نقلت إلى اليونانية (ليبو) أو(لوبو) Lybu (حرف y يمثل صوت الواوأصلاً في اليونانية. ثم صار يمثل صوت الياء. قارن (Syria) ينطق في الإنكليزية " سيريا " وفي العربية "سوريا"). وكثيراً ما يقلب الراء عند النقل إلى اليونانية لاماً. نقلها العبرانيون في (توراتهم) عن اليونان "لوبيم" بميم الجمع، ثم زادوا عليها هاء فصارت "لهوبيم". العربية "لوبيون" و"ليبيون". أما مكتشف سر قراءة الرموز الهيروغليفية (شامبليون) فقد ترجم " ربو" المصرية إلى: بدو (bedouins) وليس (ليبيين) وهذه هي الترجمة الصحيحة الصائبة.

نلاحظ أن الواو في (ربو) للجمع في اللغة المصرية القديمة والجذر هو" رب " وما دام المقصود هوأهل البداوة في مقابل أهل الأمصار (المصريين) فإن المرجح أن حرف العين سقط

من الجذر الثلاثي (عرب) الذي يعني أساساً الظهور والبداوة تماماً كما تعنيه كلمة (أعراب) وجذرها (عرب). ونلاحظ أيضاً أن (الربو) لم يكونوا قبيلة واحدة بل مجموعة قبائل متحالفة في ما عرف بالغزو الليبي العظيم لوادي النيل أيام الفرعون مرنبتاح ثم رمسيس الثالث أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الثاني عشر قبل ميلاد المسيح عليه السلام.

- تمحو: مجموعة ليبية كانت تسكن شمال مصر (الدلتا) في العصور الفرعونية الأولى ثم انحدرت إلى الجنوب حيث اختلطت بسكان النوبة وشمال السودان الحالي[1]. والاسم مكون من مقطعين هيروغليفيين: "ت" (أرض) + "محو" (الشمال) - والمعنى: أرض الشمال.

في العربية مادة (محا) وجاء فيها: من أسماء الشمال: مَحْوَة، غير مصروفة - وقيل: هي الجنوب. ومحوة: اسم موضع بغير ألف ولام، المحو: اسم بلد.

- تحنو: من أول ما ذكر من القبائل الليبية في النقوش المصرية. الواو للجمع والجذر هو(تحن) وقد ترجم إلى: لامع، مشع، برّاق، لون ما بين الأحمر والأسمر ساطع. وفي التصاوير المصرية نجد (التحنو) يصوّرون بلون ما بين الأحمر والبني - بينما من المعروف في النصوص اليونانية أن(التمحو) كانوا بيض البشرة، بل شقرها (كما في أنا شيد "بندار" وكتابات ديودروس الصقلي). فهم في هذه الحال يشبهون أهل فزان اليوم في لون بشرتهم.

إن أقرب جذر عربي هنا هو(طحل) بتعاقب التاء والطاء، وهما من مخرج صوت واحد، والنون بدل من اللام، إذ ليس في الرموز الهيروغليفية رمز للام، في العربية (طحل). ونقرأ: الطحلة: لون بين الغبرة والبياض بسواد قليل، الفرس الأخضر الأطحل: الذي يعلوخضرته قليل صفرة. وفي مادة (طحلب) - وهي رباعي (طحل): خضرة تعلوالماء المزمن. ومن ذلك: الطحال = مجتمع الدم في الجسد ولونه لامع ما بين السواد والخضرة

---

1 - لعل هذا هو السر في ما يقرره محمد متولي بدر في مؤلفه (اللغة النوبية) من أن تلك اللغة مكونة في أساسها من عناصر مصرية وليبية قديمة، ثم تعرَّب قسم منها بعد اعتناق أهلها الاسلام.

والكدرة والصفرة. وفي الدارجة: اللون الطحتي، يفيد السمرة، وهومقلوب (حنطي) نسبة إلى الحنطة وهي البُرُّ ذوالقشرة السمراء اللامعة.

نضيف أن الدارجة الليبية تسمي الطحال (طيحان) بإبدال اللام نوناً - كما في المصرية - وأن في الدارجة الأردنية والعراقية: طحيني = أسمر، وكذلك: حنطي وحنطاوي، وأغلب ما ترد وصفاً لبشرة الإنسان.

- مشوش: وتأتي في بعض النقوش الهيروغليفية (مشش) ولعلها هي ذاتها (مزغ) بثبات الميم وإبدال الزاي والغين شينين متواليين. وليس هذا مستغرباً إذ تعرَّض اسم هذه المجموعة القبلية إلى جملة من أنواع النطق والكتابة، وورد على مر العصور بمثل هذه الصور:

مازيكس، ما كسيس، ما سوكي، ماسوشي، مساخيتاي، ما زيس، ما زاسيلا (في المصادر اليونانية /اللاتينية). وفي مواطن أخرى: مزازيك، ما زاكس. وكلمة "إمازيغن" (جمع " أمازيغ ") نجدها: إما شيغن، إماهيكن - إيموهاك، إيما جيغن، إيما شيكن.. إلى آخر الصيغ والصور.[1]

وقد اقترح أوريك بيتس، على حذر، أن يكون الجذر (مزغ) مساوياً للجذر (مصر) بتعاقب الزاي والصاد والراء والغين، وهي أصوات كثيرة التعاقب.

والمهم هنا الإشارة إلى شيوع تعبير (الأمازيغ) بدلاً من (البربر) في العقدين الماضيين باعتباره جمعاً والمفرد نسبة إليه (أمازيغي). وهذا خطأ بيّن، لأن الألف المهموزة (أ) في أول الكلمة هي أداة التعريف والأصل (مازيغ) كما أوردها ابن خلدون، وهومصيب، باعتبارها مفرداً اسم جد قبيل من البربر. والمفروض أن يقال (المازيغيون) والمفرد (مازيغي).

وقد ظلت هذه التسمية سارية في اسم قبيلة من قبائل ترهونة الليبية في عصرنا هي قبيلة

---

1 - لمزيد من التفصيل نظر للكاتب: سِفْر العرب الأمازيغ - المجلد الأول، مصراته 1424.

(المزاوغة) والنسبة إليها (مِزْوغي) كما ظلت في أسماء أسر ليبية: مازق والمازق، والقاف التي تنطق معقودة بدل من الغين.

وقد سبق لي تحليل الاسم بصورة مسهبة في موطن آخر (سفر العرب الأمازيغ) متبعاً تفسيراته المختلفة ومعانيه المتداولة التي تفيد دلالة القوة، وخلصت إلى أن المكافئ العربي للجذر (مزغ) هوالجذر (مسك) الذي نجده في أسماء زعماء ليبيين من العصور القديمة إما في صورة (مسكن) و(مسكان) بزيارة النون كما تزاد في العربية*، أوبإبدال السين المهملة شيناً معجمة (مشكن) و(مشكان)**. وفي هذا الجذر العربي (مسك) دلالة القوة والشدة:

المَسْك: الجِلْد. ومن مادة " جلد ": الجلاد، التجلد، الجلود، الجليد.. الخ /. أمسك: قبض، حبس. المُسْكة: القوة.ورجل ذومُسْكة ومُسك: ذوقوة. استمسك: اعتصم. تماسَك: ثبُت.. إلخ (مادة مسك).الأوْلى إذن أن يبدل لقب(الأمازيغ) بلقب (الأماسيك)، فذاك أقرب إلى الصواب لغة ودلالة وتاريخاً[1].

إلى جانب ما مضى تذكر النقوش المصرية أسماء قبائل عديدة كما سبق القول تنضوي تحت (الربو= العربو) من أهمها: الترشا (وتأتي: الدرشا) والشكلش والشردن. وقد ربط الباحثون الغربيون بين هذه القبائل الثلاث وبين من أسموهم (أقوام البحر) وزعموا لها أصولاً بعيدة، يونانية في الغالب، وادّعوا أنها جاءت " لمساعدة " الليبيين في غزوتهم الثانية لمصر أيام رمسيس الثالث (حوالي 1180 ق.م) وليس من المفهوم ولا المبرر أن تعبر هذه الأقوام البحر الأبيض المتوسط لمجرد "مساعدة " الليبيين، كما أنه ليس ثمة من دليل تاريخي

---

* تقوم النون في آخر الكلمة في السبئية (اليمنية القديمة) مقام أداة التعريف (ال) في العربية العدنانية: عربن = العرب (الأعراب)، ركبن=الراكب (الفارس)، صنمن=الصنم .وبذا تكون " مسكن " = المَسْك (القوي).

** في العروبية الأكادية: "مشكانو"= القوي، الجلد.وفي النقوش اللوبية يتردد اسم"مشكن"و"مسكن" باعتباره اسم عَلَم وصفة رتبة عسكرية(كما في نقش"مسنسن"المزدوج اللغة الذي اكتشف في مدينة دُقّة الاثرية في تونس).

1- لمزيد من التفصيل انظر للكاتب: (سفر العرب الأمازيغ)، المجلد الأول، المقدمة.

واحد يؤيد أنها جاءت من خارج ليبيا. وهذا ما رآه الباحث الشهير (فلندرز بيتري) وذكر بكل وضوح أن هذه القبائل الليبية عادت من غزوتها المخفقة بعد أن صدّها رمسيس الثالث وهي التي عبرت البحر إلى أوربا وسكنت قبيلة (الشردن) في جزيرة (سردينيا)*، وعمرتها، أما (الشكلش) فهم الذين استعمروا ما يعرف اليوم باسم (صقلية) وحطت قبيلة (الترشا) رحالها في جنوب غرب شبه الجزيرة الإيطالية وهي التي عرفت باسم (التورين) أو(الاتروسكيين) الذين أسسوا حضارة عظيمة عرفت باسمهم كما أسسوا عاصمتهم (روما).[1]

إلى أن جاءت القبيلة الآرية (اللاتين) ونزلت بالقرب من العاصمة روما ثم نمت قوتها شيئاً فشيئاً حتى ورثت الحضارة الإتروسكية (الترشية) وعرف أهلها باسم الرومان نسبة إلى روما العاصمة القديمة. وهناك أدلة كثيرة على هذا القول من أهمها أن تسمية (روما) ليست لاتينية ولا آرية وإنما هي إتروسكية خالصة وعند تحليل معناها نجدها عروبية عربية، ثم ظهور الدليل الساطع المتمثل في التسليم بأن لغة الإتروسكيين (الترشيين) لا تنتمي بأية صورة من الصور إلى مجموعة اللغات الآرية، وعند تحليلها فيلولوجيّاً وإيتومولوجيّاً يتضح عند البعض (ما يكل غرانت مثلاً) أنها أقرب إلى الكنعانية وعند البعض الآخر (برنتون مثلاً) هي ذات صلة بالليبية القديمة وابنتها البربرية. ينسى هؤلاء الباحثون أن ثمة القاسم المشترك بين

---

* يؤيد هذا ما يسجله (باوسانياس) في كتابه (وصف بلاد الإغريق) أن الليبي "ساردوس"، وقبيلته طبعاً، هو أول من عمر جزيرة سردينيا وسميت باسمه. ومن الواضح أن (باوسنياس) خلط ما بين قبيلة (شردن) واسم (ساردوس) إذ لم يكن على علم بانتقال هذه القبيلة إلى تلك الجزيرة في تلك العصور السحيقة، ولكن صدى اسمها ظل في اسم الرجل الذي ذكره.

1 - من الثابت تاريخياً أن روما لم ينشئها اللاتين الذي ورثوها عن الترشا / الدرشا / الاتروسكيين، وأن اسمها لا يوجد له جذر في اللغات الآرية / الهندأوروبية، بينما نجد الجذر الثنائي (رم) في اللغات العروبية كلها يعني الارتفاع (ارتفاع مباني المدينة أو لأنها بنيت على تل من التلال السبعة المعروفة في موقعها) وفي العربية: رامة ورومة ورامتان (مثناة) أسماء مواقع. ولدينا في فلسطين " رام الله " أي: مدينة الله. أما حكاية الأخوين (روموس وروميولوس) فأسطورة خيالية كما يقول معجم أكسفورد للكلاسيكيات. أنظر للكاتب: هؤلاء الأباطرة وألقابهم العربية.

هاتين اللغتين وهي العروبية المتمثلة في أقدم لغة وأحدثها : العربية. في تصوري أن اسم قبيلة الترشا (الدرشا) لا يزال باقياً حتى يومنا هذا في اسم قبيلة (الدّرِسَة) كما تنطق في برقة = الدّرْسة. أما نسبتها إلى إدريس (كائناً من كان هذا الإدريس) فلا دليل له ولا برهان عليه.*

نفس الشيء حدث في اسم قبيلة أخرى تورده المصادر المصرية القديمة : "الهاسا" أو "الحاسا" : ولا تزال قبيلة " الحاسة " في برقة وينسب إليها : الحاسي. وليس من المستبعد أن يكون اسم هذه القبيلة حيّاً أيضاً في اسم قبائل " الهاوسا " جنوب الصحراء وفي أنحاء النيجر ونيجيريا وغرب أفريقيا وهي إحدى المجموعات البشرية الكبري الآن في تلك الأقطار، ومن الثابت أن لغتها ذات صلة وثيقة بالليبية القديمة وابنتها البربرية وهي ذات الصلة التي تربطها بالعربية.

من الممكن النظر في عروبة أسماء القبائل الليبية إذا عرف معناها، ولننظر على سبيل المثال في القائمة التالية :

1- أدرماخيداي، في اللسان اليوناني، ومعناها: أهل الجبل أوالجبليون. مكونة من ثلاثة مقاطع :

أ- أدر "جبل" : يقابل ما في البربرية (أدرار = جبل). الجذر هو "در" يكافئ الجذر العربي "طر" بتعاقب الدال والطاء، ومنه : طور = جبل.

ب- ماخي = ماكي (أبناء، أولاد = أهل). في الكنعانية "ملك" وفي المصرية القديمة "مس" وفي العبرية "مخ" = شبه، صورة، ابن. العربية "مشا". أمشي = ولد. وكذلك "مسا".

ج- داي : زائدة يونانية مضافة في مثل "مرمرداي"، أنظرها في ما يلي.

2- مرمرداي، أهل البحر، أوالسواحلية. مكونة من مقطعين:

أ- مرمر: مضاعف "مر" وهوالجذر الأصلي، ويفيد: البحر. في المصرية القديمة (مر =

* من المرجح أن نفس الاسم عرفه العرب في صورة (ضريسة) وهي إحدى قبائل البربر البُتْر إلى جانب : أداسة ونفوسة ولواتة، عند النسابة العرب .

بحر) وفي العربية: مور. المور: الموج. مار الماءُ: سال.

ب- داي: إضافة لنسبة الجماعة في اليونانية.

3- بقن (في النقوش المصرية) والبكاليس (بسين الجمع) في اليونانية، بتعاقب النون واللام، ونرجح أن النون مبدلة من الراء في المصرية والكاف في اليونانية مبدلة من القاف كما في المصرية. في العربية (بقر) أي رعاة البقر (البقّارة) وهي إحدى قبائل السودان الآن.

إذا كان قدماء المصريين عرفوا المجموعات البشرية غربي وادي النيل بأسماء مختلفة سجلوها فإنهم لم يسموا بلادهم "ليبيا" لأن هذه التسمية جاءت عن طريق اليونان نسبة إلى المجموعة الكبيرة التي دعوها (ليبو) أو(لوبو) تحريفاً للمصرية (ربو= عرب) كما سبق البيان. أما المصريون فقد دعوا هذه البلاد (وبالمناسبة هم لم يعرفوا بقية أقطار الشمال الأفريقي في العصور الفرعونية) دعوها باسمين:

1- دشرت*. وتعني حرفيّاً: الحمراء.

وفي بعض النصوص (تادشرت) = الأرض الحمراء، أي الصحراء، في مقابل (كمت) أو(كميت) = السمراء، أرض الدلتا**. ذلك لحمرة تراب الصحراء ولسمرة أرض الدلتا. التاء في (دشرت) للتأنيث والجذر هو(دشر) = أحمر. من الواضح أن الدال هنا مبدلة من

---

* دخلت اللاتينية في صورة desertum منها الإنكليزية .....Desert. (صحراء).

** ترجمت المصرية (كمت) و(كميت) في عدد من الكتابات الأجنبية إلى: سوداء. وهذا غير دقيق، والصواب أنها تعني السمرة وليس السواد الخالص، والأدق أنها تفيد السمرة المغبّرة. من هنا جاءت اليونانية (خيميا) التي عرّبت (كيمياء) إما لأن اليونان أخذوا هذا العلم عن عرب مصر أو لأن الكيمياء قديماً كانت مرتبطة بالسحر ومعالجاته الغامضة ذات الصلة بالليل والظلمة، وقد فرق العرب بين (الكيمياء) باعتبارها علم خواص المواد وتركيباتها و (السيمياء) أي علم البحث في تحويل المواد الخسيسة (كالرصاص والقصدير مثلاً) إلى ذهب. أما (كمت) و(كميت) المصرية فالمكافئ العربية لهما نجده في مادة (كمت). وفيها جاء: الكميت للخمر والخيل والإبل ما خالط لونه الحمرة والسواد. والكمتة: لون بين السواد والحمرة وهو ما ندعوه في لغتنا المعاصرة: اللون البُنّي - نسبة إلى البُنّ = القهوة.

القاف - التي تنطق معقودة في العربية (قشر) وهي مادة تفيد الحمرة، الأقشر = الأحمر.

2- أما الاسم الثاني فهو "امنت" (= يمنت)، وهوجاء من مصدرين، الأول اعتقاد المصريين القدماء أن أرواح الموتى بعد مغادرة الأجساد تنتقل غرباً حيث تغرب (تأمن) الشمس وحيث الهدوء (الأمان) الشامل. والثاني لآن المصري كان عندما يريد تسمية الجهات الأربع يتجه نحومصدر النيل (الجنوب، الذي يسميه "رسو") وخلفه الشمال (الذي يدعوه "تمحو") وعن يساره الشرق (الذي هو "إأبت") ويعاكسه الغرب (وهولديه "يمنت"، أي اليمن، أواليمنة، الجهة اليمنى) تماماً كما أسمى العربي، الذي يتجه نحومشرق الشمس في تحديد الجهات الأربع، ما كان جنوباً: "يمنت" وهواسم بلاد اليمن في النقوش القديمة السبئية (لغة اليمن القديمة التي عرفت عند عرب الشمال باسم: الحميرية). وهذا يعني أن اسم بلاد اليمن (يمنت، كما كانت تدعى في النقوش السبئية) هوذاته اسم ليبيا اليوم.

أنقل هنا نصاً من آخر صفحتين من كتاب محمد بازامة " ثم إن التسميات التي حملتها الأقوام والقبائل في عهود اليونان والرومان قد تكون غير ليبية، فجرسها وتراكيبها تحمل في طياتها ظلالاً يونانية/ لاتينية[1].

إلا أن هذا لا يعني أن من سمي بها كان غير ليبي أوأنه ليبي هجين، وإنما يعني فقط أن مصادرنا فيها جميعها إما يونانية وإما رومانية. وهي تسميات أطلقت عليهم من الحكام والجغرافيين غير الليبيين وغير الكنعانيين، وبالتالي فإنها إما أن يكون اعتراها التحريف حين النقل والتطويع إلى لغاتهم وإما أن تكون غير أسمائهم التي حملوها وعرفوا بها أنفسهم، وكلا الأمرين جائز وفي التاريخ أمثلة عليه ؛ فالفينيقي لم يعرف نفسه أبداً إلا كنعانياً*،

---

1 - سكان ليبيا في التاريخ، عصور ما قبل التاريخ ؛ وملاحظة الأستاذ بازامة صحيحة في جزء منها، إذ يذكر من القبائل ما تسميته يونانية في الحقيقة من مثل: لوتوفاجي (أكلة اللوتس). اختيوفاجي (أكلة الأسماك). تروغلودبتاي (سكان الكهوف). هسبيرتاي (الغربيون، سكان الغرب). إثيوبياي (سمر الوجوه من أثر الشمس) أترنتس/ أتلنتس (الأطلسيون، سكان جبال الأطلس). إيجيباني: مكونة من مقطعين يونانيين egi (عنز) + pani نسبة إلى المعبود (بان) pan عند اليونان وهو على صورة ماعز.

❖ كلمة " فينيقي / فينيقيون " معرّبة عن اليونانية (فو ينكس) والسين في آخرها مزيدة للعلميّة، واليونانية

والعربي لم يسم قومه أبداً بالسيرازين* ، وساكن برقة لم ينتسب هوولا بلده إلى قورينة، ومثل هذا كثير على مستوى الجماعة والفرد.

وأيّاً كانت التسميات التي عرفناهم بها في التاريخ فإن ما لاشك فيه ولا جدال أنهم الليبيون وسكان ليبيا آنذاك وفي التاريخ، فالأسماء قد تتغير ولكن الأصول تبقى هي ذات الأصول. إن التّحنووالتمحووالليبووالمشوش هم ذاتهم الأدرماخيدة والجليغامة واللوتوفاجة والنسامونة** ومن إليهم، وإنما عرفناهم نحن بهذه التسميات مرة وبتلك أخرى وحسب.

من هنا فإن من أسماهم ابن عبد الحكيم بلواتة وزناتة ومغيلة وهوارة ونفوسة هم ذات الأقوام سماهم بما عُرفوا به من تسميات في عصره، كما قد تكون في ذاتها معّربة منه وهي أقدم عهداً أوحتى كنعانية الأصل حفظت شعبيّاً ولم يذكرها كتاب اليونان والرومان ".

وإذا كان هذا الحكم ينطبق على عدد كبير من أسماء تلك القبائل فإن عدداً آخر منها ظل سارياً حتى العصور الإسلامية، بل وفي أيامنا هذه، وطبيعي أن يناله التحريف بصورة ما ولكن التعرف عليه ليس بالأمر العسير. ولنضرب أمثلة لذلك:

4 ¢ 1- لي وكذلك جيتولي، (ذكرهم استرابون) لعلهم من عرفوا في المصادر العربية في صورة (جديلة) و(جدالة) وهم أيضاً (الجيطاليون)، وينسب إليهم بالمفرد: الجيطالي.

2- الخثّانيون Khettani (ذكرهم بطليموس). هل هم باقون في قبيلة (الختنة) وينسب

ذاتها منقولة عن (بنو كنع = بنو كنعان) وتحرفت كما يلي: بنو كنع ← بنوكن (بسقوط العين) ← بنوك (بإسقاط النون) وأبدلت الباء الموحدة (ب) إلى باء ثلاثية ( ) ، ثم قلبت إلى فاء(فنوك ← فُنك) . وليس صحيحاً ما يتردد في التفسير الأسطوري للكلمة من أنها تعني النخلة إذ لا نخيل في ساحل الشام، أو الصبغ الأحمر، إذ أن هذا وهمٌ وتخريج ملفق.

* سرازين، سراسين منقولة عن "سراكين" saracen إذ ينطق حرف (c) سيناً وكافاً، والأصل العربي (شرقيين) والمعنى مسلمو المشرق أو الشرق، في مقابل (المور، الموريين) والمقصود مسلمو المغرب أو الغرب في الكتابات اللاتينية.

** هكذا عُرب الأستاذ بازامة ما كان في الكتابات اليونانية: أدورما خيداي، الجلغماي، اللوتوفاجي، النسامونيس.

إليها: الختني والخيتوني ؟

3- الماخروي، الماخرواي (بليني وبطليموس). قارن: مغراوة، والنسبة: مغراوي.[1]

4- ماخيلوي (هيرودوت). وقد تكون اللام مبدلة من الراء في (ما خروي) السابقة. ولكن قارن: مغيلة، وينسب إليها: مغيلي.

5- ماسّالة (بليني) المسيليون Masseli (إيتالكوس)، المسيلى (بليني). لعل لهم صلة باسم "مسلاّته" في الإقليم الغربي من ليبيا المعاصرة.

6- يذكر هيرودوت قبيلة الـ(زاوُك) Zauecs، ومن المرجح جداً أن هذا الاسم ظل حتى أيامنا هذه في قبيلة/ منطقة (زواغة) غربي مدينة صبراتة.

7- لواتة: وهي من كبريات القبائل الليبية التي لم يرد ذكرها إلا في العصر الروماني في صورة (ليفتاي) وتحسب عند النسابة العرب من جملة البربر البترهي ضريسة وأداسة ونفوسة، كما عند ابن عبد الحكم.

وقد انتبه (رود) Rodd في كتابه (الملثمون). peoples of the veil. إلى الصلة بين (لواتة) و(الليبو) ورأى أن تسلسل تحريف الاسم القديم جرى عند الرومان كما يلي: Lebu <— Lebetae أو Lebutae (والمقطع..dae = tae.. في اليونانية، علامة الجمع) وأبدلت الباء بصوت (V) لقرب مخرج الصوت فكانت (ليفتاي) Levetae [2]، وأبدل

---

1 - في أثناء تحليله لأسماء بعض المواقع البربرية يقارن أوريك بيتس (الليبيون الشرقيون، ص 79) بين اسم/ Mgri والبربرية "أمغاري" بمعنى الكبير، القديم، الشيخ، المعظم، الرئيس، ويستنتج أن معنى الاسم "مخرواي" (= مخرداي/ مغراوة) يعني: القبيلة الكبيرة، العظيمة. نرى أن "أمغار" البربرية (جذرها "مغر") تكافئ العربية: موقّر، بتعاقب القاف والغين (كما في لهجة عرب السودان المعاصرين)، ومن هنا جاء اسم الملك "يوغرته" (يوغرطة) وهو فعل تحول إلى اسم (قارن: يزيد، يعرب - مثلاً) العربية: يوقّر، أي: الموقّر، المحترم، العظيم، الرئيس .. إلخ.

2- تحول هذا الاسم عند كوريبوس في ملحمته (الحرب الليبية) إلى " إلاسكواس " illasquas تارة وإلى (لانكوانتان)Languntans تارةً أخرى .فتأمل مدى هذا التحريف.

الصوت إلى واو في العربية فكانت (لواتة).

ضمن القبائل الكثيرة التي يذكرها كوريبُّوس هناك قبيلة (نفور Naffur (ويبدوواضحاً أنها التي ينسب إليها: نفري. ويذكر ابن منظور في مادة (نفر) أن بني نفر: بطن من العرب.

كما يذكر قبيلة (إفرا) Ifra أو(أفرا) Afra ويعلق الدكتور محمد الجراري بأنها قبيلة غير معروفة، ونرى أنها هي ذاتها قبيلة (أفر) Afer التي كانت تقطن جنوب قرطاجة، وتجمع في اللاتينية على (أفري) Afri، والأرجح أنها أصل تسمية "أفريقيا "Africa فالمقطع - في تلك اللغة يفيد النسبة في حالة التأنيث. هنا لا ننسى ما في العربية (مادة: أفر): الأفُرة: الجماعة ذات الجلبة والاختلاط، وأفّار: اسم. ومن قبائل اليمن القديمة: أفار (= عفار) وهي التي انتقلت إلى أفريقيا (جيبوتي = جبرت) وكونت ما يعرف باسم قبائل: عفار (أفار) وعيسى.

ويشير كوريبُّوس كذلك إلى قبيلة ليبية يدعوها(فريكسيس) Frexes ويذهب د. الجراري إلى أنها قد تكون هي ذاتها (الفراشيش) أو(البراشيش).

وعند ابن الحكم، وغيره من النسابة العرب، يأتي اسم قبيلة (زناتة) التي يرى أنها من قوم جالوت (يعني الكنعانيين) وينسب إليها: زناتي. يزال في ليبيا المعاصرة قبيلة الزنتان. ونشير هنا إلى ما ورد في (الإكليل) للهمداني من أن (زنت) إحدى كبريات القبائل اليمنية القديمة.

يتردد في المؤلفات العربية اسم قبيلة (أوربة) باعتبارها إحدى بطون البرانس أحد أصلي البربر، وقد ذكرها بطليموس في صورة (أوروباي) Auropaei كما في صورة (إريبداي). ومن الواضح أن الصورة الثانية مزيدة المقطع dae- نسبة إلى الجماعة، والأصل هوالذي عُرِّب (أوربة) في ما يبدو.

ألا نلحظ هنا صلة وثيقة بين هذه التسمية وما جاء في النقوش المصرية (ربو) التي أعدناها إلى (عربو= عرب) أبدلت العين ألفاً مهموزة لدى اليونان والرومان إذ لاوجود للعين

في حلوقهم ولا في كتابتهم، ثم نقلها النسابون العرب المسلمون (أوربة)؟

قد يقول قائل إن هذا مجرد قرينة لا ترقي إلى مستوى الدليل. فما القول في ما يورده " أوريك بيتس " إنه يقول ما نصه: وهويتحدث عن قبيلة (المرميداي) التي تلي قبيلة (الأدرما خيداي) المتاخمة لحدود مصر الحالية "لعل المرميداي المتأخرين تضمنوا بعض البدوالساميين من شبه جزيرة سيناء أوشبه جزيرة العرب. وعلى كل حال فإن (أغرويتاس)[1] يذكر اسماً تاريخياً هو(مرمريس) بن (أرابس).[2]

وهويكرر الشيء نفسه في صفحة 257 باعتبار التقليد المتبع عند الليبيين القدماء في نسبة كل قبيلة إلى جد أعلى انحدرت منه[3] (وهونفس التقليد عند عرب الجزيرة). وقد نقل هذا الانتساب عن " غرويتاس " كما سبق ذكره، وأيضاً عن "...Eustathius يوستاثيوس"[4]

ليس هذا فحسب بل إن اسم (عربي) أو(العربي)[5] موجود في اسم (أرابيون) - في اللسان اللاتيني، وهوآخر أمير من سلالة الملك الشهير (مسنسن). وهنا لابد من شيء من التحليل:

في مقالة لطيفة للأستاذ "ج. كامبس"[6] يتحدث فيها عن آخر أمير من سلالة الملك "مسنسن" كان يحق له حكم نوميديا (الجزائر الان). ورغم الضباب الذي يحيط بسيرة حياة

1- لم أعثر في ما بين يدي من مراجع على ترجمة لهذا الكاتب ولا أدري إن كان يونانياً أم رومانياً ولم يورد بيتس اسم مرجعه كاملاً كما لم يذكر معنى المصدر المختصر F H G ولعله اسم مجلة أو دورية كانت تصدر في أيامه.

2- الليبيون الشرقيون، 54، حاشية 2.

3- من ذلك أن النسامونيين ينتسبون إلى جدهم (نسامون) الذي هو من نسل (قراماس) جد القرمنتيين، ولا تزال آثار عاصمتهم (قرما) Garama في الجماهيرية الليبية حتى اليوم، وتنطق (جرْمة).

4- محاضرات في إلياذة هو ميروس، في ليبزغ، ألمانيا سنة 1825 م.

5- يكثر استعمال اسم (العربي) و (غريبي) و (العرباوي) بين أهل الشمال الأفريقي وخاصة بين من يدعون البربر أو الأمازيغيين، في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب. وهذه ظاهرة تستحق النظر.

6- الموسوعة البربرية، ص 831.

هذا الأمير فإن المستخلص من المصادر اللاتينية القليلة التي كتبت عنه يفيد أنه كان إبناً للأمير "مسنسن الثاني" معاصر "يوبا الأول" (ملك موريتانيا)الذي مات سنة 46 ق.م. وأنه اشترك في أشكال الصراع على السلطة بين حكام المنطقة، وبين القادة الرومان كذلك، ولعله توفي سنة 40 أو41 ق.م. قال الأستاذ "كامبس": وإذا كنا لا نعرف تاريخ وفاته بالتحديد ولا مجرى حياته العاصفة فإننا نجد فيه مظهراً من شخصية متأججة من جِبِلّة شخصية "يوغرطة" أو"مسنسن الأكبر". وقال: ورغم انه من الأرجح أن يكون حمل أسم أبيه "مسنسن الثاني" فإن الكُتّاب اللاتين لم يشيروا إليه إلا باسم "أرَبْيُونْ" Arabion ذي الصيغة "السامية" [1]. ثم أضاف آخر المقالة محلّلاً الاسم / اللقب قائلاً إن هذا الاسم / اللقب (أربيون) يبدومن الواضح أنه ذوأصل بونيقي (أي كنعاني / شمال أفريقي أومغربي)، وقد نتعرف على الجذر "رب" الذي يفيد في الفنيقية (يعني الكنعانية) كما يفيد في العبرية معنى: رئيس، عظيم. وفي الآرامية "راب" تعادل "حاكم" أورئيس طائفة من طوائف المهن (رئيس سَحَرَة، رئيس منجمين، مثلاً).

(ملاحظة مهمة: لم يشير الأستاذ "كامبس" مطلقاً إلى العربية "رب" وهي تعطي هذه المعاني كلها وتزيد عليها. هل من تعليق ؟!). لكن هذا التحليل يتجاهل الألف المهموزة في أسم (أربيون).

فما العمل؟ قال الأستاذ "كامبس" وهويوجه بحثه وجهة أخرى ما نصه: "وبالمثل فإنه يوجد في العبرية الجذر (عرب) وهوما قارب بجلاء اسم (أربيون). وفي دلالة هذا الجذر (العبري) معنى "الشعب الخليط" وهي تسمية تُطلق بصفة خاصة على بدوالصحراء وعلى العرب منذ "عيسو"، الذين أخذوا أسهم من هذا الجذر." [2]

هكذا، لم يجد الأستاذ "كامبس" لتبرير وجود الهمزة في أول اسم (أربيون) إلا أنها

1- من ذلك أن التساموتيين ينتسبون إلى جدهم (نساموت) الذي هو من نسل (قراماس) جد القرمنتيين، ولا تزال آثار عاصمتهم (قرما) Garama في الجماهيرية الليبية حتى اليوم، وتنطق (جرْمة).

2- الموسوعة البربرية، 834 .

مبدلةٌ من العين في العبرية "عرب" التي تعني الشعب (الخليط) وسُمِّي بها العرب (!). وإذا كانت الإساءة إلى كل شيء عربي أوينتمي إلى العرب تتكرر بشكل فاضح في هذه (الموسوعة البربرية) فإن من العيب، بل من العار على هؤلاء "العلماء الباحثين" أن يحرفوا الحق هذا التحريف الفاضح وأن يتجنّوا على الحقيقة هذا التجنّي المريع. وليس ما يفعلونه عن جهل، بل هوالقصد والتعمد وسبق الإصرار وهوما يرتدي لباس العلم وثوب المعرفة الزائفة أوالمزيَّفة، والمزيَّفة فعلاً.

ولن نناقش الأستاذ في أصل تسمية (العرب) التي وردت أول ما وردت في النصوص الأكادية في القرن التاسع قبل الميلاد، بمعنى أهل البداوة وليس في العبرية التي هي لهجة متأخرة من الكنعانية ؛ فالعبرانيون لم يكن لهم قَطُّ لسانٌ خاصٌ بهم، إذ تكلموا المصرية يوم كانوا في وادي النيل، وتكلموا البابلية عند سبيهم (وكتب "عزرا" جزءاً من تاريخهم المزيف المُسَمّى (التوراة) بالبابلية، كما كتب دانيال). ثم تكلموا الآرامية التي عمت بعد ذلك. والمسيح نفسه كان يتكلم الآرامية وليس العبرية، كما تؤكد الأناجيل. فالأستاذ "كامبس" يعرف هذا كله ويعرف أن من جميع التفسيرات التي تحلل أصل تسمية (العرب) لم تكن "الشعب الخليط" من بينها. الشعب الخليط فعلاً هم من عرفوا باسم (العبرانيين) أو(اليهود).. وليس سواهم. وهذه قضية تحتاج إلى تفصيل طويل ليس هنا موطنه على كل حال.

ثم يقول: غير أنه لا يمكن الربط بين اسم (أريبون) وهذا الجنس (يعني العرب). ومن الأيسر تفسير وجود الإشارة (أ) للمفرد المذكر – في بداية الاسم بأنه يعود إلى "بَرْبَرة" (يعني تحويله إلى البربرية) berberisation مصطلح بونيقي (يعني: كنعاني / قرطاجي)." ويضيف: "إن "أ – ريب(و)ن" اسم يعني، ببساطة: السيد، الرئيس.وكلمة (رب) هي المعادل لليبية (مس) التي يتركب منها اسم "مسنسن" (سيدهم / مولاهم) وهوما عُرِفَ في اللاتينية في صورة "مَسِنِسّا" وبذا فإن "أريبون" يحمل فعلاً نفس اسم أبيه". ولسنا ندري كيف يسمح الأستاذ "كامبس" بإبدال العين همزة في العبرية (عرب بالمعنى السيئ الذي أورده، ولا يسمح بهذا الإبدال في البربرية ؟! ومسألة تعاقب العين والهمزة مسألة معروفة في العربية ذاتها، بل بين القبائل العربية في الجزيرة نفسها.

أما الصيغة التي ورد فيها الاسم (أريبون) فهي منقولة عن الحرف اللاتيني في المصادر اللاتينية التي لا وجود لحرف العين في أبجديتها فإذا ما نقلت عن أمر عروبي فيه هذه العين أبدلتها همزةً، أوألفاً مهموزة. أما المقطع "يون" في آخر الاسم (أريبون = عريبيون) فهوصيغة للعَلَميَّة في اليونانية أصلاً، أساسه "...ون" (on...) يوازي التنوين في العربية. (مثال ذلك andro-andron = رجل، قوي. عربيته عنتر – عَنْتَرٌ = عنترن). وقد نُقلت هذه الصيغة إلى اللاتينية وخاصة في أسماء الأعلام (من مثل: dio-dion). وهي زائدة ليست من جذر الأسم.

جذر الاسم إذاً هو"عرب" (= أرب) + التنوين (=ون)، غير أن وجود الياء بين هذين المقطعين (أرب+ي+ون) arab - i – on يوحي بأن هذه الياء كانت للنسبة < عَرَبِيُّنْ – عَرَبِيٌّ). وهي ياء النسبة القديمة جداً والمعروفة في اللغات العربية العتيقة، من مثل المصرية، ولابد أنها كانت في الليبية (أوالبربرية القديمة) كذلك[1].

والآن.. أحسب انه حان الوقت للنظر في أمر قبيلتين كبيرتين ؛ الأولى هي التي اشتق من اسمها اسم (أفريقيا / أفريقية) والثانية تُعَدُّ من أكبر البطون تمتد من أدنى المغرب الكبير شرقاً، وحتى في وادي النيل، إلى أقصاه غرباً وأنقل هنا ما تابعته في مؤلفي (سِفْر العرب الأمازيغ):

الأفاريق

اختلف في نطق الاسم الذي يطلق على تلك الجماعة البشرية التي تجوب الصحراء الكبرى وتعمر أجزاء منها وفي كتابته بالعربية ما بين: "طوارق" و"توارق" و"توارك". واختلفت

---

1 – تجد الاشارة هنا إلى اسم "يَرْبَس" Iarbas الذي أورده الشاعر اللاتيني فرجيل Virgil في ملحمته (الأنيادة) Aeneid– باعتباره اسم "ملك ليبيا" الذي رغب في الزواج من الأميرة الكنعانية "ديدو" (وتعرف أيضاً باسم: "عُلَيْسة" – وهي التي لجأت إلى شمال أفريقيا بعد أن قتل اخوها زوجها وأسست واتباعها مدينة قرطاجة). والسين في آخر اسم "يَرْبَس" زائدة للعَلَميَّة والأصل هو "يرب" الذي هو، بسقوط العين غير الموجودة في اللاتينية – بالضبط "يعرب". انظر للتفصيل: Oxford Classical The Dictionary article: Dido.

تبعا لذلك تفسير منشأ التسمية ومعناه. قيل مثلاً إن الأصل هوجمع "طارق" أي الذين يطرقون سواهم ليلاً أوعلى حين غرة عند الغزو، فسموا: طوارق، ثم أبدلت الطاء تاءً فكانوا "التوارق". وقيل إن الأصل من الجذر العربي "ترك" ومنه "التارك" جمعه "توارك" — إما لأنهم تركوا الحياة المدنية وابتعدوا عن مواطن الحضر وعاشوا في الصحراء أولأنهم تخلوا عن المبادئ العامة عند سواهم وعاشوا حياتهم الخاصة. وثمة تفسير ثالث حديث يرى أن التسمية كانت تطلق على قبيلة أومجموعة قبائل أوشعب في فزان هي "تاركا" targa [2] أو"أراغن" uraghen.

فإن كان إرجاع الأصل إلى الجذرين (طرق) و(ترك) مجرد تخريج بعيد غير ذي أساس فيلولوجي ولا تاريخي فإن الرأي الثالث قابل للنقاش وإن كان هوأيضاً لا يستند إلى نص قاطع كما أنه لا يقدم التحليل المعقول — منطقياً وتاريخياً — لمعنى التسمية في الأصل أويشير إلى مرحلة وجود هذه القبيلة أوالشعب عبر العصور. ورغم هذا فسنحاول هنا تقديم التحليل المناسب للكلمتين اللتين قيل أنهما أصل التسمية "التواركك":

1- "تاركا" targa. ومعناها في التارقية: الوادي، وفي بربرية الشمال: مجرى مائي، نؤي، قناة لتصريف المياه[1]. ومن الواضح أن القاف المعقودة في "تاركا" تعاقبت مع العين في

1- هذا ويذكر سالم شاكر في استدراكه على مادة Aheggar التي نوقشت في (الموسوعة البربرية) تحت رقم 104 – الجلد الثالث – ان "فزان تدعى ايضاً (تارغا) Targa (الرياض، أو البساتين Les Jardins) ... ولعلها أصل تسمية (التوارك) وهي الاسم الذي اطلقه العرب على (كل – أكار) وشمال بعدها بقيمة الملثمين – كما اقترح "م. بنحصيرة" M. Benhazera سنة 1908م. واستعاد هذا الافتراض الأب (دي فوكو) De Foucauld في معجمه". (الموسوعة البربرية الجلد الثامن، ص 1246).
قارن ما جاء في (لسان العرب) تحت مادة "ترع": "الترعة: الروضة – على المكان المرتفع خاصة .. وأحسن ما تكون الروضة على المكان فيه غلظ وارتفاع .. وحديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: عن منبري هذا على ترعة من ترع الجنة .. وقيل: الترعة في الحديث الدرجة وقيل: الروضة ". وللمقارنة نذكر اسم مكان في الاقليم الغربي من ليبيا، جنوبي مصراته بنحو 40 كم يدعى (تاورغا) وهو مشهور بكثرة النخيل والنباتات النامية لوجود عين ماء غزيرة فيه. أنظر أيضاً: Norris; The Tuargs; P. 1- 10.

2- Mercier; Vocabulaires, P. 416

العربية (ترع) ومنها: ترع = امتلأ ماءً. حوض ترع : ممتلئ. سيلٌ ترّاع: يملأ الوادي. وترعة الحوض : مفتتح الماء فيه. والترعة : فم الجدول. الترعة : مسيل الماء إلى الروضة. (ولا تزال في لهجة عرب مصر: الترعة من النيل = القناة، المجرى المائي يكبر أويصغر. فترعة المحمودية أوالنوبارية مثلاً عبارة عن قناة كبيرة متفرعة من النيل، هي في واقعها وادٍ). ونضيف أنه يوجد في الإقليم الغربي من ليبيا وادٍ يدعى "ترعت". ولا شك في أنها تكافئ العربية "ترعت" (= ترعة) بتعاقب العين المهملة والغين المعجمة مما يوضح إبدال العين قافاً معقودة في "تاركا" (= تركت). غير أن تاء التأنيث الثانية أسقطت.

2- "أراغن" uraghen. من الواضح أنها صيغة جمع وفي البربرية / الجبالية: "إوراغن"، جمع "أوراغ" (= أصفر) وتؤنث "تِوْراغن" جمع "توْرَغْتْ"[1]. وهي من الجذر (ورغ) الذي يكافئ العربية (ورق). الورق: الذهب.. وهواصفر كما نعلم. فهل جاءت التسمية من صفرة الرمال التي يعيش فيها الطوارق ؟ ويكون معنى "أراغن": الصفر أوالصفراويون، أهل الرمل الأصفر ؟

هذا ممكن ولكن الأقرب أن يكون المعنى مقترناً بـ "تاركا" (الوادي) — حسبما مر — وجمعها "تِركوِنْ" terggwin [2]، وهذا ما يجعلنا ننظر في كلمة بربرية أخرى هي "تارغا" targa (بالغين المعجمة) معناها: واطئ[3]، منخفض. وتجمع على "تَرْغِونْ". والمنحط المنخفض من الأرض هوالوادي. وعليه فإن الجمعين (تِرِكوْنْ) و(تَرْغِونْ) يتفقان في الدلالة بتعاقب القاف المعقودة والغين، وقد وُضّح هذا التعاقب من قبل. ونود أن نزيد هنا اسم مكان في الاقليم الجنوبي من ليبيا (فزان) يدعى "تراغن"، يتفق تماماً مع ما سبق، إذ أنه يقع في منخفض من الأرض (واحة).

طبقاً لهذا فإن "أُراغِن" صيغة جمع سقطت فيها التاء من "تَرْغِونْ" (= تراغِنْ) بمعنى:

---

1 - معجم دالية، ص 874 .

2- Mercier; P. 416 .

3- في لهجة (آيت ازدكا) يخص المرأة targa, plural: targiwin = bas (de femme) حسب ما يورده (مرسير) في العربية (ترع): التَّرِعة من النساء: الفاحشة الخفية، أي المنحطة الخلق، الدنيئة .

الأودية، وهي جمع "تاركا" (= تارغا) بمعنى: الوادي. وبذا تكون كلمة "توارق" صيغة جمع عربية لـ"تارقي" – نسبة عربية إلى "تاركا". والدليل على ذلك أنه لا يوجد في البربرية بلهجاتها المختلفة بما فيها التارقية صيغة أخرى لهذه التسمية "تاركي" للمذكر، "تاركيا" (= تارقية) للمؤنث، والجمع للمذكر "توارك" وللمؤنث "تاركيات". وهذا ما يكافئ العربية: ترعى، ترعية، توارع [1]، ترعيات، نسبة إلى "الترعة" أي الوادي.

يقول (أوريك بيتس) إن "التوارق" اسم مغلوط فيه وتسمية غير صحيحة[2]. بيد أنه لا يقدم وجه الغلط والصواب وإن أوحى – بشكل ما – أن للاسم صلة باسم قبيلة ليبية شهيرة تدعى في اللسان اللاتيني "كايتولي" أوكما توصف: Gaetuli Afri Libyae. وهوينبّه ؟إلى أن " تسمية الكايتولي – كما هي تسمية التوارق – كانت تشمل عدداً كبيراً من قبائل الصحراء... ولعل الأسماء السلالية لمجموعات معينة حلت في ما بعد محل الأسماء ذات الدلالة الشاملة ". أي أن اسمي "الكايتولي" و"التوارق" كانا ينطقان في البداية على جماعة بذاتها ثم صارا يطلقان على مجموعة كبيرة من الجماعات أوالقبائل ليشمل عدداً أكبر من الجماعة المعينة بذاتها. وهذا قول صحيح إلى حد بعيد، وفي عصرنا الحاضر نعرف الكثير من هذا ؛ إذ يسمى أهل القطر الواقع ما بين ليبيا والجزائر مثلاً "تونس" وينسب أهله جميعاً إليه (تونسي/ تونسيون) والأصل في التسمية مدينة واحدة، ثم عم جميع أهل القطر حتى إن كانوا من غير أهل تلك المدينة. وهكذا: الجزائر، الكويت، مصر... إلخ. وعلى هذا فإن اسم "التوارق" كان يطلق في البداية على مجموعة صغيرة من الناس (قبيلة) ثم عم جماعةً أكبر تتكون من عدة مجموعات (قبائل) فشملها دون تمييز إلى التمييز الداخلي أي في ما بين الجماعة الكبيرة ذاتها.

هنا تهمنا الإشارة إلى وصف قبيلة "الكايتولي" في اللاتينية بأنها "أفرى ليبياي" Afri Libyae. ومن الواضح أن "ليبياي" تعني "الليبيين" فماذا تعني "أفري" ؟

---

1 - على وزن (فواعل) – جمع "تارع". قارن: شارع/ شوارع. فارس/ فوارس. قارض/ قوارض.. إلخ. وهي اسم فاعل، وقد تكون صفة في مثل: مالح/ موالح. حامض/ حوامض.

2- The Eastern Libyans; p. 68.

في مقالة طويلة تتبع (ج. بيراس J. Peyras) هذه الكلمة من مختلف جوانبها واورد جملة من الآراء عن نشأتها وتطورها وخلص إلى القول بأنها كلمة (محلية) انتقلت إلى اللاتينية في صور: afro– afri, - afra – afer . وكانت كلمة "أفري" في البداية تطلق على قبيلة عاشت قرب "قرطاجة" وضواحيها، ثم عنت سكان ما يعرف اليوم باسم (تونس) من غير "القرطاجيين" تمييزاً لهم عن "النوميديين" (في الجزائر الآن) و"المورين" (في المغرب وموريتانيا – الآن) غرباً و"الليبيين" (ليبيا – الآن) شرقاً، ثم أضيف المقطع (ca-) في اللاتينية إلى Afri فكانت (Africa) صفة مؤنثة في مثل التعبير (Africa terra)، حرفيا الأرض الأفريقية، وأطلقت الكلمة على طول ساحل البحر المتوسط الجنوبي غربي مصر وأضيف المقطع(cus (إلى) Afri) فكان (Africus) صفة مذكرة في مثل تعبير Africus ventus (حرفياً: الريح الأفري) وظل تعبير (natio Afra) (أمة أفرا) مستعملاً للدلالة على سكان المقاطعات الرومانية جنوب البحر المتوسط، وبمرور الزمان استعملت كلمة Africa (وهي في الأصل صفة) محل كلمة "لوبيا" Lybia (= ليبيا) لجملة ما عرفه الرومان من قارة "أفريقيا" عدا وادي النيل، ثم عنت القارة كلها بما فيها وادي النيل (مصر)[1].

إن الأصل في الاسم – كما هوبيّن – هوفي اللاتينية Afer ومنها Afro للمذكر Afra وللمؤنث وaFRI للجمع، وكانت قبيلة "أفري" هذه قد شاركت القرطاجيين في حروبهم ضد الرومان، ومن الواضح أنها كانت تمتد أوتنتقل عصراً بعد عصر مع مرور الزمان حتى تجاوزت أحواز قرطاجة إلى "نوميديا" (الجزائر" غرباً وتداخلت مع "الليبيين" شرقاً... وانداحت جنوباً إلى الصحراء. أم هل كان الضغط الروماني هوالذي ألجأ هذه الجماعة (القبيلة) المعنية إلى الاندماج في مجموعة قبائل أخرى لتكون كتلة كبيرة واحدة وعمّ اسمها هي هذه القبائل ؟ وهي التي اضطرت بعد الانتصار الروماني على قرطاجة واحتلال الرومان شمال أفريقيا كله إلى النزوح إلى الصحراء الواسعة ؟

إن هذا ما يؤيده تطور دلالة كلمة "أفري" التي صارت "أفريكا" (أفريقيا) من مجموعة

---

1 - الموسوعة البربرية – المجلد الثاني، ص 208 – 215 .

صغيرة قرب قرطاجة إلى ما يعرف الان باسم (تونس) ثم الشمال الأفريقي كله، ثم القارة بأكملها — علماً بان الرومان لم يعرفوا من هذه القارة سوى حدود الصحراء الجنوبية، أما ما كان جنوبها فقد ظل مجهولاً عندهم إلى مدى بعيد ولم يعرفه الأوروبيون إلا في عصر الكشوفات وهوعصر جد قريب.

هذا إذاً هوأصل كلمة Africa = أفريقيا (أفريقية — في المصادر العربية). وإذا كان من غير المتوقع أن يحاول علماء الغرب الربط بين هذه التسمية والعربية بشكل من الأشكال، وهوأمر مفهوم ومعلوم، فإن الآخذين عنهم من العلماء (الأفارقة) أنفسهم ينهجون ذا النهج.. للسف. ونضرب مثلاً على ذلك ما كتبه الأستاذ "كي — زرْبو" Ki-Zerbo محرر المجلد الأول من تاريخ أفريقيا العام[1] في مقدمته لهذا المجلد. إذ يتساءل الاستاذ "كي — زربو": ماذا كان المعني الأصلي لاسم أفريقيا ؟ ويقدم سبعة تفسيرات له هي:

1- الاسم جاء من اسم شعب من البربر كان يدعى "الأفاريق" أو"أوْرِيغا" Aurigha.

2- من (الفينيقية) (فريكيا) pharikia بمعنى "كوز ذرة" أوبمعنى "أرض الغلال".

3- من اللاتينية aprice بمعنى "مشمش" أواليونانية aprike (= خالٍ من البرد).

4- من (الفينيقية) في الجذر "فرق" بمعنى: شتَّت.

5- من السنسكريتية والهندية Apara أوAfrica (= بَعْدَ) أي: الغرب، لأن أفريقيا هي القارة الغربية.

6- من رواية تاريخية تتحدث عن زعيم يمني يدعى Africus (أفريكوس) غزا شمال أفريقيا في الألف الثانية ق.م. أسس مدينة تدعي أفريقية Afrikia.

7- ورواية تقول إن "أَفِرْ" afer كان جدَّ النبي إبراهيم ورفيق هرقل أطلق اسمه على هذه البلاد.

1- صدر عن (اليونسكو) في طبعته الانكليزية: General History ofAfrica. I Methodology and African Prehistory. Hienmann, California. UNESCO. 1981 .

الغريب أن الأستاذ (كي — زربو) لم يناقش أياً من هذه التفسيرات. وقد فعلنا من قبل[1] ولا بأس من إيراد خلاصة له: إن القول بأن الأصل من (الفينيقية) "فريكيا" (= ذرة، غلة، حبوب) يذكرنا بالجذر العروبي "بر" ومعناه: حَبّ، نبت، غلة. وهو في العربية "بُرّ" = حنطة، قمح. فإذا كان من (الفينيقية) "ف ر ق" بمعنى "شتت" فهذه ذاتها العربية "فَرَق".. دون أي فَرْق. فإن قيل أنه من اليونانية aprike (خالٍ من البرد.. حرفياً: لا بَرْد) فإنها مكونة من (A) = "لا" (وهي في الأكادية "أ" (a) = لا) + Prike = برد. عربيتها: فَرَقٌ، والمعنى الأصلي لـ"فرق" هوالخوف ثم تطورت الدلالة إلى البرد أي ما ضادّ الحرارة. وينطبق القول نفسه على اللاتينية aprica إذ هي نقلت عن اليونانية، بمعنى "مُشْمِس" (لا = برد). أما أن يكون الأصل من السنسكريتية أوالهندية apar (= بَعْدَ، التالي) فمجرد تخريف، ومع هذا فيمكننا مقابلتها بالعربية "عَبَرَ" كما يقال في تعبيرنا الحدث: "عبر البحار"، مثلاً، فلتكن: القارة "عبر" القارات. ويشبه هذا الهذر ما قيل من ان الأصل من "أفر" أحد أحفاد ابراهيم (عليه السلام) — وكان رفيقاً لهرقل (كذا. وهنا خطآن: الأول أن "أفر" afer هذا جاء باسم "عابر" في توراة اليهود (التكوين، الاصحاحان 10، 11) وهومن أجداد إبراهيم وليس من أحفاده. والثاني يكمن في العجب من الربط بين "إبراهيم" في التراث الشرقي و"هرقل" في التراث اليوناني.. اللهم إلا أن يكون كلاهما "عابراً" في الأرض؛ الأول عبر بابل إلى فلسطين ومصر والحجاز والثاني عبر أفريقيا وإيبيريا (لاحظ صلة هذه الكلمة بـ"عبر") في أثناء قيامه بـ"الواجبات الاثنى عشر" المشهورة. وتبقى النسبة إلى (أفريقش) اليمني في الألف الثانية قبل الميلاد الذي ابتنى (أفريقية)، وحديثه متواتر متداول في المصادر العربية؛ ينبئ عن صلة ما بين الشمال الأفريقي وبلاد العرب الجنوبية... اليمن. وهناك، أخيراً، القول بان التسمية جاءت من اسم قبيلة بربرية كانت تدعى "أوريغا".

هذان القولان الأخيران تمكن مناقشتهما بشيء من التفصيل، أما عداهما فأقوال تعتمد على المقابلة اللفظية والتخريج المتعسف دون برهان ولا بيان.

---

1 - انظر للكاتب: رحلة الكلمات، دار "إقرأ"، روما/ مالطا 1986م. ص 335 – 346

1-أفريقش

ويكتب في المصادر العربية: "أفريقيس" و"افريقش". ويروي الاخباريون العرب أنه غزا شمال أفريقيا وابتنى مدينة بها نسبت إليه (أفريقيَّة) ويقول الهمداني[1] إن "أفريقيش" أرسل رجلاً من اليمن يدعى "كنيع بن زيد" مع أبناء مرة ابن عبد عبد شمس: كتامة وعهامة ولواتة وزينت، وهوزناتة، وهم رؤساء البربر. وهذا يعني أنَّ "أفريقيش" لم يأت بذاته، والهمداني ينقل عن ابن الأثير وابن خلكان. أما ابن خلدون الذي كتب بعد الهمداني بنحواربعمائة عام، فقد ذكر أن (أفريقيش) "ساقَ البربرَ إلى أفريقية من أرض كنعان. مَرَّ بها عندما غلبهم يوشع وقتلهم، فاحتمل الفَلَّ منهم وساقهم إلى أفريقية فانزلهم بها". وكان قد ذكر في (تاريخه) نقلاً عن أبن حزم أن (أفريقش) "هوالذي ذهب بقبائل العرب إلى أفريقية وسميت به".

وقد يبدوكثير من الخلط في روايات الإخباريين في ما يتعلق بصلة أفريقش بـ"أفريقية"، لكن من الواضح أن هؤلاء الإخباريين كانوا يستندون إلى ما ثبت تاريخياً — من مصادر يونانية ولاتينية ونقائش — من هجرة أقوام عربية منذ القديم إلى شمال أفريقيا. ونحن نعلم بالتأكيد أن الكنعانيين جاءوا إلى هذه المنطقة على فترات لعلَّ أظهرها ما تم في بدايات الألف الأولى ق.م. حين أنشأوا (قرطاجة) في تونس الآن، ثم (لبدة) و(صبراته) و(أويا) في بلاد طرابلس (غربي ليبيا). ويتردد اسم "جالوت" كثيراً في صراع الكنعانيين ضد الغزاة العبرانيين، ليس باعتباره اسم شخص بعينه بل باعتبار هذه الكلمة تعني "الملك" — حسبما يقرره المسعودي. ولنا هنا أن نقارن البربرية "جلث" (أيضاً: جلد، شلض، حسب اللهجات). ومن بعد هزيمة "جالوت" (الملك) هاجر الكثيرون من أتباعه إلى شمال افريقية. ويبدوكذلك أن ثمة هجرات يمنية إلى هذه البقاع غير مسجلة إلا عند الاخباريين. وبطريقة ما ربط بين الهجرتين الكنعانية واليمنية، وكأن اسم "كنيع" بن زيد الذي يقول الهمداني إن أفريقش أشخصه مع (رؤساء البربر) إشارة إلى "كنعان" (بني كنعان). وقد حاول ابن خلدون التوفيق بين تداخل الهجرتين

---

1 - الأكليل، جزء 2، ص 100.

بالقول إن أفريقيش (اليمني) مرَّ بأرض كنعان فوجد يوشع قد هزم الكنعانيين فساقهم إلى أفريقية (لاحظ أنه يقول: "ساق البربر" إلى أفريقية) وانزلهم بها. ولا يحتم المقام مناقشة طويلة لمختلف الأقوال. والمهم أن ندرك الارتباط، أوالربط، بين وجود الكنعانيين واليمنيين معاً هنا. ثم كان لا بد من ربط آخر يوثق الصلة باليمن أكثر من وثوقها ببلاد الشام فقيل إن أفريقش هوالذي جاء بالمهاجرين، كنعانيين وعرباً مُضَريين ويمنيين. فمن هوأفريقش هذا يا ترى ؟

يأخذ ابن خلدون عن الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والسهيلي و"جميع النسَّابين" كما يقول. وينقل عن ابن حزم أنَّ أفريقش هو"ابن أبرهة ذي المنار الذي هوابن الحارث الرائش (تُبَّع) في قول آخر هوالصعب بن ذي منائر الملطاط". وهومرة أخرى "أفريقيش أخوالحارث الرائش" وليس حفيده. وثالثة هو"أفريقيش بن قيس بن صيفي"... إلخ.

قد يبادر أحد بالقول إن "أفريقس" هذا (= أفريقيش وأفريقش وأفريقيس) ليس إلا تعريباً للاتينية Africus (أفْرِيكُسْ). وهذا محتملٌ جداً، خاصةً أن هذا الاسم والروايات التي جاءت عنه مشوشة بشكل يغلفها بروح الأسطورة المفتعلة. وعليه فإننا نلجأ إلى معالجة أخرى مختلفة تعتمد المنهج اللغوي التحليلي المقارن.

ونبدأ بالقول إن الأقدمين ساروا في العادة على منهج إرجاع أسامي الشعوب والقبائل والجامعات إلى اسم شخص بعينه هوالجدّ الأول لأي منها. وتبع هذا افتعالٌ ووضعٌ كثير؛ إذ سيطر النسابون على جملة الموقف دون دليل إلا مجرد "الثقة" في ما يقولون. غير أن الملاحظة على هذه الأسامي أنها – في معظمها – تكون "صفة" تطلق على الجماعة من قبل سواهم، بسبب من ظاهرة طبيعية في المكان الذي تعيش فيه. فقد سمي (الكنعانيون) كذلك من مادة "كنع" – بمعنى: انخفض – لأنهم كانوا يحيون على ساحل الشام المنخفض، و(الآراميون) من مادة " أرم " – بمعنى: مرتفع – لأنهم عمَّروا مرتفعات الشام، وهكذا (العَلَميُّون) من " عَلَم " = الجبل. أوبسبب من الموقع ؛ فاليمين من " يمنت " (= اليمين) إذ هم جنوب بلاد الحجاز يكون على جهة اليمين إذا ما وجه المرء وجهه نحوالشمس، والشام من " شأم " أي الشِّمال (لاحظ صلة الشِّمال بكسر الشين، والشَّمال بفتحها). أوبسبب من ظاهرة أخرى كالحرارة مثلاً ؛ إذ سَمَّى المصريون القدماء ما كان جنوب مصر " شوت " Šwt وأهله "

شوتيو" Šwtyw والأصل في " شوت " معنى شدة الحرارة (عربيتها : شوظ، شوط / والجذر الأصلي في المصرية " شو" Šw يكافئ العربي " شوي ").

هذا يعيدنا إلى ما بدأنا به من تسمية " أفري " Afri (وهي صيغة جمع النسبة في اللاتينية) وهي في الأصل من " أفر " Afer – أسم القبيلة أوالشعب الذي كان يعيش بالقرب من قرطاجة، أوجنوبها – ربما ما يعرف باسم " الجريد " الآن في تونس. وهي منطقة حارة دون شك، بالنسبة للكنعانيين القادمين من بلاد الشام الباردة نوعاً ما، كما هوالحال بالنسبة لسكان إيطاليا الأقدمين قبل مجيء الرومان (أعني من عرفوا بأسم: الأتروسكيين) أوالرومان في ما بعد. وبما أن الثابت، كما ذكرت، أن يطلق الآخرون أسماً على شعب سواهم، فإن كلمة " أفر " جاءت عن هذا السبيل بمعنى "الحرارة" أوالبلاد "الحارة" والأرجح أن التسمية قديمة، لعلها كنعانية نقلها بعد ذلك الرومان. والجذر فيها هو"ف ر" (FR).

من هذا الجذر في اللاتينية fornus, fornax = موقد، كانون، furo = ساخن، حامٍ، ناري. (قارن الفرنسية four, fourneau والإيطالية furno, furnacio والإنكليزية infernal, infern وفي البربرية: " أفرنُو" والعربية: فُرْن). وفي المصرية القديمة "بربر" = استحرّ، استشاط (غضباً) و"بري" – وطيس الحرب[1]. والباء المهموسة بدل من الفاء. قارن القبطية (فرفر) = سخن غَلَى، فارَ – مضاعف "ير" / "فر").

أما في العربية فهناك: (فور). ومنها: فَوْر الحرِّ: شدته. فوْر جهنم: وهجها وغليانها. فور الشمس: حمرتها. فارَ القِدْرُ، فوراً وفوراناً: غَلَى وجاش. وهي مادة طويلة تفيد الحرارة حِسًّا ومعنىً. وفي مادة (أفر) نقرأ: أَفَرَتَ القِدْرُ، أَفْراً: اشتدَّ غليانها. أُفْرة الحرِّ: شدَّته. أُفُرَّة الصيف: أوله.

من هنا نرى أن ما ورد في اللاتينية على صورة Afer (ومنها Afro, Afri, Afra) يعني الحرارة أصلاً ويكافئ بالضبط العربية "أفر" – وطبعاً بقية المشتقات من الجذر المشترك (فر). وقد أبدلت الفاء باءً مهموسة (p) واشتقت من هذا الجذر اللاتينية aprike (خالٍ من

---

1 - معجم بدج، ص 243

البرد = حارٌّ، ساخن) (= مشمس) واليونانية aprica، والإبدال ما بين الباء المهموسة والفاء الشفوية الصحيحة متواتر معروف (قارن المصرية القديمة "بربر" والقبطية "فرفر" — ويجوز أن تنطق "وروو")، بالواوالقريبة مخرج الصوت من الباء والفاء والفاء " v ").بناءً على ما سبق فإن ما ورد في اللاتينية في صورة africa هوذاته aprica، وما جاء فيها من تعبير من مثل africus ventus يساوي بالضبط apricus ventus (حرفياً: الريح الحارة) كذلك: africa terra تساوي aprica terra حرفياً: الأرض الحارة (عربياً: الثَّرَى الآفر. أوآفِرُ الثَّرى).

لقد تحولت aprica، أوهي عادت، إلى africa (من الجذر "FR" مسبقة بالألف المهموزة، وتكافئ العربية "أفر"، وملحقة باللاتينية "ca-" وهي أداة النعت فيها)، وبعد أن كانت تعني "الحرارة" صارت تدل على هذه المنطقة الحارة جنوب البحر المتوسط المواجه لأرض الرومان، كما صارت من الأعلام الجغرافية يكتب الحرف الأول منها كبيراً (Africa) وكانت في العربية "أفريقيّة/ أفريقيا" — بإضافة ياء النسبة التي تفيد الصفة أيضاً مقابلة "ca- " في اللاتينية. وكان المفروض أن تكون " أفريَّة "، ولكن العربية حافظت على أداة الوصف اللاتينية[1] (ca-) وأبدلتها قافاً ولعل هذا ما يسر لنا تحليل الكلمة الثانية.

2-أوريغا

يقول أحد التفسيرات التي ذكرها (كي — زريو) إن تسمية " أفريقيا " جاءت من أسم شعب من البربر كان يدعى " أوريغا " Aurigha أو" الأفاريق " Afarik. ومن الواضح أن كلمة " أفاريق " (جذرها " فرق ") هي ذاتها " أوريغا " (جذرها " ورغ ") بتعاقب الواووالفاء والغين المعجمة والقاف وهي القاف التي كانت تنطق معقودة (ك). والأمثلة على هذا

---

[1] حدث هذا في مثل "هندكي" وهي من اللاتينية hindicu(s) والمفروض أن تكون "هندي". وقد حدث هذا في تعريب اللاتينية punicu(s) (الفرنسية punique والإنكليزية punic) وتعني الوجود الكنعاني في قرطاجة وما حولها، إذ عرَّبها بعض الدارسين إلى "بونيقي". والأصل الأصيل: "البني كنعاني". (أنظر: "كتاب الحجر") من "سِفر العرب الأمازيغ".

التعاقب كثيرة. وهي ذاتها اللاتينية Africa (= aprica) كما سبق البيان.

من المهم جداً هنا الإشارة إلى أن أسم " أوريغ " (= أفريق) يتردد كثيراً عند الأخباريين الإسلاميين، باعتباره أباً لـ" هوار " الذي تنتسب إليه قبيلة (هوارة) البربرية المعروفة – كما عند أبن خلدون مثلاً في (تاريخه). ويجعل أبن خلدون من " أورغة " (= أورغا) إحدى القبائل البربرية أيضاً.

وفي هذا السياق ينبغي أن نذكر ما يشير إليه الأستاذ (نورس) [1]. بعد تحليله أصل أسم "التوارق" من قوله: " إن الأقرب إلى الصواب أن يكون الأصل المعقول في الأسم قبيلةً، أواتحاد قبائل، أوشعباً، سكنوا فزان وكانوا يدعون " تاْركا " targa. أو(أُراغِنْ) Uraghgen. ويقد سبق تحليل اسم (تاركا) باعتباره يعني: الوادي.ولكن هذا لا يمنع من النظر إليه من زاوية أخرى؛ فلعل الأصل فيه " تا (و) وركا " ta(w)rga = " تا (ف) ركا " ta(f)rga وهوهنا عبارة عن الجذر " ورك " (= فرك) مسبقاً بتاء السلالة التي سيأتي الحديث عنها. أما " أُرَاغِنْ " فهي صيغة جمع بربرية كما مضى. ونضيف هنا أنها جمع " أوريغ " في المصادر العربية، " أوريغا " في المصادر الأوروبية. وبذا تتطابق كل الصيغ الواردة في مختلف أشكالها وتحريفاتها وتحويراتها، عن هذا السم العتيق.

أخيراً.. نصل إلى: "التوارك" (= التوارق /الطوارق).

يقرر (أوريك بيتس) أن " صيغة التأنيث في البربرية تتكون، باطراد، من أسم المذكر إسباقه وإلحاقه بحرف التاء.. وتظهر باستمرار كلمات من هذا الضرب في أسماء الأمكنة البربرية الحديثة: (ت) وا (ت)، (تـ) كوّر (ت)، (تـ) اكرف (ت)، (تـ) ديكلت) (= توات، تكورت، تاكزفت، تديكلت)"، وهويضيف: (على أن التاء اللاحقة [في أواخر هذه الأسماء] كثيراً ما تُفقد، أوتتحول إلى صوت صفيري " [2]. وعلى ضوء ما تقدم فإن لنا الفروض التالية:

---

1 - The Tuaregs, 10
2 - Bates: The East. Lib. P. 76 .

1- الجذر المشترك " فر " (ويفيد الحرارة) صار في اللاتينية Africa بعد تطور دلالته ليعني ما يعرف الآن باسم تونس وهوفي الأصل أسم قبيلة afer. يقابله في البربرية " أوريغا " وفي العربية " أوريغ ".

2- في هذه الصورة المثَنَّة صيغ أسم القبيلة، أوالمكان، في البربرية: " تاورغت " (= تافركت، تافركت/ تافرقت/ تاوركت).

3- بسقوط تاء التأنيث الثانية كانت: "تاورغ" (= تافركا / تافرق / تاوكا) وتقابل "تاركا" بسقوط الواووإبدال الغين قافاً معقودة.

4- كان الجمع في البربرية " أُراغِنْ " (= أراكِن) وهوجمع مذكر سالم – كما في العربية(..ين/..ون) للمفرد المذكر " أوريغ" أما في العربية فقد احتفظ بتاء التأنيث الأولى (التي ظلت في " تاركا " وجُمعت جمع تكسير (توارك) ونطقت القاف المعقودة قافاً قرشية (توارق)، كما تعاقبت التاء والطاء فكانت (طوارق).

5- لكن العربية من جهة أخرى أسقطت التاء الزائدة في بداية الكلمة " توارك " وأبدلتها بالألف المهموزة الأصلية، أوهي احتفظت بها، فكانت (أفارك)، ونطقت القاف المعقودة قافاً قرشية وأعادت الفاء بدلاً من الواوفكانت " أفارق " (= أَفَرِقْ = البربرية " أوريغ ") وجمعت على " أفاريق " – جمع تكسير، كما هوجمعنا الحديث لـ " أفريقي " على أفارقة " (جمع تكسير) و" أفريقيين " (جمع مذكر سالم).

وجاء في شعر الأحوص:

أين ابن حربٍ ورهطٌ لا أُحُسُّهُمْ

كانوا علينا حديثاً من بني الحَكَمِ

يَجْبُونَ ما الصِّينُ تحويه مقانبهم

إلى الأفاريق من فُصْحٍ ومن عَجَمِ

قال أبن منظور: "وإفريقِيةُ أسم بلاد، وهي مخفَّفة الياء وقد جمعها الأحَوص على

أفاريق" (اللسان: فرق).

فإذا كان من السري نطق "إفريقِيَّة" / "أفريقية" مخففة الياء فقد جاء هذا من باب التسهيل، أما الأصل فهوتشديدها لأنها ياء النسبة أوالصفة كما مَرَّ. وليس صحيحاً أن "أفاريق" في شعر الأحوص جمع " أفريقية " فهويتحدث عن قوم يدعون الأفاريق بدليل قوله " من فُصُحٍ ومن عجم ". والأحوص شاعر جاهلي — كما يوصف — أي أنه كان قبل ظهور الإسلام، قبل مجيء عرب الجزيرة المسلمين إلى "أفريقية". ويبدومن المثير للاهتمام حقاً أن يقسم " الأفاريق " قسمين: فُصُحٍ وعجم. أكان يريد بصفة "الفُصح" أهلها وسكانها الأصليين الذين يدرك أنهم يتكلمون لغة عربية فصيحة لا تختلف عن لغته الحجازية إلا في اللهجة ؟ ويقصد بصفة "العجم" المحتلّين الروم الذين كانوا يسيطرون على البلاد ويتكلمون بلسان أعجمي غير عربي ؟ ليس ثمة من تفسير آخر لهذا التميز الجلي.

ألم نقل، مراتٍ ومراتٍ، إن تاريخنا لابد أن يقرأ من جديد ؟!

عن الحجّار... وهوارة

ينتشر التوارق في مساحات واسعة من الصحراء الكبرى مقسمة ما بين بلاد الجزائر والنيجر وليبيا، ويقع أحد أهم مواطنهم بصحراء الجزائر ما بين درجتي 14 – 30 طولاً ودرجتي 5 – 10 عرضاً. وتختلف كتابة أسم هذه المنطقة: أهجّار، هجّار، أهقّار، هقّار، هكّار، هكّار، حجّار. وقد تعرف بـ(ال): الهجّار، الهقّار، الهكّار، الحجّار. أما اللغات الأوروبية فقد أتفق على كتابة الأسم (a)heggar (a)haggar, haggar [1] — على نحوما. وكالعادة.. جاءت بعض التفسيرات لنشأة الاسم واعتمد معظمها على صورة كتابته (هجّار). فقيل مثلاً إنه من " هِجار " الجمل، أي الحبل الذي يربط به لئلا يندّ، وذلك لارتباط التوارق بالجمل. وقيل إنه من مادة (هجر) العربية التي منها: هَجَر، وهَجْران — بمعنى " القرية ". وقيل إنه من " الهجير " أي شدة الحرارة ولهبها. وذهب مؤرخ جزائري إلى أن الكلمة أصلها "

1- استعملت "الهوقار" بالعربية على غلاف مجلة (الأصالة) — رغم ما في داخلها من تحليلات، أنظر الهامش التالي.

حجَار " / " أَحْجَار " – أي الحجارة – وذلك لكثافة جبال المنطقة الحجرية وعظمة صخورها ومرتفعاتها من الحجارة الصلبة والأدوات المصنوعة هناك من الحجارة، أومن قولهم " الحجَّار " – بتشديد الجيم – وهوقاطع الحجارة، فسميت هذه المنطقة أولاً " الحَجَّار " ثم غيرتها الألسن وحولتها إلى: الهجَّار – الهكّار – الهقّار، بقاف معقودة، بعد إبدال الحاء هاءً، وهوأمر كثير الحدوث [1].

وقيل إنها من الجذر "هجر" بمعنى ترحَّل، غادر، سافر – لكثرة هجرة التوارق وترحالهم عبر الصحراء [2].. فهم المهاجرين أبداً أولأنهم " هجروا " مواطنهم الأولى إلى موطن جديد.

وهذه الآراء كلها تعتمد التخريج اللفظي من مادة (هجر) أولاً ثم من مادة (حجر) في رأي، وهي تخريجات حديثة. بيد أن ثمة مرجعاً قديماً جاء بقول آخر جدير بالنظر والاعتبار، أعني قول أبن خلدون في (تاريخه) إن هذه البلاد تُسَمَّى "هكّارة" – بوجود تاء التأنيث في آخرها وبالهاء والكاف – وبأن الكلمة متقلبة عن "هوَّارة"، قلبت العجمة واوها كافاً. ونجد تأييداً لهذا القول من سالم شاكر [3]. حيث يقول: " إن كلمة (أ) هكّار في أصواتها الصامتة هي ذاتها ما في كلمة "هوّارة". وقد أيد تضعيف الواوفي البربرية إلى القاف المعقودة المشددة " كما أيد (دي فوكو) هذا القول[4].

ويضيف (شاكر): وبالعودة إلى روايات سلاسل الأنساب العربية والبربرية، يذكر أبن خلدون أن قبيلة هوارة نشأت من هوار، أبن أوريغ، أبن برنس. " وقد فاق هوار أخوته الآخرين الثلاثة عدداً وعُدة، وخلّف نسلاً كثيراً، هوالقسم، الأهم كان موطنه في إقليم طرابلس وبرقة ". ويستند أبن خلدون إلى المسعودي والبكري في القول بأن موطن هوارة

---

1 – الجيلاني عبد الرحمن، هؤلاء التوارك – الملثمون، مجلة " الأصالة "، عدد خاص عن تاريخ منطقة الهواقار، الجزائر، 1979، السنة الثامنة، ص 8، وما بعدها.

2 – المرجع السابق، ص 38.

3- الموسوعة البربرية، المجلد الثامن، ص 1245 – ص 1246.

4- معجم التارقي، الفرنسي، المجلد الأول، ص 533.

الأصلي كان طرابلس وبرقة. ثم انتقلت هذه القبيلة – أوبصورة أدق : انتقل قسم منها – غرباً إلى تونس، وجنوباً نحوفزان وإنتشرت عبر الصحراء في ما تلا من الزمان[1].

ملاحظتان قميتنان بالاهتمام هنا :

أولاهما أن هوارة كانت قبيلة زاحفة، أومتنقلة – من الشرق إلى الغرب، ثم الجنوب. ويذكر الأستاذ (بيتس) أن هوارة قسم كبير من " شعب لوا[2] معظمه يوجد في غرب ليبيا. ومن المحتمل أن امتدادهم في شرق البلاد حُدَّ بجبل غريان، رغم أنهم وجدوا بعد ذلك في الناحية الأقرب إلى الشرق [3]. وثانيتهما هذه الصلة بين " هوار " و" أوريغ ". وقد بيّنّا من قبل أن " أوريغ " هي ذاتها " أراغن " – في صيغة الجمع – التي تطلق على التوارق، وأنها عينها " أفاريق " وأن أصلها من اللاتينية Africa والأخيرة هذه ليست إلا صفةً تطورت دلالتها كما رأينا.

هاتان الملاحظتان تقودان إلى القول – باختصار – إن "هوارة" هي الأسم الأصلي لمن عرفهم الرومان بأسم " أفري " وهم أحد فروع هوارة، وهي قبائل متعددة. وحين نزحوا عن تونس واتجهوا جنوباً، أوتجمعوا مع سواهم من نفس الجذم الذين كانوا في برقة وطرابلس، حملوا نفس الاسم (هوارة). ولعل التاء سقطت كما سبق البيان فكانت " هوّار " التي انقلبت بإبدال الواوكافاً إلى (هكّار) وبقية الإبدالات التي ذكرنا.

والسؤال المهم الذي يطرح الآن : ما هوأصل قبيلة " هوارة " (هوار) ذاتها ؟

وهذا السؤال كنا قد أجبنا عنه من قبل، ونرى أن ماسُطر منذ مدة مناسب نقله في هذا

1- شاكر، الموسوعة البربرية، قارن ما يقول في نفس الموسوعة، المجلد الخامس، ص 659

2- Lua أو Luwa جذرها (LW). وفي البربرية كثيراً جداً ما تقلب في الأصل واواً، فالأصل إذاً هو الجذر (LB) الذي منه " الليبو " (الليبيون). وقد تحولت الباء في (LB) إلى واو في " لواته " المنقولة عن اللسان اللاتيني Levata من Leveta (= Lybu / Libu).

3 -Bates: The East Lib. Pp. 70-71

المقام[1].

عن الهكسوس.. وعن هوارة

في أوائل الألف الثانية ق. م وفي تاريخ لم يحدد بالضبط، جاءت إحدى الموجات البشرية مهاجرة إلى مصر من شرقها، واستطاعت أن تسيطر على الوادي متخذة من الدلتا مركزاً لها مدة طويلة من الزمن، قدرها المؤرخ " مانيثون " بـ 510 من السنين، وعرف أهلها في كتب التاريخ بأسم " الهكسوس "[2].

وقد تمكن أهل الجنوب في مصر، بقيادة "أحمس" من القضاء على مملكة "الهكسوس"، وبذا أعاد توحيد القطرين من جديد. لكن "الهكسوس" لم يعودوا جميعاً من حيث أتوا – كما قيل لنا – بل إن فريقاً كبيراً منهم ظل في مصر، بينما مضى فريق آخر نحوالغرب حتى بلغ المغرب الأقصى وانتشر في شمال أفريقيا كله.

لم يتفق الباحثون – كالعادة – حول أصل " الهكسوس "، وإن اتفق معظمهم على أنهم (ساميون). قال بعضهم إنهم كنعانيون، وقال آخرون إنهم بابليون، وفريق ثالث قال إنهم فلسطينيون. ولكن (مانيثون) يرى أن " البعض يقول إنهم كانوا عرباً "[3] وهوهنا يقصد

---

1 - أنظر للكاتب: آلهة مصر العربية ؛ فصل بعنوان (عن " الهكسوس " و " هوارة ").

2- يرى " بروغش " (H.Brugsh: History of Egypt Under The Pharoahs, Vol. 1., p. 232) أن هذه هي التسمية الشعبية التي أطلقت على العرب (= الأعراب، البدو) الذين حكموا الدلتا قادمين من الشرق، ولم يكن " الهكسوس " يسمون أنفسهم بها. أما في النصوص المصرية التي تتحدث عنهم فإنهم يسمُّون " الأمو "Amu" (قارن تعليق " وادل " على ترجمته (تاريخ مانيثون) ص 76 – 77). وترى أن " أمو " هي ما يقابل العبرانية " أوميم "، بصفة الجمع بالميم، أي: القوام، غير العبرية (الأمم)، وتكافئ العربية "أميون"، وهي التعبير القرآن عن "العرب" {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّنَ رَسُولاً مِنْهُمْ}، "النَّبِيِّ الأُمِّيّ".

3- أنظر: تاريخ مانيثون، ص 76 – 77. ويجعلهم "بروغش" (المصدر السابق، ص 214 – 215) من "الأدوميين" استناداً إلى نقوش مصرية. والواقع أن هذه الأقوام كلها بأسمائها المختلفة ليست إلا فروعاً، قبائل وبطوناً، من "العروبيين" وهم كتلة بشرية واحدة تنوعت أسماء وصفاته. هذا ما ينطبق

أهل الجزيرة بالذات. وهذا الرأي في عروبة " الهكسوس " أصبح مقبولاً تماماً لدى طائفة كبيرة من الباحثين. وما يعنينا هنا هو التسمية التي أطلقت، وهي التي نقلت إلينا في لسان اليونان وانتقلت من بعد كما هي إلى بقية اللغات، ومنها العربية، وهكذا.. "هكسوس".

الاسم في صورته اليونانية Yksow's (Hyksos) منقول عن المصرية، وقد خضع لجملة تفسيرات، أولها ما ينقله " يوسفوس " عن " مانيثون " — الذي كتب باليونانية — من قوله إن الكلمة تعني في المصرية: الملوك الرعاة King-Shepherds إذ تعني hyk: ملك وsos: راعٍ، أو رعاة. ولكن " يوسفوس " يزعم أنه ورد في نسخةٍ أخرى من تاريخ " مانيثون " المفقود أن hyk وhak في المصرية تعني " أسير " / " أسري "، ولا يقدم دليلاً على ما يقول، وهو لعله أتي بهذا التفسير ليوائم ما يورده بعدئذ من حديث عن قصة يوسف حسب التراث اليهودي، ومن ادعائه أن " الهكسوس " كانوا هم بني إسرائيل الذين غزوا مصر واحتلوها مدة طويلة من الزمن.

واقع الأمر أن كلمتي hyk وhak في الصيغة اليونانية المنقولة عن المصرية كلمتان مختلفتان. فالأولى هي في المصرية " ح ق " وتعني: حكم، وجَّه، قاد، تسلط. ومنها مشتقات كثيرة جداً ترد في نفس الدلالة [1]. ويحددها الهيروغليفي صولجان الحكم، ويكافئها الأستاذ " مارسيل كومن " (Eassai (...Comp بالعربية " حقٌّ " Légalité (= شرعية) باعتبار الحكم حقاً شرعياً لا تنازل عنه، مما يشبه القول بـ " الحق الإلهي " الذي عرف في أوروبا في العصور القريبة نسبياً ويماثل اللقب الذي عرف به "سرقن" [2] البابلي في القديم. ومنذ فجر التاريخ كان " الحاكم " و" الحق " شيئاً واحداً — ولعله لا يزال !.

تماماً على ما يورده ابن خلدون في (تاريخه) عن أصل (البربر) مما سنعرض له بعد قليل.

1- معجم بدج، ص 512 – 513.

2- اللقب مكون من كلمتين: "سر" ملك . العربية: سريٌّ = شريف، رفيع + قن = شرعي . العربية: قانوني . أي: الملك الشرعي، الحاكم الحقيقي. في اللهجة: الحقّاني (قارن تسمية وزارة العدل مصر سابقاً: وزارة الحقانية = العدل، الحق) .

أما الثانية hak فإن "وادل" [1] يعلق بأن "يوسفوس" يتلاعب بكلمة "ح أ ق" haq المصرية التي تعني: "يقبض على، يأسر / أسر" [2] وعربية هذه الكلمة إما "حلق" (= أحاط – واللام لا توجد في الهيروغليفية) أو "حوق"، "حيق" بمعنى: أحاط، حوط – كذلك. هذا هومعنى "الأسر" أصلاً حين يحاط بالمأسور، أوحين يكتف مثلاً.

بيد أن الباحثين في جملتهم تقبلوا فكرة أن "ح ق" المصرية تعني: حكم، حاكم (الحق) وهوالمقطع الأول من "هكسوس" كما ورد إلينا عن طريق اليونانية (hyk): إذ كانوا هم الحكام ولم يكونوا الأسرى.

هذا عن المقطع الأول. أما المقطع الثاني فقد جاءنا في صورة sos، وهي – كما يقول "مانيثون" – تعني "راع" أو "رعاة" في المصرية. ويعلق "وادل" (المصدر السابق) بأن هذا صحيح؛ فإن الكلمة المصرية "ش أ س" تعني "بدو" هي التي صارت في القبطية shos (راع). بيد أن المعنى الأصلي للكلمة كان في ما يبدوالمشي مطلقاً [3]. وتفيد الكلمة ومشتقاتها: المشي، السعي، السفر، ومنها "ش أ س و" = البدوالرُّحَّل (من: رَحَلَ) أي غير المستقرين في مكان.

الأستاذ "إمبير" (H.Ember: Egypto - Semito Studies) يقابل الكلمة المصرية Sosawa بالاثيوبية (= أسرع في المشي، هرول) وبالعبرية sis (= حصان، خطاف) لشهرة هذين الحيوانين بالسرعة (*). ومن الواضح تعاقب الشين المعجمة والسين المهملة وسقوط

---

1 - Waddell: Manetho, p. 85-

2- معجم بدج، ص 464.

3- المرجع نفسه، ص727 - 728.

* في الحكايات الشعبية الليبية؛ وفي تونس، يسمى الخطاف: "أم سيسي"، وهي تسمية متداولة في الدارجة. وفي لغة الطفولة يدعى الحصان: "صَص". وفي اللهجة المعاصرة المصرية يدعى الحصان الصغير: "سيسي" صلة بالدواب، والخيول خاصة، ومنها: السائس = راعي الخيول ومروِّضها. دخلت الإنكليزية عن طريق الهندية – كما يقول "معجم أكسفورد" الاشتقاق في صورة: syce, sice.

الهمزة من المصرية " ش أ س " في المصرية ذاتها ؛ إذ نقرأ في معجمها كلمة " س س م " ssm = زوج من الخيل) وهي أصلاً صيغة جمع عروبية بالميم أخذت باعتبارها مفردة فكانت منها المصرية "س س م ت" ssmt بمعنى "فرس" [(1)].

ولم تنته الرحلة بعد ؛ فإن الجذر الثنائي "س س" أدى إلى الثلاثي "سوس" من ناحية ومنه : سياسة الدواب ساس، يسوس) أي القيام عليها، وسياسة الناس، أي ترويضهم أوتسييرهم)، والسياسة : فعل السائس في (في لغتنا الحديثة انبثقت منها : السياسي، على النسبة ولم تكن معروفة في القديم) ثم الثلاثي "سيس" من ناحية اخرى وفي هذه المادة ورد في " اللسان " :

"يقال : هؤلاء بنوساسان للسُؤّال ". أي للمتسولين أو" الشحاذين " [(**)]. فمن أين جاء هذا التعبير؟.

الجواب يكمن في أن " السوّال " ليسوا ألا سعاة من باب إلى باب فهم " رحل " أصلا لا يستقرون. وهذا ما يعود بنا ثانية إلى الكلمة المصرية "س س" في المقطع الثاني من هكسوس في معناها الأصلي وما تطور إليه بعد ذاك من معان تبعد عن الأصل.

1- معجم بدج، ص 696 .

** يعرفون أيضاً بـ " المكدِّين " و " بني ساسان " . تردد ذكر " بني ساسان " بمعنى المتسولين في (المقامة الحلواني) للحريري وفي (المقامة الساسانية) لبديع الزمان الهمداني . وقد ناقش الكثيرون منشأ كلمة " ساسان " وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، فمنهم من جعلهم من الغجر (الزط، أو النور) ينتمون إلى طبقة " السوداس " الهندية الوضعية، ومنهم من جعلهم ينتمون إلى الدولة " الساسانية " الفرسية بعد أن سحقها الإسلام، فانقلب لقب الشرف والعز إلى معنى التحقير، وبين القائلين بهذا الشيخ محمد عبده في شرحه لمقامات بديع الزمان . كما عالج المسألة الدكتور طه الحاجري في تعليقه على كتاب (البخلاء) للجاحظ . وقد يهانتبه الدكتور جميل سلطان في كتابه (فن القصة والمقامة) الى أن النون في " الساسان " زايدة ولعلها في الأصل نون تنوين، غير أنه ذهب الى صلة " بني ساسا " بطائفة " السوداس " الهندية (الزطية / النجرية). (انظر التفصيل في مقدمة فاروق سعد لمقاومات بديع الزمان الهمذاني . دار الافاق الجديدة بيروت 1982 م . ص18- 20). لكن احداء في ما يبدو، لم ينتبه لعلاقة " الهكسوس " والمقطع الثاني بالذات من الكلمة بـ(بني ساسا) وما نناقش في هذه الصفحات .

الطريف أن هذه الكلمة الرحالة في جذورها "س س" موجودة حتى اليوم في اللهجة الليبية المعاصرة: "ساساي" + سائل، شحاذ، وتجمع على "سواسي" وتفعل: "يساسي"، والاسم / المصدر: "مساساة". بل هي انتقلت إلى اللغة المالطية فكانت "سيسيا" Sisiya " سؤال، طلب، تسوُّل.

على هذا الأساس ترجمت "هكسوس" إلى الإنكليزية :KingsShepherds Shepherds- Kings (الملوك الرعاة /الرعاة الملوك). وقد سرت هذه الترجمة وانتشرت. وصحيح أن تطور الدلالة قد يؤدي إلى هذا المعنى. ولكننا عرفنا أن الجذر "س س" يعني في اللغات العروبية، ومنها المصرية، "الحصان". ومن المسلم به تاريخيا أن وادي النيل لم يعرف لأهله استخدام الحصان قبل هجرة "الهكسوس" أليها، إذ هم الذين جاءوا باستخدام عربات القتال في الحرب وهوسبب انتصارهم في معاركهم ضد أهل البلاد القارين[1]. ومن هنا نرى أن معنى اسمهم ينبغي أن يكون: "ملوك الخيل" بدلا من "ملوك الرعاة" أوهم "أصحاب الخيول"، أو"أهل الخيل"*

يتحدث ابن خلدون في تاريخه (العبر) عن قبائل (البربر) وأنسابها حديثا مشوشاً بنقول متناقضة صارخة التناقض. ومن نافلة القول أن عبقرية ابن خلدون التي تجلت في "المقدمة" تبدوفي "تاريخه" وكأنها مسحت تماما: إذ تكاد تنعدم لديه روح النقد والتمحيص، فإذا نقد قولا كان نقده أغرب من القول وأشنع.وعلميا لا يمكن التعويل على ابن خلدون، وأضرابه من الاخباريين العرب، إلا في ما ندر أوقرب منه تاريخاً وأحداثاً.

والذي يهمنا هنا حديثه عن قبيلة "هوارة"، التي تكتب احيانا بضم الهاء أحيانا

---

1 - Rawlinson;AncientEgyp.132-146

* عودة الى المقطع الأول "ح ق" hq(ملك – حق): إذ هي مستعملة الآن في بعض الاقطار العربية بمعني: صاحب، مالك، ذو (= بتاع – في لهجات اخرى) = الانكليزية of (أداة الملكية). بذا تكون "ح ق. س س" (Those) of The Horses = أصحاب / اهل / ذوو الخيول.

بفتحها، وهي قبيلة مشهورة وافرة العدد ذات فروع كثيرة. فنرى ابن خلدون يجعل " هوارة " هذه مرة ممن يسميهم " البرانس " من البربر، أبناء " هوار " بن " أوريغ " الذي كان أخا لصنهاج ولمط (أبوي قبيلتي صنهاجة ولمطة) من ناحية الأم. ومن " هوار " هذا كانت قبائل أخرى من " البتر " ضمن أربعة اجذام. وينقل مرة عن الصولي البكري القول بأن هوارة ولمطة ولواته ينتسبون الى حمير بن سبا، كما يورد القول بأن هوارة تزعم انها من كندة من " السكاسك ".

عن أصل " البربر " يورد ابن خلدون أقوالا كثيرة: فهم من أبناء ابراهيم، وأوزاع من اليمن، أوفلسطين " فلما وصلوا مصر منعهم ملوك مصر النزول فعبروا النيل وانتشروا في البلاد ". وهم من ولد النعمان بن حمير بن سبأ، ومن ولد جالوت وأخلاط من كنعان والعماليق، وقبائل شتى من حِمْيَر ومضر والقبط والعمالقة وكنعان وقريش، تلاقوا بالشام واستجاشهم " أفريقش " لفتح أفريقية، " والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم انهم من ولد كنعان بن حام بن نوح... وأن اسم أبيهم مازيغ... وإخوانهم بنوكسلوحيم بن مصرائيم بن حام... وقال الصولي البكري: إن الشيطان نزغ بين حام وبني سام فانجلى بنوحام إلى أهل المغرب..وقال بعض أهل الآثار إن الشيطان نزغ بين بني حام وبني سام فوقعت بينهم مناوشات... وخرج حام(الأصل سام) إلى المغرب وقدم إلى مصر وتفرق بنوه ومضي على رجله حتى بلغ السوس الأقصى، فخرج بنوه في إثره يطلبونه فكل طائفة من ولده بلغت موضعا وانقطع عنهم خبره، فاقاموا بذلك الموضع وتناسلوا فيه ووصلت اليهم طائفة، وتناسلوا هناك ".

من هذا الخلط الفاجع يمكننا أن نلحظ الصلات الوثيقة بين " البربر " عروبيي المغرب — من جهة والكنعانيين أوالعماليق، والمصريين، والفلسطينيين، واليمنيين، والشوام — عروبي المشرق — من جهة أخرى. بل نرى الصلة بين " بني سام " وبني حام " الذين كانوا امة واحدة حتى " نزغ الشيطان بينهم " فتفرقوا. وسبب هذا الخلط، في ما نرى يعود إلى أن ابن خلدون، ومن نقل عنهم من الإخباريين، كان يصر دائما على ارجاع نسب كل قبيلة، أوشعب، إلى جد اعلى لابد ان يكون معروفا اسمه ونسبة، تتفرع عنه البطون والأفخاذ حسب الأبناء

وأسمائهم، ثم يتفرع هولاء ومن جاء بعدهم.. هكذا – كالشجرة ذات الفروع، ومن هنا جاءت فكرة (شجرة النسب) المعروفة جيدا في التاريخ العربي.

هذا التقسيم النسبي Geneological أدى إلى ما نعرف من ارتباك في تاريخ القبائل والشعوب العروبية القديمة، وهوتقسيم مبني – للأسف الشديد – على التراث اليهودي التوارتي بما فيه من اضطراب يبدومن التقسيم الأول لأبناء آدم في "سفر التكوين"(*) ولكن تظل – رغم كل شيء – قبسات هنا وهناك يمكن الاهتداء بها وتدعيمها على أساس من البحث التأريخي (الآثاري واللغوي) المقارن.

فلنرجع إلى "هوارة".

خذ مثلا قوله إن هوارة تزعم أنها تنتمي إلى "السكاسك" فمن هم "السكاسك" هؤلاء ؟

ورد في (اللسان):

"سكسك بن أشرس، من أقيال (الملوك) اليمن، السكاسك والسكاسكة: حي من اليمن ابوهم ذلك الرجل. والسكاسك، أبوقبيلة من اليمن، وهوالسكاسك بن واثلة بن حمير بن سبأ، والنسبة إليهم، سكسكي".

وملاحظاتنا:

1- لماذا اختلفت التسمية ما بين "سكسك (بن أشرس) مرة و"سكاسك" (بن واثلة) مرة أخرى ؟ الأولى مفردة والثانية جمع.

2- لا وجود تاريخيا ل"واثلة بن حمير بن سبأ". فكلمة "سبأ" ليست اسم شخص بل هي اسم شعب. وبذا فإن التسلسل النسبي باطل، مثله مثل بقية الأنساب.

3- كثير من الأسماء في الأنساب موضوع ومطعون فيه، فقد كان النسابون وضاعين

---

* انظر (الإصحاح الرابع) عن قعب آدم وقارنه بما ورد في (الإصحاح الخامس) من "سفر التكوين".

معروفين لعوامل كثيرة مختلفة(*).

بعد هذا... ما الذي يمنع أن تكون " السكاسك التي انتسبت اليها " هوارة " هي ذاتها تحريفاً عربياً لليونانية " هكسوس " التي كانت تحريفاً بدورها للعروبية المصرية "ح ق. س س " كما مر البيان ؟

أنها بقايا ذكريات التسمية القديمة ظلت سارية في شمال أفريقيا حتى جاء الفتح الإسلامي فقرن بينها وبين " سكاسك " اليمن، مهما كانت نشأة هذه التسمية في الأسطورة والتاريخ.

هل يبدو هذا القول غريباً ؟

فلنردفه بقول آخر... عن أصل تسمية " هوارة " ذاتها: ابن خلدون ينسبهم إلى " هوارة " بن "أوريغ"** في ذلك الخلط المشوش كما رأيت... من (البربر) البتر تارة ومن البرانس تارة أخرى، أوهم – كما يزعمون – من حمير بن سبأ. فلنعد إلى " الهكسوس ".

تتحدث المراجع عن أن " الهكسوس " استقروا لمدة طويلة من الزمان حكاماً في شمال وادي النيل، وكان سلطانهم مبسوطاً على الجنوب أيضا نفوذاً وسيطرة. وتتحدث عن مدنية

---

* قارن: كتاب الاكليل، للهمداني، تحقيق محمد علي الأكوع، منشورات المدنية، ط3 – بيروت 1986م. الجزء الول، ص 358. وفيه يتضح الخلط والاتبارك في الأنساب، ومن ذلك الحديث عن سكسك، او السكاسك، بن أشرس وغيره.

** وفي ربط ابن خلدون بين " هوارة " و" أوريغ " يمكنن أن نلحظ الصلة بيين عاصمة الهكسوس " هور" hwr والعاصمة السومرية " أرك " (Ur-Ki)Uruk التي تعرف في التوارة في صورة Erech وهي تعرف الآن في العراق بصورة "الوركا " Warka التي سيلي الحديث عنها بعد قليل. وفي ظني ان الانساب التي يسردها ابن خلدون وغيرها من الاخباريين المسلمين تحتاج الى اعادة نظر ودراسة جديدة على ضوء الاكتشافات الاثرية واللغات العروبية القديمة، إذ لا ريب عندي في أن كتابات هؤلاء الاخباريين من مثل المسعودي ورفاقه تحتوى على اصداء من الماضي البعيد مشوشة بحكم بعد الزمان وعدم معرفتهم باللغات القديمة، فانعدمت لديهم غمكانية البحث المقارن والتمحيص الدقيق.

شهيرة بنوها وكانت عاصمة لهم* يكتب اسمهما في المصادر بأشكال مختلفة وإن تقاربت : في المصرية : " ح ت. وع ر. ت"**.

(عاصمة إقليم " إ م ن. ت " = I m n. t. Libya Mareotis).

" ح ت. وع ر. غ م ن ت ".

(قسم من عاصمة إقليم " إ م ن ت").

(معجم بدج، ص 1015).

في اليونانية Theolodoas Avarin (ثيولوغباس أوارين).

(أوارين الدينية / المقدسة).

(تاريخ " ما نيثون "، ص 80).

في الانكليزية: تنقل عن اليونانية في شكلي Avaris, Auaris)[1].

فاسم عاصمة " الهكسوس " هذه لا يعني شيأً سوى: " المدنية "، أوما يؤدي الى معناها من الإحاطة والتسوير، أوالإقامة والاستقرار. ولنا في تاريخ تسميات المدن الكبرى أمثلة تشير

---

* لم يتحدد موقع هذه العاصمة بدقة ، وإن اتفق على انها كانت في شرق الدلتا . وقد ربط موقعها ب" بوبا ستيس " Bubastis (تل البسطة) وب"سائيس " Sais(صا الحجر، أوصار الحجر)، أو " تانيس " Tanis(تنس)، واماكن اخرى . (أنظر : - Waddell;Manetho,p:80 81) ومن راي " رولنسون " Rawlinson;Ancient (Edypt,p.138-139) أن " الهكسوس " بنوا مدنا عديدة منها العاصمة Avaris على فرع رشيد و"زوان " Zoan (كما ترد في التوارة ى) وهي " صا/ صان " والتي هي موقع يسمى (مبت فارس) الآن عند الفيوم .

** لاحظ ان المصرية "ح ت" تعني: ةدار، بيت، قلعة . عربيتها: " حط < حيط / : حائط " . باعتبار " و(ع) ر " صارت اسم فأن "ح ت . وع ر ت " = قلعة " ح ت . وع ر . إ م ن ت " " قلعة مدنية (إقليم) إمنت".

1- Rawlinson, Ancient Egypt, 138.

إلى أن الأصل فيها هذه الدلالة (*). لذا فإن البحث يتجه نحومكافئ عربي للصيغ التي أوردنا ؛ فالمصرية " وع ر " هي في الواقع " ور " فإن العين في الكتابة الهيروغليفية كثيرا ما تضاف ونجدها تسقط عند المقابلة بالعربية ، أوالعروبيات ، أوتبدل(**) واليونانية " اواريـن " auarin و" اقاريس " avaris في الأصل – aur(اور) ، ومعلوم جدا أن الهاء في العروبيات تقلب في اليونانية القديمة همزة ، وفي اليونانية الحديثة حلت الهمزة محل الهاء في اليونانية القديمة حتى في الأسماء ، وهوأمر معروف. فالأصل في اليونانية إذا هو" هور " = " أور" ولعل هذا هوالنطق الأصلي لاسم عاصمة " الهكسوس " : " هور " (***).

فما المقابل العربي ؟

إنه في مادة " ح ور " في السبئية.

في معجم " بيلا [1] نجد ان " ح ور " في النصوص السبئية تفيد معنيين : 1) الذهاب. 2) الاستقرار. وقد يبدوان هاتين الدلالتين متضادتان ولكن الأمر ليس كذلك : فمعني الذهاب والمضي (وأحيانا : الإياب) يأتي من " حور " بمعني : مشى ، سعى ، قدم****.

---

* قارن : (أوغاريت) Ugaril – عاصمة الكنعانيين = " قرت " = (ال) قرية . و" قرطاج " > " قرت – ي حدشت " القرية (أوغاريت) الحديثة =الجديدة . " مصر " = المصورة /المسورة . " أبيدوس " > (أ ن د "(عاصمة الجنوب في مصر)=ابد=مدن>مدنية .

** قارن مثلا المصرية "ن ع ر " (ماء) الأكادية "نارو" nar العربية "نهر" .

*** " برغش " وحده ، في ما اطلعت عليه من مراجع اجنبية ، يكتب الاسم Hauar، وأن ذهب في التحليل معناه مذهبا آخر(Historyof Egypt,VOl.203-4) وقد فعل الشيء نفسه الدكتور عبد العزيز صالح (حضارة مصر القديمة، ص 40- 39) الذي يكتبها " هوارة – عن الاصل القديم" حت وعرة " ويقول إنها تسمية يصعب تفسيرها فهي قد تعني : قصر الربوة ، أو قصر الناحية ، أو دار الساق . وهو في هذا يتبع تفسرات العلماء الأجانب تفسيرنا نحن أن " ح ت . وع ر ت " = (1) " ح ت " حيط ، حائط =مدنية +(2) " وع ر ت " = " و هـ ر ت " مقلوب " هـ و ر ت. " والتاء في آخرها للتأنيث.= (مدنية هور)= هوارة .

1 -J.Biella, Dict., 170.1

**** قارن القرآن الكريم (إنه ظن أن لن يحور) (الانشقاق : 14) أي لن يعود .

وتقارن بالاثيوبية " حورا " Hora= يذهب(**). والأصل: التردد (**)، الدوران حول، أي: الحيرة (حور = حير)، اما معني الاستقرار فقد جاء من " حور " ايضا بمعنى الإحاطة والشمول، الدوران.. إذ تبني المدنية، أوالقرية أوالمستقر مهما كان، فتحاط بسور حولها، يحورها = يحوطها، يحويها، هنا نقارن " ح ور " (= مدنية) بالعربية: " حارة (***) = قسم من مدنية. وفي لهجة جنوب الجزيرة العربية المعاصرة: حارة = قرية (****) (المصدر نفسه – مع نصوص مقارنة).

كيف تحولت " حور إلى " هور" ؟

الأمر لا يعدوتعاقب الحاء والهاء – وهما من مخرج صوت واحد – وكثيراً ما يتعاقبان في العربية ذاتها (قارن: مدهه = مدحه).

كان اسم عاصمة " الهكسوس " في مصر إذا هو" هور " وطبيعي جداً أن ينسب القوم اليها. فنحن نعرف الكثير عن هذه النسبة إلى المدن (البابليون نسبة إلى " باب – إل " = مدنية إل " والأشوريون نسبة إلى مدنية " أشور " وقس على هذا: القرطاجيون = قرطاجة، المصريون = مصر (المصر = المدنية)، وعشرات الأمثلة في القديم والحديث). فهم: الهواريون = الهوارة*****.

فما الذي جاء بهم إلى شمال أفريقيا، ليصبحوا قسماً من قبائل (البربر) يا ترى ؟

التاريخ يحكي عن ثورة الجنوب على الشمال في وادي النيل، وزحف الجنوبيين على

---

*، ** في اللهجة الليبية: دهب = ضل، احتار. " اندهبت شيرته " = حار في أمره = ضلت مشورته.

*** مادة " حور / حير " أدت الى تسميات مد أخرى في الوطن العربي من مثل: " الحيرة " (عاصمة المناذرة) و" حوران " في بلاد الشام.

**** كذلك بمصراته في (ليبيا) بمنطقة الزروق، هناك قرية كانت تسمى " الحويرة ".

***** بوزن فعالة. قارن: خرازة = خرازون، فحامة = فحامون، بحارة = بحارون، خالية = خاليون، نظارة = نظارون

الشماليين أي على " الهكسوس " – تماما كما فعل " مينا " في الألف الرابعة قبل الميلاد. وهوالزحف الذي أحيط بهالة كبيرة من التزييف والمبالغة في المصادر المصرية (إذ من طبيعة أي نظام حكم جديد أن يسيء الى سابقه، ليبرر سيطرته هو) وفي كتابات علماء الغرب عن تلك الفترة من تاريخ الوادي، لأهداف لا تخفي عن الناظر المتفحص. كانت الثورة، أوالزحف الجنوبي، بقيادة " أحمس " كما هومعروف وهوالذي صار بطلاً " قومياً " بعد ذاك وقد سقطت " هوارة " العاصمة " الهكسوسية " وسقط تبعاً لذلك نظام حكمهم. وقيل إنهم " طردوا " من مصر وأعيدوا ادراجهم من حيث اتوا... جمعياً بدون استثناء، فرداً فرداً، كل " هكسوسي " وكل هكسوسية" عن بكرة أبيهم، نحوالشرق.

هل هذا معقول ؟

يذكر " مانيثون " في تاريخه (ص 83) أن حامية " هور " وحدها كانت تتكون من 240000 (مائتين وأربعين ألف) جندي مدجج بالسلاح، فكم كان يبلغ عدد " الهكسوس " إذا، وقد كانوا يحكمون الدلتا كلها بأقاليمها حكما مباشراً ويبسطون نفوذهم العسكري والسياسي والاقتصادي على الصعيد ؟وتقول بعض المصادر إن حكم " الهكسوس " استمر خمسمائة عام، وفي مصادر أخرى مائتي عام. فلنأخذ بالمتوسط.. ثلاثمائة عام فكم تراهم تناموا في تلك الفترة ؟ وهل من المعقول أنهم لم يندمجوا بعناصر السكان في الوادي ؟ثم لماذا يعودون إلى المشرق وحده، وهوالذي جاءوا منه ؟ أليس من المعقول أن ينتشروا، بعد انتهاء حكمهم شرقاً وغرباً اعني أن يسيحوا في الأرض ؟

وقد قرانا عند ابن خلدون بقية من فكرة تقول إن " حام خرج إلى المغرب وقدم إلى مصر وتفرق بنوه ومضى على وجهه حتى بلغ السوس الأقصى، فخرج بنوه في إثره يطلبونه، فكل طائفة من ولده بلغت موضعاً وانقطع عنهم خبره أقاموا بذلك الموضع وتناسلوا فيه ووصلت اليهم طائفة وتناسلوا هناك". أوقوله عن مجئ (البربر) من فلسطين : " فلما وصلوا مصر منعهم ملوك مصر النزول، فعبروا النيل، وانتشروا في البلاد ضع كلمة " الهكسوس " بدلا من " حام " (ولا تنس أن الهكسوس قيل انهم من الكنعانيين وهم في التوراة من ولد حام) أوبدلا من (البربر) الذين قدموا من فلسطين تجد الصورة منطبقة. ولن نناقش

التفاصيل، وانما المهم أنه كانت هجرة من الشرق، عبر مصر، إلى المغرب... وهي واحدة من هجرات كثيرة متواصلة متبادلة بين المشرق والمغرب، في أي صورة كانت هذه الهجرة.

فلنقل بعد هذا إن الهكسوس " (أهل مدينة " هور " = " هوار " = " هوارة " غادروا _ أوعلى وجه الدقة : غادر بعضهم _ العاصمة التي سقطت، فمنهم من غرّب ومنهم من شرق، ومنهم من صار جزْءاً من سكان مصر واندمجوا في تلك البوتقة العظيمة الصاهرة، فالذين غربوا كانوا قبيلة هوارة (البربرية) ولا نستبعد هنا العودة التي نشأة الاسم الاول (هور = حور)، فكانوا هوارة " بمعنى " الرُّحل " البدوالساعين أبداً _ يحورون هنا وهناك.

أما الذين شرقوا فقد كان لهم حديث آخر يهمنا منه رواية " يوسفوس " عن " مانثون " أن، حوالي ربع مليون من " الهكسوس " غادروا مصر شرقاً، بعد معاهدة صلح مع " أحمس " ومضوا الى الشام، وهناك " بنوا في الارض التي تدعى اليوم " يهودا " judaea مدينة على قدر من الضخامة تتسع معه لتلك الآلاف من الناس، وأطلقوا عليها اسم (أورشليم) " Jerusalem [1].

أما معنى التسمية فهوباتفاق " مدينة السلام " وكلمة سلام / سَلُمْ " العربية كلمة عروبية قديمة جداً، وجدت في نقوش " رأس شمرا " الكنعانية " ش ل م " s l m واستعملها الفرعون " مرنبتاح " أواخر القرن الثالث عشر في لوحة انتصاراته على (الفزوالليبي الأول) " ش ر م " s r m " (ر= ل) [2]. وفي البابلية تدخل في اسم " شلمنصر " : " شلم + نصر " ؛ كما تدخل في اسم "سلمن" = "سليمان". وهي المقطع الأول من اسم المدينة المقدسة.

ويلفت النظر فعلا أن يبني الهكسوس " الذين وصموا بكل نقيصة، فهم القتلة وسفاكوالدماء والمخربون وذابحوالأطفال والنساء، أن يبني هؤلاء " المجرمون " مدينة جديدة في " منفاهم " فيسمونها " مدينة السلام ". وحتى لوقيل لنا ان " سلم / ش ل م " اسم اله معبود لديهم فما من شك في أن التسمية تدل على السلام والأمن والطمأنينة وتنطبق على

1- تاريخ " مانيثون "، ص 89.

2- معجم بدج، 727.

معبود رحيم طيب، يخالف كل المخالفة معبود اليهود " يهوه " من بعد بكل فظاعته وفظائعه الدموية.

شيد " الهكسوس " مدينة السلام.. " أورشليم " وقد تبين المقطع الثاني من الاسم المركب، ويبقى المقطع الأول: " أور " أو" أر " u r ، ومعناه _ كما قلنا: " مدينة " وهوورد في النص اليوناني IEPO، وينقل الى اللغات الأوروبية jeru (حرف j ينطق أحيانا ياءً، قارن heleluja = هللويا). والعجيب أن الاستاذ " وادل " waddell مترجم روايات تاريخ " مانيثون "[1] يورد أسماء مدن فيها هذا المقطع من مثل (jeru-ba al). (مدينة بعل) jeru-e l، (مدينة إل)، Jeru - wstas (مدينة وتش)، ويقول أنه " غير (سامي) " (!).

أنظر إلى اليونانية IEPO(hero) تجد الحرف الأول منها مبدلاً من الهاء — كالعادة — فـي (هيرو) والهاء مبدلة من الحاء في " حر " التي تعادل بالضبط " حور " (السبئية " ح ور ") ومن الأولى "الحيرة" ومن الثانية "حوران"، على سبيل المثال، وكلاهما = قرية، مدينة، بلد.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا نجد كلمة "أر" ur بمعنى "مدنية" في النقوش الأكادية بالقلم المسماري (Uru (>ur وهي صارت بالتمييم (كما في السبئية = في العربية: التنوين): Urim ،Urum في حالتي الرفع والجر (فالأكادية لغة معربة — أي تظهر الحركات في أواخر كلماتها كالعربية)[2].

ولعل هذه الكلمة ذاتها كانت في العربية مميمة "إرم"(*). ويقرر الاستاذ " ألبرايت"[1] أن

---

1 - أنظر صفحات 88- 89 .

2- انظر في ذلك: رمضان عبد التواب: فصول في فقه اللغة العربية، ص 369- 395.

* وهي التي ورد ذكرها في القرآن الكريم (ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلد* وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذي الاوتاد)(سورة الفجر، الآيات 6-10). وقد نسبت " ارم إلى عاد، وهذا لايمنع ان تكون نفس التسمية في العراق أو غيرها من أقطار الوطن العربي، فإن اسماء مدن كثيرة تترد في أقطار عديدة (حضر موت في جنوب الجزيرة، وحضر موت (سوسة) الآن في تونس، على سبيل = المثال فقط). ويذكر مؤلفا كتاب (ابلا .. لغز آثاري (Edla,An Archaelogical Enigma.p.191) انه عثر في اثارها على اسماء " ثمرد " في صورة

تغيرات صوتية حديت دون شك في نطق هذه الكلمة وهي ذاتها(**) Uruk المدنية السومرية العتيقة.

وقد يقول قائل عن الكلمة سومرية الأصل، وليست عروبية، أو" غير سامية " كما قال " وادل " وذلك باعتبار السومريين عنصراً قطن بلاد النهرين قبل وصول (الساميين)، وهذا رأي شائع عند الباحثين ومنهم العرب للأسف، تدحضه المقارنات اللغوية بين السومرية، وبقية اللغات العروبية، ويدحضه قول باحث معروف هوالاستاذ " البرايت " في (تاريخ كمبردج القديم) إن " كثيراً من العلماء اليوم يميلون إلى القول بأن (الساميين) كانوا هناك (في العراق) في نفس الفترة المبكرة (من التاريخ) التي فيها السومريون، وأنهم أثروا في الأخيرين مثلما اثر الاخيرون فيهم "[1].

هكذا إذا كان الأمر: جاء: الهكسوس " إلى مصر في إحدى الهجرات الكبرى من المشرق وسيطروا على الوادي قرونا، ثم انتهي ملكهم بسقوط عاصمتهم " هور " فمضى فريق منه غرباً وكانت قبيلة " هوارة " وعاد فريق آخر إلي الشرق، واستقر في فلسطين وبني " مدنية السلام " (أور – شليم) كما يعترف " يوسفوس " المؤرخ اليهودي ذاته، ولعلها كانت تنطق " هور " أبدلت الهاء همزة، كما تعاقبت الحاء في " حور " فهي مدنية عربية منذ فجر

Shamutu وعاد " Ad " و" ارم " Iram مما يطابق ما في القرآن الكريم. أما كيف تتحول الكلمة ميممة الى اسم علم فإننا نضرب مثلا من اللجهة الليبية المعاصرة، إذ نجد فيها كلمة " بنمية " بمعني " حجر " وتجمع على " بنميات " (أحجار) واسم الجنس منها " بنيم "، ولا جدال في أن هذه الأخير صيغة جمع بالميم ل"بن" = حجر في اللغات العروبية ؟، ومنها: بني يبني، بناء " بنيم " تماثل تماما " أر" > اريم " ثم سهلت الى " ارم " بكسر الهمزة في اولها.

1 -The Cambridge ancient history,vol.I, 149.

** هي ذاتها في التوارة Erech، وتنطق اليوم على السنة عرب العراق " وركا " Warka Krame,, The Sumerians,p.27) وقد تكون " ارك " ذات صلة بتسمية " العراق " ونلاحظ أن الاصل هو Ur فهو متطور عن المحدد KI في السومرية الذي يعني: بلاد، أرض (قارن العربية: قيا = أرض) وتاتي nخر الكلمة URU-KI {Uruk (= حرفيا: بلاد أور. أرض أور)

التاريخ وقبل أن يظهر العبرانيون على مسرح التاريخ بمئات السنين. وعندما جاء هؤلاء الى فلسطين غزاة وجدوا " مدنية السلام " قائمة مزدهرة، مدنية مقدسة، وقد صار اسم اهلها " الكنعانيين " (تذكر: في بعض الأقوال أن " الهكسوس " أصلا كنعانيون) وأسماهم العبرانيون: " العناقيم "، أي: العماليق، " الجبارين " بلغة القرآن الكريم (*).

هذا ما كان من أمر من شرق من عرب (الهكسوس). أما من غرب منهم فقد قطن نواحي برقة وطرابلس أولا، ثم ساح غربا فسكن تونس وما بعدها حتى المغرب، وانزاح إلى الجنوب فعمر فزان وبلاد الصحراء وعرفوا باسم " هوارة "... قبيلة عظيمة لها في التاريخ شأن أي شأن. وهم كانوا " هكارة " في بعض اللجهات.

تاريخ متشابك ما بين مشرق الوطن العربي الكبير ومغربه، متصل بعضه ببعض، مرتبطة أجزاؤه، لا تنفصم عراه مهما حاول المغرضون وزيف المزيفون.

---

* (قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين) (المائدة: 22) كان ذلك قول بني إسرائيل لنبيهم عندما طلب منهم القتال ولم يدخلوها في عهد موسى، حتى جاء ودخلها غازيا كما هو معروف.

العلاقة بين اللغة الليبية القديمة (الأمازيغية)

ولغات الشرق الأدنى القديم

د. محمد علي عيسى

جامعة الفاتح- طرابلس

اصطلح الكثير من باحثي التاريخ القديم على تسمية منطقة المغرب العربي باسم المغرب القديم، وذلك تسهيلاً لدراسة هذه المنطقة خلال عصورها التاريخية القديمة. والجدير بالذكر أن العلامة عبد الرحمن ابن خلدون في كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر، أطلق هذا الاسم على هذه المنطقة منذ أكثر من سبعة قرون مضت[1]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أطلق المؤرخ اليوناني(هيرودوت)على نفس المنطقة السالفة الذكر اسم ليبيا وعلى السكان أسم الليبيون[2]. وبالتالي فإن ليبيا والليبيون القدماء هي نفسها المغرب القديم وسكان المغرب القديم.

ومن خلال النتائج التي تم التوصل اليها من المعطيات الأثرية والأنثروبولوجية، تم التأكيد على أن الليبيين القدماء، الذين حلوا بمنطقة المغرب القديم منذ عصور ما قبل التاريخ كانوا عبارة عن هجرات قدمت من مناطق شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام ومنطقة ما بين النهرين، وهوالأمر الذي جعل اللغة الليبية القديمة(الأمازيغية)جزءاً من ذلك الواقع اللغوي لتلك المناطق التي اصطلح العلماء على تسميتها خطأ بالسامية، وهوما فضلنا تسميتها بالعربية القديمة، ولذلك فاللغة الليبية القديمة هي جزء من تلك المجموعة اللغوية العربية العريقة في القدم. وقد أشار إلى ذلك الكثير من الباحثين المرموقين، وعلى رأسهم الألماني

1- ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (الجزء السادس)، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، 1979م.، ص. 83.

2 - Herodote , Histoire , (texte etabli et traduit par Ph. E.legrand), societe d edition (les belles lettres), Paris , 1968 , IV ,181-187.

(روسلر). وكان للهجرات التي خرجت من شبه الجزيرة العربية الدور البارز في تكوّن الممالك والإمبراطوريات في مناطق ما بين النهرين والشام ووادي النيل وشمال افريقيا، ولم تكن هذه الهجرات السبب المباشر في تكوّن تلك الجماعات السكانية التي كونت تلك الإمبراطوريات والممالك فحسب، بل كانت السبب المباشر في ظهور اللغات واللهجات الكثيرة التي اصطلح العلماء على تسميتها فيما بعد باسم اللغات السامية[1] والحامية.

ومن أبرز تلك اللغات التي ظهرت بتلك المناطق اللغة الأكادية التي تفرعت عنها البابلية والأشورية، واللغة الآرامية التي تفرعت عنها السريانية والنبطية والتدمرية، واللغة الكنعانية التي تفرعت عنها الأوغاريتية والعبرية والمؤابية والأدومية والقرطاجية، واللغة العربية الجنوبية التي تكوّنت من اللغات المعينية والسبئية والحضرمية والقتبانية والتي تفرعت عنها الأثيوبية (الجعزية والتيجرينية والأمهرية والهررية)، ولغات شمال شبه الجزيرة العربية التي تتكون من الثمودية واللحيانية والصفوية والعربية الفصحى[2]. وقد نتج عن تلك الهجرات أيضاً ظهور اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) في منطقة وادي النيل واللغة الليبية القديمة(الأمازيغية)في منطقة المغرب القديم. وقد اتفق معظم الباحثين على إرجاع كل هذه اللغات إلى لغة أساسية أُولى أُطلق عليها اسم اللغة السامية الأم، وهي بالتأكيد اللغة العربية القديمة، التي كانت لغة المجموعات المهاجرة من شبه الجزيرة العربية، والتي بدأت في الوصول إلي تلك المناطق منذ عصور ما قبل التاريخ. ولهذا السبب نجد آثار هذه الوحدة اللغوية ظاهرة بكل وضوح على كل تلك المجموعات السالفة الذكر من خلال وحدة الثقافة والتفكير العقلي المتقارب.

العلاقة بين اللغة الليبية القديمة (الأمازيغية) واللغة الأكادية

تنسب اللغة الأكادية إلى الأكاديين الذين وصلوا منطقة ما بين النهرين عن طريق

1- أحمد، محمد خليفة حسن، رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م.ص.39.

2- هبو، احمد ارحيم، تاريخ الشرق القديم(1)سورية، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، 1999م.، ص.65.

هجرات جاءت من شمال شبه الجزيرة العربية، وكان ذلك منذ بداية الألف الثالثة قبل الميلاد.

إن عملية مقارنة اللغة الأكادية باللغة الليبية القديمة(الأمازيغية)يثير الكثير من الدهشة لدى المشككين في انتماء الليبيين القدماء لمناطق شبه الجزيرة العربية والشام وبلاد الرافدين، بسبب التشابه الكبير بين اللغتين الليبية والأكادية، رغم وقوع الأكادية في أقصى شرق الوطن العربي، ووقوع اللغة الليبية القديمة في أقصى غرب هذا الوطن، ويبدوذلك التشابه واضحاً من خلال اشتراكهما في مراحل تطورهما من خلال ما يطلق عليه اللغة السامية، ونجد اللغة الليبية القديمة تتشابه مع اللغة الأكادية في المجالات الصوتية والصرفية والمفرداتية. وقد أشار العلامة الألماني (روسلر) أن اللغة الليبية القديمة تلتقي مع اللغة الأكادية في عدد كبير من الجذور، وهوما يؤكد وحدة الأصل، والقرابة المعجمية بين اللغتين، وقد كانت اللغة الليبية القديمة لا تميز بين المعرفة والنكرة، حيث لا توجد بها أداة للتعريف شأنها في ذلك شأن اللغة الأكادية[1]، ومن خلال كل ذلك تتضح قرابة اللغتين، وهوالأمر الذي يؤدي إلى خطإ ما جاءت به نظريات العلم الإستعماري حول الأصل الأوربي لسكان المغرب القديم، الذي ما زال يُروج له الإقليميون وأعداء الأصل المشترك لسكان المنطقة الممتدة من المحيط إلى الخليج.

العلاقة بين اللغة الليبية القديمة واللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية)

يؤكد الكثير من الباحثين اللغويين بأن اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) ذات صلة أكيدة بما يسمى اللغة السامية الأم ويستدل أولئك الباحثون على هذه الصلة من خلال احتواء اللغة المصرية القديمة لحروف الحاء والعين والقاف، وشيوع المصدر الثلاثي لألفاظها، واستخدامها صيغة المثنى، والتأنيث بإضافة التاء، واستخدام باء النسبة وكاف الخطاب ونون الجمع، وتشابه عدد الضمائر فيها مع الضمائر في ما يعرف بالسامية الغربية، واشتراكها مع

1- الخضور، جمال الدين، عودة التاريخ الانثربولوجيا المعرفية العربية /دراسة في الاناسة المعرفية العربية التاريخية واللغوية ووحدتها/، الجزء الاول، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997 م، ص176،171.

اللغات السامية بعدد وافر من الألفاظ[1]. ويؤكد بعض العلماء أن أصل اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) وما يعرف باللغة السامية(اللغة العربية القديمة)واحد، وأن بعض الاختلافات الظاهرة الآن سببها اسقاط بعض الكلمات في بلاد العرب وبقاؤها في وادي النيل أوالعكس، أوبسبب الإبدال والقلب، أوبسبب التغيّر الذي يطرأ عند تعامل الأجانب مع لغة من اللغات[2] وعليه فمن الخطإ تأييد (لوفيبر)[3] في استنتاجاته بأن اللغة المصرية القديمة لغة إفريقية تأثرت بالسامية وليست سامية تأثرت بالإفريقية. وقد جاء (لوفيبر) بهذا الرأي اعتقاداً منه بأن اللغة الليبية القديمة، التي تأثرت بها اللغة المصرية القديمة ليست سامية. وربما نعطي (لوفيبر) في عهده بعض العذر في افتراضاته، وذلك لعدم توفر الأدلة التي تؤكد بأن اللغة الليبية القديمة لغة سامية، ولقد تأكدت حديثاً، لمعظم الباحثين بما لا يدع مجالاً للشك بوجود تجانس داخلي بين المجموعات اللغوية المصرية القديمة والليبية القديمة والكوشية والتشادية، وهوالأمر الذي يسمح لهؤلاء العلماء بمقابلة هذه المجموعات بالمجموعات المعروفة باسم السامية، ولذلك نجد الكثير من العلماء وعلى راسم (روسلر) يلحقون اللغة الليبية القديمة مباشرة بما أصطلح عليه بالمجموعة السامية، ولذلك فاللغة الليبية القديمة سامية مثلها مثل فروع السامية المتواجدة في شبه الجزيرة العربية والشام وبلاد الرافدين ووادي النيل وشرق افريقيا[4]. وبالتالي عندما نقول أن المصرية القديمة جذورها القديمة ليبية، فإننا نعني بدون شك تلك الجذور التي قلمت من الصحراء الكبرى، عندما بدأ السكان يغادرونها نحوالشمال والشمال الشرقي بسبب الجفاف الذي بدأ يحل بالمنطقة. وقد تعرفنا أن سكان الصحراء الكبرى جاءوا بكل ثقافاتهم ومعتقداتهم من شبه الجزيرة العربية والشام، وبالتالي فإن اللغة الليبية القديمة هي

1- هبو، تاريخ الشرق القديم سورية، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ص.94.

2- دروزة، محمد عزة، تاريخ الجنس العربي، الجزء 2، المكتبة العصرية، بيروت، 1376 هـ، ص.5.

3- خشيم، علي فهمي، آلهة مصر العربية، (الجزء الاول)، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان، دار الافاق الجديدة، مصراتة- الدار البيضاء، 1990 م.، ص.132.

4- العرباوي، محمد المختار، البربر عرب قدامى، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1993م.، ص.168. وكذا محمد المدلاوي، مبادي المقارنة الحامية- لسامية على ضوء مفهوم الفصائل الصوتية الطبيعية، مجلة كلية الآداب وجدة، العدد الأول، 1990م.ص.57.

الأخرى تنتمي إلى ما يطلق عليه اللغة السامية، وبالتالي فإن اللغة المصرية القديمة تأثرت بمؤثرات سامية قادمة من الشرق، سواء مباشرة، أوبعد وصول هذه المؤثرات إلى الصحراء الكبرى، وانتقالها فيما بعد نحووادي النيل والشمال بصفة عامة. ومما يؤكد انتماء اللغتين الليبية القديمة والمصرية القديمة إلى ما يعرف باللغة السامية (العربية القديمة)، ما يورده[1] (أوريك بيتس) في كتابه القيّم الليبيون الشرقيون، حين يؤكد أن اللغة المصرية القديمة سامية في طبيعة أفعالها، وهي تشترك مع اللغة الليبية القديمة في العديد من الملامح، ويبدوذلك واضحاً من حيث " إن للغتين كلتيهما جذور ضمائر ذات صلة بعضها ببعض، وهما تصوغان الجمع والضمائر المطلقة(أي المنفصلة) بنفس الطريقة. وكلتاهما تصوغان جمع المؤنث بأسلوب متقارب، وفي الاثنتين يستعمل حرف (ن) علامة إضافة غير مباشرة، وفيهما معاً تعامل المجردات وأسماء الجمع باعتبارها جموعاً قواعدية نحوية، وإلى جانب هذا الضرب من الصلات فإن مقارنة المفردات المصرية القديمة والليبية القديمة تظهر أن في اللغتين عدداً من الكلمات الأصلية البدائية المشتركة "[2].

العلاقة بين اللغة الليبية القديمة واللغة الكنعانية

يؤكد الكثير من المؤرخين على التأثير اللغوي الكنعاني على اللغة الليبية القديمة[3]. وهذا ليس جديداً، لأن الكنعانيين هم الذين علموا معظم شعوب العالم الأبجدية، ويرى بعض الباحثين[4] أن سكان المغرب القديم أقبلوا على اللغة الكنعانية، عندما وجدوا ما فيها من قرابة مع اللغة التي يتخاطبون بها، وذلك بسبب التواصل العرقي بينهم وبين الكنعانيين. ويؤكد هذه الحقيقة المؤرخ البيزنطي (بروكوبيوس القيصري) في القرن السادس الميلادي،

1- Oric Bates, The Eastern Libyans, Franc Cass and Co, London 1979 ,pp.81-84.

2- خشيم، آلهة مصر، الجزء 1، ص. 127،128.

3- غلاب، عبدالكريم، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1996 ص.195.

4 - المناصرة، عزالدين، المسألة الأمازيغية في الجزائر والمغرب اشكالية التعددية اللغوية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 1999 م.، ص.83.

حين يقول " لقد وجد الفينيقيون الذين هاجروا بصحبة (ديدون) عليسة، بين المستوطنين القدماء جماعات من بني جنسهم، لذلك أسسوا قرطاجة بإذن منهم"[1]. ويبدوواضحاً من قول (بروكوبيوس) أن تلك القرابات التى كانت تصل السكان الأوائل بالمهاجرين الجدد، قد سهلت على الأقل في المراحل الأولى عملية وضع حجر الأساس للنواة الأولى للكنعانيين في منطقة المغرب القديم. وهذا الأمر أدى فيما بعد كما يشير الكثير من الكتاب الكلاسيكيون وعلى رأسهم (ديودوروس الصقلي) و(استرابون) و(بليني الأكبر)، إلى تكون مجموعات سكانية جديدة كانت مزيجاً بين السكان الأوائل والمهاجرين الذين قدموا صحبة عليسة، فنتج عنه ما يطلق عليه أولئك الكتاب اسم " الليبيون- الفينيقيون"[2]. ولهذه الأسباب مجتمعة جاءت أبجديتهم تحتوي على الكثير من حروف لغات الشرق الأدنى القديم. ويُعتقد أن الملك مسنسن (ماسينيسا) هوالذي كان وراء ظهور أبجدية ليبية على نمط الحروف الهجائية الكنعانية، ولذلك فالمصدر الأساسي للغة الليبية القديمة هوالالفبائية الكنعانية[3]. ويكفي دليلاً على ذلك أن أبجدية الطوارق والمعروفة باسم التيفيناغ، والتي اشتقت عن الأبجدية الليبية القدية، ما هي إلا تحريف لكلمة تافنيقت، وهي مؤنث فينيقي باللغة الليبية القديمة. ومما لا شك فيه أن كلمة تيفيناغ لها صلة بكلمة الفينيقية، لأن مفرد الفينيقية باللغة الليبية القديمة هوافينيقي ومؤنتها تافينيقت. وهذه الكلمة الأخيرة هي نفسها تيفيناغ مع إبدال حرف القاف إلى غين، وهوأمر عادي في الكثير من اللغات العربية القديمة خاصة لغات جنوب شبه الجزيرة العربية. ومما يؤكد الصحة في استبدال حرف القاف بالغين أن الحرفين لهما مخرج صوتي واحد وهوالحلق. وعملية وحدة الأصل بين اللغة الليبية القديمة واللغة الكنعانية ليس غريباً، لأن سكان منطقة المغرب القديم عبارة عن موجات بشرية قدمت من الشرق منذ عصور ما قبل

---

1 - Jean Mazel,Avec lesPheniciens a la poursuitee du soleil sur la route de l' or et de l'etain Robert laffont .Paris ,1968.,P.190.

2- بازامة، محمد مصطفى، تاريخ ليبيا (1) عصور ما قبل التاريخ، الجزء الاول، منشورات الجامعة الليبية، بنغازى، 1973م، ص ص.252، 256، 275.

3- المرجع نفسه، ص.77.

التاريخ، وكانت آخر الموجات القوية التي وصلت المنطقة في العصور القديمة تلك الهجرات التي كانت السبب في إنشاء مدينة قرطاجة، ولذلك فمن الطبيعي أن يكتب هؤلاء لغتهم بالكنعانية، ولا يوجد أي دليل يثبت أن الكتابة الليبية القديمة عرفت قبل القرن الثالث أوالثاني قبل الميلاد. ومن المؤكد لدى جميع العلماء أن الليبيين القدماء بدأوا يكتبون لغتهم التى لم تتعد النقوش النذرية، تحت تأثير الكتابة الكنعانية[1]. ويرتاح العلماء كثيراً إلى هذا الأصل الكنعاني بسبب وجود مستوطنات كنعانية مبكرة ضمن أراضي الليبيين القدماء مثل أوتيكا وقرطاجة[2]، بالإضافة إلى وجود أبجدية مشتركة بين اللغة الليبية القديمة وحروف اللغة الكنعانية الشرقية، والكنعانية الغربية (البونيقية)[3]. وواضح جداً أن حرف الجيم المعطش، وحرف التاء في الليبية القديمة يشبهان حرفي الجيم والتاء في الكنعانية الشرقية والكنعانية الغربية (البونيقية)، وأن حرف الزاي في الليبية القديمة يشبه حرف الزاي في الكنعانية الشرقية، وأن حرف القاف في الليبية القديمة يشبه حرف الكاف في الكنعانية الغربية (البونيقية)، وأن حرف الشين في الليبية القديمة يشبه حرف الشين في الكنعانية الشرقية.

العلاقة بين اللغة الليبية القديمة ولغات جنوب شبه الجزيرة العربية

إستطعنا التعرف على لغات جنوب شبه الجزيرة العربية من خلال النقوش الكثيرة، التي عرف منها حتى الآن أكثر من عشرة الآف نقش، وهذه اللغات هي لغات عربية، ولكنها غير العربية الفصحى المعروفة لدينا الآن، وقد كُتبت تلك النقوش بخط المُسند، الذي يتألف من 29 حرفاً أبجدياً أي بزيادة حرف واحد عن الأبجدية العربية الفصحى، وحسب أشهر الآراء تنتمي هذه الأبجدية إلى الخط الكنعاني. وخط المُسند يشبه إلى حد كبير الخط الأثيوبي، الذي تفرع في الأصل عن الخط المُسند. وتنتمي لغات جنوب شبه الجزيرة العربية عامة إلى ما يطلق عليه إصطلاحاً اللغات السامية[4]. لقد لعبت دول جنوب شبه الجزيرة العربية دوراً شديد

1- ب. سلامة، الصحراء في التاريخ القديم (تاريخ إفريقيا العام)، جزء 2، ص.535.

2- G .Camps ,Les Berberes Memoire et edentete, Edition errance, Paris ,1995.,p.202.

3- Abdelaziz Ferrah, L'Amazigh ecrire le berbere ,Editions Marinoor, Alger, 1997. p.64.

4- عبد الله، يوسف محمد، عم تتحدث النقوش اليمنة القديمة، المؤتمر الحادي عشر للآثار في الوطن العربي

الأهمية في كل المنطقة العربية بدأ منذ عصور ما قبل التاريخ واستمر حتى منتصف العصور الوسطى، ويظهر هذا التأثير أكثر وضوحاً في اتجاه شرقي إفريقيا، وفي اتجاه مجتمعات الرعاة والرّحل في وسط وشمال شبه الجزيرة العربية، وقد لعبت التجارة في هذه الدول دوراً هاماً، حيث كانت تؤلف إحدى المحطات التجارية الكبرى بين القرن الإفريقي ومنطقة الشرق الأدنى القديم، ولا ننسى أن التجارة كانت السبب المباشر في انتقال اللغة نحوهذه المناطق. وعملية العثور على العديد من النقوش المكتوبة بالخط المُسند في الكثير من مناطق العالم القديم لخير دليل على الإنتشار الواسع للغات جنوب شبه الجزيرة العربية[1].

إن وجود علاقات وطيدة بين اللغة الليبية القديمة واللغات العربية القديمة كالأكادية والمصرية القديمة والكنعانية، يجعلنا نتأكد من وجود علاقة مشابهة بين الليبية القديمة ولغات جنوب شبه الجزيرة العربية، وهوأمر طبيعي لأن جنوب شبه الجزيرة العربية ينظر إليها معظم الباحثين على اعتبارها مصدراً قوياً لهجرات قديمة ومتعاقبة قدمت إلى منطقة المغرب القديم منذ عصور ما قبل التاريخ وطيلة العصور القديمة والوسطى. وقد أكد النسابون والمؤرخون العرب المسلمون وجود هذه الصلات من خلال تأكيدهم للأصول الحميرية للكثير من القبائل الليبية القديمة بمنطقة المغرب القديم. وفي سبيل الوصول إلى معلومات حول هذا الموضوع قمت بزيارتين علميتين إلى اليمن خلال عامي 1997 و2001 إفرنجي. وقد توصلت من خلال هاتين الزيارتين إلى وجود تشابه كبير بين اليمن ومنطقة المغرب القديم في الكثير من مظاهر الحياة الإجتماعية والثقافية والمعمارية، ورغم أن المعلومات التى توصلت إليها خلال هاتين الزيارتين في مجال تشابه لغات جنوب شبه الجزيرة العربية واللغة الليبية القديمة كانت محدودة، فإنها كانت ذات أهمية كبيرة لإثبات تلك الأواصر العريقة في القدم بين سكان

حول النقائش والكتابات القديمة في الوطن العربي، تونس، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، 1988م.ص. 66.

1- بوركهاد فوكت وكريستيان جوليان روبان، الوحدة الثقافية لبلاد اليمن (اليمن في بلاد ملكة سبأ)، معهد العالم العربي، باريس، 1999م.ص.223.

المنطقتين، ولإثبات ذلك سنتابع بعض القواعد النحوية والمقارنات اللغوية بين اللغتين.

1- تتميز اللغة السبئية وملحقاتها بأداة عبارة عن حرف النون يلحق عادة بآخر الكلمات، تسمى النون الحميرية، وهي بمثابة أداة التعريف في اللغة العربية الفصحى. وفي اللغة الليبية القديمة اسماء قبائل تنتهي بحروف النون وهي بمثابة (ال) التعريف مثل: بنويهراسن وبنودرجين وبنووريتاجن وبنومراسن وغيرهم. وواضح أن النون التي وردت في آخر هذه الأسماء، ليست النون التي تظهر في جمع المذكر السالم، بل أن وجودها هوأقرب إلى أن يكون (ال) التعريف التى كانت في لغات جنوب شبه الجزيرة العربية، ولكنها عند انتقالها إلى منطقة المغرب القديم، هُجرت مع مرور الزمن رغم بقاءها في العديد من الكلمات[1].

2- توجد في لغات شبه الجزيرة العربية أسماء كثيرة صيغت على وزن الأفعول مثل: الأيفوع والأيزون والأوسون والأحروث والأهيون[2]. وهذه الاسماء أصيلة في جنوب شبه الجزيرة العربية. ومما لا شك فيه أن وجود صيغ مشابهة كأمقون وأزمور وأصفود وأمرود وأعروس وأرفود وأمروث وأفروخ، في منطقة المغرب القديم، وشرق إفريقيا كان نتيجة لانتقال مؤثرات ثقافية إلى تلك المناطق.

3- تتشابه اللغة الليبية القديمة مع لغات جنوب شبه الجزيرة العربية في تأنيث بعض الكلمات. ونجد أمثلة كثيرة تؤيد ذلك في لغة النقوش بجنوب شبه الجزيرة العربية، فيكتبون تهامت بدل تهامة وربيعت بدل ربيعة وحبشت بدل حبشة ويمنت بدل يمن وهكذا. وفي الليبية القديمة إلى الآن يصوغون الكلمات المؤنثة بتاء مفتوحة بدل تاء مربوطة مثل تيارت وهواسم مكان ويطوفت وتوات وهما أسما قبيلة وتاهرت وهي اسم مدينة. ويبدوواضحاً من خلال مقارنة هذه الأسماء وجود تشابه في الصورة اللفظية العامة في اللغتين.

---

1 العرباري، البربر، ص.212.

2 الهمداني، أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني، كتاب الاكليل (ج 2)، حققه وعلق عليه محمد بن على الحوالى، ط. 3، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1986، ص. 391، 392.

4- ومما يؤيد العلاقة الوطيدة بين اللغة الليبية القديمة ولغات جنوب شبه الجزيرة العربية ، التقارب الشديد بين اللغة الليبية القديمة وما يطلق عليه اليوم اسم لغات جنوب شبه الجزيرة الحديثة مثل: اللغة المهرية واللغة الشحرية واللغة السوقطرية ويبدوهذا التقارب واضحاً من خلال أن المجموعتين الليبية واليمنية قديمة قدم التاريخ وما زالت حية إلى الآن ، وأن المجموعتين ليس لهما تراث مكتوب في مجالات العلم المختلفة ، وحتى وإن وجدت بعض النقوش الكتابية فلا تعدوأن تكون لأغراض نذرية بسيطة. وبالفعل رغم اختلاف المجموعتين اللغويتين في شكلهما العام ، فإننا استطعنا من خلال مقابلة بعض السكان السقطريين والمهرة ، التعرف على وجود بعض التشارك في بعض القواعد اللغوية ، وبعض المفردات ، ففي مجال القواعد النحوية تستعمل لغات جنوب شبه الجزيرة العربية قديماً ، وسكان المهرة في العصر الحديث ، للتمييز بين المذكر والمؤنث التاء في آخر الكلمة ، وهي الميزة الغالبة للغة الليبية القديمة ، أما فيما يخص تشابه المفردات اللغوية بين المنطقتين ، فاستطعنا التعرف على بعض هذه المفردات من خلال مقابلات مع بعض الأشخاص لفترة وجيزة ، توصلنا إلى تشابه تام في بعض المفردات. فكلمة يكّس تعني في الشحرية وجد أوأخذ ، وكلمة يكّس نفسها في اللغة الليبية القديمة تعني أخذ أوانتزع ، وكلمة سكف تعني في الشحرية شرب ، وكلمة سكف نفسها تعني في اللغة الليبة القديمة رشف ، وهي من مرادفات كلمة سوا (شرب). ومن خلال هذه المقارنات المحدودة العدد ، بسبب عدم توفر الوقت اللازم لعمل دراسة متكاملة ، نتوصل إلى وجود تشارك لغوي بين الذين خرجوا من شبه الجزيرة العربية ، والذين ظلوا بها ، وهوما يؤكد الأصل المشترك للمجموعتين اللتين تتواجد إحداها في جنوب شبه الجزيرة العربية ، والأخرى بمنطقة المغرب القديم.

5- وأخيراً مما يؤيد وجود علاقة وطيدة بين اللغة الليبية القديمة ولغات جنوب شبه الجزيرة العربية ، اقتباس الأبجدية الليبية الكثير من حروفها من خلال أبجدية لغات شبه الجزيرة العربية ، ولقد كان ذلك يتم أحياناً باقتباس الحرف بشكله وقيمته الصوتية ، مثل : حروف التاء والشين والجيم والسين ، وهي طبق الأصل في اللغتين ، واحياناً أخرى يتم الاقتباس بإعطاء الحرف قيمة صوتية مخالفة للحرف المُقتبس ، مثل : حرف الباء الذي أخذ

شكل حرف العين، وحرف الدال الذي أخذ شكل الباء، وحرف الحاء الذي أخذ شكل الهاء[1].

العلاقة بين اللغة الليبية القديمة واللغة الآرامية

اللغة الآرامية هي إحدى اللغات العربية القديمة، التي اصطلح على تسميتها بالسامية، ومن حيث المصطلحات اللغوية، هي قريبة من اللغتين الكنعانية والعبرية، ولكنها أكثر قرباً للغة العربية الفصحى، حيث تشترك معها في مصطلحات لغوية والفاظ مشتركة، ويرى البعض بأن اللغة العربية الفصحى ورثت نفس الحروف الصوتية، التي تستعملها اللغة الآرامية[2]. لقد كانت اللغة الآرامية متنشرة إنتشاراً واسعاً في كافة أقاليم المنطقة العربية في غرب آسيا وفي مصر، حيث استخدمت لغة رسمية من قبل الأشوريين والبابليين والفرس وسكان منطقة وادي النيل، ممهدة في ذلك إلى انتشار اللغة العربية.

ومما لا شك فيه أن اللغة الليبية القديمة قد اقتبست من اللغة الآرامية العديد من حروف أبجديتها، فمثلاً نجد الحروف التاء والدال والشين والكاف والياء تتشابه في اللغتين الليبية القديمة والآرامية[3]، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الأصل المشترك الذي انفصلت منه اللغتان فى العهود القديمة وهي اللغة العربية الأم.

العلاقة بين اللغة الليبية القديمة ولغات شمال شبه الجزيرة العربية

من بين اللغات العربية القديمة بشمال شبه الجزيرة العربية، التي عثر لها على نقوش

1- محمد، يوسف، خط المُسند والنقوش اليمنية القديمة دراسة لكتابة يمنية قديمة منقوشة على الخشب، النقائش والكتابات القديمة في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1988. ص.102. Abdelaziz Ferrah,L Amazigh ecrire.p.64..

2- سومر، دوبون، الآراميون (ترجمة ناظم الجندي)، دار اماني للطباعة والنشر والتوزيع، طرطوس، 1988. ص. 131.

3- العرباري، البربر، ص214.

كثيرة الثمودية واللحيانية والصفوية والنبطية. لقد كتبت اللغات الثلاث الأولى بالخط المسند، في حين كتبت اللغة الرابعة بالخط الآرامي.

ومما يؤيد وجود علاقة وطيدة بين اللغة الليبية القديمة ولغات شمال شبه الجزيرة العربية، اقتباس الأبجدية الليبية الكثير من حروفها من خلال أبجدية اللغات الثمودية واللحيانية والصفوية والنبطية، فمثلاً نجد حرفيّ الكاف والسين يتشابهان في اللغتين الليبية القديمة ولغة النقوش النبطية، ونجد حروف السين والشين والتاء والطاء تتشابه أيضاً في اللغتين الليبية القديمة ولغة النقوش الصفوية، ونجد نفس الحروف السابقة تتشابه أيضاً في اللغة الليبية القديمة ولغة النقوش اللحيانية، ونجد حروف التاء والشين والطاء تتشابه أيضاً في اللغة الليبية القديمة ولغة النقوش الثمودية[1].

العلاقة بين اللغة الليبية القديمة واللغة العربية الفصحى

تشترك كما سبقت الإشارة اللغات المصرية القديمة (الهيروغليفية) والسامية الأم والليبية القديمة والكوشية والتشادية في اصطلاح يعرف باسم المجموعة الحامية- السامية أوالمجموعة الأفروآسيوية. وقد ثبت من خلال الدراسات المختلفة أن اللغة العربية الفصحى، هي أقرب اللغات السامية إلى الخصائص الصوتية والمعجمية لما يطلق عليه اسم السامية الأم[2]. وتحتوي معظم ما يعرف باللغات السامية على حروف الحلق، خاصة حرفي الحاء والغين، ويؤكد المختصون بأن اللغة العربية الفصحى هي أقرب هذه اللغات في نطق الهمزة والعين والغين والخاء والهاء، وهي مازالت تحتفظ بها رغم اختفاء هذه الحروف في اللغات العربية القديمة الأخرى. إن احتفاظ اللغة العربية الفصحى بهذه الحروف، هي عملية موروثة عن اللغة العربية القديمة الأم، وهذه الحروف الحلقية تتناقص في الكثير من اللغات الأخرى التي انفصلت عن اللغة العربية الأم، مثل العبرية التي استخدمت حرفاً حلقياً واحداً وهوالحاء للدلالة على صوتين في العبرية وهما الحاء والخاء، في حين احتفظت الأكادية بحرفين فقط

---

1 المرجع نفسه، 214.

2 المدلاوي، محمد، مبادي المقارنة، ص.53- 56.

وهما الهمزة والخاء[1]. وعلى العكس من ذلك تحتفظ اللغة الليبية القديمة بمعظم الحروف الحلقية كالحاء والخاء والعين والغاء، وهي في هذا تتشابه مع اللغة الفصحى، وهودليل على مدى قربهما من اللغة العربية الأم. وتحتفظ اللغة العربية الفصحى أيضا بحروف التفخيم والإطباق وهي الطاء والصاد والقاف والظاء والضاد. وهذه الحروف شائعة في معظم اللغات العربية القديمة، وهودليل على أنها كانت تختص بها ما يعرف باللغة السامية الأم دون غيرها من لغات العالم. والدليل الواضح على القرابة الوثقى بين اللغة الليبية القديمة واللغة العربية الفصحى اشتراك هاتين اللغتين وحدهما دون غيرهما من اللغات العربية القديمة الأخرى في امتيازهما بحرف الضاد[2]، الذي كان في السابق تنعت به اللغة العربية الفصحى فقط. ويرى البعض بأن التشابه الكبير بين أعداد كثيرة من الكلمات الليبية القديمة مع كلمات أخرى في اللغة العربية الفصحى، لم يكن بسبب الأصل القديم المشترك، بل كان نتاج حدث جاء بعد الفتح العربي الإسلامي، ويبدوهذا الكلام منطقياً للوهلة الأولى لوأن هذا التشابه هوالدليل الوحيد على تلك العلاقات الوطيدة، ولكن ماذا يقول هؤلاء عندما تحدث المقارنات بين اللغة الليبية القديمة واللغة العربية الفصحى من خلال النقوش الكتابية، التي تعود إلى ما قبل الإسلام، والتي عثر عليها في العديد من مناطق المغرب القديم ؟ لقد عثر العلماء على المئات من هذه النقوش، التي أطلق عليها اسم النقوش الليبية، والتي تحتوي على كلمات ذات أصول عربية قديمة تسبق وصول العرب المسلمين إلى المنطقة بعشرات القرون[3]. وقد كانت بعض هذه النقوش بالأبجدية الليبية القديمة فقط، ولكن البعض الآخر كان يحمل نصين مختلفين إما بالأبجدية الليبية والقرطاجية (البونيقية)، أوبالأبجدية الليبية واللاتينية، ويعتبر البعض أن اللغة الليبية القديمة شقيقة للغة العربية الفصحى، لأن هاتين اللغتين تلتقيان في

1- أحمد، محمد خليفة حسن، رؤية في تاريخ الشرق، ص.145.

2- العرباري، البربر، ص.169، 168. وكذا. عثمان سعدي، البربر الأمازيغ عرب عاربة(وعروبة الشمال الإفريقي عبر التاريخ)، دار الملتقى للطباعة والنشر، ليماسول وبيروت، 1998 م.، ص.109.

3- خشيم، علي فهمي، سفر العرب الامازيغ، دار نون، طرابلس، 1995 م.، ص.4- 1.

تشابه المفردات والتراكيب اللغوية، والقواعد النحوية والصرفية والاشتقاقية[1]. ومع هذا لا نستطيع القول إن اللغتين متطابقتان في كل شيء، وإلا لأصبحتا لغة واحدة. ولكن الصحيح أن اللغتين نبعتا من مصدر واحد نستطيع تسميته باللغة العربية الأم[2]، وهي التي جمعت الشقيقتين بالإضافة إلى بقية الأخوات كالأكادية والمصرية القديمة والبابلية والآشورية والكنعانية ولغات جنوب شبه الجزيرة العربية.

ومن الأدلة التي تثبت أن اللغة الليبية القديمة واللغة العربية الفصحى أخذت قواعدها النحوية من لغة عربية سابقة حالة التأنيث، التي يكون عليها الفعل الماضي والمضارع مع المفردة الغائبة، حيث تؤنث هاتان الحالتان بإضافة التاء للمفرد الغائب، فنقول في العربية سكت للمذكر وسكتت للمؤنث، ويسكت للمذكر وتسكت للمؤنث، وكذلك في اللغة الليبية القديمة نقول يسُوسَم (سكت) للمذكر وتسُوسَم (سكتت) للمؤنث، يسوسُوم (يسكت) للمذكر وتسُوسُوم (تسكت) للمؤنث. ويبدوواضحاً من خلال هذه الحالات أن الفعل سواء كان ماضياً أومضارعاً، عندما تضاف إلى آخره التاء يتحول إلى حالة المؤنث، لأن التاء المضافة إلى الفعل تدل على علامة التأنيث. وفي هذا الصدد يوجد بين الباحثين من يرى بأن التاء ضمير مفرد مؤنث للغائبة، والياء ضمير مفرد مذكر للغائب، وفي هذا إقرار كما يرى بعض الباحثين بأن التاء للتأنيث والياء للتذكير[3]، وهوما يشير إلى قرابة بين اللغات العربية القديمة عامة، وعلى وجه الخصوص إلى قرابة بين اللغتين الليبية القديمة والعربية الفصحى.

ومن الوسائل المستعملة في اللغات العربية القديمة بما في ذلك اللغة الليبية القديمة، واللغة العربية الفصحى التأنيث، وهي عملية التمييز بين المذكر والمؤنث باستعمال التاء أوالثاء، والجدير بالذكر أن تحويل المذكر إلى المؤنث يتم في اللغة العربية الفصحى بإضافة تاء مربوطة إلى آخر الكلمة المذكرة فتصبح مؤنثة. ونجد مثالاً على ذلك كلمات كثيرة في لغات جنوب

1- سعدي، البربر الأمازيغ، ص.95.

2- خشيم، سفر العرب، ص.1- 54.

3- العرباري، البربر، ص.201.

شبه الجزيرة العربية القديمة، مثل كلمات تهامت وربيعت وحبشت وكندت ويمنت، وهي نفس الطريقة في عملية التأنيث التى تتبع في اللغة الليبية القديمة. والغريب في الأمر أن عملية التأنيث بإضافة حرف التاء إلى آخر الكلمة مازالت موجودة حتى الآن في المهرة باليمن، ومن خلال كلمات أخذتها بناء على مقابلات بسيطة مع بعض سكان المهرة وضحت لنا عملية التأنيث بإضافة تاء مفتوحة في نهاية الكلمة، ورغم أن الكلمات التي أوردتها هنا ذات أصل عربي فصيح فإنها وضحت لنا هذه القاعدة الموجودة لدى المهرة منذ أقدم العصور حتى الآن، فكلمة خيمة تتحول عند المهرة إلى خيمت وكلمة لحية تتحول عند المهرة إلى لحيت وكلمة نخلة تتحول عند المهرة الى نخلت، ونجد الأمر نفسه لوطلبنا اليوم من أحد سكان المغرب العربي الناطقين باللغة الليبية القديمة تحويل نفس الكلمات السابقة إلى الليبية القديمة لحولها حرفياً كما حولها سكان المهرة، ماذا يعني هذا ؟ هل أخذ المهرة هذه الطريقة في التأنيث من الليبين القدماء أم العكس هوالصحيح ؟ بالطبع ليس هذا وليس ذاك، لأن هذه الطريقة من التأنيث قديمة قدم التاريخ، وهي في الأصل موجودة في كل اللغات العربية القديمة، ومعروف أن لغة المهرة واللغة الليبية القديمة من اللغات القديمة التي انحدرت من لغة عربية أُم، وقد حافظت اللغتان على أصالتهما منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر، ولم يقتصر وجود طريقة التأنيث بالتاء المفتوحة في اللغة الليبية القديمة، وفي لغات جنوب شبه الجزيرة العربية فقط، بل إنها موجودة حتى في الرسم القرآني، حيث جاءت بعض الكلمات بالتاء المفتوحة مع أنها مربوطة مثل: كلمتي امرأة ورحمة كما نجد في الآيات القرآنية الآتية: "وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ"[1]. "ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ"[2]. "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ"[3].

1- سورة يوسف آية 30.

2- سورة التحريم آية 11.

3- سورة البقرة آية 218.

ونجد في الكتابات البردية التي كتبت باللغة العربية الفصحى في بداية الفتح العربي الإسلامي، كلمات عربية مؤنثة كان من المفروض أن تكتب بتاء مربوطة ولكنها كتبت بتاء مفتوحة، مثل كلمة سنة كتبت على شكل سنت وكلمة امرأة كتبت على شكل امرات وكلمة ابنة كتبت على شكل ابنت وكلمة المسماة كتبت على شكل المسمات، وهذا الأمر يدل على الترابط اللغوي بين اللغة الليبية القديمة والواقع اللغوي القديم للمنطقة العربية بكاملها[1].

تمتاز اللغة العربية الفصحى بظاهرة كثرة جموع المذكر السالم وجموع التكسير، وهذه الخاصية تعد من مميزات اللغات العربية القديمة كافة، ومن خلال دراسة اللغة الليبية القديمة، بما في ذلك اللهجات الحديثة اتضح أنها تمتاز هي الأخرى بمعظم هذه الجموع، ويعتبر جمع المذكر السالم في اللغة العربية الفصحى جمعاً قياسياً له صيغتان، حيث تنتهي بالواو والنون في حالة الرفع، وبالياء والنون في حالتي النصب والجر، ويكون أساساً للعاقل، ويمكن أن نلاحظ في اللغة الليبية القديمة هذه الطريقة من الجمع ولكنها لم تكن متطورة كما هي في اللغة العربية الفصحى، ولاتزال اللغة الليبية القديمة تحتفظ بها رغم قدمها، ونجد أمثلة كثيرة في هذه اللغة تأخذ نفس الطريقة السابقة فكلمة إيخف (رأس) يجمع إيخفاون، وكلمة تالغمت (ناقة) تجمع تيلغمين، ونجد في اللغة العربية الفصحى بقايا من هذه الظاهرة، حيث جمعت بعض الكلمات بطريقة جمع المذكر السالم، وأحياناً جمع تكسير، وغالبية هذه الكلمات لغير العاقل مثل: أهل تجمع أهلون وأهلين واهال، وعالم تجمع عالمين وعالمون وعوالم، وأرض تجمع أرضون وأرضين وآراض، وسنة تجمع سنون وسنين وسنوات، ويعتبر جمع التكسير من أكثر الجموع أصالة في اللغة العربية الفصحى. وفي اللغة الليبية القديمة نجد هذا الجمع يفوق في كثرته اللغة العربية الفصحى لكونه الجمع الأساسي، ويلاحظ أن جمع التكسير في اللغة الليبية القديمة جرى على نفس النمط الذي جرى عليه في اللغة العربية الفصحى فيما بعد. وتتشابه اللغة الليبية القديمة مع اللغة العربية الفصحى في جموع الكثرة، التي تنتهي بألف ونون، فنجد في اللغة العربية الفصحى بعض الأسماء تجمع على هذه

1- العرباوي، البربر، ص.194.

الطريقة فغلام يجمع غلمان وجرد يجمع جردان وحوت يجمع حيتان وتاج يجمع تيجان، واللغة الليبية القديمة مازالت الى الآن تتبع نفس الطريقة من الجمع فكلمة ألغم (جمل) يجمع إلغمان، وكلمة إيزى (ذبابة) تجمع إيزان، وكلمة إيتري (نجم) يجمع إيتران، وكلمة آس (يوم) يجمع أُسان، ويبدوواضحاً أن جموع التكسير في اللغة الليبية القديمة من أقدم الجموع التي عرفتها اللغات العربية القديمة، وهوفي الأساس جمع غير قياسي يتماشى وجوده مع طبيعة الفترة الأولى لتكون اللغة وما فيها من اضطراب وتداخل في الظواهر اللغوية.

لم تشمل تلك الصلة بين اللغة الليبية القديمة واللغة العربية الفصحى في إشتراك اللغتين في التراكيب اللغوية والقواعد النحوية والطريقة الإشتقاقية فقط، بل شملت بالإضافة إلى ذلك المفردات اللغوية التي كانت كثيرة لا يمكن حصرها[1]. وأعرض هنا بعض الكلمات باللغة الليبية القديمة، وما يقابلها باللغة العربية الفصحى، نقلتها من خلال مقال محمد شفيق تحت عنوان علاقات الأمازيغية بالعربية في جذورها الكبرى، ومن خلال ما أورده علي فهمي خشيم في كتابه سفر العرب الأمازيغ، ومن خلال بعض المفردات التي أوردها عثمان سعدي في كتابه البربر الأمازيغ عرب عاربة، ومن خلال ما أورده محمد المختار العرباري في كتابه البربر عرب قدامى، ومن خلال بعض الإضافات التي قمت بها من خلال هذه الدراسة[2].

- يطس (نام) طس الشيء في الماء إذا غطسه، والنوم فيه معنى الغطس في اللاوعي.
- يرول (هرب): وكلمة هرول العربية قريبة جداً من كلمة إروال الليبية القديمة.
- يكّر(قام) وكر الظبي: وثب.
- يدجال (حلف) من جل جلاله، والحلف عادة يكون بالله.

1- سعدي، البربر الأمازيغ، ص.95.

2- خشيم، سفر العرب الأمازيغ، ص.1- 41- 1- 53. وكذا: عثمان سعدي، البربر الأمازيغ، ص. 95- 109. وكذا: محمد المختار العرباري، البربر، ص.179- 184.

- يسغى (اشترى) : سوغ الشئ جعله مباحاً حلالاً ، تملك الشئ.

- ألغم (الجمل): اللغام : زبد أفواه الإبل.

- إغيد (الجدي): الغيدان من الشباب أوله.

- يكَس (ينزع أوخلع): وكس الشيء: نقّصه فلاناً : وبخه ، وكس ماله أنقصه.

- تامطوت (المرأة) أصلها عربي ومعناها الكائن الذي يحيض. والطمث في العربية معناها الحيض. ويقال في العربية المرأة الطامث.

- أرقاز(الرجل) وهي عربية معناها ركز شيئاً في شيء، أقره وأثبته ، والرجل هوركيزة البيت.

- أمان (الماء) ومان = الماء في لغة قبيلة شمر بشبه الجزيرة العربية ، وهي عربية واضحة.

إيفير(طار) جاءت من العربية أفر يفر وفر يفر. وهي تعني الطيران أوالعدووالوثب استعداداً للطيران.

- إيفسّر (نشر الشئ ضد طواه) جاءت من العربية فسّر وأوضح.

- أنزار (المطر) وفي العربية النصرة = المطرة التامة ، نصر الغيث الأرض= سقاها ، ونجد الكثير من الكلمات تنقلب فيها الصاد زاياًمثل رصين : رزين.

- أملال (الأبيض) المؤلل الناصع اللون ، مؤلل الوجه حسنه.

- يُزُوم أزوم (صام الصيام) في هذه الكلمة انقلبت الصاد زاياً ، وأيضاً في العربية الأزم الحمية والإمساك عن الطعام.

- أوال (الكلام) وهوالتأويل ، ومن المعروف أن المصدر في فعّل(بتضعيف العين)كثيراً ما يقوم مقامه اسم المصدر :سلام في سلّم، وكلام في كلّم، وطلاق في طلّق، وزواج في زوّج ، وواوال في اوّل.

- أودم (الوجه من الإنسان ومن كل شئ) وفي العربية الأديم وجه الشئ.وهومدلول

موحد في اللغتين، إلا أنه أكثر تعميماً في اللغة الليبية القديمة.

- إيلس (اللسان). وواضح القرابة بين إيلس جمعها إيلساون واللسان.

- إيخف (الرأس) وقريبة من هذه الكلمة، كلمة عربية أخرى وهي اليافوخ وهوالرأس ايضاً، والذي يبدأ من ملتقى عظم مقدم الرأس الى مؤخره.

- إيدامن (الدم). ويمّت وتمّت (مات وماتت)، والكلمتان عريقتان في عروبتهما، وترجعان إلى بداية ظهور اللغة العربية الأم في شبه الجزيرة العربية، وتصادفنا هاتان الكلمتان طبق الأصل في اللغات العربية القديمة الأخرى كالأكادية والمصرية القديمة.

هل اللغة الليبية القديمة (الأمازيغية) لغة عربية قديمة ؟

رغم أن اللغة الليبية القديمة قريبة الصلة باللغة العربية الفصحى، فإنه عند تمسر مكافأة هذه اللغة باللغة العربية الفصحى، نجد هذه المكافأة واضحة تمام الوضوح مع اللغات العربية القديمة الأخرى كالأكادية والمصرية القديمة والكنعانية والسبئية، وذلك من خلال ما خلفته لنا هذه اللغات من نقوش وألواح طينية مكتوبة، وهوما يؤكد على الصلة المؤغلة في القدم بين مشرق الوطن العربي ومغربه[1]. وبناء على كل ما تقدم نستطيع أن نطرح السؤال التالي: هل اللغة الليبية القديمة لغة عربية قديمة ؟ الإجابة نعم، لأن كل القرائن تدل على أن اللغة الليبية القديمة مثلها مثل اللغات العربية القديمة الأخرى تفرعت عن لغة عربية قديمة أُم، وقد ظهرت هذه اللغات العربية القديمة بشبه الجزيرة العربية منذ أقدم العصور الموغلة في القدم، حيث كانت المنطقة تزخر بالعديد من اللغات واللهجات، ويبدوواضحاً أن السبب في هذا التعدد، يرجع إلى انقسام القبائل وتوزعها إلى فروع كثيرة. وقد كان لمعيشة هذه القبائل والفروع البعيدة عن بعضها البعض، بحكم العزلة والهجرة الى مناطق نائية السبب المباشر في إختلافات لغوية، وظهور لهجات جديدة تكون غير مفهومة لغير المتكلمين بها[2]. ومما لا شك فيه أن تلك اللغات كانت تختلف عن لغة القرآن الكريم، لدرجة أن أحداً لوقرأ نصاً بهذه

1- خشيم، سفر العرب الأمازيغ، ص.هـ.

2- العرباري، البربر، ص.228.

اللغات عجز عن فهمه، وظن أنه يقرأ لغة من لغات الأعاجم، ولكن هؤلاء وإن اختلفت لغاتهم فإنهم عرب فكل لغات العرب هي عربية وإن اختلفت وتباينت، وما اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، إلا إحدى تلك اللغات الكثيرة، وقد شُرفت بفضل نزول القرآن بها وأصبحت اللغة العربية الفصحى، ولذلك فالكتابات التي دُونت في مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية وشمالها، وبعض المناطق الأخرى، هي كتابات عربية، وإن اختلفت عن عربيتنا. وتوجد لغات عربية أخرى مجهولة، وقد جهلها العرب لأنهم بادوا قبل الإسلام، أولأنهم عاشوا في بقاع منعزلة نائية، ولذلك لا نستطيع أن ننكر على الأقوام العربية المنسية عروبتها، بمجرد اختلاف لسانها عن لساننا، ووصول كتابات منها مكتوبة بلغة لا نفهمها[1]. فلغتها هي لغة عربية وإن اختلفت عن اللسان العربي الفصيح، وهذا الاختلاف والتباين في اللغات العربية القديمة كان موجوداً منذ أزمان بعيدة، فقد أشار إلى هذا الاختلاف والتباين كتاب قدماء كثيرون، منهم من يرجع لفترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، ومنهم من يسبق هذه الفترة بقرون عديدة. يقول الطبري في تفسيره بأن العرب إن جمع جميعها اسم عرب، فهم مختلفوالألسن بالبيان، متباينو، المنطق والكلام[2]. وقد كانت بعض هذه الألسن بعيدة بعداً كبيراً عن عربيتنا اليوم، وخير مثال على ذلك اللغات العربية الجنوبية. وقد أشار إلى هذا التباين والاختلاف في لغات العرب القديمة أيضاً، مؤلف يوناني عاش في القرن الأول الميلادي، له كتاب سماه الطواف حول البحر الإريتري (البحر الأحمر)، ذكر فيه بأن سكان ساحل الحجاز على البحر الأحمر، والذين كانوا يقيمون بين مدينة (لوك كوماLeuke Kome) وميناء (موزا Muza)، يتكلمون لهجات مختلفة ولغات متباينة لا يفهمونها عن بعضهم البعض، وأن بعض هذه اللهجات واللغات بعيدة عن بعضها بعداً كبيراً[3]. ومما يؤكد هذا التباعد أن معظم هذه اللغات المتناثرة بشبه الجزيرة العربية بما في ذلك

1- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، الجزء الأول، مكتبة مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1954م.ص11،20.

2- المصدر نفسه، ص11،20.

3- علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب، الجزء الثامن، ص562،563.

اللغة العربية الفصحى لم تكن مكتوبة. ومن خلال آخر ما توصلنا إليه من وثائق أثرية يتضح أن اللغة العربية الفصحى كانت غير مكتوبة بأبجديتها المعروفة لدينا الآن، حتى القرن الرابع الميلادي. ويحتل نقش النمارة الذي عثر عليه مدوناً بقلم نبطي في منطقة النمارة إلى الجنوب الشرقي من مدينة دمشق أهمية تاريخية كبيرة، وقد وُجد هذا النقش مدوناً على قبر امرئ القيس بن عمرو ملك الحيرة، وهو يؤرخ بالعام 328 ميلادية. ومن خلال دراسة هذا النقش تبين أنه يحتوي على لغة عربية فصحى، رغم أنه يحتوي على بعض التأثيرات الآرامية[1].

يتساءل البعض لماذا تأخر ظهور آثار اللغة العربية الفصحى إلى ما بعد الميلاد ؟ مما لا شك فيه أن هذا التأخر لا يعني أن هذه اللغة لا يرقى تاريخها إلا إلى ذلك الوقت وهو القرن الرابع الميلادي، ولكن القرائن اللغوية المتوفرة في اللغة العربية الفصحى، والتي تنسب إلى ما يطلق عليه اسم اللغة السامية الأم، مثل الأصوات الأصلية، والإعراب، والتنوين، وصيغ الاسم، وأبنية الفعل، كلها تدل دلالة واضحة على القدم السحيق لهذه اللغة، وعملية تأخر ظهور الكتابة في اللغة العربية الفصحى، أمر طبيعي، بسبب استعمال أصحاب هذه اللغة في البداية الخط المُسند، الذي اقتبسوه من أشقائهم في الجنوب، وبسبب استخدامهم فيما بعد للقلم النبطي والقلم السرياني الآرامي، وظلت الأمور على تلك الحال الى أن تم تطوير تلك الأقلام ابتداء من القرن الرابع الميلادي، إلى القلم العربي، الذي كُتب به القرآن الكريم.

وهذا الأمر ينطبق على اللغة الليبية القديمة، التي ظلت كلغة محادثة طيلة قرون عديدة لم تتوصل إلى الأبجدية إلا عندما احتكت مع المهاجرين الكنعانيين الذين وصلوا منطقة المغرب القديم مع نهاية الألف الثانية قبل الميلاد. وقد كانت الكتابة الليبية محدودة القيمة لأنها لم تستعمل إلا في الكتابات النذرية. وتوجد أيضاً لغات في جنوب شبه الجزيرة العربية ما زالت حتى اليوم بدون أبجدية، وخير مثال على ذلك اللغات المهرية والسوقطرية والشحرية، وهي لغات محادثة دون أن تكون لها كتابة رغم أنها مؤغلة في القدم. ولذلك فالذين ينفون العروبة على لغات كتاباتها تختلف عن أبجدية اللغة العربية الفصحى، أو أن هذه اللغات ليست لها أبجدية أصلاً، كانوا على خطأ، فقد نفى اللغويون العرب المسلمون على لغة المُسند

1- هبو، تاريخ الشرق القديم، ص.92.

عروبتها، لأنهم كانوا يقارنون بين الأدب الجاهلي في عصر المعلقات، وبين لغة النقوش اليمنية القديمة، التي تعود إلى ما قبل عصر المعلقات بقرون عديدة. ولكن إذا أراد هؤلاء الإنصاف عليهم مقارنة لغة النقوش اليمنية القديمة مع النقوش التي انتشرت في شمال شبه الجزيرة العربية كالنقوش الصفوية واللحيانية والثمودية، أوعلى الأقل بتلك النقوش المتأخرة كنقوش النمارة وحران مثلاً. ولا يجب أن ينفي هؤلاء اللغويون العروبة أيضاً عن اللغة الليبية القديمة لأن أبجديتها مختلفة عن أبجدية اللغة العربية الفصحى. إن هذا الأمر زعم واه ومردود عليه من خلال وجود لغات عربية قديمة ليس لها نفس حروف اللغة العربية الفصحى، ومع ذلك فهي لغة عربية أصيلة. ولن ينكر أحد أن تكون اللغة السبئية واللغات المتفرعة عنها غير عربية، وأن تكون الأكادية والبابلية والآشورية والكنعانية غير عربية[1]. وكما أشرنا في السابق فإن اللغة الليبية القديمة تفرعت عن اللغة العربية القديمة في وقت ما، وأبعدت عنها شيئاً فشيئاً، بعد أن ابتكرت لنفسها بعض الاختلافات مثلها في ذلك مثل لغات جنوب شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين والشام، ولذلك يجب علينا إرجاع العدد الهائل من الكلمات المشتركة بين اللغتين الليبية القديمة والعربية الفصحى إلى اللغة العربية القديمة الأُم، وليس إلى فترة الفتح العربي الإسلامي كما يرى البعض. ورغم وجاهة هذا الرأي، فإن العثور على الكثير من النقوش في مناطق متفرقة من المغرب القديم بما في ذلك مناطق الصحراء الكبرى، أكد خطأ ذلك الرأي. لقد صيغت تلك النصوص المنقوشة باللغة الليبية القديمة، وكان بعضها مكتوباً بالأبجدية الليبية فقط، ولكن البعض الآخر كتب بنصين مختلفين أحدهما ليبي والآخر أحياناً قرطاجي (بونيقي)، وفي أحياناً أخرى باللغة اللاتينية. ومن خلال هذه النقوش الثنائية للغة استطعنا التعرف على حروف الأبجدية الليبية، وبالتالي استطعنا معرفة فحوى هذه النقوش باللغة الليبية القديمة. وكانت المفاجأة كبيرة عندما تعرفنا على كلمات ليبية قديمة ترجع إلى أكثر من ألفي سنة مضت، أي قبل الفتح العربي الإسلامي بزمن طويل. ورغم هذا الزمن الطويل ما زالت هذه الكلمات تأخذ نفس المدلول فيما يعرف في الوقت الحاضر باللغة الأمازيغية، التي هي امتداد للغة الليبية القديمة. والغريب في الأمر أيضاً أن الكثير من هذه

1- خشيم، سفر العرب الأمازيغ، ص.4- 4،109- 110.

الكلمات ذات جذور عربية قديمة. وهذا الأمر يثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن اللغة الليبية القديمة جاءت من الشرق ضمن الهجرات العديدة التي انطلقت منذ عصور ما قبل التاريخ من مناطق شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين والشام. وحيث إن هذه النقوش درست من قبل علماء من الغرب، والفرنسيين على وجه الخصوص، لذلك كانت تلك الدراسات موجهة بحوفهم النص للوصول إلى تأكيد تواجد ليبي قديم في المنطقة دون تحديد الجذور القديمة لهؤلاء السكان، ولا الإشارة إلى أية صلة بين لغة هذه النقوش واللغة العربية الفصحى أوإحدى اللغات العربية القديمة الأخرى[1]. ومن خلال بعض الدراسات التي قام بها الاختصاصيون العرب حول بعض النقوش الليبية القديمة، من خلال دراسات قام بها الفرنسيان (شابو) و(مارسي)، تبين وجود صلة وثيقة بين اللغة الليبية القديمة والقرطاجية، ووجود أوجه شبه كثيرة بين اللغة الليبية القديمة واللغة العربية الفصحى التي ظهرت فيما بعد[2]، وقد تبين أيضاً أن معظم مفردات هذه النقوش تعود في جذورها القديمة الى لغة عربية قديمة أم، وأن عدم القدرة في فهم هذه النصوص يعود إلى أنها كتبت بلغة عربية قديمة انفصلت عن لغة عربية أقدم. ولهذا السبب كانت مفرداتها صعبة الفهم، وهي بالتالي لا توجد إلا في معاجم اللغة العربية الفصحى، بل إن بعضها يمكن العثور عليها في معاجم اللغات العربية القديمة كالأكادية والمصرية القديمة والكنعانية والسبئية[3]. ويسترعي الانتباه عند تصفح مجلدات لسان العرب لابن منظور، وجود بعض الألفاظ المشتركة بين اللغات العربية القديمة واللغة الليبية القديمة واللغة العربية الفصحى. ويعلل صاحب لسان العرب وجود هذه الكلمات، إلى أنها كلمات حميرية، وفي بعض الأحيان يقول عنها بأنها من اللغة القديمة، وفي أحيان أخرى يقول بأن معانيها تتصل بنمط الحياة، التي تعود إلى فترة الجمع والالتقاط،

1- خشيم، سفر العرب، ص.4- 4.

2- خشيم، علي فهمي، دراسة لنقش قرطاجي- ليبي قديم، المؤتمر الثالث عشر للآثار حول النقائش والرسوم الصخرية في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1997م.ص 194- 236.

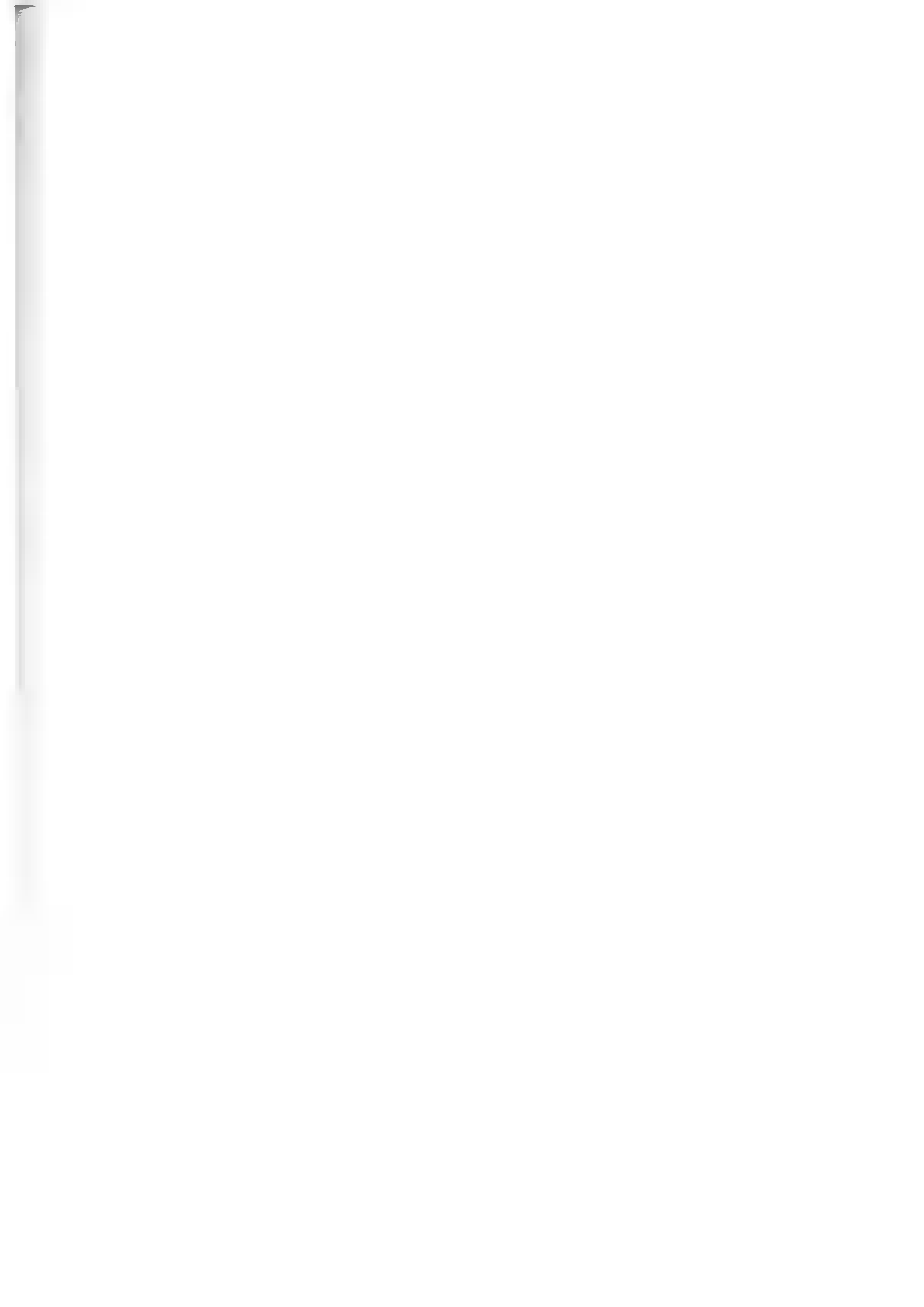
3- خشيم، سفر العرب، ص.4- 4.

التي مرت بالإنسان قديماً[1]. وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على وحدة الأصل بين سكان منطقة المغرب القديم والمناطق العربية السالفة الذكر.

1- خشيم، سفر العرب، ص.1- 42- 1- 43.

المحور الثاني

الهجرات اليمانية قبل ظهور الإسلام



الصلات بين جنوب شبه الجزيرة العربية
وبلاد الرافدين خلال الألف الأول ق. م

د. جباغ سيف الدين قابلو

تشير الدلائل الأثرية التي عثر عليها في مواقع مختلفة من منطقة المشرق العربي القديم (مصر وبلاد الشام والعراق) إلى أن جنوب الجزيرة العربية قد ارتبط بعلاقات وثيقة مع هذه المنطقة من أقدم العصور. وبالطبع لا يمكن أن تقوم هذه العلاقة لولم يكن لدى أحد الطرفين ما يمكن أن يقدمه للآخر من جهة ولولا وجود وسيلة للإتصال بين هذين الطرفين تجعلهما شريكان وثيقان متممان لبعضهما.

- فمنطقة جنوب الجزية العربية بما حباها الله من مناخ وطبيعة وأرض مناسبة لإنتاج سلع كانت مطلوبة أشد الطلب في مناطق المشرق العربي القديم وعلى رأس هذه السلع البخور والمر واللبان والتي كانت مادة أساسية للاستخدام اليومي في المعابد أثناء أداء الطقوس الدينية وفي الاحتفالات الكبرى أثناء الإحتفالات بأعياد الآلهة وفي عمليات تطهير وتطييب جثث المتوفين وتكفينهم وتحنيطهم[1].

- ونحن في بحثنا هذا سنحاول التركيز على الصلات بين جنوب الجزيرة العربية وبلاد الرافدين خلال الألف الأول ق.م منطلقين من المرتكزات التي بيناها أعلاه وهي المواد المنتجة في الجنوب والتي كان الشمال بأمس الحاجة لها والطرق التي استخدمها التجار في تنقلهم بين هذه المناطق أي بين مناطق الإنتاج ومناطق الاستهلاك مع الإشارة هنا إلى أن هذه الطرق كانت متبدلة حسب الظروف وخاصة الأمنية منها، فكما هومعلوم أن التجارة والأمان على الطرق التجارية أمران متلازمان.

1- الجرو، أسمهان: التواصل الحضاري بين عرب الجنوب والعالم القديم. مجلة دراسات يمنية العدد 41 صنعاء 1990 ص 182 ومابعدها.

الطرق الواصلة بين جنوب الجزيرة العربية وبلاد الرافدين

شكلت البيئة الجغرافية الطبيعية العامل الأكثر فعالية عند اختيار الطرق التجارية. فعندما كان مضطراً لمسايرتها. ورغم أن التقانات الحديثة والمتطورة في هندسة الطرق وشقها، تسهم في كثير من أجزاء الطرق بتجاوز الحتمية البيئية كان يتغلب الإنسان على الصعوبات الطبيعية والعقبات الأرضية ببناء الجسور على الأودية والخوانق وفتح الأنفاق في الجبال، لكنها أي الطرق، تبقى في مساراتها العامة خاضعة للمؤثرات الطبيعية، والتضاريسية منها بصورة خاصة، ومما يؤكد دور العناصر الجغرافية الطبيعية في رسم محاور الطرق واتجاهاتها ومسالكها، سير الكثير من الطرق الحالية ولمسافات طويلة على هدى ومحاور واحدة قديمة، أوتنطبق عليها في مساراتها.[1]

وهنا يجب أن لا يغيب عن بالنا عامل بيئي مهم للغاية، ألا وهوتوافر المياه على امتداد هذه الطرق، إذ كما نعلم فإن القافلة لا يمكن أن تحمل معها كميات من المياه تكفيها لمرحلة قد تستغرق عدة أشهر، ولذلك فإن توفر الآبار والينابيع على امتداد الطرق التجارية كأن يشكل عاملاً رئيسياً في ازدهار وعمارة طرق تجاريووأفول نجم طرق أخرى.ونشير أخيراً إلى عامل بشري سياسي في ازدهار الطرق التجارية، ألا وهوعامل الأمن على هذه الطرق، فمن المعلوم أن الأمن على هذه الطرق قد تعكره الحروب التي تقع بين دول مختلفة تقع على امتدادها، وعندها تغلق هذه الطرق أمام القوافل التي تضطر إلى تغير مساراتها، وأحياناً يكون السبب في اختلال الأمن، تعرض القوافل التجارية لغارات القبائل البدوية التي تعيش في مناطق تعبرها هذه القوافل، ونجد صدى لهذه الناحية في وثائق مكتشفة في مناطق مختلفة من أنحاء العالم القديم منذ مطلع الألف الثاني ق.م[2].

1- عبد السلام، عادل: البيئة الجغرافية الطبيعية للبادية التدمرية، الحوليات الأثرية العربية السورية. المجلد 42 العام 1996 ص29

2- قابلو، جباغ: الطرق التجارية ووسائط النقل في بلدان الشرق العربي القديم خلال الألفين الثاني والأول ق.م في كتاب فعاليات الأسبوع الثقافي الرابع لقسم التاريخ جامعة دمشق 2000 .

لم تقتصر تجارة جنوب الجزيرة العربية على المواد التي كانت تنتجها بنفسها بل تعدتها إلى ما كان يصلها من مواد منتجة في جنوب شرق آسيا والهند وشرق أفريقيا، وما يميز تجارة جنوب الجزيرة العربية مع العالم الخارجي هوأن المواد المعدة للتصدير سواءً أكانت منتجة محلياً أم مستورة كانت تجمع وتخزن في مراكز رئيسية في جنوب الجزيرة ومن ثم تصدر من هناك إلى العالم الخارجي.لذلك توافرت في جنوب الجزية طرق تربط بين مناطق الإنتاج ومناطق التخزين وطرق أخرى تصل بين الموانئ التي تصل عبرها السلع المستوردة وبين مناطق التخزين أيضاً.

ومن خلال تفحص المصادر الإغريقية والرومانية يصل الباحث إلى أن شبوة عاصمة حضرموت كانت مركزاً لتجارة اللبان، حيث تتجمع فيها محاصيل اللبان من كافة مناطق الإنتاج الواقعة إلى الشرق منها سواءً في وادي حضرموت أوفي ظفار، كذلك تمنع كانت مركزاً لتجارة المر حيث تتجمع فيها محاصيل المناطق الواقعة جنوبها ويتبع هذين المركزين عدد من الموانئ التي تجلب إليها عن طريق هذه الموانئ المواد العطرية سواءً من المناطق المجاورة في الجزيرة كما هوفي قنا أومن شرق أفريقيا كما في حالة أوكليس وعدن وموزا في فترة لاحقة[1].

ويبدوأن الطريق كانت تنطلق بعد ذلك من كل من شبوة وتمنع باتجاه نجران ومنه إلى شمال الجزيرة وشرقها.

- وسنتابع من هنا الطريق الشرقي لأنه كان الأكثر استخداماً للوصول إلى بلاد الرافدين فالطريق تنطلق من نجران حتى تثليث ثم يتجه شرقاً إلى وادي الدواسر ماراً بالفاومنها يتابع باتجاه شمال شرق إلى أن يصل إلى البرهاء ومنها إلى جنوب بلاد الرافدين مع الإشارة إلى وجود تفرع من هذه الطريق تتجه جنوباً نحوالسواحل العمانية عن طريق واحة البريمي ويبرن ولابد من أن تذكر هنا أنه كانت هناك تجارة بحرية ناشطة بين السواحل الشرقية للجزيرة العربية وموانئ بلاد الرافدين وأن منتجات جنوب الجزيرة العربية الواصلة

1- النعيم، نورا عبد الله: الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي . دار الشواف الطبعة الأولى 1992 .

إلى موانئها الشرقية كانت تنقل بحراً إلى بلاد الرافدين.

- وأما عن الأدلة النصية والأثرية التي تؤيد وجود العلاقة بين جنب الجزيرة العربية وبلاد الرافدين في فترة البحث فهي متعددة ومن الممكن أن نضرب بعض الأمثلة عنها :

فلقد عثر في منطقة بالقرب من عانة على ختم أسطواني من القرن الثامن ق.م مدون بالعربية الجنوبية وهناك رقم طينية مدونة أيضاً بخط المسند وتعود للقرن السابع ق.م عثر عليها في منطقة الوركاء (أوروك القديمة).

ومن الدلائل النصية على وجود هذه العلاقة نذكر مثلاً نص نينورتا – كودوري – أوصر حاكم إقليمي سوخي وماري مطلع النصف الثاني من القرن الثامن ق.م والذي يتحدث فيه عن قيامه بسلب القوافل المحملة بالبضائع الآتية من سبأ وتيماء. ويتضح من خلال سياق النص أن ما دفع هذا الحاكم إلى نهب هذه البضائع هوتجاوزها لنظام دفع الضرائب فهويذكر أن هذه القوافل لم تمر عليه عندما كان في مدينة يسحبها كارابيل – أدد بل تجاوزته متخذة طريقاً لها بالقرب من منابع المياه ومن ثم تابعوا سيرهم نحومدينة خندانووالتي ربما كانت أحد المراكز التجارية الكبرى للقوافل القادمة من شمال الجزية العربية.[1] ومما يلفت النظر في هذا النص ما يرد فيه عن المواد المستولى عليها فهي تشمل حمل مائتي جمل وأنواع مختلفة من الصوف والحديد والحجارة إلى جانب مئة أسير مع أسلحتهم.

وأما الملك شاروكين الآشوري (722- 705 ق.م) فيذكر أنه تلقى الجزية من إيتار أمر السبئي وأن الجزية كانت عبارة عن ذهب وأحجار كريمة وعاج وبذور خشب العقيق وغيرها، وفي نحوالعام 685ق.م تسلم الملك الآشوري الآخر سينحاريب (705 – 681 ق.م) الجزية من كرب – إيلوالسبئي وهناك اتفاق الآن في أوساط الباحثين على أن هذين الملكين السبئيين اللذين يرد ذكرهما في نصوص هذين الملكين الآشوريين ما هما إلا المكرب السبئي يثع أمر بين بن سمه علي وكرب ايليوهوالمكرب أولاد الملك لاحقاً كرب ايل وترين

(1) حول نصوص هذا الحاكم : انظر اسماعيل، بهيجة خليل : نصوص كودوري أوصر حاكم سوفين وماري سومر مج 42 جزء 1+2 1986

مار علي صاحب نصب النصر المشهور. ورغم الدعاء الملك الآشوري بأن الحاكمين السبئيين قدما لهما الجزية فإننا نعتقد أن ما قدمه هذان الحاكمان لم يكن جزية بقدر ما كانت هدايا وذلك بغرض حماية مراكزهم التجارية في شمال الجزيرة لعربية هذه المنطقة التي أصبحت هدفاً لغزوات الملوك الآشوريين المتعاقبين بدءاً من عهد الملك تيجلات بلاصر الثالث (745 - 727 ق.م).

ومن الأدلة عن الصلات الاقتصادية بين الدولة البابلية الجديدة وسبأ ما ذكره هيرودوت من أن الكلديين كانوا يحرقون حوالي طنين ونصف من البخور للإله سنوياً في العيد الديني لهم ولاشك أن البخور لدى الكلديين[1] ونستذكر في هذا المجال أن الملك الكلدي نبونيد (556- 539 ق.م) قد هجر عاصمته التاريخية بابل واتخذ من تيماء مقراً لحكمه من أجل الإشراف المباشر على تجارة جنوب الجزيرة العربية مع بلاد الرافدين والتي كانت منطقة تيماء إحدى محطاتها الرئيسية.

- إن العلاقات بين جنوب الجزيرة العربية وبلاد الرافدين لم تقتصر على العلاقات الاقتصادية فالدلائل تشير إلى وجود صلات من نوع آخر تتمثل في التشابه في أسماء الآلهة التي كانت تعبد في كلتا المنطقتين. فإله القمر الحضرمي المسمى سين له ما يماثله في بلاد الرافدين وبنفس الوظيفة، والآلهة البابلية السورية عشتار لها ما يماثلها في بلاد اليمن متمثلاً بالإله عشتار مع الخلاف في الطبيعة بين هذين الإلهين فهوإله مذكر في اليمن في حيث أنه آلهة مؤنثة في بلاد الرافدين وسورية، كما أن اسم الإله إيل الداخل في تركيب اسم الملك السبئي الشهير كرب- إيل وتر يعتبر اسماً لإله رئيسي في بلاد الرافدين وسورية.

- ولم تقتصر الأمور المشتركة بين جنوب الجزيرة العربية وبلاد الرافدين على ذلك فهناك تأثيرات فنية وأثرية واضحة في الفنون اليمنية ويرجع ذلك إلى الألف الثالث ق.م. فمنظر شجرة الحياة الذي اشتهر في بلاد الرافدين والذي يتمثل بالنخلة التي يقف على جانبيها أسدين أووعلين بشكل متقابل ومنظر البطل الذي يقف رافعاً على رأسه حيواناً

1- اسماعيل، عارف أحمد: العلاقات بين العراق وشبه الجزيرة العربية صنعاء 1980 ط1، ص 117.

مقرّناً، كل هذه المناظر تجد انعكاساً لها في تماثيل ومشاهد وجدت في مناطق متفرقة من جنوب شبه الجزيرة العربية[1].

وفي الختام نريد أن نؤكد على ناحية هامة في إطار هذه العلاقات التي ربطت جنوب الجزيرة العربية مع مناطق بلاد الرافدين وهي أن خطوط التجارة التي ربطت بين هذين الإقليمين لم تكن فقط طرقاً لنقل البضائع عليها وإنما كانت طرقاً لانتقال المجموعات البشرية أيضا ؛ ففيما يتعلق بالتجارة كان للعرب الجنوبيين جاليات تقيم في البلاد التي يتاجرون معها ؛ وما النصوص التي عثر عليها في أوروك إلا دليلاً على ذلك كما أنه لا يمكن إغفال بعض أوجه التشابه في المجالات المختلفة التي أوردناها أعلاه للتدليل على وجود حركة اتصال للمجموعات البشرية بين هذين الإقليمين من أقاليم بلاد العرب في فترة البحث وإن كان الأمر بحاجة لمزيد من البحث والدراسة وخاصة في المجال اللغوي لتأكيد الروابط بين لغات جنوب الجزيرة العربية مع مثيلاتها في بلاد الرافدين.

1- المرجع السابق: ص 118 – 122 .

الهجرات العربية اليمانية

الى بلاد الشام قبل الإسلام

د. محمود فرعون

ثمة حقيقة، تتلخص في أنه لا يمكن دراسة تاريخ بلد من بلدان الشرق الأدنى القديم، بمعزل عن تاريخ البلدان الأخرى في المنطقة، لأن الأحداث الخاصة ببلدان هذه المنطقة، يرتبط الواحد منها بالآخر ارتباطاً وثيقاً، وإن ما يحدث في إحداها ينعكس على جزء كبير من منطقة الشرق الأدنى القديم، يضاف إلى ما تقدم إن دراسة الهجرات العربية القديمة إلى بلاد الشام.. جديرة بالاهتمام لأنها تلقى مزيداً من الضوء على بدايات ظهور اسم العرب في الكتابات والنقوش القديمة. وبين الأصول العربية لسكان بلاد الشام وأشهر القبائل العربية التي استوطنت فيها قبل الإسلام، وتأثيرها الحضاري.

سوف نتجاوز ما سمي بالهجرات العربية السامية القديمة والتي أجمع عليها الباحثون بأنها خرجت من الجزيرة العربية منذ الألف الرابعة قبل الميلاد نحوبلاد الشام وبلاد الرافدين واتجه قسم منهم إلى شمال إفريقيا. ونتتبع ظهور اسم العرب في الكتابات القديمة.

بدأ ذكر العرب يتردد في الكتابات المسمارية بدءاً من أواسط القرن التاسع ق. م، وذلك باسم أريبي A- ri- bi، أربايا Ar-ba-a-a ويعد نقش شلمنصر الثالث (858- 824 ق.م) أقدم شاهد كتابي يرد فيه ذكرهم، فهوأقدم ذكر معروف لهم حتى الآن. ومن البديهي أنهم كانوا موجودين قبل هذا التاريخ بوقت طويل. ويعيشون غالبا حياة التنقل والترحال في البوادي العربية. معتمدين على تربية الحيوان وعلى ممارسة شيء من التجارة. وتذكرهم النقوش العائدة للفترة الآشورية الحديثة خصوما ألداء للآشوريين.

يتضمن النقش تقريراً عن انتصار الملك الأشوري في معركة جرت في موقع قرقر

(حالياً: خربة قرقور قرب مدينة جسر الشغور في شمالي سورية)، وذلك في سنة 853 ق.م، على تحالف ضم عدة ممالك آرامية بزعامة ملك دمشق، وشارك في التحالف شيخ عربي يدعى جنديبوأوجندب، وأسهم في المعركة بألف جمل، أي بألف مقاتل على جمالهم. وتعد هذه الإشارة أول دليل على استخدام الجمال في المعارك[1].

وبعد أكثر من قرن زحف الملك الآشوري تجلات فلاصر الثالث (745-727 ق.م) إلى سورية أيضاً، وذلك بغية مواجهة الحلف الذي شكله ضده رزون ملك دمشق، وكان ضمن الحلف ملكة عربية تدعى زبيبة Za-bi-bi-e التي كانت كاهنة وتتزعم قبيلة قيدار المنتشرة في شمالي الحجاز. وقد تمكن الملك الآشوري من إخضاع دمشق سنة 732 ق.م، ونصب فيها حاكماً آشورياً[2].

ويمكن أن يستخلص من هذين الشاهدين أن قبائل شمالي الجزيرة العربية كانت تتوسع في المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من دمشق، ويبدوأنها رأت في الآراميين هناك حليفاً يمكن الاعتماد عليه في مواجهة الأخطار الآشورية المتزايدة.

وتشير المصادر إلى أن ملكة عربية أخرى اسمها شمس أوشمسه قادت في 732 ق.م تحالفاً عربياً ضد الآشوريين، وشاركت فيه قبائل تيماء وأسأ Asa'a وخيبا Hajappa وبدنا Bedena وسبأ[3]. وقد نال منها الآشوريون وفرضوا عليها قبول وجود مراقب آشوري في بلاطها. وقد أجبرت هذه القبائل على الاعتراف بالسيادة الآشورية. وقامت بإرسال الإتاوة من ذهب وفضة وابل وجميع أنواع الأفاوية.

ولاشك في أن ذكر السبئين هنا لافت للانتباه، والراجح أن ذلك يدل على جاليات يمنية

1- مرعي، عيد، تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتى 539 ق.م، دار الأبجدية، دمشق، 1991، 115.

2- مرعي، تاريخ بلاد الرافدين، 118.

3- احسان عباس ومحمود أبوطالب، شمال الجزيرة العربية في العهد الآشوري، الجامعة الأردنية، عمان، 1991، 5؛ Klengl, H. Kulturgeschchite des alten vodarasien.Akademie-verlag, Berlin,1989 , 45.

قديمة انتقلت إلى شمال غربي الجزيرة العربية في وقت مبكر خلال ممارستها أعمال التجارة بين الجنوب والشمال. ومن المعروف أنه كانت هناك طريق تجارية تخترق الجزيرة بدءاً من ميناء قنا على البحر العربي ثم تمر شمالاً بشبوة ومارب وقرناوونجران ومكة ويثرب ومدائن صالح حتى تيماء، وتتفرع بعد ذلك إلى فرعين، فرع يتجه نحوبابل وآخر نحوالبتراء وغزة أوالبتراء وبصرى. ومع مرور الزمن استقرت على هذا الطريق حاميات وجاليات معينية، وأسهم ذلك في التزاوج والاختلاط بين عرب الشمال وعرب الجنوب، وقد أقامت أكبر الجاليات المعينية الجنوبية في واحة العلا شمالي يثرب[1]. ويعود أقدم ذكر لدولة سبأ اليمنية في الكتابات المسمارية إلى عهد الملك الآشوري شلمنصر الثالث (858- 824 ق.م)، وذلك في نقش له يؤرخ بسنة 838، ويذكر أنه أحضرت جمال وخيول ونباتات عطرية وأحجار نفيسة وغير ذلك من سبأ إلى بلاد آشور[2].

لوتتبعنا النقوش الملكية الآشورية الحديثة سنلحظ بوضوح ازدياد الحديث فيها عن العرب والجزيرة العربية بدءاً من عصر حكم السلالة السرجونية، وأول ملوكها شرُّكين (سرجون) الثاني (721- 705 ق.م)، أي من أواخر القرن الثامن ق.م، ويتزامن ذلك مع ازدياد الدور السياسي للقبائل العربية، وتحولها إلى قوة يحسب لها حساب لدى ملوك آشور، ويشمل ذلك بشكل خاص عرب مناطق الحجاز والذين انتشروا من هناك نحوأطراف البادية السورية وبلاد بابل. ونجد في النقوش الآشورية ذكر للحملات التي قام بها سنحريب واسرحدون في القرن السابع ق. م. ضد القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية وفي بادية الشام وصولا الى دمشق. واخضاعه عدد من ملوكهم مثل تعل خونووخزابل. ثم تتكرر حملات آشور بانيبال (668- 627 ق.م.) ضد قبائل قيدار في بادية الشام. ويتكرر ذلك في عهد نبوخذ نصر ونابونيد.

لا تحدد المصادر التي بين أيدينا الفترة الزمنية التي هاجرت فيها القبائل العربية إلى

1- الشيبة، عبد الله حسن، محاضرات في تاريخ العرب القديم، 1995، 47.

2- المرجع السابق، الحاشية 29، ص 461.

سورية. لكن المكتشفات الأثرية ألقت الأضواء على كثرة وجود العرب في سورية، فالنصوص الكثيرة المنقوشة على صخور البازلت في المنطقة التي يطلق عليها اسم الصفا في الجنوب الشرقي من دمشق تشير إلى أن السكان الذين نقشوا تلك النصوص في القرون الميلادية الأولى هم من أصل عربي، فلغتهم لهجة عربية وكتابتهم تمت إلى الكتابات التي وجدت في جنوب الجزيرة العربية. وأهمية هذا الاكتشاف هو أن علماء الآثار قد تعرفوا على عرب الصفا قبل أن يختلطوا بغيرهم. فتعرفوا بواسطة هذه النقوش على كتاباتهم وآلهتهم وعاداتهم[1].

كما أن الرأي السائد اليوم بين العلماء أن الأنباط عرب كانوا يسكنون بادية الشام الجنوبية منذ القرن السادس قبل الميلاد. وقد استعملوا الآرامية في كتاباتهم، ولم يذكرهم الأخباريون، بدليل أن أسماءهم أسماء عربية خالصة، وأنهم يشاركون العرب في عبادة الأصنام المعروفة عند عرب الحجاز مثل ذي الشرى واللات والعزى، وأنهم رصعوا كتاباتهم الآرامية بكثير من الألفاظ العربية، وبدليل إطلاق مؤرخي اليونان واللاتين والمؤرخ اليهودي (يوسفوس) كلمة العرب على الأنباط وإطلاق اسم العربية الصخرية Arabia Petrea على أرضهم، ولولم يكن الأنباط عرباً لما أطلق الكلاسيكيون اسم العرب عليهم، وما كانوا ليدخلوا بلادهم ضمن أجزاء الجزيرة العربية ويجعلونها جزءا من أجزائها الثلاثة[2].

أما استخدام الأنباط للآرامية في كتاباتهم فيعود إلى أن الآرامية كانت قد تغلبت على أكثر لغات الشرق الأدنى، وصارت لغة الكتابة والتدوين والتجارة في هذه المنطقة قبل الميلاد وبعده بقرون. ولا عجب أن يدون الأنباط وغيرهم من العرب بالآرامية، لغة الفكر والثقافة والتجارة، وأن يتكلموا بلغة أخرى هي لغة اللسان.

وينطبق على سكان تدمر ما ذكرناه عن الأنباط فقد أخذ العنصر العربي يتغلب عليها تدريجياً بدءاً من مطلع الألف الأول قبل الميلاد، حتى أصبح هذا العنصر في العهد السلوقي

1- دوسو، رينيه، العرب في سورية قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، القاهرة، 1959.

2- علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب، الجزء الثالث، 1980، 9.

هوالنواة الثابتة في تدمر والغالبة عليها، وتلك نتيجة أكدها أغلب الباحثين[1].

بالإضافة إلى الأنباط والعرب في تدمر، فإن مدينة حمص كانت تحت سلطة أسرة عربية قبل وصول الرومان بقيادة بومبي إلى سورية، وحكمت أسر عربية أخرى مدينة الرها، كما أن الأيتوريين، وهم من أصل عربي، كانوا يسيطرون على مملكة تقع في لبنان الداخلي عاصمتها خليكس Chalcis عنجر في البقاع، ومن هناك امتد سلطانهم في لبنان حتى شاطئ البحر، وبقوا هكذا حتى تدخل الرومان وسيطروا على المنطقة[2].

لم تقدم المصادر العربية سوى معلومات شديدة الغموض فيما يتعلق بهجرة القبائل العربية إلى الشام، والآثار التي تركتها، ولولا التأييد الذي حصل عليه العلماء، من النقوش الكتابية ومن مؤلفات معاصرة، لأضحت هذه المعلومات عديمة الجدوى.

يشير اليعقوبي والمسعودي أن قضاعه كانت أول من قدم إلى الشام، وكان أول من قدم من قبائل قضاعة تنوخ، فملكهم الروم على من ببلاد الشام من العرب ثم لحق بهم بني سليح ومن بعدهم غسان[3].

أما الطبري، فيذكر بأن كثيراً من تنوخ الذين كانوا قد توجهوا مع مالك وعمروابني فهم ومالك بن زهير لحقوا بالشام إلى من هنالك من قضاعة، بعد أن ضبط اردشير بابك أول ملوك الساسانيين العراق، لأنهم كرهوا أن يقيموا في مملكته[4].

أي أن هذه الهجرة نحوالشام كانت حوالي النصف الأول من القرن الثالث الميلادي لأن أردشير بن بابك هومؤسس السلالة الساسانية التي يبدأ حكمها سنة 224م.أما الهجرة الأولى من قبائل تنوخ[5]. سواء نحوالعراق أوالشام فربما كانت في النصف الثاني من القرن

1- البني، عدنان، تدمر والتدمريون، وزارة الثقافة، دمشق، 1977، 92.

2 - Jones,V. Journal of Roman studies, 1931 , 257.

3- اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، الجزء الأول، دار بيروت للطباعة والنشر، 1960، 201.

4- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، الجزء الثاني، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، 42.

1- يذكر الطبري أن تنوخ تضم قبائل عدة من العرب تحالفوا على التنوخ وهو المقام، وتعاقدوا على التوازر والتناصر فصاروا يد الناس وضمهم اسم تنوخ؛ أنظر: الجزء الأول، 610 . هذا وقد عثر

الثاني الميلادي.

نستنتج مما يرد عند الطبري واليعقوبي والمسعودي وغيرهم أن تنوخ التي استقرت في الشام كانت من قبائل قضاعة[1]، وأن بني تسليح غلبت عليهم وتنصرت فملكتها الروم على العرب الذين بالشام، وبنوسليح هم عرب من قضاعة، ثم سارت غسان إلى الشام فقدموا أرض البلقاء وسألوا سليحاً أن يدخلوا معهم في طاعة ملك الروم[2]. أما ابن عبد ربه فيذكر أن سليح هوعمروبن حلوان بن عمران، بينما الضجاعمة هم من بني سعد بن سليح، وأن الضجاعمة هم الذين كانوا ملوك الشام قبل غسان[3]. ويبدومما يذكره المستشرق نولدكه أن الضجاعمة كانوا عمالاً للروم على عرب مشارف الشام. وأن جدهم ضجعم عاش في أواخر القرن الرابع للميلاد. وأنه تنصر مع عدد كبير من أتباعه[4]، ولم يتغلب الغساسنة على الضجاعمة بسهولة ويسر، ولم يؤد هذا النصر إلى زوال الضجاعمة نهائيا، إذ يرد ذكر بني سليح بن حلوان في حاضر قنسرين[5]، كما كان الضجاعمة من القبائل المعروفة عند ظهور الإسلام، فقد وقفوا مع سكان دومة الجندل في مقاومتهم لخالد بن الوليد وكان رئيسهم أنذاك ابن الحدرجان[6].

أما الغساسنة فهم بإجماع النسابين، من أزد اليمن، التي افترقت فيما ذكرت المصادر نتيجة الظروف الاقتصادية التي نزلت باليمن، وحدوث سيل العرم ثم انهيار سد مأرب، كل ذلك كان سبباً في أن تهاجر قبائل بأسرها من جنوب بلاد العرب إلى شمالها بحثاً عن أرض جديدة، والتماساً لظروف أفضل وليس هناك تحديد دقيق للتاريخ الذي استوطن فيه

على نقش أم الجمال في جنوب سوريا يعود للقرن الثالث الميلادي يذكر فيه اسم جذمة ملك تنوخ.

2- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الثاني، دار الأندلس، بيروت، 1973، 83.

3- المسعودي، مروج الذهب، الجزء الثاني، 83 ؛ اليعقوبي، تاريخ، الجزء الأول، 207.

4- ابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء الثالث، القاهرة، 1952، 373.

5- نولدكة، أمراء غسان، ترجمة بندلي الجوزي وقسطنطين زريق، بيروت، 1933، 6.

6- البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق محمد رضوان، المكتبة التجارية، مصر، 150.

7- الطبري، الجزء الثالث، 378.

الغساسنة الشام، لأن ما يرد في المصادر فيه الكثير من الاختلاف وشيء من التناقض مع الإجماع على حقيقة واحدة لا مجال للاختلاف فيها، وهي أن الغساسنة استوطنوا الشام بعد الميلاد وقبل الإسلام طوال عدة مئات من السنين.

ويذكر ابن حزم أن الغساسنة بطون شتى من الأزد، ومن بطون غسان التي سكنت الشام أولاد جفنه بن عمرومزيقياء[1]. وكانت ديار ملوك غسان بالبرموك والجولان وغيرهما من غوطة دمشق وأعمالها ومنهم من نزل الأردن من أرض الشام. ويؤكد ذلك قول حسان بن ثابت:

لله درّ عصابة نادمتهم	يوماً بجلق في الزمان الأول
يسقون من ورد البريص عليهم	بردى يصفق بالرحيق السلسل

وفي فترة الفتوح الإسلامية، تذكر المصادر العربية وجود قبائل غسان في مؤته وفي مرج راهط ومرج الصفر ومرج عذرا ومعظم هذه المناطق قريبة من دمشق[2].

وبالإضافة إلى قبائل غسان ترد أسماء قبائل كلب في بادية الشام في قراقر وسوى مع قوم من بهراء، أما ديار عامله فمجاورة للأردن، وجبل عاملة مشرف على عكا وإلى الغرب من حمص تقع أرض بهراء.

هذه هي أشهر القبائل العربية التي استوطنت في الشام قبل الفتوح الإسلامية وكانت أما قضاعية أوقحطانية، ومن الصعب أن نتبين نسبة هؤلاء بعضهم إلى بعض.

ويرى بعض الباحثين، أن وجود العرب وانتشارهم في بلاد الشام بكثرة، كان من أكبر العوامل التي مهدت للفتح العربي الإسلامي طريقه وأعانت عليه. وأن الفتح كان حركة قومية والفوز فيه كان للقومية العربية[3].

1- ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، 351؛ المسعودي، مروج الذهب، الجزء الثاني، 83.

2- الحموي، ياقوت، معجم البلدان، الجزء الأول، دار صادر، 401، 1977.

3- حتي، فيليب، تاريخ العرب المطول، الجزء الأول، 197.

ويقول رينيه دوسو.. ان الفتح الإسلامي – الذي وقع في القرن السابع الميلادي – كان في الحقيقة حركة طبيعية للسكان العرب، الذين كانوا لا يتجهون دائماً إلى غزوالأقاليم الحضرية فحسب، بل إلى الإقامة فيها أيضاً[1].

ونستخلص مما ذكرناه أن النقوش والكتابات التي عثر عليها تؤيد ما ذهبنا إليه. أن هجرة العرب اليمانية إلى بلاد الشام بدأت منذ عصور قديمة، ترافقت مع تحركات القبائل التي كانت تنساح من الجزيرة العربية باتجاه الشمال بحثا عن أماكن جديدة للاستقرار، أوبسبب مرافقتهم للقوافل التجارية الآتية من الجنوب نحوالشمال، واختتمت بهجرة كبيرة رافقت الفتوح الإسلامية في منتصف القرن السابع الميلادي.

1- دوسو، العرب في سورية، 2.

الهجرات اليمانية

حتى نهاية القرن الثالث الميلادي

د. رفعت هزيم

لا شك أن الباحث في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام ينبغي – كي يكون منهجه منهجاً علمياً صحيحاً – أن يعتمد على مجموعة من المصادر هي:

1- الآثار والنقوش القديمة: فأما الآثار فتشمل المعابد والحصون والقصور والقبور والتماثيل والمسكوكات والأدوات الحجرية والمعدنية والفخارية، وغيرها.

ولذا يقوم علماء الآثار المتخصصون بعمليات المسح والتنقيب في شتى المواقع الأثرية بحثاً عما خلفه القدماء حكاماً أومحكومين. وأما النقوش فهي تلك التي كتبها العرب القدماء حيث كانوا يقيمون أويرتحلون، وهي صنفان، نقوش مكتوبة بالعربية الجنوبية أوالشمالية ؛ وأخرى مكتوبة بلهجات آرامية، وأهمها النقوش النبطية والحضرية والتدمرية التي تطلعنا على جوانب كثيرة من تاريخ دول الأنباط والحضر وتدمر.

2- الكتابات والنقوش السامية التي خلفتها الأقوام المجاورة، ولا سيما الكتابات الآشورية والسريانية والحبشية.

3- الكتابات الكلاسيكية، ويُراد بها مؤلفات المؤرخين والجغرافيين من اليونان أوالرومان أومن سكان الشرق القديم في العهود اليونانية والهلنستية والرومانية مكتوبة باليونانية أوباللاتينية أوبغيرهما، وأهمهم: هيرودوت (القرن الخامس ق.م)، وديودورس الصّقلي (ت 40 ق.م) في كتابه "التاريخ الطبيعي"، وبطليموس (ت.140م) في كتابه الجغرافية، و: الملاّح اليوناني المجهول في كتاب الطواف أوالبريبلوس Periplus (من القرن الثاني أوالثالث للميلاد)، وبروكوبيوس (ت565م) في كتابه "تاريخ الحروب".

4- كتب التراث: وتشمل كتب الأدب ودواوين الشّعر وكتب الإخباريين وكتب التاريخ والجغرافية والأنساب وسواها.

وعلى الباحث أن يفحص ما تذكره هذه المصادر فحصاً دقيقاً، وأن يقارن بعضها ببعض، وكلّما تعددت المصادر المؤيدة لما يذهب إليه كان هذا أدعى إلى تأكيد صحة المنهج. وستكون البداية بما ورد في كتب الإخباريين عن موضوعنا هذا لأنها مصدر معظم ما يرد عنه في مؤلفات اليعقوبي والطبري والسعودي والهمداني ونشوان الحميدي وسواهم. ويُعد كتابا عبيد بن سريه الجُرهمي (ت نحو68 هـ)[1]، ووهب بن منبه (ت.106 هـ)[2] أقدم ما نعرفه في صنفه من الإخباريون. والسّمتان الغالبتان على كتابيهما هما امتزاج الحقيقة بالخيال، والمبالغة المفرطة، حيث يرجعان بحضارة اليمن القديم إلى زمن بعيد، ويَصلان أنساب الملوك والحكام الذين نفتقد الدليل على وجود بعضهم بالأنبياء عليهم السلام[3]، ويرويان قصص الفتوحات والغزوات التي قام بها هؤلاء الحكام في أصقاع مختلفة من العالم.

فمما ذكروه في هذا الشأن أن شداد بن عابدبن الحلطاط بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام بلغ اقصى المشرق، ثم مضى على ساحل سمرقند في ارض التيت، ثم مضى على ارمينية، ثم جاء إلى الشام، ثم إلى

1- ذكر الهمداني أنّ عبيداً كان سامراً لمعاوية بن ابي سفيان في دمشق، (الاكليل 161/8) ولم يذكر بروكلمان سنة وفاته، ولكنه قال انه عاش إلى أيام عبدالملك ابن مروان (تاريخ الأدب 215/1).

2- نشرهما كرنكو في حيدر اباد عام 1347هـ بعنوان "كتاب التيجان في ملوك حمير عن وهب بن منبه" وبذيله "أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن"، ولكن بروكلمان يقول إن "كتاب التيجان" هذا هو لأبنهشام راوية وهب، وقد اعتمد فيه بصورة أساسية على اسرائيليات وهب، وإن روى أيضاً عن مصادر أخرى، أنظر: تاريخ الذب العربي 252/1.

3- قال ابن حزم: "جميع العرب يرجعون إلى ولد ثلاثة رجال وهم: عدنان وقحطان وقُضاعة، فعدنان من ولد إسماعيل، إلا أن تسمية الآباء بينه وبين اسماعيل قد جُهلت جُملَةً .. وأما قحطان فمختلف فيه، قيل: هو من ولد اسماعيل وهذا باطل ..، وقيل: من ولد سام بن نوح والله أعلم، وقيل: من ولد هود وهذا باطل .. لأن هوداً من عاد، ولا ترى باقية لعاد ..، وأما قضاعة فمختلف فيه: قيل: ابن معد بن عدنان، وقيل: ابن مالك بن حمير والله أعلم" حمير الانساب 7 – 8.

المغرب حتى بلغ البحر المحيط وهوبني المدن ويتخذ المصانع، فأقام في المغرب مائتي عام، ثم قفل إلى المشرق.

ومنه أن الحارث الرّائش قام بفتوحات واسعة تابعها أبنه ابرهة ذوا المنار الذي قاد مع وَلَدَيْه عمروذي الاذعار وأفريقشس غزوات شملت السّاحل الإفريقي للبحر الأحمر، ثم امتدت إلى الشمال الإفريقي بما فيه المغرب إلى طنجة.

وزعموا أنّ ناشر النّعم (أو، ياسر أنعم) بلغ في غزوه البحر المحيط، ثم ساد بنفسه غازياً نحوالمغرب فدوّخه ووطئه حتى بلغ وادي الرّمل، فأمر بصنم من النحاس، فنُصبَ على صخرة وكُتب على صدره بكتاب المسند: " صَنع هذا الصنم الملك الحميري ناشر النعم اليعفري، ليس وراء هذا مذهب، فلا يتكلف أحد المضي متغلغلاً فيعطب ". أما شَمَّر برعش بن ناشر النّعم فقد "ملك الأرض جميعها ودانت له، وكان عامله على فارس بَلاش ابن قُباذ وعامله على الروم ماهان بن هرقل، وجعل على أهل بابل والبحرين وعُمان ألف درع ". وأمّا آخرهم أسعد الكامل فينسبون إليه قصيدة طويلة يتغنى فيها بفتوحاته وبطولاته، ومنها قوله:

نلتُ بلاد الهند والسند كلها	وفي الصين صيّرنا نقيباً وكاملا
ونلتُ بلاد المشرقين كلاهما*	ونلتُ بلاد المغربين وبابلا

ويزعمون أنه آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يُبعث نبياً، وينسبون إليه قصيدة يقول فيها:

شهدتُ على أحمد أنّه	رسولٌ من الله باري النَّسَمْ
لهُ أُمّةٌ سُمّيَتْ في الزّبور	فأمّةُ أحمد خيرُ الأنـــامْ
فلومُدَّ عمري إلى عهده	لكنتُ وزيراً له وابن عامْ[1]

* كذا ورد بالرّفع.

1- انظر هذه الروايات والأخبار في: الإكليل 183/8 – 225، وكتاب: التيجان 81- 134 و219- 221، وقارن بـ: أوراق: 252 – 256.

ثم يدّعون أن النبي صلى الله عليه وسلم نبي عن سبّه لأنه أول من كسا الكعبة، وأنه هو المراد في قوله تعالى: "أهم خير أم قوم تبع" (الدخان 37) ومن الواضح أن تأليف هذه الأخبار والتوسع فيها والعناية بها إنما يرجع إلى ذلك الصراع الدّموي بين اليمنية والقيسية – طوال العصر الأموي – على الخلافة والسلطان، إذ لم يكتف كلّ من الفريقين بالفخر بأمجاده في الإسلام، بل حاول العودة بها إلى الزمان الغابرة ليُثبت تفوقه على خصمه ومنافسه قبل الإسلام وبعده[1]. وبالرغم من أن التاريخ قد طوى هذا الصراع – ولله الحمد – منذ أمدٍ بعيد فإنّ بعض الباحثين العرب مازالوا يتمسكون بهذه الأخبار والروايات ويعيدونها – بسبب ورودها في مؤلفات المتقدّمين من المسلّمات – فيبنون عليها أحكاماً ونظريات يلجئون للبرهنة على صحتها إلى تفسير ما ورد في المصادر التاريخية تفسيراً يوافق هوأهم وإنْ كان مخالفاً للمنهج العلمي. ويشارك هؤلاء الباحثون – بذلك – أولئك الإخباريين في الاعتقاد بأن الحضارة العربية هي أقدم الحضارات في العالم القديم، وبأن موجات بشرية كبرى متعاقبة خرجت من جنوب الجزيرة العربية وشمالها منذ أقدم العصور لتستوطن – سلْماً أو بالغزو – مناطق واسعة من بلاد الشام وبلاد الرافدين، والأجزاء الشرقية والشمالية من القارة الإفريقية ويعززون مذهبهم هذا بدليلين أثنين، أحدهما: ما يُروى عن تدفق الهجرات من اليمن إثر حدوث سيل العرم الذي أشار إليه القرآن الكريم ؛ والآخر: افتراض كثير من الباحثين – مستشرقين وعرباً – أنّ الشعوب الناطقة باللغات السامية وصلت إلى أماكن سكانها المعروفة في هجرات متتابعة من الجزيرة العربية.

غير أن المصادر الأُخرى التي أشرنا إليها لا تقدّم دليلاً واضحاً يُثبت سبق الحضارة العربية زمناً لجميع حضارات العالم القديم، كما أن المكتشفات الأثرية والنقوش والكتابات

1- مكرر. عقد ابن حزم. المتوفي سنة 456 فصلاً في كتابه بعنوان الكلام في مفاخرة قحطان وعدنان "أجمل فيه أوجه المفاخرة للافريقيين، وانتهى إلى القول: "ويظهر فضلُ عدنان ظهوراً لأخفاء به، واما في الحقيقة فلا فخر إلا بالتقوى، وما عدا ذلك فخطأ: " إنّ أكرمكم عند الله اتقاكم" (487 – 490). ولكنه جعل العرب ثلاثة أقسام: عدنان، وقحطان، وقضاعة.

بشتى اللغات، وكذلك المصادر الكلاسيكية لا تشير إلى خروج موجات كبرى – غازية أوسالمة – من جزيرة العرب إلى بلاد الشام أوبلاد الرافدين أوأفريقية – ما عدا الحبشة – حتى القرن الثالث الميلادي. زد على ذلك بأنه لا يمكن التسليم بان الجزيرة العربية هي الموطن الأصلي للشعوب الساميّة، فثمة نظريات تجعل هذا الموطن في بلاد الشام أوفي بلاد الرّافدين أوفي الشمال الأفريقي أوفي أقاليم أخرى.

ولووقفنا قليلاً عند النقوش اليمنية القديمة، وهي أهم المصادر في هذه المسألة لوجدنا أنها لا تذكر شدّادَ بن الملطاط أوالحارث الراتش أوأبرهة ذا المنار أوعَمْراً ذا الأذعار أوأفريقيش البنّة، ولكنها تذكر أعمال ثلاثة من أولئك الحكام الذين تحدّث عنهم الخباريون ومن تابعهم، وهم: ناشر النّعم (أي، ياسر يهنعم) وأبنه شمّر يهرعش وهوشريكه ثم خليفته في الحكم، إذْ استطاعت حمير في عهدهما الوصول إلى مأرب فأتّحد بذلك الكيانان السبئي والحميري – بعد صراع طويل – في دولة واحدة أواخر القرن الثالث الميلادي، ثم استطاع شمّر ضمَّ أجزاء من حضر موت فاتخذ لقب "ملك سبأ وذي ريدان وحضر موت ويمنت"، أما ثالثهم فهوأسعد الكامل (أي: أب كرب أسعد) الذي شارك أباه ملك كرب بها من الحكم أواخر القرن الرابع الميلادي، وبالرغم من أنه أخضع بعد انفراده بحكم اليمن القديم كله تقريباً لسلطانه كما يُستنتج من إضافة عبارة "وإعرابهم طوداً وتهامة" إلى لقبه فإن غزواته لم تتجاوز – كما تقول النقوش – بعض مناطق نجد.

وأمّا سدّ مأرب الذي جعلوا انهياره سبباً لهجرة قبائل كثيرة إلى أماكن شتى تجاوز بعضها تخوم الجزيرة العربية فإنّ النقوش ودراسات المتخصصين هي التي تمدنا بمعلومات موثوقة عن بنائه وتصدّعه وانهياره، إذ أكتمل بناء السدّ في ذلك الموقع في القرن الخامس ق.م، وقد أُقيم هناك لاحتواء مياه السّيول الناشئة عن تدفق مياه الأمطار الموسمية من أودية المنطقة إلى مساقط تجمعها التي تقدر مساحتها بحوالي عشرة آلاف كم مربع. ولا يستطيع السدّ استيعاب مياه جميع السيول، وما تجرفه من طمي لفترة تزيد على قرن، فإذا أُضيف إلى ذلك الكوارث الطبيعية كالزلازل والفيضانات، وفوق ذلك الإهمال أحياناً فإن هذا يفسر تصدع السد مراراً دون أن ينهار، مما يستدعي إصلاح الجزاء المتصدعة منه واستخراج ترسب في

حوض السدّ من أتربة وحجارة وأخشاب وسواها[1]. ويرجع أوّل ذكر لإصلاح السدّ في النقوش إلى منتصف القرن الرابع الميلادي، حيث أشار أحد النقوش إلى إصلاح جدي في عهد الملكين ثأران يهنعم وأبنه ملك كرب يهأمن، وشمل إعادة بناء المصرف الشمالي (671 Ja)، ثم تحدّث نقشان مؤرخان بعامي 449م (CIH 540) و457م (Gar sy) عن ترميم السدّ مرتين في عامين متتالين من عهد الملك شرحبيل يُعْفِر ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم طودً وتهامة، وبيّن فيه أن الملك سخّر في المرّة الثانية عشرين ألفاً من رجال حمير وحضرموت للقيام بالإصلاح. ثم قام أبرهة بإصلاح جديد عام 542م (CIH 541) أطال عمر السدّ زمناً قصيراً لأنه أنهار قُبيل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بسنوات قليلة، فنتج عن ذلك انهيار نظام الريّ في تلك المنطقة، مما أدى إلى هجرة قبائلها وتفرّقهم في كلّ مكان، وجاء ذكرُ هذا الحدث – كما يقول مفسروالقرآن الكريم في قوله تعالى في سورة سبأ: "فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم، وبدّلناهم بجنّتين ذواتي أُكُلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ وشيءٍ من سِدْرٍ قليلٍ" (سبأ: 16)[2].

فإنْ صحّ أن الآيات الكريمة تشير إلى التصدّع الأخير الذي لأدّى إلى انهيار السدّ، فهذا يعني أن الهجرات الكبرى المزعومة وقعتْ في الثلث الأخير من القرن السادس الميلادي، فلماذا سكت كُتب التراث عن وصف سير هذه الهجرات وبيان القبائل التي شاركت فيها بالرغم من قرب عهدها بظهور الإسلام ؟ ولعل الإجابة عن ذلك في نتائج دراسات الباحثين المعاصرين الذين قدّروا مساحة الأراضي التي كان يسقيها السدّ في القديم بما لا يتجاوز عشرة آلاف هكتار، فاستنتجوا من هذا أنّ الأراضي المزروعة آنذاك كانت تكفي لإطعام ما بين ثلاثين إلى خمسين ألف نسمة كانوا يعيشون في منطقة مأرب، علماً بأن مساحة المدينة نفسها لم تكن تزيد على كيلومتر مربع واحد[3] ومهما تكن نسبة الخطأ في هذه التقديرات فإنني استبعد أن يكون أولئك المتضررون من انهيار السدّ – وهم قوم مزارعون أي: مستقرّون –

1- انظر الدراسة المفصلة عن سدّ مأرب في: أوراق 69 – 102.

2- أوراق 74.

3- أوراق 93.

قد تركوا بلدهم الوفير الخيرات الواسع المساحة ليهاجروا إلى مناطق بعيدة مجهولة لا يعرفون عنها شيئاً، فالأرجح أنّ معظمهم تفرّقوا في اليمن نفسه، وإنْ كنتُ لا أستبعد انتقال بعضهم إلى بعضهم إلى وسط الجزيرة لقرب المسافة ليلحقوا بإخوانهم من الجماعات التي سبقتهم طوال القرون الماضية.

على أن الأدلة على حدوث هجرات يمنية في الألف الأول ق.م إلى الحبشة كثيرة متنوعة، ولكنها لم تكن بشكل غزوأوهجرات كبرى[1] بل هي عبور جماعات من اليمنيين للبحر الأحمر إلى الساحل الإفريقي المقابل، حيث أقامت محطات تجارية في ميناء عدولي Adolis وما جاوره، ثم تتابع وصول هذه الجماعات فزحفت غرباً إلى مناطق شتى من إرتيريا وتجري، واختلطت بالسكان المحليين، وخلفت هناك مجموعة من النقوش المكتوبة بخط المسند عُثر على أقدمها في موقع "يحا" قرب أكسوم. وقد تضمنت سماء آلهة ليمن القديم، نحوالمقة وعُشر وذات بعدان وذات حميم، وأسماء بعض حكامه، نحو: سمه علي، وهوالمكرِّب السبئي يسمه علي ينف الذي كان حاكماً عام 510 ق.م. وتدل المكتشفات الأثرية في الموقع بما فيها الأدوات والأشكال والنماط المعمارية والفنية على وجود صلات مؤكدة بين اليمن القديم والحبشة في ذلك العصر، فالمنصّة المدّرجة في يحا تشبه تلك التي في مأرب أوفي الحريضة، والأعمدة المربعة ذات القاعدة المستطيلة في يحا كنظائرها في مأرب وحريضة، كما أن الزخرفة الفنية هنا وهناك واحدة. وثمة أوجه شبه واضحة ين معبد يحا ومعبدي حريضة والمساجد، وكذلك بين رواق القصر في يحا ونظيره في معبد أوّام (محرم بلقيس) في مأرب وفي معبد عشر في تمنع. أمّا الجدار الداخلي في قصر يحا فمبني على طراز جدران معبد مأرب، أي: بطبقتين من البلاط الحجري المستطيل المحشوبالحصى. ووجه الشبه واضح أيضاً في المذابح الصغيرة وألواح تقديم القرابين والمذابح الأسطوانية أوالمكعبة والأختام البرونزية ذات الأشكال الهندسية. ويصدق هذا على المصنوعات الفخارية، فالجرار المثلمة من الطرفين والأكواب المضلعة من الطرفين في يحا كنظائرها في هجر بن حمير والحريضة،

1- يرى بافقيه أن الهجرة التي بدأت في القرن السابع ق.م أو قبله استغرقت وقتاً طويلاً، فليس هناك ما يدل على غزوة أو هجرة واسعة تمت دفعة واحدة (تاريخ 1970).

والأكواب ذات القاعدة نصف الكروية في يحا ومطرا وهاولتي، وتماثيل الثور المصنوعة من المرمر، والأسماء اليمنية نحو: سبأ ومأرب لبعض المواقع القريبة من أكسوم. أما أثر اليمن القديم الباقي إلى اليوم في الحبشة فهولغويٌ، إذ اتخذت دولة أكسوم التي ظهرت إلى الوجود في القرن الول الميلادي خط المسند – بعد تطويره بإضافة الحركات إليه – لكتابة اللغة الحبشية (أي الجعزية) التي تُظهر المقارنة وجود أوجه شبه نحوية ولغوية كثيرة بينها وبين العربية الفصحى ولغة النقوش اليمنية، زد على ذلك أن أسم البلاد نفسها – أي الحبشة – هومن صوغ اليمنيين القدماء. وقد يتساءل المرء هنا " أن تتابع بعض هذه الجماعات اليمنية هجرتها من الحبشة إلى الشمال الإفريقي ؟ والجوانب هوأن الطريق الوحيد الامن للوصول إلى هناك هوعبور السودان ثم مصر، ولوحدث ذلك لخلف أولئك المهاجرون ما يدّل على تلك الهجرات – أي كما فعلوا في الحبشة – ناهيك عن أننا لا نجد لهذا ذكراً في أي من المصادر المعروفة.

فهل يعني ما تقدم أن هجرة اليمنيين القدماء إلى الحبشة هي الهجرة الوحيدة المعروفة في تلك العصور ؟ لعلّ الإجابة عن ذلك تكمن في أن ازدهار حضارة اليمن القديم يرجع إلى التجارة بالطيّوب التي كانت تُنتج أنواعها في بلاد المَهْرة وظُفار وجزيرة سقطرة وتهامة لتُنقل ومعها السلع المستوردة من الهند والشرق الأقصى إلى الشمال أي إلى بلاد الرافدين وحوض البحر المتوسط. وكان تصدير الطيوب عبر "طريق البَخور" الذي يمتد من ميناء قنا على بحر العرب عبر شبوة فمأرب فنجران، حيث يتفرع إلأى فرعين: أحدهما عبر " الفاو" في وادي الدّواس فاليمامة إلى الخليج العربي وبلاد الرافدين، وآخر عبر يثرب فديدان (أي العُلا) فالبتراء إلى دمشق أوإلى غزة، وقد ذكر بليني أن عدد محطات القوافل من تمنع " عاصمة قتبان إلى غزّة كان يبلغ في القرن الأول للميلادي 65 محطة[1] وقد خلف لنا أولئك التجار اليمنيون

1- ويُحدثنا صاحب كتاب الطواف Periplus (من القرن الثاني أو الثالث للميلاد) عن طريق التجارة البحرية التي سلكها اليمنيون القدماء بين الموانئ اليمنية (المخا "موزا" على البحر الأحمر، وعدن وقنوموشا على بحر العرب) وسواحل القرن الإفريقي والهند. انظر: Periplus 21 – 39، و الفصل الذي عقده بافقيه بعنوان البخور والطريق التجارية في كتابه: تاريخ اليمن القديم 171 – 183.

نقوشاً في بعض البلاد 65 محطة[1]. غير أن المجموعة الكبرى من النقوش المعينة خارج بلاد اليمن وُجدت في ديدان (العُلا) بأعالي الحجاز أوالظاهر أن التجار المعنيين أقاموا مستوطنة هناك ليضمنوا سلامة القوافل التجارية في ذهابها وإيابها، وترجع هذه النقوش إلى الفترة ما بين القرنين الرابع والثاني ق.م.

ولا شك أن "ديدان" لم تكن الموقع الوحيد الذي استوطنه اليمنيون القدماء، فثمة جماعات كثيرة منهم – تجاراً وغير تجار – كانت على مدى القرون تتخلف لسبب أولآخر في الأماكن التي تصل إليها في مناطق شتى من بلاد الشام وبلاد الرافدين لتخلط هناك بالقبائل العربية الشمالية ولتقيم معها إمارات عربية اشتهر منها ثلاث هي إمارات المناذرة والغساسنة وكندة. والواقع أن هناك أربع إمارات عربية أخرى أسبق زمناً، اثنان منها معروفتان وهي دولة الانباط (من بداية حكم الحارث الأول عام 169 ق.م إلى سقوط البتراء في عهد الامبراطور تراجان عام 106م)، ودولة تدمر (من عام 41 ق.م عندما حاول الرومان الاستيلاء عليها حتى سقوطها بيد الامبراطور أورليان عام 273م)، وثالثة أقل منهما شهرة هي دولة حضر (Hatra) التي يرجع أقدم نقوشها إلى حوالي عام 85 م، ثم ذكر Cassius Dio في كتابه Roman History أن تراجان هاجمها عام 117 م دون أن يستولي عليها، ثم حاصرها سبتموس سيفروس عام 198 فاستعصت عليه، ولكنها سقطت بعد ذلك بأيدي الساسانين اليطوريين – نسبةً إلى يطور من أبناء إسماعيل – الذين أشارت لنقوش اليونانية والمصادر الكلاسيكية إلى وجودهم في لبنان بدءاً من القرن الثاني ق. م، وقد ادى الصراع المسلح على السلطة بين السلوقيين من عام 116 إلى 96 ق.م إلى ضعف سيطرتهم على بلاد الشام، فاضطروا منايوس (أي: معن) لقب Tetrarch عام 115 ق.م، وكانت حدود هذه الإمارة تضيق تارةً وتتسع أخرى حتى اختفى ذكرها بعد عام 20 ق.م.

وينبغي هنا ألا ننسى أن الحدود السياسية أوالجغرافية لم تكن – آنذاك – تمنع القبائل من الحركة أن شاءت وحيث أرادت، ولذا كانت تنتقل – غازيةً أومسالمةً من منطقة إلى أخرى

1- وثمة نقش حضرمي في الجزيرة (RES 3952).

من جنوبي الجزيرة إلى شمالها أومنهما إلى بلاد الشام وبلاد الرافدين، وقد أورد المؤرخون القدامي أنفسهم أمثلة على ذلك، فذكر أن "تنوخ" نزحت إلى البحرين فأقامت هناك وتحالفت فيما بينها* ثم تابعت تحركها في مطلع القرن الثالث الميلادي إلى جنوبي بلاد الرّافدين لتقيم هناك دولة المناذرة، وأنّ الغساسنة ارتحلوا من مأرب إلى تهامة ثم إلى جنوب بلاد الشام حيث أقاموا دولتهم، وأن "كندة" كانت في البحرين ثم نزحت إلى حضرموت ثم نزلت أرض معدٍ وأسست هناك مُلكاً. ولعل هذا هوالذي يدفع بعض المؤرخين المعاصرين إلى تسمية دول المناذرة والغساسنة وكندة بدول عرب الجنوب في شمال الجزيرة العربية. ولكنني أعود إلى القول أن هذه الدول وكذلك دول الأنباط والحضر وتدمر واليطوريين كانت من صنع عرب الشمال وعرب الجنوب معاً، وسنجد الدليل على ذلك مرة أخرى في مؤلفات المؤرخين القدامي الذين وصفوا لنا أهل الحيرة على هذا النحو: "الثلث من تنوخ وهم من كان يسكن المطال وبيوت الشعر والوبر في غربي الفرات فيما بين الحيرة والأنبار وما فوقها، والثلث الثاني: العِباد وهم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا بها، والثلث الثالث: الأحلاف: وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيهم ممن لم يكن من تنوخ من الوبر ولا من... (الطبري 822/1 رواية عن ابن الكلبي).

وتلتقي النقوش اليمنية القديمة الضوء على حركة القبائل في الاتجاه المعاكس، أي من الشمال إلى الجنوب، عندما تتحدث عن العرب أوالأعراب — وإنْ لم يكونوا جميعهم من عرب الشمال الذين يُعادون ممالك سبأ وحضرموت وحمير تارةً، ويُسالمونها أويخضعون لها تارةً اخرى، فقد ورد في نقش من منتصف القرن الثاني الميلادي (نقش المعسال) أن الجيش الحضرمي كان يضم قوة بدوية يقودها "سيد الأعراب = Swd Crb" وتحدث نقش آخر (Z 175) من عهد آل شرح لغسان ونزار ومدجح والأسد في الأطراف الشمالية لمملكة سبأ،

---

* نلاحظ هنا أن بعضهم يجعل القبائل المتحالفة التي ضمها أسم "تنوخ" مضرية "ويمنية" (الكامل لأبن الاثير 340/1) في حين جعلها ابن حزم ثلاثة أبطن: "اثنان منها من قضاعة، وثالث يقال له الأحلاف وهم من جميع قبائل العرب كلّها من كندة ولَخْم وجُذام وعبدالقيس" الجمهرة 467. ويذكر فيليب حتى ان غطفان وتغلب وطيء وسواها احلاف من قبائل شمالية.

ثم نجد قائداً جدنياً يزنياً في عهد ياسر يهنعم بن شمر يهرعش أي في القرن الرابع يُلقب في بعض النقوش (Ir 32 + Ja 665) بكبير أعراب كندة ومَذْحِج وحريم (أو: حرام) وياهل وزيدال[1].

ولعل حركة التنقل هذه بين الشمال والجنوب هي التي جعلت النسابين يختلفون في نسبة بعض القبائل نحو: علكّ وقضاعة وكندة[2] إلى قحطان أو عدنان. وإذا كان يصعب علينا تتبع حركة علكٍ وقضاعة فإن ما ذكرته النقوش وكتب التراث عن كندة كافٍ لتوضيح هذا الأمر، فقد ورد في نقش سبئ من محرم بلقيس (Ja 635) أن ملك سبأ شعر اوتر – الذي حكم أوائل القرن الثالث الميلادي – ارسل حملتين عسكريتين إلى قرية ذات كاهل ضد ربيعة ذي آل ثور ملك كندة وقحطان، وذكر نقش آخر (Ja 2110) ان الملكين آل شرح يحضب الثاني وأخاه يأزل يين – اللذين كانا يحكمان في منتصف القرن الثالث الميلادي – ارسلا سفارة إلى مالك بن بد ملك كندة ومَذْحِج وتُضيف إلى هذين النقشين نقشاً ثالثاً بخط المسند على نصب قبر لا تذكر فيه كندة صراحة، ولكنه يذكر أن صاحب القبر معاوية بن ربيعة هوملك قحطان ومذحج، وقد عُثر على النقش المذكور – ومعه نقوش أخرى – في تنقيبات أثرية في موقع قرية ذات كاهل (الفاوحاليا) في نجد[3]. ثم يختفي ذكر دولة كندة وقحطان ومدحج، هذه التي تمثل الدور الول من تاريخها وهودور تجهله كتب التراث تماماً لأنها تبدأ تاريخ كندة – كما ذكرنا اعلاه – بالحديث عن انتقالها من البحرين إلى حضرموت ثم نزولها أرض معد وتأسيسها دولة، حيث ولى حسان بن تبع (أي: حسان يهأ من بن أسعد الكامل) ملك حمير في الربع الأخير من القرن الخامس الميلادي حُجراً بن عمروبن معاوية الملقب بآكل المُرار على قبائل معد التي خضعت له في وسط الجزيرة العربية، ويبدوأن ذلك كان مكافأة على مساندة الحميريين ضد خصومهم هناك إذ يذكر أحد النقوش (Py 509) أن اعراباً من كندة قاتلوا مع

1- انظر بشأن الأعراب شماليين وجنوبيين: في العربية السعيدة: 1/13- 42، و: انتشار العرب البداة 83–107، والنقوش مستدية: 106 – 107.

2- انظر: جمهرة الانساب: 8 – 375 – 440.

3- قرية الفاو وللانصاري.

اسعد الكامل في غزوة أوصلة إلى موقع يُدعى مَأسَل الجُمح في نجد.

ويؤيد هذا الذي ذكرناه دليلٌ لغوي هام وهوانتشار النقوش العربية الشمالية هذا الانتشار الواسع الذي يمتد من حيث زمنه من القرن الرابع ق.م إلى القرن الأول أوالثاني للميلاد، ويشمل من حيث رقعته بلاد الشام وجنوبي بلاد الرافدين وشمالي الجزيرة العربية وشرقها. زيم نعلل كتابة هذه النقوش ثمودية ولحيانية وصفوية واحسائية وبين الفاربأشكال من خط المسند ؟ كما أننا نجد في المقابل نقوشاً يمنية قديمة مكتوبة بخط المسند (R 5065 - Ja 2122) ولكن لغتها عربية شمالية.

وهكذا يتضح لنا من بحث مسألة هجرة اليمنيين القدماء حتى القرن الثالث الميلادي استناداً إلى ما ورد في شتى المصادر عن تاريخ اليمن القديم وحضارته أن الهجرات إلى شمال إفريقية – سلماً أوغزواً – مزعومة لا دليل عليها، في حين أن ما كان منها إلى الحبشة في الألف الأول ق.م مؤكد بأدلة كثيرة ما يزال معظمها شاهداً على تلك الصلة بين ضفتي البحر الأحمر إلى اليوم. أما الهجرات إلى شمالي الجزيرة العربية وبلاد الرافدين فهي مرجحة رجحاناً يقارب اليقين، وأهم الأدلة على حدوثها هوالنشاط التجاري الواسع الذي استشهد به اليمنيون القدماء على مرّ القرون.

غير أن الهجرات التي تمت في الفترة المذكورة لم تكن هجرات كبرى على النحوالذي حدث بعد ظهور الإسلام مرافقاً الفتوحات أوتالياً لها، أوعلى غرار التغريبة الهلالية في القرن الخامس الهجري، بل كانت جميعها – بما فيها الهجرات إلى الحبشة تتم بجماعات صغيرة – من التجار أوسواهم – يتبع بعضها بعضاً على النحوالذي فعله اليمنيون في العصر الحديث في هجراتهم إلى اندونيسيا وماليزيا، فاختلطت تلك الجماعات المتعاقبة بالقبائل العربية الشمالية في موطنها الجديد، وما لبثت الهوية العربية الموحدة أن أظلت الجميع.

أثر هجرة قبيلتي الحبشان (حبشت) والأجاعز

من اليمن إلى شرق أفريقيا قبل الإسلام

أ. هدى عبد الرحمن العلام

قبل التعرض لتحليل هجرة قبيلتي الحبشان والأجاعز من اليمن إلى شرق أفريقيا[1] وأثرها على المنطقتين لا بدلنا من الوقوف عند أبرز الأسباب العامة المؤدية لهجرة العديد من القبائل اليمنية عموماً خارج اليمن في اتجاه شمال غربي وشمال وشمال شرقي وإلى ساحل شرق أفريقيا.

1- عرف العرب اليمنيون منطقة ساحل شرق أفريقيا باسم السودان الشرقي أما السودان الوسط فقد أطلق على وسط القارة(حوض تشاد) والسودان الغربي يشمل المنطقة الغربية منه من النيجر إلى السنغال وغامبيا. أما الأقسام الشمالية من القارة فهي مصر وليبيا ونوميديا وبلاد البربر. ويذكر بأن اسم أفريقيا كان نسبة لأفريقش بن أبرهة الذي ينسب إلى حميرين سبأ بن قحطان بن ... سام بن نوح أحد ملوك اليمن التابعة الذي ذهب بقبائل العرب (حمير – صنهاجه – كتامه) إلى بلاد المغرب وفيها سمع رطانة البربر فقال ما أكثر بربريهم (لغتهم غير مسموعة) وعليه سمي القسم الشمالي الغربي من القارة وميلاد البربر، والقارة ككل أفريقيا، للمزيد ينظر: لامين عوض الله، تجارة القوافل بين المغرب والسودان العربي في القرن السادس عشر الميلادي، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984، ص69، وكذلك: عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمي تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر وفي عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد 2، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2 وق –ص 38-59 . وكذلك أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلس (384- 456م)، جمهرة انساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت 200، 439 –ص 285 وأيضا الحسن بن محمد الوزان(المعروف بليون الأفريقي)، وصف أفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد خضر، دار العرب الإسلامي ببروت، ط2، 1982، المقدمة وما بعد.

وفي الحقيقة كانت الظروف الجغرافية المناخية السبب الرئيسي في هذه الهجرات؛ نظراً لتأثر منطقة شبه الجزيرة العربية بالتغير الجغرافي المناخي في نهاية عصر البلايستوسين في الألف العاشرة قبل الميلاد (10.000 ق.م). فقد شهد هذا العصر أربع فترات من الزحف الجليدي نحوشمال الكرة الأرضية (شمال أوربا وأسيا) لازمتها أربع فترات عن المطار السيلية الغزيرة في المناطق الاستوائية أما المناطق المتوسطة بينها (منطقة شبه الجزيرة العربية) فقد كانت تتمتع بمناخ معتدل نسبياً وأمطار معتدلة وخضرة دائمة ومأهولة بالسكان، وكان هذا الدافع الأول لظهور الحوار بين المجموعات البشرية فيها والمؤدي لظهور أولى الإنجازات الحضارية بها.

وبنهاية ذلك العصر زحف الجفاف والقحط وقلة المياه على شبة الجزيرة العربية وأخذت مواردها النباتية والحيوانية تتضاءل مما أضطر سكان هذه المنطقة للهجرة الداخلية أولاً ولتكن هذه الجماعات في حالة اتصال مستمر فيما بينها بالرغم من انتقالها الدائم في المنطقة بالرعي والتجارة(إذ تخترقها الطرق التجارية البرية الرابطة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب) وأمام الزيادة الكبرى في عدد السكان وتفوقها على ما هومتوفر من الماء والغذاء بدأت الهجرات العريقة القديمة من اليمن نحوالشمال والتي برز منها: 1) هجرة الأكاديون إلى وادي الرافدين في الألف الرابعة ق.م ؛ 2) الكنعانيون (بما فيهم الفينيقيون) والأموريون إلى منطقة الشام ووادي الرافدين في الألفين الثالثة والثانية ق.م ؛ 3) الآراميون في منطقة الهلال الخصب والعبرانيون في منطقة الشام (السورية) في النصف الثاني من الألف الثانية ق.م.[1] ثم تلتها هجرت عدة قبائل عربية منهم الأنباط والغساسنة والمنادرة إلى بلاد الشام والحبشان والأجاعز إلى ساحل شرق أفريقيا.

وبالنظر إلى أن شبه الجزيرة العربية كان جزءاً من أجزاء القارة الأفريقية قبل ظهور البحر الأحمر الذي فصل بينهما، منذ نحوثلاثة ملايين سنة، وأزاحها من خارطة القارة الأفريقية،

---

1 - يحي، لطفى عبدالوهاب، العرب فى العصور القديمة، دار النهضة العربية بيروت، 1979، ص33- 75 وجيمس هنرى براستد، العصور القديمة، ت.داود قربان، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص114- 115.

فإن البحر الأحمر الذي فصل بين الجانبين (شبه الجزيرة العربية)[1] وساحل شرق أفريقيا لم يكن مانعاً للهجرات البشرية من وإلى شبة الجزيرة العربية. إن هذه الأخيرة والتي رأى فريق من العلماء أنها الموطن الأصلي للساميين، عرفت نتيجة حدوث الجفاف هجرات متعاقبة سلكت الطرق البرية والبحرية لتطبع المنطقة بالطابع السامي. غير أن فريقا آخر رأى العكس. فبالنسبة لهذا الأخير يعتبر الساحل الشرقي الأفريقي هوالموطن الأصلي للساميين ومنه خرجت الهجرات إلى شبه الجزيرة العربية عبرباب المندب؛ وبعد تكاثرهم وحدوث ظاهرة الجفاف هاجروا منها شمالاً وإلى الشمال الشرقي وإلى شرق أفريقيا.

وقد برروا هذا الافتراض بعدة مبررات تعتمد على الإعتبارات الجغرافية (القرب المكاني وسهولة العبور) والأدلة اللغوية (انتشار الكتابة بالخط المسند في الحبشة، والأدلة الدينية في عبادة إله(المقه)[2] في كل من الحبشة واليمن، إلا أنه تم الرد على هذا الفريق بالقول بأن أحد أسباب الهجرات هوالتغير المناخي الذي حدث في جنوب شبه الجزيرة العربية ولم يحدث في الهضبة الحبشية في شرق أفريقيا والتي استمر طقسها وأمطارها معتدلة.

كما أن الأدلة الأثرية في مجموعها تؤكد بأن الخط المسند هوأصل الكتابة السبئية وكذلك إله المقه هوإله سبأ العظيم ودولة سبأ ولا يختلف اثنان على أن مكانها في جنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن) أضف إلى ذلك اعتراف الأحباش أنفسهم أنهم من نسل ملكة سبأ[3] — التي سنتطرق لها لاحقاً بالتحليل- وبالتالي تظل النظرية القائلة بأن جنوب شبه الجزيرة العربية

1- عريبي، علي الطاهر، مظاهر علاقة العرب بأفريقيا الشرقية، مجله الدراسات الإفريقية، عدد2، 1989 (مركز البحوث والدراسات الأفريقية، سبها)ص59.

2- كلمه المقه من مقطعين الأول(ال) رهو أسم الإله (أيل) ومفهوم بمعنى قوى، ومن ثم يصبح الاسم (أيل القوى) أي(الله القوى) واتخذ الثور(قرنه) رمزا له.

3 - انظر كلا من: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، منشورات جامعه بغداد، ط2، 1993، ص234 وما بعدها؛ ولطفي عبدالوهاب يحي، العرب في العصور القديمة، مرجع سابق، ص50- 53؛ وعبدالله خليفه الخياط، تاريخ العرب قبل الإسلام، الشركه العالمية للطباعة والنشر، بيروت، ط1،1992، ص ص67- 70

هوالموطن الأصلي للساميين محل إجماع أغلب العلماء حيث خرجت العديد من القبائل اليمنية للاستقرار وللسعي لتحسين أوضاعها الاقتصادية وخصوصاً السيطرة على الطريق التجاري الذي ينقل البضائع والسلع التجارية من الهند وشرق أسيا وشبه الجزيرة العربية (مثل التوابل والتمور والعنب والبخور والآدم(المستكة) والقرفة والأحجار الكريمة) إلى شرق أفريقيا وتقاضيها بالعاج والجلود والذهب والرقيق وريش النعام والأخشاب وهذا الطريق اشتهر باسم طريق البخور[1].

التعريف بقبيلتي الحبشان والأجاعز وهجرتهم إلى ساحل شرق أفريقيا

تعتبر قبيلة الحبشان إحدى المسائل الشائكة التي تطرق لها هذا البحث. فحول كلمة حبشان أوحبشت أنقسم العلماء والمؤرخون فريقين، فريقٌ يرى أن أصل ومدلول كلمة الحُبْشان أوحبش بأنها ليست قبيلة واحدة، وإنما الكلمة ترادف كلمة جمع. فتحبش أي تجمع، وتحبشوا اجتمعوا، والحُباشة الجماعة، وحبْشّ قومه تحبيشاً أي جمعهم تجميعاً، وبالتالي يرى هذا الفريق بأن كلمة حبشان أطلقت على مجموعات من القبائل اليمنية التي تركت اليمن وهاجرت إلى الساحل الشرقي الأفريقي في المنطقة الهضبية المرتفعة المقابلة لباب المندب في الغرب (جنوب غربي اليمن) ونظراً لكثرة هذه الفئات المهاجرة السامية فقد اختلطت بالحاميين الأفارقة على الساحل ثم تفوقت عليهم وتغلب أسمها ولغتها على اللغة الأصلية في البلاد أصبح الإسم حبشة يطلق على جميع المنطقة المهاجر إليها[2].

---

1 - الهاشمي، رضا جواد، تجارة القوافل في التاريخ القديم، ضمن تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص ص14- 21.

2 - انظر كلا من: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، المجلد السادس، دار صادر، بيروت، ط3، 1994، ص ص2781- 2790، وكذلك محي الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ب2، دار الدليل، د.ت، ص277- 278، وأيضا تجديد صحاح العلامة الجوهري، الصحاح في اللغة والعلوم، المجلد الأول(تقدم الشيخ عبدالله العلايلي)، إعداد نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، دار الحضارة العربية، بيروت، ط، 1974، ص231؛ ومحي الدين أبي فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الوسطي الزبيدي الحنفي، تاج العروس

ومن هنا أورد ابن خلدون في تاريخه بأن سكان الحبشة قبل الهجرات اليمنية هم من نسل كوش بن حام بن نوح عليه السلام، وإنها سميت كذلك نسبة إلى حبش[1]، كما أورد ابن حزم الاندلسي في كتابه "جمهرة أنساب العرب" بأن الحبشة نسبة إلى أرفدة، وبالتالي فالمرجح أن الاسم قد أطلق على جماعات مهاجرة ليست من قبيلة واحدة إلا أنهم في مجموعهم ينسبون إلى أرفخشد بن سام بن نوح، وما يدلل على عراقة هذا الاسم عند العرب اليمنيين وعرب شمال شبه الجزيرة العربية هوتغلغل كلمة حبش وحُبش وحبيشه وحبشه[2] في أنساب العرب وأسمائهم وقبائل عديدة حملت هذا الاسم على إثره لاحقاً.

فحُبْشِيّة هي بطن من خزاعه من قبيلة الأزد القحطانية المنسوبة لسام بن نوح ومقرها في اليمن، وحبشي بطن من بني سليم بالمدينة المنورة، حبش بطن من عجمان إحدى قبائل نجد، والحبشي هي فرع من قبيلة بني مالك عسير وتقيم شمال أبها. وقد سار على درب هذا الفريق من العلماء عدد من المؤرخين المحدثين أمثال جواد على بقوله: بأن أصل الحبش من غرب اليمن من سفوح الجبال والتي توجد بها "جبل حُبَيْش"، وبأن لإسمه صله بالحبش

من جواهر القاموس، مجلد9، دار الفكر، بيروت، 1994، ص79؛ وأيضا الطاهر الزاوي، مختار القاموس، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ط2- 1978، ص127.

2- ابن خلدون، كتاب العبر، ص ص15- 16. نقلاعن: كحالة، عمر رضا، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، ج1، بيروت، ط8، 1997، ص238.

3- علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج3، مصدر سابق، وكذلك انظر حميد دولاب ضيدان، الجذور التاريخية للصلات العربية الأفريقية، منشورات مركز البحوث والدراسات الأفريقية، سبها، ط1، 1993، ص40. نقلا عن: كحالة، عمر رضا، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، ج1، بيروت، ط8، 1997، ص238.

4- علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج3، مصدر سابق، وكذلك انظر حميد دولاب ضيدان، الجذور التاريخية للصلات العربية الأفريقية، منشورات مركز البحوث والدراسات الأفريقية، سبها، ط1، 1993، ص40.

الذين هاجروا إلى ساحل شرق أفريقيا، ومنهم عرفت حبشت أوحبشة[1].

وقد أكد المستشرق الإيطالي "كونتي روسيتي" بأن هذه الجماعات قدمت من ساحل اليمن الغربي أوعسير مما يسهل قربه عملية العبور إلي ساحل اريتريا، وبأن الموطن الرئيسي لحبشت هومقاطعة سحرتان القديمة Saharten (ويوجد بها جبلان يحمل أحدهما "اسم حَبَشْ والآخر اسم حُبَيْش" وعلى وجه التحديد على مقربة من لُحَيَّة (حوالي 70 كم شمال غربي الحديدة ما بين وادي بيش ووادي سردود) ثم يضيف بأن مقاطعتي سحرت وهوزين الموجودتين في إقليم تجرى Tigrai بشمال الحبشة تقابلان سحرتان وهوزن في اليمن، ثم كونوا حضارة في الساحل الشرقي الأفريقي مركزها(يحا Yeha) ثم حضارة أكسوم المزدهرة بالحبشة[2]. وعلى الرغم من اتفاق كثير من المستشرقين[3] مع هذا الرأي فإنهم يرون بأن موطن الهجرة كان شرقي حضرموت(عند منطقة أمهرة)[4] ثم إلى غرب الساحل ومنه عبر مضيق باب المندب والبحر الأحمر إلى شرق أفريقيا.

أما الفريق الثاني من المؤرخين فقد ذكر صراحة بأن حبشت هي قبيلة عربية يمنية بل هي من أقوى القبائل العربية في جنوب شبه الجزيرة العربية التي كانت تسكن تهامة في غرب اليمن أوأمهرة في حضرموت، وذكروا بأن هجرتها كانت ما بين القرنين العاشر والسابع

---

1 - علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج3، مصدر سابق، وكذلك انظر حميد دولاب ضيدان، الجذور التاريخية للصلات العربية الأفريقية، منشورات مركز البحوث والدراسات الأفريقية، سبها، ط1، 1993، ص40

2 - علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج3 ؛ ضيدان، حميد دولاب، الجذور التاريخية للصلات العربية الأفريقية، منشورات مركز البحوث والدراسات الأفريقية، سبها، ط1، 1993، ص40

3 - صاحب هذا الرأي هو الألماني ادوارد جلاسر في كتابه: 1895 Muuneherr و Die Abessinier in Aebien und Afrika إضافة رينان وموسكاتي وجويدي، انظر السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، 1986، ص65.

4 - منطقة أمهرة اليمنية نسبة لها عرفت اللغة الأمهرية أحدى فروع أو لهجات لغة الحبشة المعروفة بلغة الجعيزا إحدى فروع اللغة السامية.

ق.م، ومنها غلب اسم هذه القبيلة العربية على كل المنطقة التي قدمت إليها – سواء كان للإتجار أوالتوطن والاستقرار- ومنها أطلق العرب اسم الحبشة على جميع المنطقة الممتدة من نهر النيل غرباً والبحر الأحمر شرقاً ومن النوبه شمالاً إلى ما وراء خط الاستواء جنوباً (وبالتالي فهي تشمل ما هومعروف حالياً بالسودان والحبشة واريتريا والصومال)[1].

وعلى الرغم من صعوبة الأخذ بأحد الرأيين إذ أن كلاهما يتفق مع الأخر صراحة في وجود هجرة عربية يمنية سامية سواء كانت قبيلة حبشت من ساحل غرب اليمن من تهامة أوأتت من أمهرة في حضرموت، أوأنها مجموعة قبائل عربية يمنية تركت موطنها في غرب اليمن عند جبل حُبَيْش وحَبَشْ فإن الهجرة تمت فعلا وكانت بداية ظهورها في المنطقة المقابلة لمنطقتهم الأصلية، ولاحقاً في الساحل والداخل.

---

1 - انظر كلاً من: محمد محمد أمين، تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى، ضمن مجلد(العلاقات العربية الأفريقية دراسة تحليلية في أبعادها المختلفة)، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1978، ص ص33- 34؛ صالح حامد أحمد مطر، تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور القديمة و الوسطى والحديثة، مجلة الدراسات الأفريقية، عدد4، ديسمبر 1991، ص40؛ عطية مخزوم الفيتوري، دراسات في تاريخ شرق أفريقيا وجنوب الصحراء، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ص1، 1998، ص ص77- 78؛ توفيق أمين الطيبي، الحبشة عربية الأصول والثقافة، مرجع سابق، ص16(كان هذا نقلا لرأي عالم الآثار الفرنسي أزج.دروز Drewes من كتابة نقوش الحبشة القديمة) الصادر في ليدن عام 1962؛ هنري س عبودي، معجم الحضارات السامية، جروس برس، طرابلس، لبنان، ط2، 1991، ص ص114،340؛ علي الطاهر عريبي، مظاهر علاقة العرب بأفريقيا الشرقية، مجلة الدراسات الأفريقية، مرجع سابق، ص59؛ بدوي محمد فهد، الصلات بين العرب وأفريقيا(الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية)، دار المناهج، عمان(الأردن)، ط1، 2002، ص12؛ محمد عثمان أبوبكر، المثلث العفري في القرن الأفريقي، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 1996، هامش، ص47؛ جوزيف كي زيربو، تاريخ أفريقيا السوداء، (سلسلة دراسات أفريقية رقم 10)، ترجمة، عقيل الشيخ حسين، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراته، ط1، 2001، ص ص153- 154؛ حميد دولاب ضيدان، الجذور التاريخية للصلات العربية الأفريقية، مرجع سابق، ص41.

وفيما يخص قبيلة الآجاعز فمتفق حولها بكونها أيضاً من أقدم القبائل العربية اليمنية التي هاجرت للحبشة، وأن موطنها الأصلي هوالساحل ما بين صنعاء وعدن، ولهم عدة نقوش أثرية تذكرهم في اليمن والحبشة؛ كما يذكر بأن الآجاعز كانت قبيلة قوية اشتغلت بالتجارة واستطاعت بحكم قدم هجرتها إلى الجانب الشمالي الشرقي من الحبشة أن تبسط نفوذها على أغلب هذه المنطقة وتصبح على رأس الطبقة الحاكمة في مملكتهم على الساحل الشرقي الأفريقي ونسبة لقوة وعراقة هذه القبيلة عرفت لغة الحبش أوالحبشة بالجعزية أي لغة الجعز أوالأجاعز جمعاً[1].

وعلى الرغم من أن أغلب تلك المصادر والمراجع تحدد تاريخ هجرة هذه القبائل اليمنية ما بين القرنيين العاشر والسابع ق.م، فإن أقدم الآثار التي حملت نقوشا تؤكد الصلة بين بلاد الرافدين وشرق أفريقيا هي تلك المتعلقة بعهد الملك سرجون الأكادى الذي حكم بلاد الرافدين عام 2709 ق.م (أواخر الألف الثالثة ق.م). هذا وتجدر الإشارة إلى أن هذا التواصل أكد وجود بعض التقاليد المتشابهة في اتخاذ القرن "رمزاً للقوة والجبروت"[2]، وهذا

1 - انظر كلاً من عبد المجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، القاهرة، ص9- 13، مأخوذة عن احمد مصباح الأحمد، تاريخ العلاقات العربية الأفريقية، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2001، ص ص42- 43، وكذلك جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج3، مصدر سابق، ص449؛ إضافة لغالبية المصادر والمراجع التي ذكرناها سابقاً أبان معالجتنا لإشكالية كلمة حبش؛فتحي غيث، الإسلام والحبشة عبرالتاريخ، مرجع سابق، ص5، وجوزيف كي زيربو، تاريخ أفريقيا السوداء، مرجع سابق، ص ص153- 154 ؛ وكذلك أنظر: حميد دولاب ضيدان، الجذور التاريخية للصلات العربية الأفريقية، 19.

2 - انظر كلاً من عبد المجيد عابدين، بين الحبشة والعرب، القاهرة، ص9- 13، مأخوذة عن احمد مصباح الأحمد، تاريخ العلاقات العربية الأفريقية، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2001، ص ص42- 43، وكذلك جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج3، مصدر سابق، ص449. وجوزيف كي زيربو، تاريخ أفريقيا السوداء، مرجع سابق، ص ص153- 154. وكذلك انظر حميد دولاب ضيدان، الجذور التاريخية للصلات العربية والأفريقية، مرجع سابق، ص41.

الرمز كان سائداً عند هذه القبائل العربية اليمنية التي اتخذته، أي "قرن الثور" رمزاً لإله المقه.

إضافة لذلك وجدت لفظة " خبسيتوا" أوحبْسيتوضمن نقوش الدير البحري (في صعيد مصر) أثناء وصف البعثة التجارية المصرية التي وصلت في عهد الملكة حتشبسوت في أواسط الألف الثانية قبل الميلاد(1490 – 1369 ق.م) إلى بلاد بونت (الصومال والحبشة حالياً)[1]، وبالرغم من قدم هذه الفترة التاريخية عن القرن العاشر ق.م فإنها تؤكد مدى عراقة قبيلة الحبشان وتحكمها في التجارة على الساحل الشرقي الأفريقي سواءُ كان هذا في فترة استقرارهم وتوطنهم بالساحل أوقبل الاستيطان أبان فترة التحكم بالتجارة فقط.

كما وجدت دلائل أخرى أكدت هذا الاتصال وساعدت عليه من ضمنها العامل المناخي المتمثل في الرياح الموسمية، وبفضلها وجدت رحلتان للعرب في العام، ففي رحلة الخريف والشتاء - هي الرحلة الأولى- التي تبدأ من شهر نوفمبر (الحرث) إلى فبراير(النوار) وفيها تسير السفن من خليج عمان وسواحل الجزيرة العربية - مع اتجاه الرياح - في اتجاه جنوبي غربي نحوالساحل الشرقي الأفريقي، وتكون رحلة العودة عندما يكون اتجاه الرياح شمالي شرقي وهي رحلة الإياب التي تبدأ من شهر ابريل(الطير) ثم في أشهر الصيف، وهي تعرف برحلة الصيف، وبها تعود هذه السفن بكل يسر وسهولة إلى مواقعها التي أقلعت منها وخلال هاتين الرحلتين يتم التعامل التجاري بين المنطقتين، وكذلك الاستيطان على الساحل.

وكانت هذه الرحلات في فترات موغلة في القدم وكانت بواسطة السفن الشراعية الصغيرة المعروفة باسم الدوات Dhows، وقد ظلت هذه الرحلات المعتمدة على الرياح سراً هاماً من أسرار الملاحة العربية إلى أن تم كشفه على يد ملاح إغريقي اسمه هيبا لوس (عام 45 م القرن الأول الميلادي) فكسر بذلك طوق الاحتكار العربي لتجارة الهند، وتوجيه

---

1 - عبد الوهاب، لطفي، العرب في العصور القديمة، مرجع سابق، ص ص401- 402.

ضربة قوية لتجارة القوافل العربية البرية وكذلك البحرية أيضا[1].

وفى القرن الأول الميلادي وجد أيضا كتاب أحد الملاحين الإغريق، وإن كان مؤلفه مجهول المعروف باسم "الدليل الملاحي للبحر الإريتري" Periplus Maris Erythraei والذي يضم نحو 7500 كلمة، حيث وصف فيه مدى استقرار العرب على الساحل وكثرة تجارتهم وسفنهم واختلاطهم بالقبائل الأفريقية، وإن زعماء الساحل كانوا يدينون بالولاء لأمراء حمير وجنوب شبة الجزيرة العربية، وذكر بأن العرب كانوا فيه لعدة قرون سابقة مستقرين بالساحل، ولم يحاولوا التوغل بالداخل مكتفين بإنشاء مراكز تجارية لتصدير ما يحصلون علية من الزعماء الأفارقة تجارياً - من تراب الذهب والعاج والرقيق- بعد مقايضتهم بالبضائع العربية أوالهندية كالخزر الذي اكتشفته الكثير من البعثات الأثرية الدنماركية في مناطق ليست في الحبشة فقط، وإنما في كينيا وزمبابوى وكلوه.

---

1 - انظر كلا من:

- سينس ترمنجهام، الإسلام في شرق أفريقيا، ترجمة محمد عاطف النواوي، مكتبة الانجلو المصرية، ط1، 1973، ص35، وكذلك ص ص8- 9.
- وكذلك جمال زكريا قاسم، الروابط العربية الأفريقية قبل بدء حركة الكشوف الجغرافية وبدء حركة الاستعمار الأوروبي في القرن الخامس عشر، ضمن مجلد العلاقات العربية الأفريقية دراسة تحليلية للآثار السلبية للاستعمار، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1977، ص8.
- أيضا جمال زكريا قاسم، استقرار العرب في ساحل شرق أفريقيا، مجلة حوليات كلية الآداب لجامعة عين شمس، المجلد العاشر، 1967، ص281.
- ومحمد محمد أمين، تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص33.
- وكذلك علي الطاهر عريبي، مظاهر علاقة العرب بأفريقيا الشرقية، مرجع سابق، ص57.
- وجمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، معهد البحوث والدراسات العربية، مصر، 1975، ص50- 51.
- ورضا جواد الهاشمي، تجارة القوافل في التاريخ العربي القديم، ضمن: تجارة القوافل ودورها الحضاري في نهاية القرن التاسع عشر، مرجع سابقن، ص24.
- ومحمد عبد الفتاح ابراهيم، أفريقيا الأرض والناس مع العناية لسمات ومؤثرات بعض الطوابع الثقافية الأفريقية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1964، ص106.

كما إزدادت أعداد الرقيق الذي جلبهم العرب من الساحل فاستخدموهم في حراسة قوافلهم، وتزاوجوا مع العرب وتناسلوا ونشاء منهم نسلاً عرف بشجاعته وسواد بشرته، وبعد ذلك أكدت هذه المعلومات في كتاب مؤلفه بلينيوس المؤرخ الروماني الذي تحدث عن الفترة من 70 ميلادي إلى ظهور الإسلام(في القرن السابع الميلادي) وكان من ضمن ما أورده هوسيطرة ملوك اليمن التابعه على مناطق من الساحل الشرقي الأفريقي واحتكار التجارة معهم في بعض الأصناف كالطيوب مثلاً[1].

إذاً من خلال طرح تلك الدلائل على الاتصال العربي بالساحل الشرقي الأفريقي وخصوصا الحبشان والآجاعز نرجح إن الهجرة تمت قبل القرن العاشر ق.م بعدة قرون بدليل وجود كلمة " حبستيو" ضمن نقوش الدير البحري إبان عهد الملكة حتشبسوت في أواسط الألف الثانية ق.م، وبالتالي كان استقرار تلك القبائل السّامية وتفوقها وتأثيرها وتأثرها بالمنطقة ناهيك عن سيل من القبائل الأخرى التي هاجرت لاحقاً لتوطد السيطرة العربية على شئون المجتمع والسياسة والثقافة والاقتصاد، مما كان له الأثر الكبير في تطور حضارة الحبشة، هذه الحضارة التي كانت مزيج مختلط بين الحضارتين السّامية اليمنية والحامية الكوشية بعدما أصبح المهاجرون جزءاً لا يتجزأ من بلاد الحبشة، وكان التقدم في وسائل الري والزراعة وتهذيب أساليب البناء كما عند العرب في جنوب شبه الجزيرة العربية وكذلك تطبيق القوانين الملكية، وما إلى ذلك من وسائل التقدم والعمران في مدينة أكسوم عاصمه الحبشة.

ومن أبرز الآثار التي ينبغي الوقوف عندها

هي عهد ملكة دولة سبأ التي قيل أنها حكمت اليمن والحبشة معاً، وعند الأحباش يرون أن مركزها في الحبشة، وإنها حكمت اليمن كدوله تابعه لها نظراً لقوتها العسكرية.

1- أنظر كلا من: جمال زكريا قاسم، استقرار العرب في ساحل شرق أفريقيا، ص283- 284. وكذلك الروابط العربية الأفريقية، ص111، والأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص54، وكذلك محمد عبد الفتاح ابراهيم، أفريقيا الأرض والناس، ص106- 107، ومحمد محمد أمين، ص45. علي الطاهر العربي ص45.

وبالتمعن في أقدم نصوص منقوشة ورد فيها كلمة سبأ هذا النص (SA-Ba-A-A:SABA) الوارد في إحدى النصوص السومرية التي عُثر عليها في لجش في بلاد الرافدين، وقد قُدر تاريخها بأنها تعود إلى 2500 ق.م[1] وإن كان هذا الترجيح صحيحاً لأصبحت هذه النصوص السومرية أقدم نصوص تاريخية تصل إلينا –حتى الآن- ورد فيها ذكر سبأ وعليه يكون السبئيون أول شعب جنوبي غربي يصل ذكره إلينا.

والمرجح إن دولة سبأ لم تصل إلى قوتها كمملكة على مستوى جنوب شبه الجزيرة العربية إلا قبيل القرن العاشر ق.م، حيث اتفق المؤرخون على أن ملكة سبأ التي عرفت بيلقيس كانت لها علاقة بالنبي سليمان عليه السلام، والواردة في القرآن الكرم في سورة النمل –الآيات من (20- 44) والنبي سليمان كان في فترة القرن العاشر ق.م.

من هذا اتفق المؤرخون على تقسيم عصر الدولة السبئية إلى عهدين: أولها عهد المكربيين (أي المقربين بين الآلهة والناس) من سنة 950- 650 ق.م الذين اتخذوا من صرواح عاصمة لهم (وهي واقعة بين مدينة مأرب وصنعاء ومكانها اليوم مدينة خريبة شرقي صنعاء)، أما العهد الثاني فهوعهد ملوك سبأ الذي يمتد من 650 – 115 ق.م[2]، وخلال هذه العهود حدث تقارب وتأثر بين اليمن والحبشة.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن الكتب السماوية تطرقت بدورها لسبأ ولملكتها، وخاصة حول علاقة هذه الأخيرة بالنبي سليمان ؛ ففي التوراة (في العهد القديم/ في سفر الملوك الأول 10: 1– 13 وفي سفر أخبار الأيام الثاني 9: 1–12) ذكر أن ملكة سبأ سمعت: "بسليمان المقرب من يهوه... ورأت ملكة سبأ حكمة سليمان... وأعطى الملك سليمان ملكة سبأ كل ما طلبته، فوق ما أعطاها من العطايا السخية، وانصرفت إلى بلادها هي وحاشيتها"

1- الشيخ، حسين، العرب قبل الإسلام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1993، ص89.

2 - انظر توفيق برو، تاريخ العرب القديم، دار الفكر، دمشق، ط1، 1982، ص72؛ وأيضا عبد الله خليفة الخباط، تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، 114 - 115؛ ولطفي عبد الوهاب يحي، العرب في العصور القديمة، 360.

وهكذا وردت القصة دون وجود دليل على انه تزوجها أوأنجب منها ولداً أوذكر اسمها[1].

وكذلك الحال بالنسبة للإنجيل حيث وردت هذه القصة في الإصحاح الثاني عشر في انجيل متي 12 : 42 على إنها ملكة الجنوب أوملكة التيمن ، وفيها ورد : "وملكةُ الجنوب ستقوم يوم الحساب مع هذا الجيل ، وتحكم عليه لأنها جاءت من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان ، وهنا الآن أعظم من سليمان"[2] ، وفي الآية 31 من الإصحاح الحادي عشر من انجيل لوقا "وملكة اليمن ستقوم في الدين مع رجال هذا الجيل"[3]. وعلى الرغم من أن القرآن الكريم لم يذكر اسم ملكة سبأ إلا أنه أورد قصتها بالكامل مع النبي سليمان ، وكانت علاقتها بالنبي سليمان نقطة للتأثر بين اليمنيين والأحباش لأنها حكمت اليمن والحبشة ، إذ يذكر البعض أن حدود مملكة سبأ كانت ممتدة من جنوب اليمن إلى حدود مملكة سليمان في فلسطين[4].

وتبدأ قصتها مع النبي سليمان عندما تفقد النبي سليمان الهدهد الذي عاد إليه بعد حين ، وقد أجاب الهدهد النبي سليمان عن سبب اختفائه بقوله﴿ أحطت بما لم تحط به

1- انظر كلا من : زيادة منى ، بلقيس امرأة الألغاز وشيطانه الجنس ، رياض الريس للكتب والنشر ، بدون ، ط2 ، 1998 ص 116- 120 وكذلك محمد عزة دورة تاريخ بني إسرائيل من احظارهم ، منشورات المكتبة العصرية ، حيفا – بيروت ، 1969 ص - 168 . 167 .

2 - زيادة منى ، بلقيس ، مصدر سابق ، ص ص150- 151. وكذلك زاهر رياض ، تاريخ إثيوبيا ، مكتبة الانجلوا المصرية ، القاهرة 1977 ، ص 26- 30.

3- نفس المرجع ، ص31 ، وقيل في اشتقاق اسم بلقيس أنه اسمان جُعلا إسماً واحداً مثل حضرموت وبعل بك ، وذلك أن بلقيس لما ملكت بعد أبيها الهدهاد ، قال بعض حمير لبعض ما شهدوه من سيرة هذه الملكة والتشابه مع سيرة أبيها ، فقالوا بلقيس ، أي بلقياس ، فسميت بلقيس ، أما اسم بلقمه فهو على وزن يعمله وقال الهمداني : إن تفسيره : زُهرَة ، لأن اسم الزهرة في لغة حمير يَلمَقَة أو ألمَق ، واسم القمر : هَيْس ، وقد عثر في النقوش العربية الجنوبية على إشارة إلى هيس /هويس وهو إله القمر ، للمزيد ينظر : زياد منى ، ص47.

4 - فضل عبد الله الجثام ، الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى ، دار علاء الدين ، دمشق ، ط أ ، ص74.

وجئتك في سبأ بنبأ عظيم، إني قد وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرشٌ عظيمٌ ووجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾[1] وموجز قصتها مع النبي سليمان أنه أراد أن يختبر الهدهد أهو صادق في خبره أم كاذب؟ وهنا أعطاه النبي سليمان كتاباً ليوصله إلى الملكة فذهب الهدهد بالكتاب حقاً وألقاه على سريرها، فأخذته فوجدت به: ﴿أنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم ألاّ تعلوا عليّ وأتوني مسلمين﴾[2]، وهنا كانت الملكة عاقلة وفاطنة في نظرتها لهذا الكتاب، بخلاف الحماس الذي أبداه رجالها إذ قالت لهم: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون﴾[3] ولحل هذه المشكلة رأت أن ترسل بهدية إلى سليمان تقربه بها وتستنزل مودته بسببها، ثم تنظر ماذا يرجع به رسلها إلى سليمان، وأن يعرفوا بالضبط مدى قوة مملكته وهنا رفض سليمان الهدية وأظهر لهم أنه في حالة حسنة وثروة مزهرة أكثر مما في مملكة سبأ، وقد توعدهم سليمان وملكتهم بأن يرسل إلى بلادهم بجنود لا قبل لهم بها، وبأن يكون عاقبة ذلك إخراجهم من بلادهم أذلة صغرة، ولما أخبر الرسل الملكة خافت وقررت الذهاب إلى أورشليم مع رجالها بهدية عظيمة، وعندما علم سليمان باعتزام الملكة على زيارته في عاصمة ملكه شيد لها صرحاً عظيماً ومرد أرضه بالزجاج ولما قربت من ديار سليمان أمر جنوده بإحضار عرشها لكي تجلس عليه في الصرح، وهذا لكي يظهر لها دلائل عظمته ونعم الله عليه، فلما جاءت ورأت العرش قال لها سليمان ﴿أهكذا عرشك﴾ فقالت ﴿كأنه هو﴾، ولما أرادت دخول الصرح والوصول إلى العرش ظنت الزجاج ماء فكشفت عن ساقيها لئلا تبتل ثيابها بالماء وأُخبرت بأن ما ظنته ماء إنما هو زجاج فقالت ﴿رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾[4].

1- سورة النمل، الآيات: 22، 23، 24.

2 - سورة النمل، الآية 30- 31.

3 - سورة النمل، الآية 34.

4 - سورة النمل الآية 44 للإطلاع على تفسير هذه الآيات والقصة عموماً بنظر – عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، دار أحياء التراث العربي، بيروت، 1995، 333 ص - 334 ص وكذلك: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) (224 ـ310هـ): الجزء الأول

وقد أوردت المصادر العربية شرحاً لهذه القصة مبينة إن اسم ملكتها هي بلقيس (أويلقمه أويلقمه) بنت اليشرح بن الحرث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[1]، وقد أضافوا بأن سليمان قد استنكحها بعدما أسلمت وحسن إسلامها، ثم قال لها اختاري رجلاً من قومك أُزوجكه وبعد جدالٍ اختارت ذا تبع ملك همذان فزوجه إياها، ثم ردها إلى اليمن ولم يزل بها ملكاً حتى مات سليمان ابن داود، بل إن بعض المفسرين من يذهب إلى أنه أنجب منها ولداً أصبح ملكاً على الحبشة[2].

إن هذه القصة كانت لها تأثير على الأحباش بل وإسقاطات على تاريخ الحبشة الوسيط والحديث والمعاصر، ففي القرن الثالث عشر الميلادي نسجت الأساطير الحبشية حول الملحمة الحبشية المسيحية (كبرا نجست أي مجد الملوك)[3]، والتي ورد فيها اسم ملكة التيمن التي كانت تحكم الحبشة واليمن معاً والتي زارت سليمان لتسمع حكمته، وبأنها كانت بكراً وأن أحد رجليها مثل رجل العنزة (لأن أمها جنية) فلما وصلت إلى سليمان ودخلت الصرح استوت رجلها وصارت آدمية مثل الأخرى وانتهت القصة بأنه تزوجها ورجعت حاملاً إلى الحبشة، وبأنه أعطاها خاتمه لكي ترسله له مع ولدها ليتمكن من التعرف عليه وقد تم هذا فعلاً، برأي الأسطورة، وعند ذهاب الشاب لأبيه عرفه وملكه في ملك أمه، وعند عودته عاد بالتابوت دون رغبة وعلم سليمان إلى الحبشة التي صار ملكها وبها تابوت عهد الله.

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة، 14 . 1979 . ص489 . ص 403.

1 - أنظر كلا من ـ الطبري، تاريخ الطبري، ج1، مصدر سابق . ص 494ـ ص 495 وعز الدين أبي الحسن على بن أبي الكريم لسبياني الملقب بابن الأثير، الكامل في التاريخ، المجلد الأول، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط 1994،14، ص162 وابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المجلد 2، مصدر سابق، ص.ص60 ـ 61 وابن حزم الاندلسي، جمهرة انساب العرب، م. س. ص 439

2 - النجار، عبد الوهاب: قصص الأنبياء، مصدر سابق، ص 334.

3 - للإطلاع على هذه الملحمة الأسطورية بالتفصيل ينظر، زياد منى، بلقيس مصدر سابق، ص ص 145- 150، وكذلك ص ص 153- 128 . زاهر رياض، تاريخ إثيوبيا، مرجع سابق، ص 25- 31، وعبده بدوي، السود والحضارة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1276، ص ص 92- 94.

هذا موجز ما أوردته الملحمة الحبشية عن نسل الأحباش من ملكة التيمن، التي يرون أن اسمها ماكيدا، والنبي سليمان، وقد أنجبت منه ولد اسمه منليك وهوملك الحبشة ومؤسس دولة أكسوم عاصمة الحبشة.

إن هذه الأسطورة تكشف لنا مدى التأثر الحبشي الواضح بقصة ملكة سبأ (بلقيس) التي حكمت اليمن وشرق أفريقيا، بل رجحت الاكتشافات الأثرية المعاصرة أن حكمها امتد إلى سواحل شرق أفريقيا جنوباً عند زيمبابوي، حيث اكتشف لها قصراً ومجموعة آثار مشابهة لآثارها المتعارف عليها في اليمن والحبشة ولهذا اعتقد علماء الآثار أن حكمها ومملكتها قد امتد إلى زيمبابوي.

ولعل من أبرز الأسباب لكتابة الأحباش لهذه الأسطورة هوالعامل السياسي في احتفاظ ملوك الحبشة الذين لهم من نسل سليمان بالملك وراثياً، وإن كل من يمس سلطانهم يكون بمثابة انتهاك للحرمات المقدسة (أي إضفاء صفة القداسة على الملوك)، وبالتالي يكون حكمهم دون منازع لهم في كافة أرجاء البلاد، وما يدل على أنها أسطورة فعلاً هوأن اليهود في الحبشة عرفوا باليهود الفلاشة (أي المهاجرون أوالأغراب)، وكان عددهم كبير[1] فلوأن النسل صحيح لما شاعت تسميتهم بالفلاشة لعصور طويلة من الزمن، وفي عزلة تامة عن باقي أجناسها، ولما كان من السهل اعتناق ملوك الحبشة للدين المسيحي بسرعة مذهلة في القرن الرابع الميلادي، وهناك من يرى بأن الغرض من هذه الأسطورة هوالتخلص من العقدة النفسية والحساسية الشديدة التي عاناها الأحباش في تاريخهم بكراهيتهم لكلمة حبشت التي كانت إحدى معانيها هي الذهاب إلى بلاد السود، (وكما يقال مثلاً الحبشية من الإبل أي الشديدة السواد) ولهذا أصروا على تغييرها، وأمام ما تعرضت له بلادهم من سيل الهجرات من اليمن ومصر وفلسطين (هجرات يهودية) وما تمتع به المهاجرون من التفوق الحضاري والعلمي والمعرفي هنا عمل الأحباش الأسطورة[2] لكي تنسبهم نسباً كريماً من ملكة سبأ(ملكة

1 - فتحي غيث: الإسلام والحبشة عبر التاريخ، ص 37.

2 - وما يؤكد إنها أسطورة هو انعدم وجود أي مصدر أو مرجع معتمد يؤكد انحدار هذه العائلة الحبشية من نسل سليمان الإمام جاء على لسان العائلة في هذه الأسطورة.

التيمن) وسليمان وكلاهما ساميات.

ومن خلال التحليلات السابقة نرجح أنه وفقاً لما ورد في القرآن الكريم وفي التوراة والإنجيل عن قصة ملكة سبأ وعن الحقائق الأثرية التي اكتشف في اليمن وما أجمعت عليه المصادر العربية كون اسمها بلقيس، وإنها ملكة سبأ التي ظهرت في جنوب اليمن وشهدت ازدهاراً كبيراً بحيث لا يوجد ما يمنع بأنها قامت خلال القرن العاشر ق.م بضم الحبشة والمناطق الجنوبية الشرقية من الساحل الأفريقي وما يبرز ذلك ما سبق وذكرناه عن عباده الآلهة السبئية (المقة / اله القمر أوالشمس) في اليمن والحبشة منذ عدة قرون قبل القرن العشر ق.م ناهيك عن التأثر اللغوي بالكتابة بالخط المسند، إضافة لوجود العديد من الجاليات والقبائل اليمنية على الساحل والتي اشتهرت بالاتصال ببلدها الأم ولم تنقطع عنها.

ومعلوم أن ملوك الحبشة قد استفادوا كثيراً من هذه الأسطورة التي تغلغلت في نفوسهم ونفوس شعبهم وصارت جزءاً هاماً من كيانهم ومعتقداتهم، ففي تاريخ الحبشة المعاصر كانت المادة الثالثة من الدستور الإثيوبي، بعد تغيير اسم الحبشة إلى إثيوبيا، الصادر عام 1931، تقول: أن حق الحكم الإمبراطوري محصور في أسرة هيلاسيلاسي الأول ابن الملك سهلا سيلاسي الذي ينحدر نسبه دون انقطاع من أسرة منليك الأول بن سليمان ملك بيت المقدس وملكة إثيوبيا المعروفة باسم ملكة سبأ"[1] وبالرغم من إعادة صياغة الدستور عام 1955 فإن المادة الثانية منه نصت على أن: "يظل العرش بصفة دائمة محصوراً في نسل هيلا سيلاسي الأول المتسلسل من الملك سهلا سلاسى الذي هوبدون توقف من نسل أسرة منليك ابن ملكة سبأ من سليمان ملك بيت المقدس"[2].

وأما عن أبرز أشكال الآثار الأخرى المترتبة على هجرتي الحبشان والأجاعز، وإن سبق أن أشرنا إليها، هي الأثر اللغوي والديني.

فقد تكلم المهاجرون اليمنيون في الحبشة بلغة سبأ التي عرفت نسبةً لقبيلة الآجاعز باسم

---

1 - زاهر رياض تاريخ إثيوبيا، ص31 . وكذلك صالح حامد أحمد مطر، مرجع سابق، ص39.

2 - المرجع نفسه، ص ص 31، 39.

جعيز Geaez ، وهي اللغة الأم للغات الرئيسية الثلاث، المتخاطب بها في الحبشة واريتريا اليوم، وهي الأمحرية(الأمهرية) والتجرينية والتجرى إضافة إلى ذلك دلت النقوش السبئية على أن لغة معين وسبأ كانت أيضا تعرف بالحمرية وبها 29 حرفا، وتعرف بالمسند، وهي قريبه من اللغة الإكادية (في بلاد الرافدين) ولغة الجعيز الحبشية (وعددها 37 حرفا)، فهذه اللغات الثلاثة من أصل واحد، وهذا ما أكده المؤرخ فليب حتي بقوله: "أن الأكادية والحميرية والحبشية تمثل من بعض الجوانب أقدم شكل للسان السامي"[1].

ناهيك عن أن النقوش المكتشفة بالحبشة قد أظهرت أيضا عبادة آلهة جنوب شبة الجزيرة العربية وخصوصاً (المقة Lmqh إله القمر، الذي يرمز له بالهلال أوالقرص أوالقرن)، فالمؤرخ جواد على يورد لنا بأنه من ضمن الاكتشافات الأثرية الهامة في أكسوم هي العثور على حجر مكتوب عليه - في حائط كنيسة قديمة – نقوش بالسبئية وفيها اسم الآلهة السبئية (ذات بعدن) أي (ذات البعد) كما عثر على بقايا أعمدة في موضع (يحا) الواقع شمال شرق عدوة تدل على وجود معبد سبئي، إضافةً للعثور على مذبح سبئي خصص للآلهة (سن أوسين) ناهيك عن كتابات أخرى تشير بوضوح إلى وجود السبئين في الحبشة[2].

أما عن أبرز الآثار الاقتصادية فكانت في الزراعة وبناء السدود إذ لا يخفى على أحد ما شهدته حضارتي مروى وكوش من فن في بناء السدود والزراعة، لذلك فما أن هاجرت القبائل اليمنية إلى الحبشة حتى تأثرت بما وجدته من فن في هذا المجال إضافة لخبرتها السابقة في اليمن في بناء السدود – كسد مآرب مثلاً –ناهيك عن تأثر الساحل الشرقي الأفريقي بالنظم التي أحضرها المهاجرون في الحكم والسياسية والاجتماع، ولعل من أبرزها القضاء على نظام الانتساب للأمهات ادخل محله الانتساب للآباء، وكانت الملكية الجماعية لليمنيين قد حلت محل سلطة الأخوال، وبزيادة عدد السكان بدأ التجار منهم يتوغلون في القارة للحصول على العاج والذهب والصمغ والرقيق بعدما كانوا يتبادلونه مع القبائل الإفريقية

3- Hitti.P.K, History of the Arabs, London, 1943, P52.4

2 - علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج3 مصدر سابق، ص 451 - 452.

على الساحل[1].

كم كان لتلك الهجرة أثراً على أسماء الملوك الذين حكموا (في الفترة من 8 ق.م إلى 274 م)، حيث كانت أسماؤهم تبدأ بمقطع (ذا) وتعني سيد أوصاحب، وتقابلها في اليمن (ذو) وهي لقب ملوك حمير مثل ذويزن وذوتقان والذي يلي هذا المقطع يدل على اسم القبيلة أوالمكان الذي ينتسب إليه هذا الملك وخلال الفترة مابين أعوام 275 وحتى 478م نجد أن أسماء ملوك الحبشة تبدأ مصدرة (آل) ـ وهوتقليد متعارف عليه عند اليمين، مثل آل سفح وآل سمرة وآل برهة، ومعنى مقطع آل هوسيد أورب أي نعت للملوك بصفات قدسية[2] فضلا عن أن العرب أطلقوا لفظ النجاشي على ملك الحبشة وهذه اللفظة بمعنى ملك، فهي بمثابة لفظه (قيصر) اللقب الذي تطلقه على ملك الروم، ولفظه (كسرى) كلقب لكل من حكم الفرس، وتُبَّعْ على كل من حكم اليمن، كما قيل بأن العرب تأثروا بالأحباش بأخذهم لكلمة ملك الحبشة (ملك أكسمن/ ملك أكسوم — وملك حبشت/ ملك الحبشة) وتعني كلمة ملك الحبشية جامع الضريبة[3] وبعد ذلك صارت لفظة ملك لقباً.

أما عن أبرز الآثار الحضارية لهجرة الحبشان والآجاعز إلى شرق أفريقيا فتتمثل في ظهور مملكة أكسوم القوية في القرن الأول الميلادي، والتي كانت من نتاج امتزاج الحضارتين العربية والأفريقية؛ هذا وقد أسفر عن علاقات العرب السياسية والعسكرية بالأفارقة آثارا بالغة الأهمية على اليمن وعلى شمال شبه الجزيرة حيث تميزت العلاقات بينهما بالعداء. فالنصوص الحبشية تورد لنا سيطرة ملك أكسوم على السواحل العربية المقابل لمملكته عسكرياً، وقد اتفق بان هذا الساحل يمتد من ينبع في الشمال(الحجاز وعسير) إلى السواحل الجنوبية الواقعة على البحر العربي، وبعد ذلك نجد تفوق الحميريين واستيلائهم على هذا

---

1 - الطيبي، آمين توفيق، الحبشة ..، ص 34 - 37 .

2 - انظر كلا من عبد المجيد عابد بن، بين الحبشة والعرب – ص 13- 14 . مأخوذة محمد مصباح الأحمد، تاريخ العلاقات العربية الأفريقية، ص 44.

2- علي، جواد، . ج3، المفصل – ص 451.

3- علي، جواد، ج3، المفصل، ص 453.

الساحل وضمه لمملكتهم إذ يحدوحدوهم لاحقاً أهل حضرموت وعمان.

غير أن العلاقات بينهما عرفت طورا آخر تميز بالتحالف.وقد ظهر هذا من خلال التمثال الحجري لملك ذوملامح شرقية وجدت بأسفله كتابات تدل على تحالف سياسي عسكري بين جدرة أوجدرت ملك أكسوم، وزعيم همذان باليمن (وهوعلهان نهفان) ليضمن مساعدة الحبش له في حروبه ضد منافسيه وخصومه الذين هم ملوك سبأ وريدان (وقيل ملوك حمير)حوالي عام 180 م، وأثناء ذلك اشترك ابن علهان وهو(شعر أوتر)في الحكم مع والده. إلا أن هذا التحالف لم يستمر طويلاً؛ فبسبب رفض ملك همذان لطلب ملك أكسوم بالاحتفاظ بجيش بحري كامل في اليمن، خصوصا بعدما انتصر على خصومه ولقب بملك سبأ وريدان، قامت الحرب بين الجانبين، وكانت لها أثارا سيئة على اليمن، إذ تسببت في هجرة قبائل أخرى، وفي سيطرة ملك أكسوم على أملاك جديدة في اليمن مثل سحرت وتهامة التي استوطنتها جاليات حبشية؛ وقد تكررت هذه العلاقات السياسية العسكرية بين الملك الحبشي (عذبه) وشمر ذوريدان أعوام 300- 320م انتهت بإخراج الأحباش من المدن اليمنية والسواحل التي استولوا عليها[1].

ومن خلال اللقب الطويل الذي تلقب به ملك أكسوم (الملك إيزانا Ezana 320 - 350 م) وهوملك أكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلحن[2]، المختوم بلقب ملك الملوك، نستنتج أن اليمن وما جاورها من الأراضي كانت خاضعة للحبش في أيامه، بل أن هناك من يذكر بأنه تلقب بـ" ملك أكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلحين وصيامو(ساسو) وبجه وكاسوملك الملوك ابن الإله محرم الذي لا يقهر"[3] بعد دخوله في الدين المسيحي عام 350م

---

1 - المرجع نفسه، ص 454 – 456 وكذلك محمد مصباح الأحمد، مرجع سابق ص 45.

2 - سلحين هو قصر ملوك سبأ و ذو ريدان بمأرب، وقيل هذا الشعر: وقصر سلحين قد عفاه ريب الزمان الذي يريب، ينظر عدنان ترسيسي، اليمن وحضارة العرب، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص46.

3 - هناك من يرى بأن ملك الحبشة قد تلقب بـ ملك اكسوم وحمير وريدان والحبشة وسبأ وصلح (سلحين) وتهامه والبجاه وكسواً انظر حسين الشيخ، العرب قبل الإسلام، ص115، والسيد عبد

وفرضه للنصرانية كديانة رسمية لمملكته وما صاحبها من تغيير في النقود (العملات) من حملها للشارة الوثنية – الهلال أوالقرص – إلى حملها شارة الصليب، هنا تلقب بالاعميدا Ella Amida بدل لقبه السابق بن محرم الذي لا يقهر، وأصبح لقبه الاعميدا الذي لا يقهر يعني: أنه عزا سبب انتصاراته لنشر المسيحية في النوبة إلى "رب السموات الذي تخضع له كلُّ الكائنات في الأرض والسماء"[1].

كما تمثلت أبلغ الآثار على سكان اليمن في القرن السادس الميلادي هوقيام الأحباش باحتلال اليمن – سواء أكان ذلك الأسباب اقتصادية لحماية التجارة الحبشية أوسياسية كرد فعل لغزوملوك حمير على السواحل الشرقية للحبشة – ومحاولة تنصير عربها وإنشاء كنيسة في ظفار التي أصبح رئيس أساقفتها يشرف على كل الكنائس المنشأة في اليمن وخصوصاً نجران والخليج العربي. وبذلك حل الدين المسيحي بالتدريج محل الوثنية. وبعد قرار ملك حمير ذونواس إلى يثرب ثم عودته إلى نجران ومطالبته للنصارى العرب بترك دينهم أوالفتك بهم، أسفر هذا عن حرقه لعدد كبير منهم ودفنهم في أخدود مثلما ورد في القرآن الكريم ﴿قتل أصحاب الأخدود النارِ ذات الوقود، إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾[2]، وقد ترتب على هذا أن بعث قيصر الروم إلى نجاشي الحبشة يأمره بنصرة النصارى العرب؛ بناء عليه أرسل النجاشي جيشا بقيادة أرياطاً ومعه أبرهة الأشرم وسبعين ألفاً من الأحباش نزلوا ساحل اليمن وانتصروا على اليمنيين وانتهت الحرب بهروب ذونواس واعتراضه البحر ثم موته؛ وهكذا وبسبب هذه الغزوة فقد اليمن ثلث رجاله، وخرب ثلثه كما أرسل للنجاشي بثلث سباياه[3].

وبذلك فقد اليمن استقلالها منذ عام 525م وصار ملك الحبشة يلقب بـ "ملك

= العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ص65، وعدنان ترسيسي، اليمن وحضارة العرب، ص19.

1 - علي، جواد، ج3، ص456، وكذلك أمين توفيق الطيبي، ص47.

2 - سورة البروج، الآية 4.

3 - ابن خلدون، ج2، ص69- 70، جواد علي، ج3، ص457، جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص144 و ص174.

أكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلحين" وفيها انتشرت النصرانية عن طريق الحبشة، وبتنصيب أبرهة الأشرم ملكاً على اليمن الذي استقل في حكمها عن الحبشة مقتصراً بدفع الجزية لنجاشي الحبشة، ذكر أن أبرهة قد اعترف رسمياً بأنه: "عزلي ملكن إجعزين / أي نائب ملك الآجاعزة على اليمن" وعند ترميمه لسد مأرب كتب عليه "ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت (اليمن) وأعرابها في النجاد (المناطق الجبلية الداخلية) وفي المنخفضات وتهامة (الساحل)"[1] وقد افتتح هذا اللقب بجملة "بحلول الرحمن ومسيحه"[2].

على الرغم من الضعف الذي اعترى مملكة أكسوم بعد نهاية الحكم الحبشي لليمن إلا أن تجارتهم وعلاقاتهم استمرت مع العرب وخصوصاً عرب مكة أي قبيلة قريش بقيادة هاشم ابن عبد مُناف وإخوته الذين على يدهم خرجت قريش إلى مجال التجارة الخارجية، حيث اتصلوا بالأحباش ووثقوا صلاتهم التجارية معهم ومعلوم أن هاشم بن عبد مناف (جد الرسول "ص") هو أول من ابتدع إيلاف قريش[3] للرحلتين رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة والعراق ورحلة الصيف إلى الشام، وهكذا كانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ويجدون فيها رفاقا(توسعاً) من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً[4]، ومع شهرت ملكها النجاشي المسيحي العادل والصالح هنا أمر الرسول. (ص) أصحابه بعدما أصابهم من البلاء والقهر على يد قريش، بالهجرة للحبشة في شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة(615م) وقال لأصحابه: "لوخرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه"[5].

---

1 - النص الحرفي بلغة الحبشة: "بخيل رحمنن ومسحهو ملكن ابره زبيمن ملك سبأ وذ ريدان وحضرموت ويمنت واعرابهمو طودم وتهمت".

2 - علي، جواد، ج3، ص470، وكذلك عدنان ترسيسي، اليمن وحضارة العرب، ص66.

3 - وفيه نزلت سورة قريش: "لإيلف قريش، إلفهم رحلة الشتاء والصيف فلعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وءامنهم من خوف".

4 - الطبري: تاريخ الطبري. تاريخ الأمم والملوك، ج2، مصدر سابق، ص 328- 329.

5 - أنظر كلا من: أبو الفداء. الحافظ ابن كثير الدمشقي (ت- 774هـ)، البداية والنهاية، ج3، مكتبة المعارف، بيروت، ط5، 1984، ص 66. وإن الأثير الكامل في التاريخ، مجلد1، مصدر سابق،

ويهذا يعث الرسول المهاجرين على دفعات بلغ عددهم عند وصولهم الحبشة نحوثلاثة وثمانين رجلاً عدا زوجاتهم وأبنائهم الذين خرجوا معهم والذين ولدوا في الحبشة إذ قدر مجموعهم بستمائة مسلم استمرت مدة إقامتهم بالحبشة حوالي ست عشرة سنة [1].

ولعل من أهم أسباب اختيار الرسول "صلعم" للحبشة هوقربها ناهيك عن احاطة مكة بالقبائل العربية المعادية للرسول والمسلمين، أضف إلى ذلك سمعة ملك الحبشة المسيحي والعلاقة الوطيدة بين العرب والأحباش والتي استمرت وطيدة حتى عهد الرسول "صلعم".

وقد أوردت المصادر العربية التاريخية أن اسمه أصحمة أوأرمحة وأن معنى الاسم هوأعطية [2]، وعلى الرغم من أن قريش قد أرسلت رسولين منها بهدية إلى النجاشي تطالبه بتسليم المهاجرين إليها إلا أنه غضب من هذا واجتمع إلى الرسولين ووفد المهاجرين وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب الذي كان يجيب على كافة الأسئلة وخصوصاً أخرها بقراءة أول سورة مريم إلى (يوم أبعث حيا) إذ بكى النجاشي وأساقفته وقال: "إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاه [3] واحدة" ثم أخذ عوداً من الأرض، وقال لجعفر: "والله ما زاد على ما في الإنجيل ولا مقدار هذا العود" ونظر إلى رسولي قريش قائلاً: "انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون"، وأمر بهدية قريش فردها لهم، وقال للمهاجرين "اذهبوا فأنتم آمنون" [4].

= ص496- 500 وكذلك الأمام محمد عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، ج، تحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الابياري وعبد الحفيظ شبلي، دار المغنى للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1999، ص30. وكذلك الطبري، مصدر سابق، ص328.

1 - ابن سعد، الطبقات الكبرى (السيرة الشريفة النبوية)، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، د- ت، ص 207. والطبري، ج2، ص 329 وابن خلدون، مجلد 2، ص ص 289- 399 وابن هشام، السيرة النبوية، ج1 مصدر سابق ص 330. ابن كثير، البداية والنهاية، ج2، ص9.

2 - الطبري، ج2، ص 335- 336، وابن كثير، ج3، ص ص 77- 78.

3 - المشكاة هي الكوة غير النافذة، وقيل هي الحديدة التي يُعلق عليها القنديل وقد قصد النجاشي من قوله "يخرج من مشكاة واحدة" معناه أن القرآن الكريم والإنجيل كلام الله تعالى أنهما من شيء واحد، ينظر ابن هشام السيرة النبوية، ج1، ص 343.

4 - ابن كثير، ج3، ص 74، وابن هشام، ج1، ص 343.

ومهما يكن من أمر فالعلاقات السياسية والاقتصادية قد استمرت وطيدة بين ضفتي البحر الأحمر واستمر التأثير المتبادل أيضا، وخير دليل على هذا هوتأثر العرب ونطقهم بالكثير من الكلمات الحبشية التي كانت دائرة، وقد وثقت ونزلت في القرآن الكريم هذا المصدر الحديث الجامع لكافه اللغات الفرعية والمشتقه من اللغة السامية الأم وقد أفرد لها جلال الدين السيوطى بابا في " كتابه الإتقان في علوم القرآن"[1] وهى ومعانيها كالآتي:

1- إبلعى(قيل يأرض أبلعى ماءك)[2] : كلمة حبشية بمعنى ازدرديه.

2- الآرائك(على الآرائك متكئون)[3]: كلمة حبشية بمعنى السرر.

3- أليم(عذاب أليم)[4] : كلمة حبشية بمعنى موجع.

4- أواه (إن إبراهيم لآواه حليم)[5] : كلمة حبشية بمعنى المؤقت أوالحليم وقيل الدعائي.

5- أواب (نعم العبد إنه أواب)[6] : كلمة حبشية بمعنى المسبح.

---

1 - جلال الدين عبد الرحمن السيوطى، ت 911هـ، الإتقان في علوم القرآن ج1، المكتبة الثقافية، بيروت، 1973، ص 137- 139 كما وردت هذه الكلمات عند: عبد الجليل عبد الرحيم، لغة القرآن الكريم، مكتبة الرسالة الحديثة عمان (الأردن)، ط1، 1981، ص 214- 219.

2 - سورة هود، الآية 44.

3 - سورة ياسين، الآية 56، وكذلك أنظر سورة الكهف، الآية 31، والإنسان الآية 13، والمطففين، الآية 23- 35.

4 - سورة المائدة، الآية 36، وكذلك وردت الكلمة في الآيات 37- 94، وفي سورة الأنفال، الآية 32، والأعراف الآية 73، والتوبة الآيات 3- 34- 61 ويونس، الآية 97، وسورة هود، الآية 26- 48، وسورة يوسف، الآية 25، إبراهيم الآية 22، الملك الآية 28 حيث وردت في 35 سورة من القرآن وفي كل سورة في أكثر من آية.

5 - سورة التوبة، الآية، 114 وكذلك وردت الكلمة في سورة هود، الآية 75.

6 - سورة ص، الآية 30، وكذلك انظر الكلمة في الآيات 17- 19- 44 في نفس السورة، وأيضاً سورة ق الآية 32.

6- أوبي (يا جبال أوبي معه)[1] : كلمة حبشية بمعنى سبحي معه.

7- الجبت والطاغوت (يؤمنون بالجبت والطاغوت)[2] : الجبت بمعنى الشيطان وقيل الساحر أيضا بلسان الحبشة، أما الطاغوت فمعنى الكاهن.

8- حطب جهنم[3]، حطب جهنم.

9- حوبا (أنه كان حوبا كبيراً) [4] : إثما كبيراً.

10- الحواريون (وإذا أوحيت إلي الحواريون أن ءامنوا بي) [5] أصحابه وقيل رسل المسيح الأصفياء الخلصاء.

11- دري (كأنها كوكب دري) [6] مضيء.

12- السجل (كطي السجل للكتاب)[7] : الرجل

13- سنين (وطور السنين)[8] : الحسن

14- السكر (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً)[9] : النحل.

15- شطر (فول وجهك شطر المسجد الحرام)[10] : أي تلقاء المسجد.

---

1 - سورة سبأ، الآية 10 .

2 - سورة النساء، الآية - 51 .

3 - سورة الأنبياء، الآية 98.

4 - سورة النساء، الآية 2 .

5 - سورة المائدة، الآية 111.

6 - سورة النور، الآية 35.

7 - سورة الأنبياء، الآية 104 .

8 - سورة التين، الآية 2 .

9 - سورة النحل، الآية 67 .

10 - سورة البقرة، الآيات 144- 149- 150 .

16- طه (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقي)[1] : يا رجل أويا محمد.

17- طوبي (الذين ءامنوا وعملوا الصالحات طوبي لهم)[2] : الجنة لهم.

18- العرم (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم)[3] : أي المسناة التي يتجمع فيها الماء ثم ينبثق.

19- غيض (غيض الماء وقضي الأمر)[4] : أي نقص الماء.

20- قسورة (فرت من قسورة)[5] : أي فرت من الأسد.

21- كفلين (يؤتكم كفلين من رحمته)[6] أي ضعفين.

22- متكأ(اعتدت لها متكأ)[7] قبل أن الحبش يسمون الترنج متكأ.

23- مشكاة (مثل نوره كمشكوة)[8] أي الكوة وبالتالي يكون المنى كمثل كوة في جدار غير نافذة (وهى الطاقة)[9] تجمع النور وتعكسه.

24- منسأته (تأكل منسأته)[10] أي تأكل عصاه.

25- منفطر (السماء مُنْفَطِرٌ به)[11] أي ممتلئة به.

---

1 - سورة طه، الآية 1 .

2 - سورة طه، الآية 1 .

3 - سورة سبأ، الآية 16 .

4 - سورة هود، الآية 44 .

5 - سورة المدثر، الآية 51 .

6 - سورة الحديد، الآية 28 .

7 - سورة يوسف، الآية 31 .

8 - سورة النور، الآية 35 .

9 - وهبه الزحيلي، التفسير الوجيز على هامش القرآن الكريم، ومرجع سابق ص 355 .

10 - سورة سبأ، الآية 14 .

11 - سورة المزمل، الآية 18 .

26- ناشئة (إن ناشئة الليل)[1] أي قيام الليل.

27- يحور (إنه ظن أن لن يحور)[2] يرجع.

28- ياسين (ياسين)[3] يا رجل.

29- يصدون (إذ قومك منه يصدون)[4] أي يضجون أويمنون.

هذا بالإضافة لكلمات أخرى كان العرب الساميون يتحدثون بها فأهملوها وهي التي دخلت ضمن الألفاظ أوالكلمات العربية المهملة، والتي أخذتها معها قبيلة حبش وغيرها إلى شرق أفريقيا وأستمر التحدث بها في الحبشة وأهملت عند العرب، وبنزول القرآن الكريم ورد فيه أبرز مظاهر التأثر العربي بالحبش والمتمثل في إعادة استخدام هذه الكلمات وهي، إضافة للكلمات التسعة والعشرين، كلمة منافق التي تحمل معنى شك وراهن وخالق، والمشتقة من نفق متعدد الوجوه، وكذلك كلمات منبر ومائدة[5]، ومصحف، وأخدود[6]، وكذلك نقل كلمة محرّفة من الحبشية أومغايرة للأصل مثل محراب[7] والتي يُرجح أصلها من كلمة محرام فى الحبشية اى المعبد وابدلت الميم باء، وهنا اعتقد ان اصلها يعود للكلمة العربية مكراب المعروفة فى اليمن، والتى تعنى المكا ن المقدس.وهنا ابد لت الكاف حاء ،ومنها كلمة مكرب المعروفة بالمقرب بين الآلهة والناس عند اليمنيين في جنوب شبه الجزيرة العربية.

ومن هنا يتبين لنا أن تغير الكلمة في حرف من حروفها مرجح على أنه دليل في نقل

---

1 - سورة المزمل، الآية 6.

2 - سورة الانشقاق، الآية 14.

3 - سورة ياسين، الآية 1.

4 - سورة الزخرف، الآية 57.

5 - سورة المائدة، الآية 112.

6 - سورة البروج، الآية 4.

7 - سورة مريم، الآية 11.

الكلمة وإعادتها من اللغة الحبشية الفرعية إلى اللغة العربية الأم[1] إضافة لكلمات أخرى اعتبرت من الألفاظ النادرة مثل كلمة برهان(دليل)[2] والهرج (الفتن) وناهيك (إضافة لذلك).

وعلى الرغم من قول البعض بأن هذه الكلمات حبشية أي كوشية حامية أفريقية، بمعنى ألفاظ غريبة عن اللغة العربية، لكون الحبشان من نتاج اختلاط القبائل اليمنية السامية بالكوشين الحاميين، فإننا لا أتفق مع هذا القول فبعد الدراسة والتمحيص لأصول هذه الكلمات، أتفقُ مع الفريق الآخر الذي تزعمه الإمام الشافعي، بالقول بأنها ألفاظ عربية صرفة وقد تكررت في مواطن كثيرة جداً من القرآن الكريم مثل كلمة أليم (عذابٌ أليم / عذاب موجع) فهذه الكلمة تكررت في خمسين وثلاثين سورة، وفي كل سورة تتكرر عشرات المرات، فلوكانت كلمة غريبة لم علبها القرآن مرور الكرام، وهذا بدوره يعزز بأنها ألفاظ عربية صرفه كما هووارِدٌ في سورة فصلت - الآية الثالثة: ﴿كتابٌ فصلت ءاياته قرءاناً عربياً لقوم يعلمون﴾، وفي الآية الرابعة والأربعين من نفس السورة: ﴿ولوجعلناه قرءاناً أعجمياً لقالوا لَولاَ فُصِّلت ءاياتهُ ءاعجمِيٌ وعَرَبِيٌ قل هوللذين ءامنوا هُدىً وشِفَاءٌ﴾.

وبالتالي فإن ما ورد في القرآن الكريم من الفاظ حبشية تعتبر دليلا على التفاعل والتقارب بين حضارات المنطقة، وانعكاسا للعلاقات المتبادلة بينهما والتي لم تكن بين ليلة وضحاها وإنما عبر قرون من الزمن.

وختاماً فقد كانت لهجرة الحبشان والآجاعز أثر بالغ الأهمية على الساحل الشرقي الأفريقي وعلاقته باليمين الموطن الأم لهذه القبائل، وكانت لهذه الهجرات آثار جمة في النواحي السياسية والعسكرية والحضارية والاقتصادية والاجتماعية والدينية واللغوية.

---

1 - للمزيد عن هذه الإشتقاقات ينظر، عبد المجيد عابدين، بين العرب والحبش، ص 100-104مأخوذة من عبده بدوي، السود والحضارة العربية، ص ص 90- 92.

2 - سورة النساء، الآية 174، و سورة يوسف الآية 24.

الهجرات القديمة إلى شمال أفريقيا

أ. محمد المختار العرباوي

شمال إفريقيا موطن البربر بجماعتهم الممتدّ على مساحة جغرافية واسعة من غرب مصر إلى المحيط الأطلسي ومن أعماق الصحراء الكبرى جنوبا إلى البحر الأبيض المتوسط شمالاً.

والهجرات إلى هذه المنطقة الواسعة لا يمكن إلاّ أن تكون موغلة في القدم لارتباطها بالتحوّلات المناخية العالمية الكبرى وما أدّت إليه من جفاف دفع بجماعات كثيرة إلى الهجرة. وهذا ما سنحاول التعرّف عليه في فقرات هذا البحث. وتستوقفنا في هذا الصّدد النظريات القديمة التي صيغت حول أصل البربر.

النظريات القديمة

1- نظرية الأصل الأروبي: وهي من أولى النظريات التي صاغتها المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. ومن أبرز منظّريها "لويس رين Louis rinn"[1] وهي نظرية تزعم أن البربر من أصل أروبي. وفيها أراء شتّى، منها ما يرى أنّ البربر جميعا من أصل هندي - أروبي، ومنها ما يجعل الأصل الأروبي للجماعات البربرية ذات الشعر الأشقر والعيون الزرقاء والبشرة البيضاء ويربطها إمّا بالغالبين وإمّا بالجرمانيين.

هذه النظرية في تأصيلها للبربر تعتمد على فرضية تقول بوجود معبرين بين القارتين: الأروبية والإفريقية، أحدهما يتّصل بجبل طارق والآخر بتونس عن طريق صقلّية، لكن المعلومات الجيولوجية المتعلّقة بالرّواسب والشطوط الواطئة أسقطت هذا الافتراض. ونفى

1- في كتابه: Les origines berbères, études linguistiques et ethnologiques Alger 1889

"بالوBalout." أن تكون هناك صلة بين القارتين قبل العصر الحجري الحديث [1].

2- النظرية الحامية: وهي نظرية نشأت في ألمانيا سنة 1912 [2] ومنها انتقلت إلى فرنسا وغيرها، تقول بوجود عرق حامّي أصله من الجزيرة العربية، هاجر إلى السودان وأماكن أخرى، له لغات متباينة ذات سمات مشتركة اعتبرت أسرة لغويّة أطلق عليها "الحامية". لكن علماء [3] اللّسانيات الألمان سرعان ما تخلّوا عنها لنقائصها، إلاّ أنّ المدرسة الفرنسية التي لم تعد تعوّل على نظرية الأصل الأروبي في خدمة فكرة الإلحاق وأغراضها السياسية سرعان ما تلقّفت المقولة الحامية لما فيها من عزل البربر عن العرب إذ هي تزعم أنّها تضمّ ثلاث مجموعات فقط هي: البربريّة، المصريّة، الكوشيّة.

هذه النظرية لم تعمّر طويلا، لعدم وجود وحدة لغويّة داخليّة حقيقيّة تختصّ بها. ولذا أخرجت منها المصرية وألحقت بالسامية في وقت مبكّر، وكذلك البربرية التي وصفها عالم البربريات "روسلر" بأنّها "جدّ سامية" [4] وبما أنّ علم اللغة المقارن أثبت وجود أواصر لغوية بين الحامية وما سميّ بالسّامية، وبدل أن يدمجا في مجموعة واحدة، فقد وقع الجمع بينهما مع المحافظة على فكرة الفصل، واستعملت لهما هذه التسمية: "الحامية - السامية" أو "السامية - الحامية".

3- النظرية الأنثروبولوجية: وهي نظرية أشاعها علماء الأنثروبولوجيا أوّلا ثم علماء التاريخ ثانيا، تزعم أنّ البربر من جنس يسمّى "جنس البحر الأبيض المتوسط" عرف منذ ما

---

1 - "إفريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ" في: "تاريخ إفريقيا العام المجلد الأول - جون أفريك/اليونسكو. تورينو (إيطاليا) 1983 ص 590

2 - صاحبها "س. مايتهوف" الألماني، أنشأها في كتاب له صدر سنة 1912 - انظر، د. أولد روج في دراسته: الهجرات والاختلافات السلوكية واللغوية - الوارد في تاريخ إفريقيا العامّ - المصدر السابق ج 1 ص 283

3 - Der semitis h charakter der libyschen sprach in Z.A.50 leipyeg 1952,150..

قبل التاريخ بسمات وخصائص هيكلية معيّنة، وأدرجت في هذا الجنس عناصر عديدة منها ما هوحول هذا البحر ومنها ما هوبعيد عنه. هذه النظرية حاولت هي الأخرى أن تربط بين شمال البحر وجنوبه تمشّيا مع سياسة الإدماج والإلحاق التي ستجد في فكرة الأصل المشترك[1] بين البربر والأروبيين ما يساعد على نجاحها.

وكشأن كلّ النظريات اللاّعلمية لا بدّ وأن تنهزم في النهاية. وهذا ما نجده في تقرير الطبيب "فلّوVallous" الذي رفعه إلى حاكم الجزائر العامّ سنة 1949 والذي جمع فيه "محاصل التحريات الأنثروبولوجية والكشوف الأثرية لينتهي إلى الحكم بعدم واقعية إدماج المغرب نهائيّا بأروبا"[2].

الانثروبولوجيا والتأصيل الجديد للبربر

لقد وقع إحياء النظرية الأنثروبولوجية من جديد، ولكن هذه المرّة لم يكن على يد الأروبيين وإنّما على يد أصحاب النزعة البربرية التي سعت في توجّهاتها الثقافية والدعائية إلى تأصيل البربر في المنطقة مع ما صاحب ذلك من تهويش لا علاقة له بالمعرفة والتحليل الموضوعي. فقد وضع للهجات البربرية لغة أمّ على غرار اللغة الأمّ للغات المسمّاة بالسّامية (اللغات العربية القديمة) كما اسند للبربر كتابة أقدم في ظهورها من الكتابة المسمارية في العراق والكتابة الهيروغليفية في مصر، فهي عند "إبراهيم أخياط" ترجع إلى آلاف السنين حيث "عاصر خطّها الأصلي "تيفيناغ" الحروف الفرعونية والفنيقية..."[3] أمّا وطن البربر أو "تاماغزا" كما يقال. فهويشمل "دول شمال الصحراء معا من مصر إلى موريطانيا وجنوب الصحراء من الصومال حتى السنيغال"[4] بما في ذلك التشاد والنيجر ومالي وبوركينا فاسو،

1- العروي، عبد الله، في كتابه "مجمل تاريخ المغرب" المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع - الدار البيضاء 1984 ص 43

2- المرجع نفسه ص 43، 44

3- لماذا الأمازيغية: سلسلة الدراسات الأمازيغية - منشورات الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي - القنيطرة 1981 ص 21

4- منصور، فوزي، شروط تنمية الأمّة الأمازيغية - أكراو أمازيغ 4 - 10 فبراير 1996.

أي أنّ قسما كبيرا من زنوج إفريقيا أمازيغيون. وعلى حدّ تعبير فوزي منصور فإنّ الأمّة الأمازيغية سواء "مالت بشرتها إلى البياض في الشمال أم اسودّت حتى أخذت لون العنبر في الجنوب هي أمّة أمازيغية توحّدت أول مرّة في عهد الملك نارمر (مينا)"[1] ونارمر هذا أو"نعرمر" من ملوك الأسرة الفروعنية الأولى الحاكمة في الجنوب (مصر العليا)، وهوأوّل من وحّد شطريْ مصر العليا والسفلى في حدود 3000 سنة ق.م.

هذا التوسّع الجغرافي الهائل في الوطن الأمازيغي وهذه الأمازيغية الغريبة لقسم كبير من الزنوج وهذا الادّعاء بأنّ المصريين القدماء وفراعنتهم أمازيغيون ما هوإلاّ كلام لا علاقة له لا بالعلم ولا بالتاريخ، ولا يمكن أن يكون إلاّ من قبيل التهويش. وهذا الاتّجاه في النظر إلى البربر وأصولهم أدّى إلى ظهور فكرة جديدة، وهي فكرة تأصيل البربر في المنطقة. ومن هنا وجدنا البعض يعيد إحياء النظرية الانتروبولوجية من جديد لا لربطها بأوروبا مرّة ثانية وإنّما لتدجينها وجعلها محلّية. فالبربر الذين تعثّر تأوريهم، يمكن هذه المرّة جعلهم أهليين الأمر الذي يضمن هوالآخر عزلهم عن العرب ونفى أيّ صلة لهم بالمشرق. فقد زعم البعض من المهتمين بعلم ما قبل التاريخ أن الأصل البشري للبربر منحدر من سلالات ما قبل التاريخ في المنطقة وأخصّ بالذكر هنا الأستاذين: عبد الرّزاق قراقب وعلي مطيمط التابعين لمعهد التراث بتونس. وهما، في ربطهما البربر بسلالات ما قبل التاريخ، ينطلقان من أصلين أنثروبولوجيين، هما "إنسان مشتى العربي" صاحب الحضارة الوهرانية و"الإنسان القفصي" صاحب الحضارة القفصية. فيقولان: "إنّ ما يسمّى بالعنصر البربري يحمل بعض علامات مستمدّة من إنسان مشتى العربي" كما يشكّل "العنصر القيصي الأصل المباشر للإنسان المباشر (أي البربري)"[2].

وبما أنّه سبق لي أن تناولت هذا الموضوع بشيء من التفصيل[3]. فسأكتفي هنا بعرض

---

1 - منصور، فوزي، شروط تنمية الأمازيغية.

2 - حضارات ما قبل التاريخ (تونس والبلدان المغاربية): دار أليف - منشورات البحر الأبيض المتوسط. الطبعة الثانية تونس 1993 ص 84

3- انظر كتاب "في مواجهة النزعة البربرية وأخطارها الانقسامية" في فصل التوجّه المشبوه والتهويش في

إجمالي لهاتين الحضارتين: الوهرانية والقفصية لمعرفة فيما إذا كان الأستاذان في قولهما يستندان إلى معلومات مؤكّدة ويقرّها الباحثون المختصّون. وهما كما هو معروف من حضارات العصر الحجري الأعلى في المنطقة.

الحضارة الوهرانية:

نسبة إلى مدينة "وهران" اكتشفها أوّل مرّة "ب. بلاري P. Pallary" سنة 1909 في "مويّة Mouillah" وأوّل من اقترح أن تسمّى بـ"الوهرانية" براي "Breul" وأقدم تاريخ اسند لها 13000 سنة ق.م. وهي منتشرة على طول سواحل المغرب العربي وكذلك في مناطق قارّية كما في "تاهرت" و"بوسعادة". وقد أطلق الباحثون على صاحب هذه الحضارة "إنسان مشتى العربي" وهواسم موقع بين "سطيف" و"قسنطينة" بالجزائر وقد عثر على هياكله العظمية في مدافن عديدة.

وبما أنّ هذه الحضارة مهمّة، فإنّ هذا يدعوإلى التساؤل عن أصل صانعها. والرأي السائد في الأوّل هوأنّ أصله من شرق البحر الأبيض المتوسط، هاجر من تلك المنطقة سالكا طريقين: طريق شمال البحر، وهوالذي أطلق عليه اسم "الكرومانيين" نسبة إلى موقع "cro-magnon" بجنوب فرنسا. وطريق جنوب هذا البحر أوصله إلى شواطئ البلاد المغربية. ومن اللّذين نسب إليهم هذا الرأي "كون Coon". وذهب "ماكبرني Mac Burny" أيضا في هذا الاتّجاه إذ هويرى أنّ أصل الوهرانيين قد "يكون من فرع مصر للضبعانيين"[1] أمّا الباحث الفرنسي "جيان ديزانج J. Dasanges" فإنّه وإلى حدّ الثمانينات من القرن المنصرم يعتبر الوهرانيين شرقيين ويقول عن ثقافتهم "لم تأت هذه الثقافة من أروبا حيث إنّها قامت قبل بداية الملاحة عبر المضايق ومن وإلى صقلية، وهناك ما يحمل على الظنّ بأنّ أصولها كانت

التاريخ ص 83 نقوش عربية. تونس 1998 طبعة أولى.

1- (دور ليبيا في فترة ما قبل التاريخ): Libyan role in Prehistory الوارد في "ليبيا في التاريخ" منشورات الجامعة الليبية. بنغازي 1968 ص 5

شرقية"[1].

وإذا كان هذا هوالاتّجاه الغالب فيما يخصّ أصل صانعي الحضارة الوهرانية فهناك من تحفّظ عليه وهوبالوL. Balout الذي قال: "ولم تثبت الفرضية التي أصبحت اليوم تقليدية والقائلة بوجود أصل شرقيّ قد تفرّع عند تيار الكرومانيين الأروبيين المتّجه نحوشمال البحر المتوسط، وتيّار آخر هوتيّار مشتى العربي المتّجه إلى الجنوب على طول السواحل الإفريقية"[2] وهويوحي بأنّهم محلّيون لكن هذا التحفّظ لم يكن قويّا لدى صاحبه. وبما أنّ الصناعة الحجرية الوهرانية خالية من أيّ أثر للصّناعات السابقة لها، فهي في رأيه "لا تعتمد على جذور محليّة" وفي هذا ما يشير إلى أنّ أصحابها ليسوا من المنطقة وإنّما هم من الوافدين عليها. وهنا يظهر تردّد "بالو" بل تراجعه كما في قوله: "ولكنّ هذه الفرضيّة مهما تكن مغرية فإنّها لا تفسّر بحال وجود صناعة لا أثر فيها لأيّ وجه شبه بالمستيري العاطري. فالقول بأنّ الأيبيرو- مورسيين ليسوا أصحاب تلك الحضارة، ليس قولا معقولا لأنّ تلك الحضارة لا تعتمد على جذور محلية"[3].

وتلقّف بعض الباحثين المغاربة فرضية "بالو" هذه واعتمدوها في أبحاثهم ومنهم "د. إبراهيمي" الذي قال: "لا يزال أصل الإنسان الأيبيري- مغربي موضوع نقاش. وكان يعتقد لمدّة طويلة أنّ أصله من الشرق وأنّه وصل إلى المغرب عن طريق الجنوب التونسي، غير أن اكتشاف أوائل إنسان نياندرطال بجبل أرحود سمح بالتفكير بحذر في الأصل المحلّي لإنسان مشتى العربي"[4] وكلمة "بحذر" تدلّ على أنّه ليس جازما بأنّ إنسان مشتى العربي من أصل محلّي فضلا عن إقراره في الأوّل بأنّه لا يزال موضوع نقاش.

أما الباحثان التونسيان السابقا الذكر (قراقب، مطيمط) المطّلعان على ما قاله "بالو"

---

1 - البربر الأصليون: الوارد في "تاريخ إفريقيا العام" السابق الذكر (1985) ج2 ص 432.

2 - افريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ: المصدر المذكور سابقا ص 584

3 - المرجع نفسه ص 584

4 - تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر: ترجمة محمد البشير شنيتي ورشيد بورويبه. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر 1982 ص 77

و"إبراهيمي" وبدلا أن يتحفّظا مثلهما وأن تكون تقديراتهما في ضوء ما توصّلت إليه الأبحاث من معلومات ومعطيات، نجدهما على العكس تماما تجاوزا ذلك وحوّلا فرضية "بالو" السابقة إلى يقين وقالا : "وأثبتت الدراسات أن إنسان "مشتى العربي" هومن أصل عرقي مغاربي ترك بصماته في الأجناس البشرية التي عمّرت بلدان شمال إفريقيا"[1] من دون أن يذكر أيّ شيء عن هذه الدراسات ومن غير توضيح لهذه البصمات، وهذا يعني أنّ ما قالاه لا يمكن أن يكون إلاّ من قبيل المزاعم والتزيّد العلمي وليس له من هدف سوى تشويه الحقيقة وتضليل الوعي. فالحضارة الوهرانية لم تكتشف في المغرب والجزائر وتونس فحسب ولكن اكتشفت أيضا في ليبيا ومصر[2]، وهوما يجب أخذه بعين الاعتبار في مثل هذا الموضوع.

الحضارة القفصيّة

نسبة إلى مدينة "قفصة" الواقعة في الجنوب الغربي لتونس. انتشرت على الحدود التونسية - الجزائرية، ووصلت في انتشارها إلى الغرب الجزائري وجزء من الصحراء. أمّا المغرب فلم يعثر لها على أثر فيه حتى الآن. والرأي السائد أنّها ظهرت بعد الوهرانية في حدود 10.000 أو8.000 سنة ق.م. وهي حضارة قارية لم يوجد ما يدلّ على أنّها وصلت إلى البحر. وتدلّ الهياكل العظمية أنّ الإنسان القفصي من سلالة مغايرة انثروبولوجيا لإنسان مشتى العربي، وبعض الباحثين يصنّفونه ضمن الجنس المسمّى "جنس البحر الأبيض المتوسط" وهذه المقولة كما رأينا مقولة فضفاضة ليست لها قيمة علمية، وإذا كان البعض افترض وجود ارتباط بين إنسان مشتى العربي بمن قبله فإنّ هذا الافتراض لم يقع مع الإنسان القفصي وفي هذا ما يشير إلى أنّه من خارج المنطقة. وممّا يقوّي هذه الفكرة أنّ "بالو" في دراسته لهذه الحضارة يقول: "إنّ

1- حضارات ما قبل التاريخ: المصدر المذكور سابقا ص 3.

2- يذكر ماكبرني خلال 10.000 - 9000 انتشرت الحضارة الوهرانية بحذاء الساحل الغربي حتّى برقة - انظر المغرب الكبير ج1 ص 118 للدكتور رشيد الناضوري، أما مصر فيذكر "فرنان دي بونو" في دراسة بعنوان: وادي النيل قبل التاريخ - الوارد في "تاريخ إفريقيا العام" المصدر المذكور سابقا ج I ص 648

صانع حضارة القابسي "الأنموذجي" يكاد يكون مجهولا لدينا"[1] (القابسي أي القفصي) وهذا الجهل بالرغم من توفر المعلومات يؤكّد عدم وجود أصل قديم في المنطقة لهذه الحضارة. ويتأكّد هذا بوجد الحضارة القفصية في ليبيا التي اكتشفها "ماكبرني" أثناء حفرياته في كهف "هوافطيح" بجهة درنه حيث عثر على صناعة حجرية قفصية في إحدى طبقاته التي أطلق عليها "الطور الخامس" وسمّي هذه الصناعة "الحضارة الليبية - القفصية" ويقول عنها خلال المدة "10.000 - 7.000 من الآن، تحوّل عرقيّ آخر نستطيع استنتاجه من التحوّل الراديكالي الذي حدث في الحضارة المادّية، في تلك الفترة يسجّل مجيء شكل ليبيّ للحضارة القفصية"[2] وهذا أيضا يدعم أويؤكّد أنّ إنسان الحضار القفصية ليس من المنطقة. وإذا كان من خارج المنطقة فمن أيّ جهة قدم ؟ يذكر "ماكبرني" امكانيتين في هذا الصدد :

الأولى: أنّه قدم عبر البحر من جهة إيطاليا وصقلية وجزيرة "لوفنصو"[3] وهذه الإمكانية ليست سليمة لما سبق ذكر من انعدام الاتصال بين شمال البحر وجنوبه قبل ظهور العصر الحجري الحديث وقبل بداية الملاحة.

الثانية: أنّه قدم من آسيا الغربية (منطقة الجزيرة العربية وما حولها) لوجود حضارات مشابهة وهوما عبّر عنه بقوله : "والامكانية الأخرى هي أن الحضارة القفصية متفرّعة عن آسيا الغربية حيث توجد نماذج أوّلية نعتقد أنّها توجد في حضارات مثل الكبران والسكفيان"[4] وهذه الامكانية واقعية ومعقولة، وكان لـ: فوفري "R.Vaufrey" من قبل وجهة نظر مماثلة أوردها "جوليان" إذ هويرى أن للقفصي أصولا من "الأفضل أن يبحث عنها في مصر"[5]

1- إفريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ : المصدر المذكور سابقا ص 586

2 - دور ليبيا في فترة ما قبل التاريخ ... libyan role المصدر المذكور سابقا ص 5

3 - المرجع نفسه ، 5.

4 - تاريخ إفريقيا الشمالية : تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة - الدار التونسية للنشر تونس 1978 ج1 ص 54

5 - البربر الأصليون : المصدر المذكور سابقا ج2 ص 432

ونضيف هنا ما قاله "جيان" عن القفصيين من ذوي "الصفات شبه الزنجية"[1] وكلّ هذا يؤكّد أنّهم من الخارجين عن المنطقة ومن الوافدين عليها.

وخلاصة ما تقدّم أنّ السلالة الوهرانية والقفصية المكتشفتين للإنسان العارف في العصر الحجري الأعلى، هما سلالتان مهاجرتان من جهة الشرق كما هو في أغلبيّة الآراء والتقديرات. ويبقى علينا بعد هذا أن ننظر في مآلهما وفيها إذا كانت لهما علاقة بالجماعات البربرية الكثيرة والمتنوّعة لغويا ؟

وإذا ما عدنا إلى المخلّفات الأثريّة فسنجد أنّ شمال إفريقيا بدأ يدخل تدريجيا في العصر الحجري الحديث في حدود 5.000 سنة ق.م. فالوهرانيون، قال عنهم "بالو" إنّهم "تمكّنوا من البقاء إلى العصر الحجري الحديث"[2] لكنّ مصيرهم ظلّ غامضا. ومن هنا وجدنا "إبراهيمي" يقول عن إنسان مشتى العربي: "فقد عاش هذا حتى العصر الحجري الحديث، حيث بقيت آثاره خاصّة في إقليم وهران ثمّ اختفى فيما يبدوأواخر ما قبل التاريخ"[3] وفي هذا الاتّجاه نجد الاستاذان: قراقب ومطيمط لا يتحدثان عن عصر حجري حديث للوهرانيين كما فعلا مع القفصيين وإنّما تحدّثا عن عصر حجري متوسّطيّ قائلين: "يبدوأنّه يستمدّ جذوره من الحضارة الوهرانية مع تمازج ببعض التيّارات الحضارية للبحر الأبيض المتوسّط"[4] وكلمة "يبدو" توحي بالشكّ في وجود تيّار وهراني حديث. وهما هنا يكرّران فكرة "إبراهيمي" بصيغة مختلفة ويطعنان في فكرتهما السابقة عن إنسان مشتى العربي الذي ترك على حدّ تعبيرهما "بصماته في الأجناس البشرية التي عمّرت بلدان شمال إفريقيا" ولم يتفطّنا أنّ من يترك بصماته لا بد وأن يكون واضحا ولا يعبر عنه بكلمة "يبدو" ولا يحتّم عنه بفكرة التمازج وما

---

1 إفريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ: المصدر المذكور سابقا ج1 ص 584

2 تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر: المصدر المذكور سابقا ص 37

3 - حضارات ما قبل التاريخ: المصدر المذكور سابقا ص 43

4- انظر: مدنية المغرب العربي في التاريخ - أحمد صفر. دار النشر - بوسلامة تونس 1959 ج1 ص 61

تعنيه من تلاشٍ وذوبان. والمهمّ في نهاية هذا التحليل أنّ السلالة الوهرانية تلاشت في مرحلة العصر الحجري الحديث وانقرضت تدريجيا، ولا يمكن لها في هذه الحالة أن تكون أصلا للبربر وسلفا لهم.

أمّا القفصيون كما تدلّ على ذلك آثارهم - فقد انتقلوا تدريجيًا إلى العصر الحجري الحديث في أواخر الألف الخامس قبل الميلاد (كلومناطة 4390 ق.م). والباحثون وإن تحدّثوا عن مواقع هذه المرحلة إلاّ أنّهم لم يذكروا شيئا واضحا عن مآلهم الذي ظلّ هو الآخر غامضا. وهذا الغموض ليس له من تفسير سوى أنّهم تلاشوا أيضا تدريجيا.

هناك معلومات قليلة أوردها "صلّوست Salluste" المؤرخ اللاتيني في القرن الأوّل قبل الميلاد حول سكّان المنطقة تشير إلى وجود جماعات سائبة ترتدي جلود الحيوانات الوحشية، وتأكل وتنام على الأرض [1]. هذا النمط من الحياة يشبه نمط الحياة عند القفصيين، تحدّث عنه "إبراهيمي" كما في قوله: "وكان الأسلوب الشائع هو سكّان العراء" [2] وسبق لـ"هيرودوتس" قبله في القرن الخامس قبل الميلاد أن تحدّث عن جماعات رجالها متوحّشون ونساؤها متوحّشات [3]. وتقديرنا لهذه الجماعات ما هي إلاّ بقايا المجموعة القفصية. وجماعات هذا شأنها مآلها التلاشي، ولا يمكن بأيّ حال أن تكون أصلا للبربر وسلفا من أسلافهم.

وإذا كنّا ننفي أن يكون الوهرانيون والقفصيون أسلافا للبربر فإنّنا لا نكتفي بما تقدّم ذكره وإنّما نضيف إليه ما يلي: الواهرانيون والقفصيون دخلوا في العصر الحجري الحديث خلال الألف الخامس قبل الميلاد. والجماعات البربرية الأولى كانت هي الأخرى موجودة في هذه الفترة، وهو ما يسهّل لنا عملية المقارنة بينهما معا من خلال المعلومات المتوفّر عنهما.

---

1 تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر: المصدر المذكور سابقا ص 87.

2 - نصوص ليبية من إعداد الدكتور علي فهمي خشيم لهيرودوتس وآخرين - منشورات دار مكتبة الفكر - طرابلس 1967 ص 90

3 تاريخ العرب مطوّل: ترجمة د. إدوارد جرجي، ود. جبرائيل جبّور - دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع بيروت 1958 ج 1 ص 13

وسوف نرى فيها إذا كانت حياتهما المادية والثقافية متقاربة أم لا ؟ وهوما يجعل عملية الربط بينهما ممكنة أومتباعدة أوينفيها هذا الربط ويظهر ما فيها من خطأ وسوء تقدير. فالوهرانيون والقفصيون لم يخرجوا على الإطار الحجري العامّ لحياتهما. فكلّ ما أبدعوه ثقافيا هوأنّهم توصّلوا إلى صقل الحجارة وصقل العظام وصناعة نماذج من الفخّار واستعمال بيض النعام لأغراض الزينة وغيرها، وكذلك بعض الأعمال الفنية البدائية مثل تلك التي تنسب إلى القفصيين. هذه الثقافة البدائية ضعيفة ومحدودة الآفاق لا تساعد على التحوّل والانتقال من عصر الحجارة والبدائية إلى ما بعده. أمّا البربر وكما نعرف عن الجماعات الأولى منهم في الألف الرابع قبل الميلاد بفضل الوثائق المصرية، فهم ذوو ثقافة مختلفة، وأهمّها تربية الماشية وما تتطلّبه من تبدّل وتغيير في حياتهم المادية والذهنية إذ هي من العوامل الأساسية التي انتقل بفضلها الإنسان من عصر البدائية إلى ما بعدها. وهذا التحوّل قديم، خاصّة في المشرق العربي الذي عرفه قبل غيره من مناطق المعمورة: ويعود حسب بعض التقديرات إلى الألف الثامن قبل الميلاد.. وهذا الزمن يقابل العصر الحجري الأعلى بالنسبة للواهرانيين والقفصيين وشمال إفريقيا عامّة. ومن هنا تتّضح لنا فجاجة الآراء التي تجعل من الوهرانيين والقفصيين أسلافا للبربر وبهذا تتقرّر الحقيقية الكبرى التي لا مراء فيها وهي أنّ البربر ليسوا من المنطقة، وأنّهم بكلّ تأكيد هجرات. والسؤال المتبادر إلى الذهن. فمن أين قدموا ؟ وما هي الجهة المؤهّلة بأنّ تنطلق منها هجرات ضخمة مثل هجرات البربر ؟

من الحقائق المعلومة أنّ هذه الهجرات لم تأت من أروبا لانعدام الصلة بينها وبين شمال إفريقيا قبل العصر الحجري الحديث وقبل بداية الملاحة. كما تقدّم ذكره ثمّ إنّ هذه الهجرات لم تأت أيضا من الجنوب لكون البربر ليسوا زنوجا. وهذا يعني أنّهم قدموا من الشرق ومن الجزيرة العربية على وجه التحديد، إذ هي من المصادر الثلاثة الأساسية على صعيد المعمورة إلى جانب آسيا الوسطى وأمريكا اللاتينية. وقال "فليب حتّي" عن الجزيرة العربية أنّها كانت "تزدحم بالسّكان كخزّان هائل ضاق فلم يجد عن إفاضة ما يزيد عن سعته"[1] وإذا كانت

---

1 تادرارت أكاكوس، الفن الصخري وثقافات الصحراء قبل التاريخ: ترجمة عمر الباروني و فؤاد الكعبازي - مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي طرابلس 1988 ص 27

المعلومات السابقة المؤكّدة للهجرة متعلّقة أساسا بالمنطقة وبأوضاعها، فلا بدّ في هذه الناحية من تقديم أدلّة أخرى متعلّقة هذه المرّة بالبربر أنفسهم وبزمن وصولهم وبالجديد الذي قدموا به إلى مواطنهم الثانية. وهذا أمر مهمّ. فالأدلّة متنوّعة، سأذكرها تباعا في الفقرات التالية :

الأدلّة الأثريّة

إذا ما اتّجهنا إلى ما قبل التاريخ في طوره الأخير (العصر الحجري الحديث) فسنجد أن "ليبيا" من أهمّ المناطق المغربية التي توفّر لنا إلى حدّ الآن الوثائق الدّالة على ما حدث من تحوّل جديد في المنطقة تمثّل في مجيء الجماعات البربرية الأولى إلى المنطقة وفي دخول الحضارة الرعوية إلى ربوعها.

تمّ التعرّف على هذه الحضارة بالاعتماد على دراسة :

1- الرسوم والنقوش التي خلّفها الفنانون الصحراويون في الكهوف وفوق الصخور.

2- عظام الحيوانات المدجّنة التي عثر عليها في الحفريات. فالرسوم والنقوش كانتا لحيوانات متنوّعة من فيلة وزرافات وغزلان ونعام وغير ذلك بما فيها قطعان الماشية من ضأن وماعز وأبقار وأحصنة وجمال.

هذه الرسوم والنقوش من المحيط الأطلسي حتّى البحر الأحمر أي من جنوب المغرب وموريطانيا مرورا بتاسيلي بالجزائر وبفزان بليبيا وبتبستي بين ليبيا وتشاد وبالنوبه بمصر.

اهتمّ الباحثون بهذه الرسوم والنقوش ومن بينهم على وجه الخصوص "فابريتشيوموري Fabrizio mori" الإيطالي الذي قاد سبع حملات دراسية من سنة 1955 إلى سنة 1964[1] مركزا على فزّان في مرتفعات "تادرارت أكاكوس" فدرس الرسوم والنقوش على عين المكان ومن أهمّ إنجازاته في هذا العمل هوأنّه استطاع أن يميّز بين الأدوار الزمنية والمراحل التاريخية لهذه الرسوم والنقوش. فتوصّل إلى تحديد خمسة أدوار هي[2]:

1- تادرارت أكاكوس، 37

2 - المرجع نفسه، 43.

1. دور الحيوانات الكبيرة المتوحشة أوالأبقار البرية (Bubalus antiquus)

2. دور الرؤوس الكبيرة (رسوم في الغالب)

3. الدور الرعوي (نقوش ورسوم)

4. دور الحصان (نقوش ورسوم)

5. دور الجمل (نقوش ورسوم)

ويهمّنا من هذه الأدوار الدور الثالث المتعلق بالرعي الذي درسه "موري" في عدّة مواقع ووجده يختلف عن الأدوار الأخرى حتّى في مستوى التلوين، فمادّته "مادّة ملوّنة أقلّ ثخنا، غير شفافة في الغالب"[1] وبقطع النظر عمّا ميّزه من أدوار ثلاثة داخل المرحلة الرعوية من خلال الأساليب الفنية المتبعة في الرسم والنقش، فإنّه عمل على ضبط الإطار الزمني لأدوار الفن الصخري الصحراوي بالاعتماد على الحفريات التي قام بها في مخابئ عدّة كهوف ذات رسوم ونقوش. فتمّ فحص العيّنات المترسبة بها بطريقة "الراديو- كربون" وفيما يلي المواقع المنتخبة والتواريخ المتحصل عليها:

- ففي "وان موهجاج": عثر على بقايا ماشية مستأنسة في الطبقات الوسطى والسفلى. أخذ منها هذان التاريخان 5.500 - 4.000 سنة ق.م.[2] وهناك تواريخ أخرى أقلّ زمنا أسندت إلى عيّنات من هذا الموقع[3].

- وفي "فوزيجارن": في دوره الأسفل "أقدم ترسّب اكتشف في الأكاكوس إلى هذا

---

1 - الفن والثقافات الصحراوية لفترة ما قبل التاريخ ... Prehistoric saharan art and cultures in the light discoveres in the acacus massif الوارد في "ليبيا في التاريخ" المصدر المذكور سابقا ص 24

2 - تادرارت أكاكوس، 240.

3 - المرجع نفسه، 222.

اليوم"[1] وحدّد تاريخ الرواسب السفلى والعليا بما فيها من موادّ فحمية بـ6.000 سنة ق.م.[2]

- وفي "وان تلوكات" (وادي إمها): عثر على موادّ مختلفة في ترسّباته حدّد تاريخها بـ 6754 (± 175) قبل الآن = 4800 ق.م.[3] ومن خلال فحص البقايا العظمية المعثور عليها في موقع "وان تلوكات" تبيّن لموري "وجود عناصر تماثل المستودع الرعوي بـ "وان موهجاج - الأخدود أ"[4]

ويؤكّد "موري" على أهمّية تاريخ "وان تلوكات" وعلى وجوب ربطه "بالحلقة الرعوية التي تنتمي إليها تحديدات زمنية أخرى. وأقدم هذه التحديدات حوالي منتصف الألف VI قبل الميلاد"[5] (أي الألف السادسة) وهذا التاريخ يمكن أن يكون بداية ثقافة تربية الماشية في هذا الجزء من الصحراء الكبرى والألف السادس في نظره فاصل بين عهدين: عهد الرؤوس المستديرة وعهد الرعي، مفترضا "أن الانقطاع في التسلسل بين فترة الرؤوس المستديرة والفترة الرعوية لم تكن قصيرة ولم تكن ثقافيا خارج المجال"[6].

وإذا انتقلنا من الجنوب الغربي لليبيا إلى شمالها في إقليم برقة حيث قام الباحث الانقليزي "ماكبرني Mac Burney" بحفريات في كهف "هوالفطيح" وهو"من أكبر وأوسع الكهوف الما قبل التاريخية في جميع حوض البحر المتوسط. وشكله نصف دائري بقطر(80) مترا ويبعد بضع مئات من الأمتار على ساحل البحر. وبالنظر إلى سعة الكهف، فإنّ ترسباته منتظمة ومكوّنة على هيئة طبقات أفقية الأمر الذي سهّل الحفر والمقارنة ودرس المكتشفات"[7].

---

1 - الفن والثقافات الصحراوية..34.

2 - الفن والثاقافات الصحراوية، 34؛ تادرارت أكاكوس، 145.

3 - تادرارت أكاكوس، 245.

4 - الفن والثقافات الصحراوية، 36.

5 - المرجع نفسه، 34.

6 - باقر، طه، عصور ما قبل التاريخ في ليبيا وعلاقتها بأصول الحضارات القديمة، في: ليبيا في التاريخ، حاشية 1، ص 23.

7 - ليبيا في فترة ما قبل التاريخ، 6.

ففي الطبقة السادسة من ترسبات هذا الكهف، انطلاقا من الأسفل، وقع العثور على أدوات العصر الحجري الحديث وعلى آثار تدجين الحيوانات، أرّخت هذه الترسّبات 5.000 سنة ق.م وقال عنها "ماكبرني" بعد الفحص المعملي وتثبيت النتائج "في حدود 7000 سنة من الآن وقع تحوّل عميق أكبر، أثّر في حياة اللبيين القدامى ونستطيع اكتشافه في كهف "هوانطيح" وفي مجموعة من الكهوف درست من قبل "موري" بفزّان في كلتا الجهتين ظهرت أوّل حيوانات أهلية وأصبح الناس رعاة عوضا عن صيّادين"[1] ونوّه "ماكبرني" بأعمال موري فقال: "وساهم موري مساهمة فعّالة في تحديده لتاريخ سلسلة من الأساليب الفنية في كهف طباقي stratified بوان موهجاج قرب غات. ففي هذه السلسلة تتعرّف على الرّعاة الأوائل بوضوح وأن نتبيّن أنّهم قدموا في حدود 5.000 سنة ق.م"[2]

من هم هؤلاء الرعاة:

يذكر "موري" أن زمن الرؤوس المستديرة "مربوط بسكّان شبه زنوج"[3] وأنّ أصحابها رسموا بملامح وسمات زنجية أمّا فترة الرعاة فقد ظهرت فيها معطيات جديدة، فتغيّر النظام الاجتماعي وتغيّر أسلوب ومحتوى الرسوم فقد اختفت الرسوم "ذات الشكل البشري والطابع الأسطوري"،[4] وحلّت محلّها رسوم ذات مواضيع جديدة مثل "تربية الماشية والتنقّل عليها وحلب البقر والأنشطة المتنوّعة للحياة القبلية"[5].

وما يؤكّده "موري" هنا هوأنّ هؤلاء الرعاة ليسوا متزنجين حتّى أنّهم على مستوى اللّون ربطهم بمجموعة البحر الأبيض المتوسّط، وأنّهم في نظره من ذوي عرق واحد، فقد تحدّث عن الميزات الخاصة لمنقوشات "تين لالان" وما "لها من الأهميّة في أغراض ربط الانتماء

---

1 - المرجع نفسه، 6.

2 - الفن والثقافات الصحراوية، 38.

3 - الفن والثاقافات، 38 ؛ تادرارت أكاكوس، 54.

4 - المرجعان السابقان، 48، 54.

5 - تادرارت أكاكوس، 137.

العرقي لتلك الأشكال بالسلالة العرقية بوان إميل"[1] ثمّ وسّع الدائرة لتشمل منطقة "الأكاكوس" بليبيا لمنطقة "تاسيلي" بالجزائر وقال عمّا بين رسومهما ونقوشهما من تشابه إنّها "دلائل داعمة لنظرية التطابق العرقي بين المجموعات الواردة في المنطقتين". وبقطع النظر عن وحدة الانتماء العرقي فهناك بكلّ تأكيد وحدة انتماء ثقافي وحضاري لهؤلاء الرعاة.

وهذا يعني في نهاية التحليل أنّ الرعاة ما هم إلا موجة بشرية ظهرت في العصر الحجري الحديث وطارئة على المنطقة خاصّة إذا ما عرفنا أنّ الأغنام والماعز لا وجود لهما ضمن الحيوانات البرية بشمال إفريقيا والقارة الإفريقية قاطبة وهذا ما أكّده "ماكبرني" في قوله: "على كلّ حال فلا الأغنام ولا البقر يمكن أن تتكوّن وتطوّر من الحيوانات الوحشية المحلية في شمال إفريقيا"[2] وكذلك الباحثان "رولان بورتير" و"جاك بارو" في قولهما "إنّ تربية الحيوان لم تتطوّر مستقلّة في إفريقيا جنوب الصحراء التي لم يكن فيها للحيوانات أيّ سلف ممكن للبقر والماعز والغنم المؤهّلة"[3].

وبهذا تتضح لنا الإجابة عن السؤال السابق. من هم هؤلاء الرّعاة ؟ إنّهم بكلّ تأكيد الجماعات البربرية الأولى الشرقية النسب والتي هاجرت إلى المنطقة في الألف الخامس قبل الميلاد (5000 ق.م.) وأدخلتها لأوّل مرّة في الحضارة الرعوية.

الدليل اللّغويّ

إذا كان البربر هجرات شرقية من الجزيرة العربية، فلا بدّ أن تكون لغتهم جزءا من الواقع اللّغوي العربي القديم، ولها في معجمها وبنيتها ونظامها اللّغوي ما يشبهه في الأكّدية والكنعانية واليمنية والمصرية وغيرها من العربيات القديمات.

هذا الموضوع سبق لي أن تطرّقت إليه في كتاب: البربر عرب قدامى - وسأقتصر هنا

---

1 - تادرارت أكاكوس، 137.

2 - دور ليبيا في فترة ما قبل التاريخ، 6.

3 - بداية التقنيات الفلاحية وتطورها وانتشارها، في: تاريخ أفريقيا العام، الجزء الأول، 23.

على بعض الجوانب التي تثبت النسب العربي الشرقي للبربرية. وهذه الجوانب هي :

1. المجال الصوتيّ:

البربرية، في نظامها الصوتي خالية من بعض الحروف الحلقية مثل الهمزة والحاء والعين (أ. ح. ع) وهي في هذا تشبه الأكّدية الخالية من معظم الحروف الحلقية ولا يوجد فيها إلا حرفاء الهمزة والخاء (أ، خ)

كذلك لا توجد فيها هذه الحروف ث، ذ، ظ وهي هنا مثلها مثل الآرامية والفينيقية والنبطية الخالية هي الأخرى من مثل هذه الحروف.

2- تغيير الحركات وعلاقته بالمعنى:

من الموضوعات التي تشبه فيها البربرية الفصحى واللغات العربية القديمة، التغيير في الحركات وما يؤدي إليه من الحصول على معاني جديدة.

في البربرية يقال:

أمْدكّل، إمْدُكّلْ : صديق - أصدقاء

يَسُوسَمْ، يَسُوسُمْ : سكت - يسكت

يَسْلَى، يَسَلّى : سمع - يسمع

وفي الأكّدية:

إكْشُدْ، إكَشّدْ : فتح - يفتح، وصل، يصل

إلْمَدْ، إلَمّدْ : تعلّم - يتعلّم

وفي الفصحى على سبيل المثال:

مَثَلَ، مَثُلَ، مِثْلٌ

طَرَقَ، طَرَّقَ، طُرُقٌ

3- ضمير الغائب :

تستعمل البربرية السين (س) ضميرا للغائب

باباس: أبوه يماس: أمه إرقازيس: زوجها، بعلها	س: ضمير المفرد الغائب مذكرا ومؤنثا

تافوناست تسن: بقرتهم اسغداسنت: استمع إليهن	سن، سنت: النون نون الجمع في المذكر والمؤنث والتاء للتأنيث

وهذا الضمير (س) موجود أيضا في المصرية[1].

المفرد الغائب

مذكر: سو sw

مؤنث: سي sy

الجمع الغائب مذكر ومؤنث: سن، زن (يبدوأن نطق السين SN يقرب عند البعض من نطق الزاي ZN .

مست. ف: ولادته

منتي. سي: فخذاها

حنع. سن: معهم، معهن

إوسن. م بر: هم في البيت، هن في البيت

1 - أنظر: قواعد اللغة المصرية في عصرها الذهبي؛ د. عبد المحسن بكير، بل تاريخ، ص 23 وما بعدها: فصل الضمائر؛ اللغة المصرية القديمة، د. عبد الحليم نور الدين، القاهرة، 2001، ص 39، وما بعدها: فصل الضمائر.

والملاحظ أن ضمير الجمع النون (ن) موجود في اللغتين : البربرية والمصرية. وضمير السين (س) موجود كذلك في اليمنية القديمة فهي تستعمل: سو، سا، ومازالت بعض اللهجات المتبقية منها في الوقت الحاضر تستعمل س، سي.

أمّا الأكّدية[1] فإنّها تستعمل بدل السين الشين (ش) وهما حرفان متقاربان ومتبادلان فأغلب الناس في تونس يقولون سمش بدل شمس

المفرد الغائب	مذكّر: شوŠÙ مؤنث: شي ŠÌ
الجمع الغائب	مذكر: شُنُ ŠUNU مؤنث: شِنَ ŠINA

بيلشُ : سيّده

بيلشَ : سيدها

بيلشُنُ : سيدهم

بيلشنُ : سيدهنَ

إدّنشُ : إعطاه

اشيرشُ : أرسله

ونلاحظ أيضا وجود نون الجمع في الأكّدية كما هوالحال في البربرية والمصرية وبهذا يتّضح لنا أن ضمير السين (س) من الضمائر القديمة في الواقع اللّغوي العربي القديم احتفظت به البربرية، وظلّت تستعمل حتّى الآن كما هوالحال في بعض اللّهجات اليمينية الحالية.

---

1 - أنظر اللغة الأكدية: البابلية، الآشورية، تاريخها وتدوينها وقواعدها، الدكتور عامر سليمان، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصول، 1991، 99.

4- النفي:

لكلّ اللغات العربية القديمة أدوات تدخل على الفعل، منها أدوات النفي. والبربرية لها أداة نفي هي "أرْ":

أر يمون : لم يوافق

أر يلمد : لم يتعلّم

أريديل : لم يغطّ

وكان البعض يرى أنّ أداة النفي هذه (أرْ) تختصّ بها البربرية وحدها ولا نظير لها في شقيقاتها العربيات. وهذا غير صحيح فالأكّدية تستعمل في النفي أداة متشابهة لها وهي "أل" كما في هذه الأمثلة:

أل إلمد: لم يتعلّم

أل إكشُد: لم يفتح، لم يصل

أل إبرُس: لم يقصّ

وما يبدو من اختلاف بين اللّغتين ليس بذي بال فالبربرية تبدّل اللام راء في الكثير من الكلمات، مثل

رثناين أصلها لثناين (يوم الاثنين)

أورا أصلها أولا (تعالَ)

ولهذا نظيره في الفصحى، فهناك قبائل عربية تستعمل الراء بدل اللام (بنو قيس) فتقول:

رعلّ، وجر، أوجرَ بدل لعلّ، وجل، أوجل

ويسمي علماء اللّغة هذه الظاهرة بالإبدال. وأسميها عندما تكون بين القبائل لا في قبيلة

واحدة "التغليب" أي بعض العشائر والقبائل تغلّب النطق بهذا العرف وتغلّب نظيرتها النطق بحرف آخر في الكلمة نفسها:

فبنونبهان من طي يقولون : دأني بدل دعني

وعشائر يمنية تقول : هنا بدل أنا

ومن الواضح أن الحرف الأكثر شيوعا هوالأصل، ولذا فإنّ اللام هنا هي الأصل لأنّها الأكثر شيوعا في أدوات النفي ولذا فإنّ "أُر" البربرية ما هي إلاّ "ألْ" في الأكّدية فهما من أرومة واحد ومن واقع لغوي مشترك.

5- جمع المذكر السالم:

جمع التكسير أقدم جمع مرتبط بنشأة اللّغة وتطوّرها. أما جمع المذكر السالم فلم يكن موجودا في الأول وظهر في مرحلة تالية من مراحل تطوّر اللّغة. وكان يستدلّ على هذا الجمع بما وجد له من السّمات بين الجموع. ولم يعرف بصيغته القياسية، وبكونه للمذكر العاقل إلاّ في الفصحى التي هي ثمره لتطوّر الواقع اللّغوي القديم الضخم والمتنوّع. والبربرية بحكم قدمها احتفظت بالصورة الأولية لظهور جمع المذكر السالم وهي في هذا شأنها شأن الأكّدية والمصرية والآرامية ومن الأمثلة على ذلك:

البربرية:

أرقاز، إرقازن: رجل - رجال

أغيلاس، إغيلاسن

النون علامة هذا الجمع

إيخف، إيخفاون : رأس، رؤوس

إيرم، إيرماون : نمر - نمور

الواووالنون علامتا هذا الجمع

ثِكّلْتْ ثِكّلْتين

ثِنْزِرَت ثِنْزَرين

الياء والنون علامتا هذا الجمع والبربرية هنا تشبه الآرامية

وفي الأكّدية :

نحصل على هذا الجمع بعد حذف التمييم (حرف الميم) من المفرد بإضافة واو في حالة الرفع وياء في حالتي النصب والجرّ:

شَرُم، شَرُّو، شَرِّي: ملك - ملوك

إقلُم، إقلُو، إقلِي : حقل - حقول

وفي المصرية :

تضاف الواو إلى المفرد كما في هذه الأمثلة :

سن، سنو : أخ، إخوة

نتر، نتر.و : إله - آلهة

حكا - حكا.و : حاكم - حكّام

وفي الآرامية :

تضاف إلى المفرد ياء ونون

ملك، ملكين : ملك - ملوك

شمس، شمسين : شمس، شموس

سين، سينين : قمر - أقمار

ونخلص من هذا إلى :

1. أنّ السمات اللّغوية لجمع المذكّر السّالم في العربية كانت موجودة من قبل.

2. تؤكّد هذه السمات الأصل المشترك القديم لكلّ من البربرية والأكّدية والمصرية والآرامية وكلّ الشقيقات.

6- الأسماء المبدوءة بالتاء والياء:

توجد في البربرية قسم كبير من الأسماء مبدوءة إمّا بالتاء وإمّا بالياء، وهو أمر لا تختصّ به البربرية وحدها وإنّما هو ظاهرة عامّة واسعة الانتشار في المشرق العربي، وهذه الظاهرة في تقديري مرتبطة بالتأنيث والتذكير وأن التاء والياء من الأدوات الأولى في التفريق بين الجنسين.

هذه الظاهرة تواصلت بالخصوص مع اليمنيّة والبربريّة وتلاشت في العربية. وما وجد منها فيها فهو قليل ومعظمه من قبيل الموروث. وهذا التلاشي ما هو إلاّ دليل على نهاية مرحلة في مجرى التطوّر اللّغوي العامّ ومن أمثلة هذه الظاهرة:

في البربرية:

تليلان، تاشفين، تطوان، ترعاسن، تكروان وجانب من هذه الأسماء مختوم بالتاء:

تاهرت، تاشلحيت، توات، تيارت، توشيت

يفرن، يرغش، يدر، يهراسن، يزناس

في المشرق:

تعز، تبوك، تغمر، تغلب، تدمر، يغوث، يزن، يعرب، يربوع، يشجب.

هذه الأدلّة اللّغوية كافية لإثبات النسب الشرقي للبربرية وأنّها شقيقة الأكّدية والآرامية واليمنية والمصرية وغيرها. والدليل اللّغوي هو سيّد الأدلّة وأكثرها حسما في هذا الموضوع وقد شبهوه بالاعتراف في ساحة القضاء، فإذا اعترف المتهم بما نسب إليه اُكْتفي بذلك واسْتُغني على كلّ الأدلّة وكذلك الدليل اللّغوي، فهو يكفي عن غيره من الأدلّة الأخرى لإثبات وحدة الأصل والأرومة المشتركة.

الدليل الاجتماعي

بالرغم من أن انتساب البربر إلى الشرق لم يعد محلّ شكّ ولا هو في حاجة إلى أدلّة إضافية أخرى، فإنّه من المفيد إبراز ما بينهم وبين الجماعات العربية قديمها وحديثها من التّشابه خاصّة في الناحية الاجتماعية ذات الأصول والتقاليد العريقة. وهذا ما سنحاول

التعرّف عليه بإيجاز فيما يلي:

1- المجتمع البربريّ مجتمع قبليّ عريق. وللقبيلة فيه مكانة خاصّة باعتبارها وحدة اجتماعية متميّزة. لها اسمها الذي يحمله كل المنتمين إليها، ولها تقاليدها وأعرافها التي يستند إليها في تحديد ما للفرد وما عليه من الحقوق والواجبات وكذلك في علاقتها بالآخرين وبمن حولها.

2- القبيلة البربرية تتكوّن من خلية أساسية هي الأسرة، وعمادها الأب الذي له عليها مطلق السلطة والنفوذ. وبما أنّها تقوم أساسا على الأقارب من الذكور، فإن الإرث وانتقال الأموال فيها من حق الأبناء الذكور. ولا يستثنى من النظام الأسري للبربر سوى مجموعة "الطوارق" التي نجد فيها أنّ الأمّ هي عماد الأسرة التي يكون فيها الولد "أكثر اندماجا مع أهل أمّه من اندماجه مع أهل أبيه"[1] والطوارق كما نعرف ينسبون إلى قبائل أمّهاتهم. وما هذه الظاهرة الاستثنائية المحدودة إلاّ من بقايا نظام الأمومة القديم الذي عرفته المنطقة العربية في عهود ما قبل التاريخ. وهوأمر ليس بذي أهمية بالنظر إلى كبر المجتمع البربري واعتماده على أسرة الأب.

3- إذا قارنا النظام القبلي للبربر بالنظم القبلية الأخرى فستجد أنّ هناك اختلافا بيّنا بينهم وبين الشعوب الأروبية. وهوما أقرّ به الباحثون الأروبيون أنفسهم في تناولهم لهذا الموضوع. منهم "الفرّدبل" في معرض حديثه عن الأسرة البربرية التي قال عنها: "ليست عائلة ménage كما هي الحال عند الغربيين المحدثين، بل هي جماعة من العائلات تتألّف من مجموع الأبناء والأحفاد مع زوجاتهم وأبنائهم تحت سلطة الأب أوالأخ الأكبر"[2] واستشهد في الغرض نفسه بما ذكره "قزال" الذي يرى أنّ عناصر القبيلة عند الهندو- أروبيين،

---

1 - القشاط، محمد سعيد، التوارق عرب الصحراء الكبرى، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، 1989، 99.

2 - بل، ألفرد، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، 1981، 53.

والغاليين والجرمان خصوصا "تتماسك في وحدة ترابية وسياسية وإدارية ودينية واقتصادية"[1] في حين نجد عند البربر أنّ "القبيلة ليست غير مجموعة من الجماعات التي تحرص كل الحرص على استقلالها ونزعتها الانفصالية وتنفصل بسهولة عن القبيلة ابتغاء الارتباط بقبيلة أخرى حين ترى في ذلك مصلحة لها"[2]

أمّا بالنسبة للجماعات العربية القديمة والحديثة فحالها حال البربية وأنّ التشابه بينهما في نظامها القبلي يكاد يكون تامّا في مختلف أنماط الحياة. ومن مظاهر التشابه التي تذكر في هذه المناسبة أن البربر ينتسبون مثل العرب تماما فيقولون "بنوكذا" و"بني كذا" وهوما سجله "اليعقوبي" في القرن الثالث الهجري حيث قال: "وبطون هوّارة تتناسب كما تتناسب العرب. فمنهم بنواللهان ومليلة وورسطفة. فبطون اللهان، بنودرصا وبنومزيان، وبنوورفلة، وبنومسراته"[3]

والأمر بطبيعة الحال لا تختصّ به هوّارة وحدها، وإنّما هوظاهرة شائعة في عموم البربر. ففي تاريخ أن خلدون أمثلة على هذا التناسب: بنوكهلان، بنوفاصلة، بنويطوفن، بنوماجر وهناك أيضا قائمة مهمة ذكرها صاحب "سبائك الذهب".

4- للبربر عادات متنوّعة مثلهم مثل غيرهم ويهمنا ذكر بعضها في هذا المجال:

- من عادات البربر التي ذكر ابن خلدون، أنّ "رؤوسهم في الغالب حاشرة وربما يتعاهدونها بالحلق"[4] وهذه العادة موجودة في سمان الجزيرة العربية، وقد لاحظنا ابن بطوطة في أهل مدينة "ظفار" حيث قال إن "أكثر أهلها رؤوسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمائم"[5] معتبرا ذلك وغيره من الأدلّة التي تقوي "القول بأنّ صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب

1- المرجع نفسه، 54.

2- المرجع نفسه، 54.

3- كتاب البلدان، طبع بالنجف، بلا تاريخ، 99.

4- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، الجزء السادس، 176.

5- رحلة ابن بطوطة، طباعة دار الكتاب اللبناني، بيروت، بل تاريخ، 174.

أصلهم من حمير[1].

- من عادة البربر أيضا أنهم يربّون "اللّحيّ الملسّنة" وهوما نجده عند العرب الذين بالغوا في تقديرها حتّى جعلوها رمز الرجولة واحترام الأفراد، وأنّ إهانتها من أسوأ الإهانات التي تنزل بأصحابها. وهذه العادة عرفت بها الجماعات القديمة، وهي من السنن التي تنسب إلى إبراهيم الخليل.

- كان البربر يختنون مثلهم مثل الجماعات العربية الأخرى وهي عادة متأصّلة فيهم وقديمة جدّا.

- كان البربر أيضا مثل الجماعات العربية لا يأكلون لحم الخنزير ولا يربّونه، وهوما لاحظه عليهم "هيرودوتس"[2] في القرن الخامس قبل الميلاد. وأول من مارس تربيته في المنطقة الرومان[3].

أسرة الأب ودلالتها على الهجرة

هذه المسألة تندرج بالأساس ضمن التكوين الاجتماعي للبربر إلاّ أنّني فصلتها لكي تكون مسألة مستقلّة في الدلالة على الهجرة.

من المعروف أن ظهور أسرة الأب في التاريخ الإنساني كان نتيجة لتحوّل ضخم حدث في العصر الحجري الحديث بالمشرق أدّى إلى الانتقال من نظام الأمومة إلى نظام الأبوّة. ومثل هذا التحوّل لم يحدث في شمال إفريقيا لافتقار عصره الحجري الحديث إلى العناصر المؤدّية إلى هذا التحوّل فنظام الأبوّة في البيئة التي ظهر فيها كان وليد معطيات جديدة وهي الاهتداء المبكر لتدجين الحيوانات وممارسة الزراعة. ممّا شكّل مع العوامل الأخرى انقلابا اقتصاديا - اجتماعيا وتطوّرا ثقافيّا ولغويّا ودينيّا لم يسبق له مثيل. مهّد لظهور ما سمّي بالحضارات

---

1 - المصدر نفسه، 174.

2 - نصوص ليبية نقلها الدكتور علي فهمي خشيم، 83، 85.

3 - ج. ديو، تونس، تعريب الصادق مازيغ، الدار التونسية للنشر، تونس، 1969، 66.

القديمة وما نجم عنه في مراحله الأولى تداعي الأشكال الاجتماعية البدائية السائدة القائمة على نظام الأمومة لينشأ بدلا عنها نظام اجتماعي جديد هونظام الأبوّة.

وشمال إفريقيا الخالي من الضأن والحبوب البرّيّة لم يعرف هذا التحوّل بالإضافة إلى أنّه كان ضعيفا بشريّا وثقافيّا لم يخرج عن نطاقه الحجري إلا بفضل العوامل الخارجية الشرقية أساسا.

وعلى هذا فإنّ النظام الأبويّ الذي عرفت به الجماعات البربرية في الوثائق المصرية منذ أواسط الألف الرابع قبل الميلاد، نظام وافد وأجنبيّ عن شمال إفريقيا وهذا دليل آخر يضاف في مساق التأكيد على أنّ البربرية هجرات بدون منازع.

الملامح اليمنية في الهجرات القديمة إلى شمال إفريقيا

من الصعب الحديث عن هجرات يمنية واضحة إلى شمال إفريقيا خلال الخمسة آلاف سنة السابقة للميلاد وبما أنها موجودة بكل تأكيد فلا بدّ من البحث عمّا يثبتها ويؤكّد وجودها. وهذا ما سنحوصله في الفقرات التالية:

1- فلاحة المدرجات وتقنيات جمع المياه:

لقد أكّدت المعارف العلمية المتعلّقة بأصول النبات ومراكز وجودها خلوإفريقيا بما في ذلك شمالها من حبوب القمح والشعير البرّية، وهوما فنّد تلك الآراء اللاّعلمية والتي تزعم أن شمال إفريقيا وقع فيه الاهتداء إلى الفلاحة بتطور داخليّ.

وإذا كانت الفلاحة، مثل الرّعي من المكتسبات الوافدة من المشرق، فهل وفدت مع الفينيقيين وحدهم أم أنّ هناك من الجماعات الشرقية من حملت معها الإنجاز الفلاحي وساهمت في نشره بالمنطقة ؟ هذه النقطة لم تبحث وقد غطّت عليها التوجّهات المغرضة. وما يهمّنا هنا هوالسعي إلى توضيحها على ضوء المعلومات المتوفّرة انطلاقا من وجود مظاهر تدلّ على تعاطي العمل الفلاحي والمتمثّلة في وجود سطوح مدرّجة على سفوح الجبال كما في الجنوب التونسي "وعدة مناطق بالأطلس الصحراوي وبالخصوص جنوب غربي المغرب

الأقصى وما زالت تلمح منه آثار على سفوح بعض الجبال بالظهرية وفي النادر صوب الشمال"[1] وهنا "طراز معماري واحد في شكل مربّعات هوالذي بقي إلى اليوم من الإنشاءات البدائية الخاصة بحفظ المياه"[2] ويقول "جيان" عن هذه المربّعات أنها "تؤرخ بفترة سابقة جدا على عصر الممالك الوطنية"[3] وظهور هذه الممالك حسب رأيه كان "على الأقل منذ أوائل القرن الرابع"[4] ومن المستبعد أن تكون من تأثيرات الفينيقيين لوجودها في أماكن نائية عنهم. وهوما يعني أن هذه المظاهر الفلاحية هي من عمل جماعات بربرية وفدت من المدخل الجنوبي عن طريق البرّ في زمن يحدد ببداية الألف الأول قبل الميلاد أوقبلها. وهوما يتوافق مع تحركات بشرية واسعة بالمشرق، منها اندفاع الهيكسوس إلى مصر والآراميين إلى الشام والأحباش من اليمن إلى شرق إفريقيا، ثم إن هذا الأسلوب في العمل الفلاحي أي فلاحة المدرجات والمصاطب وإنشاءات جمع المياه وبعض أساليب الرّي لم تكن معروفة في إفريقيا كلها قبل الميلاد، وإنّما كانت معروفة أساسا في الجزيرة العربية، وبالخصوص في جزئها الجنوبي. فقد اشتهرت بإنجازين عظيمين:

الأوّل: نظام الإرواء وهندسته الفريدة والذي كان يتمّ بواسطة السدود والآبار حيث تنقل المياه في قنوات من الخزف والطين، وهوشيء تميّزت به بلاد اليمن عن غيرها.

الثاني: إنشاء نظام المدرّجات الفلاحية التي اشتهرت بها هذه الجهة والذي يكاد يعمّ جبال اليمن كلّها وهوما جعل بعضهم يشبهها بـ"طيات عمائم يأخذ بعضها برقاب بعض"[5]

كل هذا يؤكّد في نهاية التحليل أنّ تلك المظاهر الفلاحية بالجنوب التونسي وبجنوب المغرب الأقصى وبالأطلس الصحراوي من عمل جماعة وفدت من الجزيرة العربية ومن

---

1 - ديبو، تونس، 66، 67.

2 جيان جيزانج، البربر الأصليون، 443.

3 - المرجع السابق، 443.

4 - المرجع السابق، 445.

5 - آفاق عربية، عدد 2، بغداد، 1987، 88.

اليمن على وجه الخصوص.

2- التشابه في فنّ العمارة :

التشابه بين البربر والجماعات العربية القديمة والحديثة ليس محدودا في مواضع معينة وإنّما هوذوطابع شمولي حتى أننا نجده في فن العمارة. فقد أكّد بعض الباحثين عن التشابه بين بناءات بربرية وما في اليمن من فنّ معماريّ.

وهاهو "هانس هلفرتس Hans Helfritz" الرحالة الألماني يقول في هذا الموضوع : "ومن اللاّفت للنظر أن توجد في مرتفعات الأطلس منطقة البربر الرئيسية بناءات مرتفعة تشبه تماما مثيلاتها في العربية الجنوبية ذات سمات معمارية واحدة"[1].

3- الموسيقى الشعبيّة :

اهتمّ الباحثون الأجانب بالمقارنة بين الموسيقى الشعبية في اليمن والموسيقى الشعبية في شمال إفريقيا، وكانت النتيجة مدهشة وغير متوقّعة فقد أثبتت هذه المقارنة وجود تشابه حقيقي وقويّ بين الموسيقى الشعبية اليمنة والموسيقى الشعبية البربرية.

فقد قام الدكتور "روبرت لخمان Robert achmann" المختصّ في الموسيقى الشرقية وعلم الموسيقى المقارن، بدراسة الموسيقى البربرية في كل من الجزائر والمغرب فحلّلها ورقّمها (نوّتها) وبذلك تمكّن الدارسين من الإطلاع عليها.

كما قام البحّاثة والرحّالة الألماني "هانس هلفرتس Hans Helfritz" الملحّن والمختصّ هوالآخر في علم الموسيقى بتسجيل مجموعة من الأغاني والألحان الشعبية اليمنية (قيل 100 لحن) إلى جانب تسجيله لانطباعاته عن المنطقة وما لاحظه عن تاريخها وحضارتها. ووضع

---

1 - الفن والثقافات الصحراوية لفترة ما قبل التاريخ ... Prehistoric saharan art and cultures in the light discoveres in the acacus massif الوارد في "ليبيا في التاريخ" المصدر المذكور سابقا ص 24

عمله هذا في كتاب بعنوان: رحلة اكتشاف في العربية الجنوبية: Entdek ungsreisen in Süd Arabien ثم قام أيضا بجمع عمل "لخمان" في الموسيقى البربرية وبوّبه واستفاد منه وقال منوّها بصاحبه: "والعجيب أن يستطيع كلّ من "هور نبوستل E.M.Von Hornbostel والدكتور روبرت لخمان Robert achmann إثبات التّشابه في كيفيّة الأداء بين أغاني المرتفعات (يقصد هنا مرتفعات بلاد اليمن) والموسيقى البربرية التي سجّلها لخمان في القبائل بشمال إفريقيا"[1].

وأدرك "هلفرتس" أن هذا التشابه لم يحدث اتفاقا فقال: "ومثل هذا التشابه على المرء افتراض وجود علاقة حميمة ما بين البربر والعرب الجنوبيين. فالسمات التي بدت لي في الموسيقى العربية اليمنية موجودة بعينها في الموسيقى البربرية. ثم إن هذه العلاقة الحميمة تظهر بصورة واضحة في طريقة أداء الأغاني، فخصوصية تركيب الألحان وتشابهها، بل قل تساوي هذه الألحان تساويا مطلقا يؤكّد هذا الانطباع من جديد"[2] ولإثبات هذا التشابه قدّم "هلفرتس" نماذج تعتمد على المقارنة بالترقيم الموسيقي ننتخب منها النموذجين التاليين:

النموذج الأول:

يشتمل على ترقيمين موسيقيين لقطعتين الأولى (A) وهي عبارة عن أغنية بدوية سمعها (هلفرتس) في قبيلة بني إسماعيل بجبال حراز باليمن فسجلها ورقّمها. والثانية (B) سمعها (لخمان) في القبائل بالجزائر فسجلها ورقّمها.

النموذج الثاني:

يشتمل هوأيضا على ترقيمين موسيقيين لقطعتين الأولى (A) وهي أغنية بدوية سمعها (هلفرتس) في قبيلة بني مطير بجبل حراز باليمن فسجلها ورقّمها والثانية (B) وهي ترنيمة حجيج سمعها (لخمان) في القبائل بالجزائر فسجلها ورقّمها.

---

1 - المرجع نفسه، 113.

2 - المرجع نفسه، 113.

هذا التشابه في الموسيقى الشعبية هوجزء، في الحقيقية، من تشابه أوسع في مجال الفنون الشعبية. فما شاهدنا، في مناسبات عديدة من مظاهر الرقص وطرق الغناء في اليمن وسلطنة عُمان وغيرهما عبر القنوات التلفزية يشبه في الكثير من عناصره ما هوموجود في مناطق كثيرة بالمغرب العربي (الصحراء، جنوب المغرب، المناطق الداخلية...) من حيث الانتظام في الصفوف وتحريك الرأس والأكتاف والتنقل والميل بالشعر من اليمين إلى اليسار عند النساء.

وهكذا نلاحظ أن التشابه بين اليمن والقبايل بالجزائر في الموسيقى الشعبية ما هوإلاّ جانب من التشابه العام بين العرب والبربر والتشابه الموسيقي كاللغة من حيث قوّة الحجة في التدليل على وحدة الأصل، والموسيقى في سياق النظرة الشاملة تعدّ شكلا من أشكال الروابط الثقافية التاريخية التي تظلّ في بعض الأحوال ماثلة حقبا طويلة. ومن خلالها يستطيع الباحثون تتبع الهجرات وتنقّل الجماعات البشرية وإثبات ما بينها من صلات.

كذلك فإن التشابه الموسيقي بين اليمن والقبائل يؤكّد وجود الثقافة السبئية – الحمرية بشمال إفريقيا.

4- صيغة أَفْعُول:

عرفت صيغة "أفعول" بفتح الهمزة في اللهجات اليمنية القديمة. وهذا ما أكّده "الحسن الهمداني" في قوله: "وكثير من قبائل حمير تأتي على الأَفْعول: الأيفوع، والأيزون، والأرسون، والأحروث"[1].

هذه الصيغة لا توجد في العربية وإنّما توجد بدلها صيغة "أُفعول" أو"أُفعولة" بضمّ الهمزة مثل أُسلوب، أُملود، أُعجوبة، أُلعوبة.

وصيغة "أَفعول" منتشرة بكثرة ي جنوب الجزيرة العربية ومستعملة في أسماء الأعلام والقبائل والأماكن مثل:

1- كتاب الإكليل، الجزء الثاني، حققه وعلق عليه محمد بن علي الأكرع الحوالي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1967، 449.

أبيود : اسم شخص

أبقور: قبيلة من سحر

أخرُوج : جبل باليمن

أدروب : وادٍ

وإذا ما انتقلنا إلى البربرية فسنجد بها أسماء كثيرة بهذه الصيغة كما في هذه الأمثلة :

أزكور : اسم جماعة في (عمالة مراكش)

أغْروس: فخذ بالريف

أيْفود : جماعة بدائرة اليوسفية من إقليم "إسفي"

أغْيول : الحمار

أزْلوم : الحزام

أغْروم : الرغيف

أزمور : اسم مدينة بساحل المحيط الأطلسي

أمْلوسة : جماعة بإقليم تطوان

أنكومة : اسم مكان

أمْكونة : قلعة بإقليم ورزازات

هذه الصيغة، صيغة "أفْعُول" الموجودة بكثرة في المنطقتين، جنوب الجزيرة العربية وشمال إفريقيا وكذلك الحبشة لا يمكن أن ندّعي أن وجودها في البربرية كان اتفاقا ومن باب الصدفة، فهي دليل قويّ آخر على النسب الشرقي للبربر وعلى وجود جماعات يمنية ضمن الهجرات القديمة.

5- قبائل بربرية تنسب نفسها إلى اليمن :

هناك قبائل بربرية عديدة لديها اعتقاد بأنّها من أصول عربية شرقية. ومنها من تنسب نفسها، على وجه الخصوص إلى اليمن. فضلا عمّا يقوله النسّابون في شأنها من أنّها يمنية. من هذه القبائل على سبيل المثال :

- صنهاجة: وهي من القبائل البربرية العتيدة، تؤمن بأنّها عربية من حمير وهذا أحد قادتها أبوالفتح المنصور الذي تولّى الإمارة في القيروان سنة 374 (983) قال عن نفسه وأجداده في الخطاب الذي توجّه به إلى الحاضرين: "إنّ أبي وجدّي أخذا الناس بالسيف قهرا، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان وما أنا في هذا الملك ممّن يولّى بكتاب أويعزل بكتاب، لأنّي ورثته عن أبائي. وأجدادي وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير"[1].

- هوّارة: تقول هي الأخرى أنّها من عرب اليمن من "عاملة"[2] و"بنوعاملة" هؤلاء أخوة للخم وجذام من بطون كهلان القحطانية. ويقول ابن عبد البرّ "وهوّارة أنّهم من عاملة وأنّهم انتقلوا من الشام"[3] ثم يذكر القلقشندي أن منازلها كانت "بالديار المصرية وبالبحيرة، من الإسكندرية غربا إلى العقبة الكبيرة من برقة"[4] أمّا ابن خلدون فذكر أن مواطن أغلبية هوّارة كانت في بداية الفتح ما بين طرابلس وبرقة[5] وبمرور الوقت فارق بعضهم في فترة لاحقة هذا الموطن متوغّلين في الصحراء في اتّجاه الغرب.

وما اسم "الهقّار"[6] بالجنوب الجزائري إلا دليل على ذلك. وتدلّ مواطن انتشارها وتنقلها من الغرب إلى الشرق أنّها شرقية وهوما يؤكّد انتسابها إلى اليمن.

- بنوزويلة: ينقل عبد البرّ عنها أنّها تنسب نفسها إلى جرهم، والمقصود بجرهم هذه،

---

1 - ابن عذاري، المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان، وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، 1982، 240؛ ابن الأثير، الكامل، الجزء السابع، 121.

2 - ابن عبد البر، القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم، مكتبة القدسي، القاهرة، 1350 هـ، 25.

3 - المصدر نفسه، 25.

4 نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1959، 441.

5 - كتاب العبر، الجزء السادس، 286.

6 - هوارة تحولت إلى "هكارة" فيقول ابن خلدون "قلبت العجمة واوه كافا أعجمية بين الكاف العربية والقاف" المصدر نفسه، الجزء الثاني، 286.

جرهم القحطانية لا جرهم البائدة، والمعلومات عن هذه القبيلة قليلة ولم يقع تصنيفها لا في فرع البرانس ولا في فرع البتر. ويذكر ابن خلدون أنها انتقلت إلى فزّان واستوطنتها[1]

وهكذا يتأكّد لنا، بما لا يدع مجالا للشكّ وجود العناصر اليمنية ضمن الهجرات القديمة.

6- موقف نسّابي البربر:

في نهاية هذه الدراسة وبعد معالجة قضية الهجرة إلى شمال إفريقيا بالاعتماد على جملة من المعارف العلمية التي تثبت هذه الهجرة وتقطع بوجودها، لا بدّ من التعرّف على موقف نسّابي البربر[2] لأهميته في هذه الناحية، وأهمّية الراوية الشفوية باعتبارها مصدرا من مصادر المعرفة التاريخية خاصة إذا وضعت في إطار ما وفّرته المصادر الأخرى من أثرية ووثائق مكتوبة وعلوم لغوية وكل ما يتعلّق بالنظم والتقاليد والأعراف وغير ذلك. فماذا يقول نسّابوالبربر في أصل البربر ؟

- النسّابة البربري أيوب بن أبي يزيد مخلد بن كيداد الملقّب بصاحب الحمار الخارجيّ الإبَاضي يقول إن البربر بفرعيهما: البرانس والبتر من أب واحد ومن نسل كنعان بن حام بن نوح

- جميع نسّابي البربر الآخرين مثل هاني بن بكور الضّريسي وسابق بن سليمان المطماطي وكهلان بن أبي لوا، وهاني بن مسرور والكومي وسالم بن سليم المطماطي وغيرهم يقولون إنّ فرع البرانس فقط من نسل كنعان بن حام بن نوح. أمّا فرع البتر فهومن الفرع المضري العدناني ويبدوأن أيوب بن يزيد يرى هذا الرأي حسب ما ذكره ابن خلدون[3] وهذا يعني أنّ هناك إجماعا أوما يشبه الإجماع بين نسّابي البربر على اختلاف أجيالهم وطبقاتهم على انتساب قسم من البربر إلى الفرع المضري - العدناني. ولا يمكن بأيّ حال أن يكون كل ما قاله نسّابوالبربر وغيرهم من علماء الأنساب عن الأصول الشرقية للبربر

---

1 المصدر نفسه، الجزء السادس، 291.

3- ابن خلدون، العبر، الجزء الأول، 177.

خاطئ خاصة في القضايا العامة التي تعدّ من معتقدات المجموعة ومن معارفهم الشائعة.

7- البربر عرب قدامى :

إن البربر هجرات شرقية بكل تأكيد وأنهم من الأجيال العربية القديمة انتقلت إلى المغرب على مراحل ، وعلى عكس الأجناس الأخرى اندمجوا بالعرب ونسجوا معهم في سياق التطوّر العامّ التكوين الجديد للأمة العربية وبهذا توفّرت الإمكانيات العريضة من بشرية وجغرافية لمواجهة المتطلّبات الجديدة في عصر العولمة وما جدّ فيه من تحوّل في الصيرورة العامّة للجماعات الإنسانية وهذا التحوّل على خلاف العهود القديمة يتطلّب كيانات بديلة ، كيانات كبيرة ملائمة له ومحققة للتمركزات الاقتصادية الكبرى والتطوّرات العلمية والتقنية الحديثة. فعهد الدول الصغيرة قد ولّى وأنّه لا سبيل لإثبات الذات والتقدّم الحقيقيّ بدون الكتلة الكبيرة. وها هي الهجرات من أقدم أطوارها وعبر مراحل تاريخية متنوعة هيّأت لنا الأرضية المناسبة لبناء الكتلة الكبيرة والإسهام مع الآخرين في بناء العالم الجديد.



المحور الثالث

الهجرات اليمانية والتحركات البشرية بعد ظهور الإسلام



الهجرات العربية إلى شرق أفريقيا
ودورها في نشر الإسلام والعروبة

د. علي حسن الشطشاط

أولاً: دور العرب في كشف القارة الأفريقية

إن العلاقات بين العرب والأفارقة قديمة جداً، فقد كانت الصلة بين سكان شبه الجزيرة العربية وأفريقيا، ميسورة وسهلة عن طريق مضيق باب المندب، وشبه جزيرة سيناء، وكانت سواحل المحيط الهندي الأفريقية، والعربية تمثل نقاط تواصل مهمة بين المنطقتين، وفي المحيط الهندي أستغلت السفن العربية الرياح الموسمية لتسهيل رحلاتها، بينما كانت سفن الصحراء الإبل، وسيلة التواصل البري عبر سيناء، حتى سواحل المحيط الأطلسي[1].

أ - جهود العرب فيما يتعلق بالساحل الشرقي للقارة:

لعب العامل الجغرافي دوراً مهماً في كشف العرب للساحل الشرقي لأفريقيا، فمن حيث الموقع نرى أن شبه الجزيرة العربية قريبة جداً من أفريقيا، لا يفصلها إلا البحر الأحمر والمحيط الهندي، وعلى الرغم من ذلك فإن حب العرب للمغامرة، وركوب البحر دفعهم إلى اكتشاف الأراضي المجهولة لديهم، وقد ساعدهم على ذلك العامل الجغرافي، إذ كانت الرياح الموسمية تدفع سفنهم، لتصل بهم إلى الساحل الشرقي، وبعد شهور قليلة تبينوا أن اتجاه الرياح قد تغير، فتدفعهم عائدين إلى بلادهم، فهذه الرياح هي التي سهلت على العرب الوصول إلى ساحل شرق أفريقيا[2].ومن ثم أصبح للبحّارة العرب الأوائل الخبرة في معرفة مواقيت الرياح، وأصبحت رحلاتهم من شبه الجزيرة العربية إلى الساحل الشرقي

1- حسن، يوسف فضل: الجذور التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، أعمال ندوة العرب وأفريقيا التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع منتدى الفكر العربي (بيروت: 1984) ص27.

2- ترمنجهام، سبنسر: الإسلام في شرق أفريقيا (القاهرة: 1973)، ص8.

لأفريقيا ميسرة، ولم يكونوا يسعون وراء شيء محدد سوى المغامرة واكتشاف المجهول، ومعرفة المدى الذي يمكن أن تذهب إليه سفنهم في المحيط[1].فلما وصلوا وجدوا أشياء لفتت أنظارهم مثل العاج، فحملوه معهم وعادوا في العام اللاّحق لجلب المزيد منه، حاملين معهم بضائع من بلادهم لمبادلتها، وهكذا نشأت الرحلات التجارية المنتظمة إلى ساحل شرق أفريقيا[2].

وتعد العلاقة بين العرب والأفارقة قديمة جداً، نتيجة الرحلات التجارية التي يقوم بها العرب، فكانوا يجلبون الرقيق من بلاد الزنج إلى الجزيرة العربية، وكان الأحباش أكثر من وفدوا من الساحل الأفريقي وذلك عن طريق الرق[3]. وتتابعت الهجرات العربية إلى الساحل، فقد هاجرت القبائل العربية القاطنة في اليمن والحجاز وحضرموت إلى أفريقيا، وكانت هي أول القبائل المهاجرة إلى أفريقيا[4].

ب- الهجرات العربية إلى الساحل الشرقي والطرق التي سلكتها تلك الهجرات:

كانت الطرق التي سلكها العرب المسلمون إلى القارة الأفريقية، هي الطرق نفسها التي سار عليها أجدادهم من قبل؛ من أجل التجارة أوالهجرة. وأدى هذا التطور العظيم في حياة العرب إلى حدوث نقلة نوعية في تاريخ العلاقات الثقافية بين العرب والأفارقة؛ ففوق دعائم التعامل التجاري والهجرات البشرية، قام بدور إيجابي في نشر العقيدة الإسلامية، وبسط نفوذها السياسي في أفريقيا[5].

1- العمري، أحمد سويلم: الأفريقيون والعرب (القاهرة: 1967) ص113. كذلك الجمل، شوقي: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها (القاهرة: 1971) ص225.

2- ترمنجهام: المرجع السابق، ص 9.

3- أرنولد، توماس: الدعوة الإسلامية، ترجمة حسن إبراهيم حسن، (القاهرة: 1971)، ص 126.

4- ترمنجهام: المرجع السابق، ص10.

5- يوسف، حسن: الجذور التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص28. وأبوبكر، علي الشيخ أحمد: الدعوة الإسلامية المعاصرة في القرن الأفريقي (الرياض: دون تاريخ) ص211.

لقد لعبت الهجرة الإسلامية إلى داخل أفريقية دوراً كبيراً مهماً في نشر الإسلام، في هذه المناطق منذ بداية الدعوة لهذا الدّين التي أخذ سيدنا محمد ﷺ يبثها بين مشركي قريش في مكة، وقد تعرض هووأصحابه إلى الاضطهاد والشدة والإهانة البالغة، فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هوفيه من الله - عز وجل- ورعاية عمه أبي طالب. وأنه لا يقدر على أن يمنعهم (قال: "لوخرجتم إلى أرض الحبشة، فإن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه". فخرج المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم)[1].

وروى الواقدي أن خروجهم إليها كان في رجب سنة خمس من البعثة، وأن أول من هاجر منهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وأنهم انتهوا إلى البحر ما بين ماشٍ وراكب، فاستأجروا سفينة بنصف دينار للحبشة، وهم عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله (ص) وأبوحذيفة بن عتبة وامرأته سهلة بنت سهيل، والزبيربن العوام، ومصعب بن عمير، وعبدالرحمن بن عوف، وغيرهم، فكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة[2]. وكان اختيار الرسول الكريم (ص) للحبشة دون غيرها لأنها من أقرب البلاد المسيحية التي يربطها بالعرب تاريخ مشترك، ويحكمها ملك مسيحي؛ لذلك فإنه وإلى جانب قربها، إذ كان السفر إليها أهون من اختراق الجزيرة شمالاً أوجنوباً عبر قبائل معادية[3]، فقد كان يعرف عن ملكها العدل والتسامح[4].

واستمرت الهجرة إلى الحبشة، وتتابع المسلمون إليها في الهجرة الثانية، وكان فيها جعفر بن أبي طالب، ومنهم من خرج بأهله معهم، ومنهم من خرج بنفسه، فكان من لحق بأرض الحبشة ثلاثة وثمانون رجلاً عدا زوجاتهم وأبنائهم، وتطورت الهجرة حتى بلغت ما

1- ابن الأثير، أبو الحسن علي: الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي (بيروت، 1980) 51/2، 52.

2- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء: البداية والنهاية، دار الغد العربي (القاهرة: 1991) 80/2، 81.

3- الفيتوري، عطية مخزوم: دراسات في تاريخ شرق وجنوب الصحراء، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي: 1998) ص199.

4- حسن، حسن إبراهيم: انتشار الإسلام في القارة الأفريقية (القاهرة، 1963) 75/1.

يقارب ستمائة مسلم، وهؤلاء المهاجرون لم يهاجروا جميعاً من مكة، بل إن فوجاً منهم قد هاجر من اليمن برئاسة أبي موسى الأشعري، وقد قدر عددهم ببضع وخمسين رجلاً[1].

أقام هؤلاء المهاجرون في البلاط الأكسومي فترة قصيرة قدرت بشهرين أوتزيد قليلاً، ثم أرسل النجاشي وفداً سياسياً إلى الرسول ﷺ بمكة ليتثبت من حقيقة هؤلاء، ويقال إن الوفد الحبشي قد أسلم، ويُعدّ هذا أول تأثير مباشر لحركة الهجرة في نشر الإسلام، وعندما تأكد النجاشي عن طريق معلومات هذا الوفد من صحة الأخبار عن النبي، سمح للمسلمين بالهجرة إلى بلاده، فأذن النبي ﷺ للمسلمين بالهجرة بعد أن اطمأن إلى حماية النجاشي لهم، فتدفقت الهجرة الإسلامية إلى الحبشة، حيث كانت تسير أقدام العرب منذ زمن بعيد، وحيث استقر بها إخوان لهم من قبل يشتغلون بالتجارة، ولم يمنع الإسلام من اعتنقوه من تجار العرب، من مزاولة حرفهم الأولى. فالهجرة إلى الحبشة، والعلاقات التجارية التي كانت قائمة قبل الإسلام استمرت بعده، وحمل المهاجرون والتجار الجدد إسلامهم، ومن ثم أخذ الإسلام يظهر وينتشر في الحبشة، ويتغلغل في المناطق القريبة لها حيثما سار التجار[2].

وتعاقبت بعد ذلك مجموعة من الأحداث على الدولة الإسلامية، ساعدت على الهجرة إلى القارة الأفريقية، منها حروب الردة التي حدثت بعد وفاة الرسول ﷺ إذ يقول ابن الأثير في ذلك: "لما مات النبي ﷺ وسيّر أبوبكر جيش أسامة، ارتدت العرب وتضرّمت الأرضُ ناراً، وارتدت كل قبيلة عامة أوخاصة إلا قريشاً وثقيفاً"[3]. وكذلك الفتنة الكبرى التي حدثت في عهد عثمان بن عفان ﷺ (23- 35هـ/644- 656م) وما تلتها من موقعة الجمل سنة (36هـ/656م) وظهور الخوارج، واضطهاد أهل البيت على أيام الدولتين الأموية والعباسية، كل ذلك دفع الأطراف المغلوبة سياسياً، وعكسرياً إلى طلب الهجرة إلى الحبشة التي كانت بعيدة عن متناول السلطة الأموية، وقد تركزت هذه الهجرة عقب موقعة كربلاء

1- ابن كثير، المصدر السابق، 83/2.

2- عطية القيتوري، المرجع السابق، ص120.

3- ابن الأثير، الكامل، 231/12.

سنة (61هـ/680م) التي قُتل فيها الحسين بن علي بن أبي طالب(ر)[1].

وعلى أثر هذه الأحداث فرّ زعيم العلويين الإمام زيد بن الحسن بن علي، ومعه أنصاره، فقصدت جماعة منهم شواطئ شرق أفريقيا، وقد سموا (إموزيديج) ثم وسعوا من رقعة أراضيهم بها بفضل ما كان يتوالى عليهم من المهاجرين من شبه الجزيرة[2]، ثم توالت الأحداث التي تمثلت في خروج الحجاز على الدولة، وقد أمد المسلمون القاطنون على الساحل الغربي للبحر الأحمر، عبدالله بن الزبير، بما يلزمه من مؤن وسلاح حتى استطاع الصمود أمام الدولة الأموية.

وحين اشتد النزاع بين أحزاب المسلمين، كانت بعض الأحزاب المغلوبة على أمرها تهاجر إلى شرق أفريقيا، وتتخذ هذه الجهات موطناً لها[3]. ففي أثناء حكم الخليفة عبدالملك بن مروان سنة (65- 85هـ/685- 705م) هاجرت أعداد كبيرة إلى السواحل الشرقية، حيث وجدوا كل المساعدة من قبل أبناء الهجرات العربية القديمة التي استقرت منذ وقت طويل، مما زاد في تنامي المراكز التجارية، وكان تأسيس المدن العربية التي استقر بها العرب، من قبل، دافعاً لمزيد من الهجرات للقارة الأفريقية[4]. وعندما استولى العباسيون على مقاليد الحكم في الدولة الإسلامية، هاجر كثير من الأمويين وأتباعهم إلى الساحل الشرقي الأفريقي عن طريق المحيط الهندي والبحر الأحمر[5].

ومن أهم الهجرات العربية في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي هجرة الأخوة

1- الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك (القاهرة: 1965) 6/269- 271.

2- سير توماس آرنولد: الدعوة الإسلامية، ص378.

3- الجمل، شوقي: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها (القاهرة، 1971) ص38.

4- قاسم، جمال زكريا: الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة، 1975) ص291.

5- زكي، عبدالرحمن: الإسلام والحضارة العربية في شرق أفريقيا، المجلة التاريخية المصرية، العدد الواحد والعشرين (القاهرة، 1974) ص38.

السبعة من قبيلة الحارث العربية، فقد هبط هؤلاء على الساحل الشرقي لأفريقيا عند شاطئ بنادر، وامتد نفوذهم حتى جنوبي ممبسة[1]، ولقد اصطدم المهاجرون الجدد في ساحل بنادر بمن سبقوهم من المجموعات الزيدية، نفضلوا التوغل إلى الداخل حيث اختلطوا بالأهالي الأفارقة[2]، ويرجع إليهم الفضل في تأسيس مدينتي مقديشيووبراوة[3]. وفي أيام الفاطميين في القرن الرابع الهجري/الحادي عشر الميلادي جاءت هجرات عربية أخرى من صعيد مصر، وهي قبائل بني هلال وبني سليم وغيرها، في أعداد كبيرة، وتصاهروا معهم واختلطت دماؤهم وأنسابهم وامتزجت، وعمروا السهول والواحات وأعالي الجبال وبطون الصحراء. ثم جاءت هجرات العرب الهاربين من مذابح الصليبيين في أوربا، أيام انهيار دولة المسلمين في الأندلس، ونزوح الكثير منهم إلى أفريقية[4].

أما في غرب أفريقيا، فقد لعبت حركة الهجرة دوراً بارزاً في نشر الإسلام في مناطق جنوب الصحراء، وقد تمركزت هذه الهجرات حول بحيرة تشاد والنيجر ثم مالي والسنغال وغيرها، وعندما اضمحلت دولة مالي، وغيرها من الإمارات الإسلامية، في منتصف القرن السادس عشر، حمل لواء الدعوة إلى الإسلام قبائل أفريقية مثل الفولاني والبوهمان[5]، والماندنجوالذين صاروا يعدون من أكثر شعوب غرب أفريقية تمسكاً بالإسلام، ودعوا إليه وازداد انتشاره فيهم، حتى أصبح دين الدولة كلها[6]. وقد هاجرت هذه القبائل نحوالشرق إلى نيجريا وتشاد وجنوباً إلى غينيا وتمركز نشاط هذه الجماعات في إنشاء دور التعليم وإنشاء

1- قاسم، جمال زكريا: استقرار العرب في شرق أفريقيا، مجلة كلية الآداب، جامعة عين شمس، العدد العاشر (القاهرة، 1967) ص293.

2- عبدالرحمن زكي: المصدر السابق، ص39.

3- المسعودي، أبو الحسن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس (بيروت، 1984) 98/1.

4- عبدالظاهر، حسن عيسى: الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني في مطلع القرن الثاني عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي دار الهلال (الرياض، 1981) ص41- 42.

5- عطية الفيتوري: المصدر السابق، ص124.

6- حسن عبدالظاهر: المصدر السابق، ص102.

المدارس بغية نشر التعليم الديني، وتمكنت القبائل المهاجرة إلى غينيا من تأسيس دولة إسلامية على مبدأ الشورى، استمرت حتى مطلع القرن التاسع عشر[1].

لقد كانت كل هذه الهجرات وغيرها مورداً لا ينضب معينه من الدماء التي تسري في شرايين حركة انتشار الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء، حيث أسهمت إسهاماً فعالاً، مع غيرها من المسالك، في إرساء دعائم هذه الحركة ونجاحها في فترة وجيزة من عمر الزمن[2]. وهكذا تدفقت الهجرات العربية عبر القرون إلى أفريقية، وبوجه خاص إلى الشمال والشرق، وكان لها أثر كبير في نشر الإسلام، بل امتد أثر هذه الهجرات إلى الجنس واللغة، وأصبحت مناطق الشمال، وكثير من مناطق الشرق عربية الدم واللسان.

وهناك حقيقة نلفت النظر إليها، هي أن فيض المهاجرين العرب كان وفيراً في الشمال والشرق. فتعربت بلاد الشمال والسودان الغربي، أما المهاجرون العرب إلى الأماكن الأخرى جنوب الصحراء، فكانوا قلة نسبياً، وانتشر الإسلام بهذه الأماكن الأخرى عن طريق التجار والبربر والطرق الصوفية[3].

ج) المسالك التي سلكتها القبائل العربية للوصول إلى أفريقيا:

لقد سلكت القبائل العربية طريقها لأفريقيا مهاجرة عبر المنافذ الآتية:

1- باب المندب: يعد من أهم الطرق الحيوية الذي يمثل تيار هجرة بشرية منذ أقدم العصور، حيث انتشر سكان شبه الجزيرة العربية مثل العمانيون واليمن والحضارمة إلى السواحل الشرقية ثم اتجهوا شمالاً حيث استقرت منهم جماعات في الحبشة والسودان، وبعضهم اتجه صوب الغرب[4].

1- عطية الفيتوري: المصدر السابق، ص124.

2- المصدر نفسه، ص124.

3- شلبي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء أفريقية منذ دخلها الإسلام حتى الآن) مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1983) 188/6.

4- الغنيمي، عبدالفتاح مقلد: حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا (القاهرة: بدون تاريخ) ص12.

وفي سبيل تأمين المعبر التجاري غزت الحبشة بلاد اليمن والسواحل الشمالية الغربية للصومال قبل الإسلام فلا عجب بأن نجد الهجرات العربية تأتي من هذا الطريق إلى سواحل شرق أفريقيا بعد سيادة الإسلام في شبه الجزيرة العربية في صورة تبادل تجاري أودعاة لنشر الدعوة الإسلامية وأن يؤسسوا بيوتاً تجارية مزدهرة في المدن الساحلية مثل زيلع ومقديشوومبسا ولامودكلوة وسفالا وكذلك هاجرت عن طريق هذا المعبر جماعة عربية من بني مخزوم في عهد الخليفة عمر بن الخطاب إلى زيلع[1].

2- طريق البحر الأحمر: للبحر الأحمر دور هام في ربط القارة الأفريقية بشبه الجزيرة العربية، فقد خرجت الهجرات العربية الهائلة من شبه الجزيرة العربية عابرة ذلك البحر إلى السواحل الأفريقية وكان إقليم الحجاز منذ أقدم العصور على صلة قوية بالشاطئ الأفريقي المقابل قبل ظهور الإسلام بفترة طويلة، ولكن مع ظهور الإسلام "الهجرة الإسلامية إلى الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة" وانتشاره في النطاق الرعوي الأفريقي، ظهرت أهمية هذا الجزء الأوسط من البحر الأحمر كمعبر قريب من الحجاز وخاصة بعد أن خضعت بلاد الشام لسيطرة الصليبين، ومن هنا كان وجود الموانئ الأفريقية على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر[2].

3- طريق خليج عدن:

ويعتبر هذا الطريق أقوى أثراً من الأول لقرب الشاطئ للخليج، كما يُعد سكان مدينة عدن أكثر شعوب الجزيرة العربية اتصالاً بشرق أفريقيا، وكما يبدوأن العرب كانوا قد تعودوا أن يلاقوا في هذه السواحل ترحيباً ويجدون أن سكانها موضع ثقتهم كما وجدوا فيها فرصة كثيرة لكسب الرزق وهم يمثلون في نفس الوقت الداعية الإسلامية أوالمسلم الذي يبشر بالدعوة الإسلامية وازدادت أهمية هذا المسلك منذ القرن الحادي عشر بصورة واضحة عندما بدأت مهارة أهل عمان في صناعة السفن التجارية وقاموا بنقل منتوجات شرق أفريقيا إلى

1- الفاسي، محمد وإيفان هربك: تاريخ أفريقيا العام (اليونسكو، 1988) 127/126/3.

2- الغنيمي: حركة المد الإسلامي، ص13.

المراكز التجارية في جنوب الجزيرة العربية والشواطئ الهندية منافسين في ذلك السفن الهندية[1].

4- برزخ السويس وشبه جزيرة سيناء: لا يقل هذا المنفذ أهمية عن المنافذ السابقة، فقد كان هذا الطريق معبراً وممهداً للهجرات العربية الدخول إلى القارة الأفريقية، فكان هذا الطريق المدخل الرئيسي للهجرات إلى أفريقيا عن طريق البر[2].

وعلى هذا فإنه يمكن القول أن باب المندب وسواحل البحر الأحمر وطريق خليج عدن وبرزخ السويس، وشبه جزيرة سيناء تعتبر جميعها طرق هامة سلكتها الجماعات البشرية المتالية والمهاجرة في مسالك متعددة سواء منها البرية أوالبحرية في فترات زمنية متقاربة أومتباعدة تبعاً للمصدر الذي ترجع إليه كل جماعات وافدة ولا شك أن هذه الهجرات والحركات البشرية كان لها أعظم اثر في تعمير منطقة بحيرة تشاد وغرب أفريقيا، وكان لها أثرها المباشر والقوي والفعال في ظهور حضارة إسلامية راقية قامت على أكتاف تلك العناصر العربية المهاجرة[3].

5- وهناك طريق آخر سلكته الهجرات العربية إلى شرق أفريقيا، وهوطريق أفريقيا (المغرب الأدنى) بما فيها إقليم طرابلس، إذ هاجر عرب (التنجور) من شمال أفريقيا إلى دارفر في جمهورية السودان الحالية، ومنها انتشروا في نواحي السودان الشرقي، وكان لهذه الهجرة أثر واضح في تعريب تلك المنطقة، ونشر الإسلام فيها[4].

د - المهاجر العربية والشركات العربية:

كانت تربط بلاد العرب وشرقي أفريقيا علاقات تجارية، ولم تتوطد هذه العلاقة إلا بهجرة العرب واستقرارهم في البلاد، وبتوالي الهجرات والاستقرار ألزمتهم الضرورة بأن يكوّنوا إمبراطورية عربية تنشر نفوذها على الساحل الشرقي للقارة الأفريقية، وقد كون

1- محمد الفاسي وإيفان هربك: المصدر السابق، 128/3.

2- الغنيمي: حركة المد الإسلامي، ص13.

3- الفيتوري، دراسات في شرق أفريقيا، ص 86.

4- ينظر ممدوح حسين: الحروب الصليبية في شمال أفريقيا وأثرها الحضاري، ص57.

العرب محطات تجارية في قاليقوط وساحل ملبار وملقا ثم استقروا كمهاجرين فيها وأول محطة تجارية أوشركة كانت في مدينة كانتون وقد كان هدف العرب من تكوين محطات أوشركات ليس من أجل الاستعمار بل من أجل التجارة[1].

هـ- دور إمارة عُمان في كشف القارة:

كانت إمارة عمارة بعد أن أكملت إنشاء ميناء مسقط اتجهت بأنظارها إلى الإبحار إلى الساحل الشرقي لأفريقيا حيث الغابات الوفيرة واستجلاب الأخشاب من غابات جزر الزنجبار، مثل أخشاب أشجار جوز الهند التي يصنع منها السفن، وبعد تفوق العرب في البحرية وتعدد رحلاتهم التجارية والاستكشافية إلى جزر الساحل الشرقي للقارة أستقر هؤلاء العرب في الجزر، ومن ثم انتقلوا إلى الساحل الشرقي المحاذي للبحر، وكونوا هناك إمارات عربية كانت لها دوراً هاماً في نقل المؤثرات الإسلامية والحضارية في القارة الأفريقية قبل مجئ الحملات الأوربية الاستعمارية[2].

وقد استطاعت عمان في ظل اتحاد أهلها أن تقاوم الأتراك والفرس. وفي القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي تلقب حاكم عمان بلقب إمام، وظل خلفاؤه يتوارثون هذا اللقب حتى القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. وقد أنشأ العمانيون ميناء مسقط على ربوة عالية تشرف على الخليج العربي، وعن هذا الطريق أخذوا يشتركون في التجارة الإسلامية في المحيط الهندي. وفي القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي عرف أهل عمان بمهارتهم في بناء السفن، التي استخدموها في تجارتهم، وسرعان ما أخذوا يستقرون في شرقي القارة الأفريقية ويشاركون في تنظيم شؤونها[3].

1- عبدالرحمن زكي: المسلمون في العالم اليوم، ص8.

2- أوليفر، رولاند وجون فيج: موجز تاريخ أفريقيا، ترجمة دولت أحمد صادق، الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة (القاهرة: 1965)، ص109.

3- حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام، ص29.

ثانياً: أثر الهجرات العربية على الحياة السياسية في شرق أفريقيا

لقد حرص العرب على توطيد سيطرتهم على مقاطعات الساحل الشرقي لأفريقيا[1]، وأحدث العرب تنظيمات جديدة في المنطقة، وتمكنوا من إنشاء عدة ممالك عربية مستقلة على طول الساحل بفضل تدفع الهجرات العربية، خاصة من البحرين وعمان والاحساء واليمن وحضرموت، وكانت تلك الممالك أوالمدن التي أسسوها تمتد من القرن الأفريقي إلى مدار الجدي، وهي المنطقة التي أطلق عليها جغرافيوالعرب في العصور الوسطى اسم "برالزنج"[2].

ولاشك أن تلك المدن حققت نجاحاً وازدهاراً كبيرين، ولكنها من جهة أخرى افتقرت إلى التنظيمات العسكرية، ويرجع ذلك إلى أنها لم تقم نتيجة لفتح أوتوسع حربي، وإنما قام بها تجار أومهاجرون أومضطهدون سياسيون أودينيون، وهؤلاء جميعاً كانت مصلحتهم تقتضي أن تكون علاقتهم سلمية إلى حد كبير مع الأهالي الذين استقروا في أوطانهم، واستمر السواحليون يعترفون بالسيادة العربية حتى قدوم البرتغاليين الذين استغلوا فرصة التفكك في هذه الإمارات التي بدأت كل منها تعمل لتوسع على حساب جيرانها. وعندما وصل البرتغاليون إلى ساحل شرق أفريقيا دهشوا دهشة كبيرة لوجود حضارة مزدهرة مما جعل بعض الكتاب يصف تلك البيئة بأنها كانت أرقى من البيئة البرتغالية في سنة 1500م[3].

إن القبائل العربية التي هاجرت إلى الحبشة قبل الإسلام كانت تسكن قبل هجرتها على الساحل اليمني أوقريباً منه من تلك القبائل: سحرت التي كانت تسكن عند رأس المضيق، ثم قبيلة حبشت وهي أشهرها وكانت تسكن على الساحل أيضاً. وقد أخذت في هجرتها الطريق البحري الذي يصل إلى خليج مصدع والهضبة. فقد خرجوا منها ومروا بأكسوم وتكازة واحتلوا الجانب الشمالي من الحبشة، وقد أطلع اسم هذه القبيلة "حبشت" على

1- أسبر، أمين: إفريقيا والعرب، دار الحقائق (القاهرة، 1980)، ص14.

2- حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام والعروبة (القاهرة، 1957) ص127.

3- شهاب، حسن صالح: أضواء على تاريخ اليمن البحري (بيروت، 1981) ص63. وكذلك سميحة محمد: دولة زنجبار الحديثة، ص41.

جميع البلاد، بينما كان لسان هؤلاء هولسان "الجعز" أي لسان قبيلة "الاجاعز" اليمنية القديمة[1]. كانت العناصر السامية المهاجرة من جنوب الجزيرة العربية إلى الحبشة أرقى العناصر جميعاً، وهم حملة الحضارة إلى الحبشة وهم الذين أسسوا الدولة الأكسومية الزاهرة بعد أن استقروا في الوطن الجديد وتأثروا بطابع البيئة الحبشية وتفاعلوا مع العناصر الأفريقية والحامية[2].

وبعد وصول المهاجرين العرب إلى شرق أفريقيا بدأ الأهالي بالدخول في الإسلام، كما استطاع هؤلاء المهاجرون، تأسيس مجموعة من الوكالات التجارية في ساحل شرق أفريقيا مثل مقديشيوماليزي، وممبسة وبمبا وزنجبار وموزمبيق[3]. ونلاحظ أن المهاجرين العرب لم يلبثوا أن اندمجوا في السكان الأصليين، وتزاوج الفريقان، وبمضي الوقت ظهر جنس تجلت فيه الكثير من الصفات والتقاليد العربية الإسلامية[4].

لقد كان التأثير في الجوانب السياسية والإدارية واضحاً من خلال نظام الحكم، فمثلاً كان سلاطين كانم يتوارثون الحكم عن طريق الأمهات شأنهم في ذلك شأن كثير من المناطق الأفريقية الأخرى، ولكن بانتشار الإسلام وتعاليمه بينهم، أصبحوا يتوارثون الحكم عن آبائهم كما أخذوا في الاعتبار أصلح الأبناء وليس أكبرهم، كما أخذت الشورى طريقها إلى الحياة السياسية، حيث عرفوا مجلس الشورى الذي عرف بمجلس الأكابر، أومجلس أرباب الدولة الذي يتكون من أربعة عشر عضواً، وكان يناقش أمور الدولة أثناء السلم والحرب[5]. وبعد ظهور الإسلام، تكونت الممالك الجديدة ذات السمات والخصائص الإسلامية، فحافظ الإسلام على مملكة ودولة من هذه الدول، التي أصبحت تكون علاقات مع جيرانها من

1- عابدين، عبدالحميد: بين الحبشة والعرب (القاهرة، 1947) ص43.

2- عبدالحميد عابدين: المصدر السابق، ص9.

3- المسعودي: مروج الذهب، 31/3.

4- جوليان، شارل اندريه: تاريخ أفريقيا، ترجمة طلعت عوض أباظة (القاهرة، 1968)، ص77.

5- صادق، دولت: شرقي أفريقية دراسة في جغرافية الإسلام، المؤتمر الجغرافي الأول (بدون مكان، بدون تاريخ)، ص65.

الممالك الأخرى، علاقة قائمة على الود والاحترام، حيث يجمعها قاسم مشترك هوالإسلام[1].

كما اتصل الأفارقة بالبلدان الإسلامية خارج أفريقيا وكونوا معها علاقات دبلوماسية، وتأثروا بأنظمتها المختلفة حتى إن البعض من سلاطين الأفارقة، طلبوا من الخلافة العباسية أن تقلدهم السلطنة، لكي يستمدوا حقهم في ممارسة سلطتهم[2]. وإن دل هذا على شئ، فإنما يدل على مدى تأثر هؤلاء الأفارقة وقناعتهم بالدين الجديد، وتأثرهم به كما يدل على مدى التأثير الذي أحدثه الإسلام في الحياة السياسية والإدارية في هذه المناطق[3].

لقد زودنا "القلقشندي" بمعلومات مختصرة عن الأنظمة السياسية حيث يقول في هذا الخصوص كان يوجد بها الوزراء والكتاب والقضاء والدواوين، وهي أنظمة إسلامية عُرفت في مختلف البلاد الإسلامية الأخرى، حيث كان السلطان يعتمد عليها في تسيير شؤون المملكة[4]. وهذه الوظائف الكبرى كانت موزعة بين كبار زعماء القبائل، وليس لدينا إلا القليل عن النظام الذي كان سائداً في "كلوا"، وكل الذي نعرفه، هوأنه كان لها أمير ووزير، وكان منصب الأمير وراثياً، وهناك موظفون آخرون مثل القاضي والخطيب والمحتسب[5].

لقد غير الإسلام بعد انتشاره بين القبائل الأفريقية المفاهيم والأسس والنظم التي كانت سائدة لديهم، فقد حلت الأخوة في الإسلام محل العصبية القبلية، وأصبح الأفريقي المعتنق للإسلام يرتبط بالمسلمين جميعاً بعد أن كان ارتباطه محدداً بأفراد عشيرته أوقبيلته، وذلك

1- بولم، دنيس: الحضارات الأفريقية، ترجمة علي شاهين (بيروت، بدون تاريخ)، ص146.

2- دنيس، بولم: المصدر السابق، ص147.

3- عطية الفيتوري: دراسات في شرق أفريقيا، ص283.

4- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة، بدون تاريخ) 298/5.

5- آرنولد: الدعوة الإسلامية، ص275.

تمشياً مع ما نادى به الإسلام "إنّما المُؤمِنُونَ أخْوَةٌ"[1] وساعد على ذلك ما خلقه الإسلام من ظروف تؤكد هذه الأخوة ؛ فالمسلمون جميعاً يعبدون رباً واحداً ويتبعون تشريعاً واحداً، وقد أدى نظام الأخوة في الإسلام إلى إفساح المجال أمام اندماج القبائل والشعوب الأفريقية بعضها في بعض وعمل على تشكيل جماعة بشرية متجانسة[2] ، وأخذت العصبية تضعف وتختفي وبالتالي استطاع الإسلام تحقيق التوافق والانسجام بين أعداد كبيرة من الناس مختلفة الأعراض والأنساب والمشارب[3] .

ثالثاً : أثر الهجرات العربية على الحياة الدينية في شرق أفريقيا

لقد أنشأ الإسلام في أفريقيا تيارات جديدة كان لها رد فعل شديد في طول القارة وعرضها ذلك لأن الإسلام لم يكن عقيدة فحسب بل هو قانون وعادات ومثل أخلاقية عليا ، ووحدة سياسية وحضارة وبناء اجتماعي على أساس الكتاب الكريم وما جاء فيه من آيات وبنيات غرست فكرة الأمة في قلوب المسلمين السود في أفريقيا لتقارب بينهم، ولم يدخل الإسلام إلى شرق أفريقيا بحد السيف بل كان للتسامح والعدل المتصلين بالبساطة والمنطق السليم أكبر الأثر في إقبال الناس على اعتناقه ، كما لعبت التجارة دوراً أساسياً في انتشاره إذ أن أكثر المسلمين احتكاكاً بالعناصر المختلفة من مسيحيين ووثنين هم التجار الذين جابوا المناطق المختلفة سعياً وراء التجارة ومصادر الرزق ، فكان هؤلاء التجار هم دعاة الإسلام أينما تغلغوا في أفريقيا وبعد دخول هذه الفئة إلى الإسلام الذي نجح في قلب نمط وسلوك معتنقيه رأساً على عقب غيَّر سلوكهم وطبائعهم ومعتقداتهم البالية وقواعد حياتهم والتي أصبحت تسير وفق المبادئ الإسلامية السمحاء ، ووفق ما تمليه قواعد الدّين الإسلامي ونصوص القرآن الكريم والسُنّة النبوية ، فكان التجار يمثلون فئة من هؤلاء الأفراد الذين غير

1- سورة الحجرات، من الآية 10.

2- الحداد، محمد أحمد مشهور: حقائق تاريخية عن العرب والإسلام في أفريقيا الشرقية ، دار الفتح (جدة، 1973)، ص37.

3- زناتي، محمود سلام: الإسلام والتقاليد القبلية في أفريقية (القاهرة، 1992) ص247.

الإسلام نهائياً من أنماط حياتهم وسلوكهم[1].

تلقى أهالي شرق أفريقيا الإسلام على يد التجار العرب المسلمين، الذين كانوا يحرصون على أداء مناسك دينهم في مواقيتها، ومن العوامل التي أدت إلى انتشار الإسلام إباحة الزواج لأكثر من واحدة، كذلك اختلاط العرب المسلمين بالأهالي واندماجهم في يسر وتسامح، وإيمان المسلمين الوافدين بأنهم مجاهدون في سبيل نشر الدعوة الإسلامية[2].

كل هذه العوامل جعلت الأفريقيون يسارعون إلى اعتناقه عن حب، ورضاء، وطواعية، ولم يُكره أحد منهم على الدخول فيه، لأن الإكراه ضد طبيعة هذا الدين[3]. فالإسلام في شرق أفريقيا، لم يتغلغل في مجتمعات قائمة فعلاً، بل أنه خلق مجتمعاً جديداً، فلقد جلب القواعد والقوانين، التي عدلت من حياة الأفريقيين، فبالرغم من أن حضارة شرق أفريقيا، قابلتها بعض المعوقات، إلا أن صرحها قد نهض قائماً على أساس دعائم الإسلام الأصلية[4].

في المراحل الأولى من دخول الإسلام لشرق أفريقيا، كان التركيز واضحاً، على وحدانية الله، والإله الواحد، وكان المذهب الشافعي هوالمذهب السائد في شرق أفريقيا، حتى أصبح لأصغر المجموعات المكونة من ستة منازل مسجد[5]. ومن المعالم الدينية الإسلامية في شرق أفريقيا، تلك الحلقات الدراسية، التي تُلقى فيها المحاضرات، لتدريس اللغة العربية وتفسير القرآن والفقه لعامة الناس، وأثر دخول الإسلام على التقويم المحلي الذي يمارسه الأهالي، فحياة سكان المدن أصبحت تقوم على التقويم الإسلامي القمري "السنة

1- أحمد العمري: الأفريقيون والعرب، ص135.

2- أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، 709/4.

3- ترمنجهام سبنسر: الإسلام في شرق أفريقيا، ص271.

4- آرنولد: الدعوة الإسلامية، ص277.

5- المصدر نفسه، ص278.

الهجرية[1].

وقد كانت الدعوة الإسلامية تتخذ من المساجد مركزاً لها على الساحل الشرقي الأفريقي، حيث انتشرت المساجد التي بناها المسلمون الأوائل، ولازال يوجد في مقديشيوفي الصومال، بقايا مسجد بُني سنة 637هـ/1239م كما هومكتوب على جدرانه، وفي زنجبار يوجد مسجد (كازي مكازي) الذي بُني سنة 500هـ/1106م، وكُتب عليه بالخط الكوفي، أسسه أبوعمر بن الحسن سنة 500هـ[2]، كما شيدت عدة مساجد، ومبان جميلة، وأهم خصائص تلك المباني استخدام العقد المحدَّب، والحجر المنحوت، كما امتازت المساجد بالزخارف، والنقوش البديعة، واستخدام الأعمدة والقباب[3]. وانتشرت مع الإسلام بأفريقيا، أحكام الشريعة الإسلامية في مختلف الشؤون، فعرف الأفريقيون نظام الفصل بين السلطات التشريعية والقضائية، والتنفيذية، وعرفوا الزكاة، وكانوا من قبل يأنفون من نظام الضرائب، واتبعوا بدقة قوانين الإسلام في الأحوال الشخصية؛ كالزواج والطلاق وقوانين الإسلام في المال، وأصبح الربا ممنوعاً، وأخذوا بنظام الميراث الإسلامي واتبعوا نظام الإسلام في الجنائز والموتى[4].

وفي مجال حقوق المرأة طرأ تحسن كبير على أوضاع النساء بعد اعتناق الأفارقة الإسلام؛ فالمهر في التقاليد القبلية حق لأولياء المرأة، ليس للمرأة فيه نصيب، والإسلام يستتبع عاجلاً أم آجلاً إعطاء المرأة الحق فيما يدفع من مال بمناسبة زواجها. وليس للمرأة في التقاليد القبلية، كقاعدة عامة، حق في الميراث، لا سيما فيما يتعلق بمظاهر الثروة الرئيسية وهي الماشية في المجتمعات الرعوية والأرض في المجتمعات الزراعية. وأدى اعتناق الإسلام إلى الاعتراف بحقوق المرأة في الحصول على نصيب من التركة. وفي التقاليد القبلية لا تقر في المجتمعات

1- المصدر نفسه، ص278.

2- قاسم، عون الشريف: دراسات أفريقية، العدد السادس (بدون مكان، 1990) ص43.

3- انظر: رحلة ابن بطوطة، ص57.

4- حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، ص45.

الأبوية للمرأة الحق في حضانة أولادها اللهم إلا بالنسبة للرضيع وحتى فطامه. واعتناق الإسلام يؤدي إلى تخويل المرأة الحق في حضانة أولادها لفترة أطول[1] وهوما طبق بين الأفارقة المسلمين.

وكان أول تأثير للإسلام هوأن النظام القبلي التقليدي بدأ يتفكك تدريجياً ويبدأ الإسلام يقضي على التكتلات القبلية العنصرية وأوقف التناحر القبلي بين القبائل التي دانت به لأنه أصبح رابطة أقوى من الرابطة القبلية؛ فالإسلام يقوي الشعور بالوحدة، ويؤلف بين القلوب من أفراد القبائل المختلفة، ثم أن الإسلام لا يُقيم وزناً لحواجز اللون والجنس والقبلية وهذه الرابطة الدينية ساعدت على توحيد قبائل ومجتمعات أفريقية في دول مستقرة[2]. فأصبحت هذه القبائل والمجتمعات أمة واحدة، وبقيام هذه الأمة ازداد النشاط والمعرفة وقلت المتفرقة والكراهية والسلب والنهب بين القبائل[3]. وكان الإسلام بالنسبة للوثنيين الإفريقيين خطوة نحوالحضارة الرقي، واعتبروه خطوة بناءة في سبيل تطور المجتمع الأفريقي في كثير من نواحيه، فقد تغيرت ملامح المجتمع الأفريقي بعد دخول الإسلام[4].

كما أحدث الإسلام تطورات كبيرة في حياة وعادات وتقاليد الأفارقة فاختلفت بتغلل الإسلام أقبح العادات الوثنية مثل: تقديم القرابين البشرية وقضي أيضاً على السحر والشعوذة والخمر والمنكر وأنهى نظام سيادة المرأة وحل محله الرجل كرب الأسرة وزعيم العشيرة، تلك الشرور التي كانت منتشرة في شرق أفريقيا اختفت فجأة وإلى الأبد. والأهالي الذين كانوا يعيشون في ذلك الوقت عراة أوشبه عراة بدأوا يرتدون الملابس بل أخذوا يتأنقون في ملابسهم ويغتسلون لأن الشريعة الإسلامية تأمر بالطهارة والنظافة[5].

1- محمود زناتي: الإسلام والتقاليد القبلية، ص258.

2- عودة، عبدالملك: العرب وأفريقيا، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت، 1984م) ص12.

3- سبنسر ترمنجهام: الإسلام في شرق أفريقيا، ص67.

4- عبدالملك عودة: المصدر السابق، ص13.

5- الخشاب، وفيق وإبراهيم المشهداني، أفريقيا جنوب الصحراء (بغداد، 1978م)، ص22.

رابعاً: أثر الهجرات العربية على الحياة الثقافية والاجتماعية في شرق أفريقيا

لقد أدى ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي إلى ازدياد وشائج الاتصال العربي – الأفريقي؛ فقد أمدَّ الإسلام العرب بسياج ديني وفكري ساعدهم في خلق وحدة وطنية وازدهار نهضة ثقافية. ومنذ البدء صار الإسلام الركيزة الأساسية للثقافة العربية الجديدة، كما أصبحت اللغة العربية لغة القرآن الكريم، وعاء الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية. وتحت راية الإسلام تمكن العرب في فترة وجيزة من نشر الإسلام في أجزاء كبيرة من القارة الأفريقية. وأدى هذا التطور والتقدم الكبير في حياة العرب إلى حدوث نقلة نوعية في تاريخ العلائق الثقافية بين العرب والأفارقة، ففوق دعائم التعامل التجاري والهجرات البشرية قام العرب بدور إيجابي في نشر العقيدة الإسلامية وبسط نفوذها السياسي في أفريقيا. وساعد انتشار الإسلام إلى رواج كثير من مظاهر الثقافة العربية كاللغة وتمثل النسب العربي. وعليه أعطى الإسلام هذه العلائق بعداً عقائدياً وأعطتها اللغة العربية محتوى لغوياً وثقافياً عظيماً[1].

وكان المجتمع العربي الجاهلي يزخر ببعض المجموعات الأفريقية التي استقرت بين العرب وانصهرت في بوتقة القبائل العربية عن طريق الولاء والانتماء الكامل، ولاشك أن بعض هذه المجموعات شقت طريقها إلى الجزيرة العربية لعوامل غير الرق والغزو. وقد تمثلت هذه المجموعات الأفريقية التي وفدت من الساحل الأفريقي الثقافة العربية تمثلاً كاملاً ولم يعد هناك ما يدل على أصولها الأولى سوى سواد بشرتها. وربما لم يكن عددها من الكثرة حتى تحدث تغييراً جذرياً في المجتمعات التي استقرت فيها. وبسبب هذه الاتصالات وجدت بعض الألفاظ والاصطلاحات الحبشية طريقها إلى اللغة العربية[2].

تحدث العرب بالحبشة بلغات ولهجات قريبة الشبه من اللغة العربية الجنوبية، لغة اليمن القديم. وأقدم لغة عربية معروفة هناك هي لغة "الجعز" نسبة إلى قبيلة الأجاعز "أجعازين" وهم أقدم من هاجر إلى الحبشة من القبائل اليمنية. وكانت مواطنهم على الساحل بين صنعاء

---

(84) يوسف فضل حسن: الجذور التاريخية، ص28- 29.

(85) المصدر نفسه، ص28.

وعدن، ولهم نقوش تذكرهم في اليمن والحبشة[1]. واستخدم الساميون في أيامهم الأولى بالحبشة اللّغة والخط السبأتي وقد نقل هؤلاء إلى الحبشة أسماء مواطنهم الأصلية وأطلقوها على مواطنهم الجديدة، فنجد أماكن مثل: أوام ومدري وقلي وظهر وسحرت وحوزين[2].

وقد تدفقت عن طريق مصر وعبر البحر الأحمر المؤثرات العربية الإسلامية في قوة إلى السودان وادي النيل. وقد أدى دخول العرب في أعداد كبيرة إلى نتيجتين مهمتين: أولاً: غلبة الثقافة العربية واللسان العربي على أجزاء كبيرة من البلاد، وثانياً: انتشار الإسلام بين الوطنيين الذين كانوا يؤمنون بالمسيحية وبعض المعتقدات الأفريقية. وكانت عملية التحول في الحالتين بطيئة يغلب عليها الطابع السلمي. وقد صار الإسلام عامل ربط اجتماعي مهم بين شعوب سودان وادي النيل ذات الجذور العرقية المتباينة والثقافات المتنوعة واللغات المتعددة. وقد أدى تفاعل الثقافة العربية الإسلامية مع الموروثات الوطنية إلى بروز مراكز قوى جديدة اقترنت بقيام دولة إسلامية، كالعبدلاب والفونج والفور وتقلى. وقيام هذه السلطنات الإسلامية خير دليل على غلبة الثقافة الإسلامية على هذه المنطقة؛ وبعد العرب قام جيل من المولدين من النوبة المستعربين وبعض أفراد المجموعة الجعلية ذات الأصول العربية، بنشر الإسلام في المناطق التي لم تبلغها الدعوة بعد[3].

والثقافة العربية في شرق أفريقيا تأثرت بموقع المدن الإسلامية وطبيعة الحياة فيها، فالمدن التي قامت على الشاطئ الشرقي لأفريقيا كانت على صلة وثيقة بالعالم الإسلامي كله، هذا الاتصال المستمر ترك أثره في الحياة الثقافية في البلاد، فقد نزحت إليها جميع الفرق والمذاهب التي عرفتها الحياة الإسلامية مثل الزيدية، كما أن علماء وفقهاء اليمن أكثر المسلمين وفوداً إلى هذه الجهات، فطبعوا الحياة بطابعهم وأثروا في الحركة الثقافية تأثيراً واضحاً[4].

1- الأحمر، احمد مصباح: أفريقيا والعرب (طرابلس، 1999) ص42.

2- احمد الأحمر: المصدر السابق، ص42.

3- يوسف فضل حسن: الجذور التاريخية، ص37.

4- محمود الحداد: حقائق تاريخية عن العرب والإسلام في أفريقية، ص125.

وقد غلب الطابع الديني على الثقافة الإسلامية في هذه البلاد حيث أن مدن شرق أفريقيا لها جوامعها ومساجدها التي تقام فيها الخطب والجمع وعند أهلها محافظة على الدين فالحركة التعليمية كانت مصحوبة بطابع تعليمي واضح[1]. وقد ترتب على انتشار الإسلام في شرق أفريقيا نتائج عميقة في المجتمعات التي انتشر فيها في سلوك الناس ومعاملاتهم وفي ثقافتهم وعلاقاتهم مع بعضهم البعض، وقامت في هذه المناطق التي استوطنها المسلمون وحدات سياسية، وحكومات لها أنظمتها وحاولت هذه الحكومات أن تطبق مبادئ الشريعة الإسلامية[2].

وأصبحت هذه الإمارات العربية - مزيجاً يجمع في أنظمتها بين أشياء أفريقية أصلية وبين أشياء عربية إسلامية، وحتى اللغة السائدة أصبحت لغة أفريقية عربية وهي اللغة السواحيلية وانتشرت هذه اللغة على طول الساحل الشرقي للقارة الأفريقية، وقد كانت هذه اللغة غنية بالأدب والشعر لتأثرها بالعربية[3]، كما أن الأفعال الأفريقية، وكانت غنية بالأدب والشعر لتأثرها بالعربية[4]، كما أن الأفعال فيها مستمدة من اللغة العربية، ثم إن طريقة كتابتها، من اليمين إلى الشمال، كاللغة العربية، فضلاً عن حروف هجائها، والكثير من الألفاظ العربية فيها.

ولعل من أهم نتائج التواصل العربي - الأفريقي لبضعة قرون نشأة الثقافة السواحلية. وقد ظهرت هذه الثقافة حوالي القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، وتركزت في منطقة شرق أفريقيا وبعض جزر المحيط المجاورة، واتسعت دائرة اللغة السواحلية في العهد الاستعماري فشملت أجزاء من وسط أفريقيا. وفي عام 1960 اعتمدتها جمهورية تنزانيا

1- محمود الحداد: المصدر السابق، ص126.

2- الجمل، شوقي وعبدالله عبدالرازق إبراهيم: تاريخ المسلمين في أفريقيا ومشكلاتهم، دار الثقافة (القاهرة، 1966) ص6.

3- ذياب، أحمد إبراهيم: لمحات من تاريخ أفريقيا الحديث، دار المريخ (الرياض، 1981م) ص73.

4- الجمل، شوقي وعبدالله عبدالرازق إبراهيم: تاريخ المسلمين في أفريقيا ومشكلاتهم، دار الثقافة (القاهرة، 1966) ص8.

المتحدة لغة قومية. ونشأت الثقافة السواحلية من تلاقح مؤثرات أفريقية وعربية وفارسية في جو إسلامي. والسواحلي هو هجين عربي - أفريقي، ويقدر بعض الباحثين أن السواحلية لغة أفريقية تركيباً، ولكنها اقتبست كثيراً من الكلمات الأجنبية وجلّ هذه من اللغة العربية. وقد كتبت السواحيلية أصلاً بالحرف العربي مثل كثير من اللغات الأفريقية ذات المنبت المماثل، ولكن بعد وقوع شرق أفريقيا فريسة للهجمة الاستعمارية استبدل الحرف العربي بالحرف اللاتيني مما باعد بينها وبين جذورها العربية. كما أن بعض الكتَّاب الأفارقة يتعمدون تجاهل الكلمات ذات الأصول العربية ويستبدلونها بأخرى من أصل إنجليزي. ويأتي هذا الصنيع في إطار محاولتهم لتقليل الأثر العربي في الثقافة السواحيلية بصفة عامة وفي نعتها بصفة خاصة[1]. وهكذا تطورت العلاقات العربية بشرق أفريقيا وانتشر الإسلام، واللّغة العربية بين السكان ولعب العرب دوراً كبيراً في تحفيظ القرآن وشرح تعاليم الشريعة الإسلامية للأهالي[2].

وكان من نتيجة انتشار الإسلام في المنطقة أن انتقلت إلى المنطقة مظاهر الحضارة العربية الإسلامية فأهتم السكان في المنطقة - على اختلاف عناصرهم - بالعلوم الدينية واللغة العربية، كما تجلت الحضارة العربية في شرق أفريقيا في المباني المعمارية وتخطيط المدن وزخارف الأبواب والشبابيك، كما أدخل العرب فن النقش والحفر والنحت والفسيفساء المتحدة مع الرخام الملون وظهر ذلك بوضوح في قصور "كلوة" ومساجدها[3].

ومما يدل على عراقة الصلة بين شبه الجزيرة العربية وأفريقيا شدة التشابه العرقي واللغوي والثقافي بين الشعوب الناطقة باللغات الحامية أوالكوشية، والشعوب الناطقة باللغات السامية (كالعرب والأمهرة والتقري). وهذا التشابه جعل بعض الباحثين يرجحون أن هاتين المجموعتين قد عاشتا في موضع واحد وربما تنتميان مع أصولهما البعيدة إلى شعب

1- يونس فضل حسن: الجذور التاريخية، ص33.

2- أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص396.

3- أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، 185/1.

واحد. وتنتشر المجموعة الناطقة باللغات الحامية على السواحل الشرقية والشمالية لأفريقيا، وتتكون من الصومال والقالا والعفار وبعض الارتيريين والبجة والنوبيين وقدماء المصريين والبربر. ويشمل بعض هذه اللغات قدراً طيباً من الكلمات العربية. وتؤكد هذه الصلات العرقية واللغوية أنّى كانت درجتها بين سكان جزيرة العرب وسواحل أفريقيا الشرقية أن تبادل التأثير الثقافي بين المجموعتين ذوجذور عميقة[1].

كما كان للعرب وللإسلام تأثير واضح على الحياة الاجتماعية لسكان الساحل الشرقي لإفريقيا. فقد اختلطت القبائل العربية بقبائل البانتوالزنجية، وكان نتيجة هذا الاختلاط ظهور شعب الصومال الذي جاءت ملامحه قريبة جداً من الملامح والتقاطيع العربية[2].

كما كان لتحول غالبية السكان في شرق أفريقيا إلى الإسلام أثر بعيد في حياتهم الاجتماعية والثقافية، ولكن يبدوأن هذا التغيير والتأثير لم يكن سهلاً ولم يحدث سريعاً كانتشار الدين ذاته وذلك يعود إلى الرواسب والتقاليد والأعراف الاجتماعية الموروثة جيلاً بعد جيل[3].

ولا شك في أن هجرة المسلمين إلى شرق أفريقيا واستقرارهم على أرض القارة بأعداد كبيرة وما تبع ذلك من إندماجهم في السكان الأصليين وتزاوجهم معهم ترتب عليه نتائج مهمة وعميقة مثل: وجود جنس تبدوفيه كثير من الصفات والعادات والتقاليد العربية، وبذلك أصبحت الإمارات التي كونها العرب بشرق أفريقيا مزيجاً يجمع في أنظمتها بين أشياء أفريقية وأشياء إسلامية[4]. وأشار "ابن بطوطة" الذي زار مقديشيووذكر أن أهلها يعترفون الدين والحجاج حيث قال أنه عندما أتي من الحج إلى مقديشيواستُقبل بحفاوة بالغة من قبل سلطانها كما أشار ابن بطوطة إلى أن المسلمين في هذه المناطق لم ينسوا تقاليدهم العربية وما

1- يونس فضل حسن: الجذور التاريخية، ص27- 28.

2- محمود زناتي: الإسلام والتقاليد القبلية، 27.

3- رفلة، فيليب: الجغرافية السياسية الأفريقية، مكتبة الوعي العربي (القاهرة، 196م) ص174.

4- شاكر، محمود: تانزانيا، مؤسسة الرسالة (بيروت، 1971)، ص7.

اعتادوا عليه من إكرام الضيف[1].

ومن الشمال الأفريقي توغلت المؤثرات الإسلامية العربية عبر الصحراء إلى بلاد السودان، حيث نشأت السلطنات السودانية الإسلامية التي جمعت في نظمها السياسية بين أنماط محلية ونظم إسلامية التي جمعت في نظمها السياسية بين أنماط محلية ونظم إسلامية. وفيها تفاعلت الثقافة العربية الإسلامية مع المؤثرات الأفريقية. ونتيجة لهذه الجهود اتسعت رقعة الإسلام حتى شملت معظم الجزء الشمالي من القارة، كما غلبت على بعض الجيوب في السواحل الشرقية من الجزء الجنوبي. وكان لهؤلاء المسلمين دور بناء في تاريخ المنطقة، كما صاروا يشكلون مركز ثقل سياسي مهم فيها. وقد ظلوا على صلة وثيقة بالوطن العربي: في المشرق وشمال أفريقيا وذلك بفضل العلائق الدينية والصلات الثقافية والبعثات التعليمية والتعامل التجاري الواسع في الماضي وما جدَّ من تعاون سياسي واقتصادي في الوقت الحاضر[2].

وبعد انتشار الإسلام بين الأفارقة على أثر توسع العلاقات الاقتصادية والتجارية والثقافية بينهم وبين المسلمين، أتيحت للأفارقة فرصة الإفادة من الأدباء والفنانين والعلماء والصناع المسلمين، وقد ظهرت بين الأوساط الأفريقية مبادئ جديدة في العلاقات الاجتماعية؛ كالحدّ من الرّق وتعدد الزوجات، وقضى على فوضى اقتناء النساء، خاصة عند رؤساء العشائر، وجعل العدل بينهن فيما يتعلق بالأموال التي يخصصها لهن الزوج أو الهدايا أو الأيام التي يقضيها في بيت كل واحدة منهن أساساً للتعدد[3]، وذلك امتثالاً لقوله تعالى: "وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَمَى فَانكِحُواْ مَاطَابَ لَكُم مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وثُلَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلوُا فَوَاحِدَةً أوما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ"[4]. لقد أثر الإسلام في الحياة الاجتماعية والعامة والخاصة حيث اختفت حدة التناحر والصراع بين القبائل

1- ينظر ابن بطوطة: المصدر السابق، ص 253.

2- يونس فضل حسن: انتشار الإسلام في أفريقيا (الخرطوم، 1979) ص2- 5.

3- أمين أسبر: أفريقيا والعرب، ص20.

4- سورة النساء، الآية 3.

والعشائر، وأصبحت العلاقات متأثرة بالحضارة الإسلامية ونظمها، ولقد كانت الحضارة الإسلامية من أهم العوامل التي أسهمت في حل معظم المشكلات التي واجهت الإمارات الأفريقية[1].

ويقول توماس آرنولد في كتابه الدعوة الإسلامية في أثناء حديثه عن انتشار الإسلام وثقافته وأثره على سلوك الأفارقة الاجتماعي فيقول: "إن الذين اعتنقوا الإسلام، يختلفون اختلافاً واضحاً عن القبائل الوثنية التي أفسدت أخلاقها تجارة الخمور وشربها، فأولئك الذين اعتنقوا الإسلام يمثلون حضارة أرقى، فاختفت من بينهم الوحشية، وزالت العادات السيئة، بسبب تعاليم الإسلام، وأصبحت النظافة عندهم عادة على حين دل مظهرهم الخارجي على وقار زائد وأدب جم"[2].

وعلى أثر تزاوج المسلمين الوافدين مع السكان المحليين برز مجتمع سوداني إسلامي، جديد، تمتزج فيه الثقافة الإسلامية والأفريقية العربية[3]، ومن آثار العرب في المنطقة أن السكان أصبحوا يرتدون زي العرب وهكذا نجح العرب في توطيد علاقاتهم بأفريقيا في العصور الوسطى سواء في الشرق أم في الغرب أم في الوسط مع توطيد العلاقات الاقتصادية والثقافية انتقلت الأفكار العربية والحضارة العربية إلى الشعوب الأفريقية[4]. وهكذا يتضح لنا جلياً الأثر العظيم الذي أحدثه الهجرات العربية في الحياة الثقافية والاجتماعية في شرق أفريقيا.

خامساً: أثر الهجرات العربية على الحياة الاقتصادية في شرق أفريقيا

من الأسباب الرئيسية التي دفعت سكان السواحل العربية للخروج من شبه جزيرتهم، أنهم نشأوا في بيئة بحرية مثالية في جنوب الجزيرة العربية، فكان طبيعياً أن يتسللوا إلى شرق

1- عطية الفيتوري: دراسات في تاريخ شرق أفريقيا، ص104.

2- آرنولد: الدعوة الإسلامية، ص973.

3- بشير، محمد عمر: العلاقات العربية الأفريقية (الخرطوم، 1984) ص31.

4- محمود زناتي: الإسلام والتقاليد القبلية في أفريقية، ص40.

أفريقيا في مجموعات صغيرة، انتشرت في بادئ الأمر في بعض الجزر الساحلية، مثل زنجبار وفي المراكز الساحلية مثل كلوة وممبسة ودار السلام، واستطاعت هذه المجموعات أن تطبع مناطق واسعة من شرق القارة بلغتها وديانتها، وأن تندمج مع السكان الأصليين. وهكذا أصبحت السفن العربية تحمل بين حين وآخر، بعض الذين طاب لهم الاستقرار بالساحل الأفريقية للاتجار، وليكونوا حلقة اتصال بين إخوانهم في الجزيرة العربية، وسكان السواحل الأفريقية والجهات الداخلية فيها. وبمضي الزمن، زاد عدد الوافدين للاستقرار، وزادت العلاقات مع الداخل والتوغل فيه، وتشعبت المصالح وأصبحت للعرب إمارات عربية في هذه السواحل الأفريقية، لها اتصالات بالتجار في هذه القارة. وقد كان الغرض التجاري هوالغالب على هذه الجماعات العربية المهاجرة للسواحل الأفريقية، فلم تكن الفكرة فكرة استعمارية، أي استغلال الأرض ثم الانتشار منها للداخل، ولهذا كان الاستقرار على الساحل فحسب، وفي نقط مختارة تخدم هذا الدافع التجاري[1].

وأدت الهجرات العربية الإسلامية، إلى الساحل الشرقي لأفريقيا، إلى تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطى، ففي المجال الاقتصادي قام العرب بنقل حاصلات المنطقة من العاج والذهب وريش النعام والعسل والجلود والموز واللؤلؤ والصمغ، إلى البلدان المطلة على المحيط الهندي، كما ظهرت هذه السلع في الأسواق العربية في الشام والعراق، وفي القرن الرابع الهجري/العاشر ميلادي كانت بيوت سيراف على الساحل الشرقي للخليج العربي تبنى من أخشاب زنجبار[2].

وفاق العرب هذا الشعب الأفريقي في التجارة، لأنهم أحسن منهم نظاماً وأكثر مالاً، فبينما اقتصر الأفارقة على تجارة المنسوجات وعقود الخرز، استطاع عرب السواحل أن يحملوا تجارة الأسلحة النارية، والذخائر التي اقبل عليها الحكام الأفارقة بشغف شديد. وقد أسس العرب، إلى حد ما، نظاماً سياسياً في الداخل، فكانت هناك بعض النقط الرئيسية

1- شوقي الجمل: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، ص38.

2- شاكر، محمود: نجيريا، مؤسسة الرسالة، (بيروت، 1971) ص12.

القليلة، مثل تابورا في إقليم أنياموزي وأوجيجي على بحيرة تنجانيقا، مخازن تجارية منظمة، حيث كان للعرب حقوق تشبه الامتيازات الأجنبية، وكانت هناك حالات معينة استطاع فيها العرب أن يقهروا الحكام المحليين، ويستولوا على السلطة مثل تنجانيقا وأنياموزي أيضاً[1]. غير أن هذه الأحوال كانت أحوالاً شاذة، إذ كان العرب - عامة - يحصلون على ما يريدون من رقيق وعاج عن طريق التجارة، وليس عن طريق القوة. وكانوا يسلحون الحكام الوطنيين وهؤلاء يقومون ببقية المهمة، وكانت النتيجة أن أصبح القوي أكثر قوة على حساب الضعيف الذي ازداد ضعفاً، ففي جنوب تنجانيقا كان زعماء ياوالأقوياء يبيعون رقيقهم للتجار العرب بأسعار مغرية، ويأخذون في مقابل ذلك أسلحة لمعسكراتهم، وملابس لجنودهم ورجال بلاطهم[2].

وعلى هذا الأساس يمكن أن نفهم مسألة استقرار العرب في شرق أفريقية، وأن ازدهار التجارة العربية قد ازداد بعد ظهور الإسلام في شرق أفريقيا ازدياداً عظيماً، وتأسست في نحو القرن العاشر الميلادي (مقديشيووبرارا)، وفي سنة 975م جاء الفرس من شيراز، وأسسوا (كلوه) وتوغلوا في معظم السواحل إلى روديسيا طالبين الذهب، وانتشروا على طول الساحل الشرقي، ووصلوا إلى مقديشيوا - وبراوا - وبمبا - وماليندي - وتونغوني - وزنجبار - ومافيا - وغيرها، وقد وجدت إمارات فارسية صغيرة بين الإمارات العربية[3].

وتروي آثار المنطقة أنه في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، حتى وصول البرتغاليين في نهاية القرن الخامس، كان يخيم على ساحل شرق أفريقية هدوء وسلام شاملان[4]. ووجدوا في المدنية الإسلامية مؤسسة، ولم يقتصر هؤلاء العرب والفرس على التجارة في أعمالهم هناك، بل اشتغلوا بالزراعة وعلموا غيرهم وغرسوا عدداً لا يحصى من أشجار

1- أحمد العمري، الأفريقيون والعرب، ص113.

2- حسين، أحمد الياس: سلع التجارة الصحراوية، تحرير عماد الدين غانم (طرابلس، 1979)، 225.

3- شوقي الجمل: دور العرب الحضاري في أفريقيا (القاهرة، 1987)، ص135.

4- أوليفر، رولاند وجون فيج: موجز تاريخ أفريقية، ص110.

جزيرة العرب وفارس، منها الرمان وقصب السكر، وأدخلوا زراعة القطن والسمسم الهندي والبهارات الهندية والأرز، وأتوا بكثير من حيوانات بلدانهم، ولقد كانت كلوه في تنجانيقا، وغيده في كينيا أكبر مدن شرقي أفريقيا القديمة الآهلة بالسكان، الأكثر ازدهاراً وازدحاماً بالعرب. وبقيت المدنية العربية الإسلامية قروناً طويلة محصورة في شواطئ السواحل، لكنها في القرن التاسع عشر أدخلها العرب الأمجاد من أهل عمان إلى الداخل[1].

وفي بداية القرن الثالث عشر الميلادي كانت معظم تجارة المحيط الهندي تمر عبر الأراضي الإسلامية، وكانت الاستفادة منها تتطلب تعاوناً جديداً. ففي هذه الفترة ظهر الأثر الديني واضحاً، فانعكس على المساجد والمقابر الإسلامية على طول الساحل. وربما بدأت اللغة والحضارة السواحلية تتخذ طابعها، وتنتشر بين مسلمي البانتوعلى السهل الساحلي[2].

وتشير الوثائق التاريخية إلى وجود اتصالات بين الحضارة الإسلامية على الساحل الشرقي، والداخل الإفريقي الشرقي، ففي بيئة البانتوتعيش العناصر الصومالية السواحلية التي عملت في التجارة بعد دخولها الإسلام، فتبادلت التجارة براً مع الجالا الوثنين في جنوب مملكة الحبشة، كما حدث اتصال بحري مع جماعات جنوب كلوه، واتصالاً برياً آخر، في مناطق الذهب على الساحل وفي روديسيا، ومناجم النحاس في كاتنجا[3]. وفي هذه الفترة كان الاحتلال البرتغالي قد سيطر على ساحل زنجبار، ولم تكن لهذا الاحتلال آثار عميقة في الساحل، وقد انعدمت تماماً في الداخل، إذ كانت أهداف البرتغاليين السيطرة على التجارة البحرية، وأخذها من أيدي التجار العرب، ولم يجعلهم هذا الهدف، في السنوات الأولى من القرن السادس عشر، يذهبون إلى الهند الشرقية فقط، بل إلى الساحل الشرقي لأفريقية، وإلى مفتاح البحر الأحمر والخليج العربي، فشيدوا عندها قواعدهم في صوفالا وكلوه وسومطرة وهرمز[4].

1- محمد الحداد: حقائق تاريخية عن العرب والإسلام في أفريقيا الشرقية، ص13.

2- لويد، ب.س: أفريقيا في عصر التحول الاجتماعي (الكويت، 1980)، ص27.

3- ويرنز، دونالد: تاريخ أفريقيا - ترجمة راشد البراوي (بيروت، بدون تاريخ)، ص77.

4- شارل جوليان: تاريخ أفريقيا، ص48.

اعتمدت إمارات الطراز الإسلامي[1] السبعة (ممالك الزيلع)، فيما يتعلق بالناحية الاقتصادية، على التجارة عنصراً مهماً في اقتصادها، ولعبت دور الوسيط التجاري بين الأحباش في الداخل، ومنطقة الساحل، وهيأت بذلك لربط التجارة الحبشية بالتجارة الدولية، عن طريق العرب الذين أصبحوا يسيطرون عليها بعد اتساع الدولة الإسلامية، وسيطرتها على منافذ البحر الأحمر والبحر المتوسط[2]. كذلك ازدهرت مدينة زيلع وبربرة؛ لوقوعهما في منطقة تمتاز بقربها الشديد إلى الجزيرة العربية، وأصبحت محطة للفن تحمل البضائع إلى الساحل، ومنها إلى دواخل الحبشة. كذلك قامت مصوع بالدور التجاري المهم نفسه؛ لقربها من هضبة الحبشة[3] التي أصبحت لها الظهير الذي يمونها بالسلع التجارية، وما تحتاج إليه من مورد غذائي لأجل القاطنين بها[4].

وقد امتازت العلاقات العربية بأنها كانت علاقات سليمة، بنيت على أساس المصالح التجارية، فكان التجار العرب يتوغلون في داخل القارة بهدف التجارة، ونشر الدين الإسلامي، فوصولهم إلى الأقسام الجنوبية، إلى الحبشة والأقسام الغربية من الصومال، لم يكن بوساطة الفتح أوالغزو، بل كان عن طريق التجارة، حيث أخذ التجار العرب يقدمون إلى هذه البلاد، ويدخلون الكثير من سكان هذه المناطق في الدين الإسلامي[5].

وبعد أن هاجر العرب المسلمون إلى منطقة شرق أفريقيا، وجدوا التربة الخصبة الغنية

1- إمارات الطراز الإسلامي السبعة هي: أوفات ودوار وأرابيني وهديا وشرحا وبالي ودارة. وقد سميت بذلك نتيجة لموقعها من البحر، لأنها على جانبه كالطراز له، ينظر القلقشندي: صبح الأعشى، 324/5.

2- الطناشي، خديجة أحمد: العلاقات السياسية بين القوى الإسلامية والمسيحية في الحبشة خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين (طرابلس، 1996)، ص73.

3- بيريز، رونالد: تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة راشد البراوي، (دار الوعي العربي، بدون تاريخ)، ص20.

4- رياض، زاهر: الإسلام في الحبشة (القاهرة، 1964) ص15.

5- دنيس بولم: الحضارات الأفريقية، ص98.

والمياه الغزيرة التي يندر وجودها في موطنهم الأصلي، فشجعهم ذلك على الاهتمام بالزراعة إلى جانب اهتمامهم بالتجارة، فقاموا بزرع مساحات واسعة من الأرض بمختلف المزروعات، التيكان جزء من إنتاجها يصدر إلى شبه الجزيرة العربية، لاسيما في المواسم التي تجذب فيها أرضها[1]. ونتيجة لاشتغال العرب المسلمين بالزراعة في شرق أفريقيا، فقد أحدثوا تطوراً كبيراً في أساليب الزراعة وأنواع المزروعات، وأدخلوا أساليب وأنماطاً زراعية جديدة لم تكن معروفة من قبل. فالزراعة التي كان يمارسها سكان الساحل من الأفارقة، قبل وصول العرب واستقرارهم هناك، كانت من النوع البسيط البدائي الذي تُستخدم فيه الفؤوس أوالعصى المدببة، فطور العرب ذلك واستخدموا المحراث[2].

وقد كوَّن العرب علاقات تجارية عن طريق تبادل السلع، واحتكوا بالسكا، مما ساعد على انتقال الأفكار العربية إلى سكان هذه المناطق، فخرجت المجموعات في تلك المناطق من أفقها الضيق المحدود، وكان من آثار هذا الاتصال ظهور أساليب زراعية، لم تكن معروفة في هذه المناطق من قبل، فقد جلب العرب إلى هذه المنطقة أشجار بعض الفواكه، وزرعوا النخيل، وأدخلوا زراعة الذرة والفول في الأرض الواقعة حول مجاري الأنهار، كما أدخلوا البقول والأرز[3]. كذلك أدخل العرب، إلى منطقة زنجبار، زراعة البرتقال والليمون والقطن والقرنفل[4].

وكان نظام العمل في أفريقيا قبل الإسلام بدائياً قائماً على تربية المواشي، وأحياناً على حرفة الصيد، ولكن بعد انتشار الإسلام عرف الأفارقة قيمة العمل، ويتضح ذلك في أن الصناعة في أفريقيا، تطورت بمجيء الإسلام إليها، حيث قامت مصانع يدوية للنسيج متعددة الألوان والأنواع، وبازدهار الصناعة ازدهرت التجارة، وهذا ما دونه لنا (حسن

1- وفيق الخشاب، وإبراهيم المشهداني: أفريقيا جنوب الصحراء، ص19.

2- إبراهيم، محمد عبدالفتاح: أفريقية من نهر السنغال إلى نهر جوبا مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، 1961) ص15.

3- محمود شاكر: نيجريا، ص13- 14.

4- دنيس بولم: الحضارات الأفريقية، ص100.

الوزان) عندما زار الممالك الإسلامية، حيث تبين لنا من حديثه عن هذه الممالك وعن اقتصادها، أن أهلها كانوا تجاراً أو صُناعاً ماهرين[1].

ولم يكتف العرب المسلمون بالعمل في المجال التجاري المتمثل في نقل السلع، والمنتجات الأفريقية إلى البلدان التي تحتاجها، وإنما مارسوا مهنة التعدين والتنقيب عن المعادن الموجودة في المنطقة، واستخراجها وتصنيعها، حيث استغلوا مناجم الذهب والفضة والنحاس والحديد في عدة أماكن في منطقة الساحل الشرقي لأفريقيا؛ كمناجم الذهب في سفالة، ومناجم الزمرد في بلاد السودان، لاسيما في منطقة العلاقي، وقد كانت كميات كبيرة من الذهب ترد إلى الدولة الإسلامية من منطقة سُفالة، حتى أطلق عليها اسم (سُفالة الذهب)[2].

ومن الحرف التي ظهرت في شرق أفريقيا، بعد استقرار المسلمين بها، حرفة الحدادة، حيث قام المسلمون بصهر الحديد الذي يوجد في المنطقة بكميات كبيرة، واستغلاله في صنع بعض أنواع الأسلحة، كالسيوف والخناجر وغيرها[3]. كذلك برعوا في الحفر على الخشب وزخرفته، حيث كانوا يحفرون الأبواب الخشبية؛ لتجميل المنازل والمساجد، ومازالت تلك الأبواب تشاهد في زنجبار حتى وقتنا الحاضر[4].

واهتم العرب في شرق أفريقيا بالثروة الحيوانية اهتماماً كبيراً، حيث قاموا بتربية الإبل والخيول والماشية، والأغنام، واعتنوا بتربيتها عناية فائقة، فقد ذكر (ابن بطوطة) عند زيارته لزيلع ومقديشيوأن في هاتين المدينتين حيوانات كثيرة، ففي زيلع أغنام مشهورة بالسمن، وفي مقديشيوجمال كثيرة، ينحرون منها المئات في كل يوم. وبلغ من اهتمام الململين في شرق

1- الوزان، حسن: وصف أفريقيا، ترجمة محمد الحجي، دار الغرب الإسلامي (بيروت، 1983)، 186/1.

2- بكار، عبدالرحمن صالح: انتشار الإسلام والثقافة العربية في شرق أفريقيا، رسالة ماجستير نوقشت بتاريخ 2001/12/31 بكلية الآداب، جامعة قاريونس، ص182.

3- محمد عوض: الشعوب والسلالات الأفريقية، ص207.

4- سبنسر ترمنجهام: الإسلام في شرق أفريقيا، ص12.

أفريقيا بالثروة الحيوانية وتنميتها، أن أصبحت الخيول والجلود ومنتجات الألبان من أهم صادرات المنطقة. وأدخل العرب إلى شرق أفريقيا طرقاً هندسية متطورة جداً للمباني، وذلك باستعمال الأسمنت والجير، واستعمال الأحجار في البناء، فحل الطراز الإسلامي، في بناء المنازل والقصور والمساجد، محل الأكواخ الأفريقية ذات الأسقف المخروطية التي كانت تبنى بجذوع الأشجار العربية إلى شرق أفريقيا، في تطور وتقدم الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية؛ فقد جاء العرب المسلمون بحضارة جديدة، أتاحت للشعوب الزنجية طابعاً حضارياً متميزاً، مازال واضحاً حتى اليوم، حيث جعل الإسلام من المجموعات والقبائل الوثنية المنعزلة والمتفرقة شعوباً متحضرة ذات أفق واسع، ورفع من مستوى حياتها الاجتماعي والثقافي، وخلع الإسلام على أتباعه الأفارقة الكرامة والعزة.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

1- ابن أبي زرع، أبوالحسن علي بن عبدالله، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (الرباط، 1973).

2- ابن الأثير، أبوالحسن علي، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي (بيروت، 1980ف).

3- ابن بطوطة، محمد بن عبدالله بن محمد، رحلة بن بطوطة، تحقيق: أحمد العوامري (القاهرة، 1934ف).

4- ابن جبير، محمد بن أحمد. رحلة ابن جبير (بيروت، 1981ف).

5- ابن حوقل، أبوالقاسم محمد بن عبدالله. كتاب صورة الأرض، مكتبة الحياة (بيروت، بدون تاريخ).

6- ابن كثير، عماد الدين أبوالفداء. البداية والنهاية، دار الغد العربي (القاهرة، 1991ف).

7- الإدريسي، أبوعبدالله محمد بن محمد. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشرة دوزي ودي غويه (ليدن، 1966ف).

8- الحنبلي، أبوالفلاح عبدالحي بن العماد. شذرات الذهب في أخبار من ذهب (القاهرة، 1350هـ).

9- الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر (القاهرة، 1965ف).

10- القلقشندي، أحمد بن علي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة، بدون تاريخ).

11- المسعودي، أبوالحسن علي بن الحسين: 1- أخبار الزمان ومن إباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران (بيروت، 1966)؛ 2- التنبيه والإشراف (بدون مكان، 1938ف).

12- الوزان حسن بن محمد. وصف أفريقيا، ترجمة: محمد صبحي ومحمد الأخضر، (بيروت، بدون تاريخ).

ثانياً: المراجع

13- إبراهيم، محمد عبدالفتاح. أفريقية من نهر السنغال إلى نهر جوبا، مكتبة الأنجلوالمصرية (القاهرة، 1961ف).

14- أبوبكر، علي الشيخ أحمد. الدعوة الإسلامية المعاصرة في القرن الأفريقي (الرياض، بدون تاريخ).

15- الأحمر، محمد مصباح. أفريقيا والعرب (طرابلس، 1999ف).

16- أسبر، أمين. أفريقيا والعرب، دار الحقائق (القاهرة، 1980ف).

17- أوليفر، رولاند وجون فيج. موجز تاريخ أفريقيا، ترجمة دولت أحمد صادق، الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة (القاهرة، 1965ف).

18- بشير، محمد عمر. العلاقات العربية الأفريقية (الخرطوم، 1984ف).

19- بكار، عبدالرحمن صالح. انتشار الإسلام والثقافة العربية في شرق أفريقيا، رسالة ماجستير نوقشت بتاريخ 2001/12/31ف بكلية الآداب بجامعة قاريونس.

20- بولم، دنيس. الحضارات الأفريقية، ترجمة: علي شاهين (بيروت، د.ت).

21- بيريز، رونالد. تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة راشد البراوي (دار الوعي العربي، د. ت).

22- ترمنجهام، سبنسر. الإسلام في شرق أفريقيا ترجمة: محمد عاطف النواوي (القاهرة، 1973ف).

23- الجمل، شوقي. 1- تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، مكتبة الأنجلوالمصرية، (القاهرة، 1971ف)؛ 2- دور العرب الحضاري في أفريقيا (القاهرة، 1987ف).

24- الجمل، شوقي وعبدالله عبدالرزاق إبراهيم. تاريخ المسلمين في أفريقيا ومشكلاتهم، دار الثقافة (القاهرة، 1966ف).

25- جوليان، شارل أندريه. تاريخ أفريقيا، ترجمة طلعت عوض أباظة، مراجعة عبدالمنعم ماجد، دار المعارف (القاهرة، 1968ف).

26- الحداد، محمد أحمد مشهور. حقائق تاريخية عن العرب والإسلام في أفريقيا الشرقية، دار الفتح (جدة، 1973ف).

27- حسن، حسن إبراهيم. 1- انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1963ف)؛ 2- انتشار الإسلام والعروبة في الصحراء الكبرى (القاهرة، 1957ف).

28- حسن، يوسف فضل. 1- انتشار الإسلام في أفريقيا (الخرطوم، 1979ف)؛ 2- الجذور التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، مركز الدراسات العربية (بيروت، 1984ف).

29- حسين، أحمد إلياس. سلع التجارة الصحراوية، تحرير عماد الدين غانم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية (طرابلس، 1979ف).

30- الخشاب، رفيق وإبراهيم المشهداني. أفريقيا جنوب الصحراء، وزارة التعليم والبحث العلمي بالجمهورية العراقية (بغداد، 1978ف).

31- ذياب، أحمد إبراهيم. لمحات من تاريخ أفريقيا الحديث، دار المريخ (الرياض، 1981ف).

32- رفلة، فيليب. الجغرافية السياسية الأفريقية، مكتبة الوعي العربي (القاهرة، 1965ف).

33- زكي، عبدالرحمن. المسلمون في العالم اليوم (أفريقية الإسلامية) مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1958ف).

34- شاكر، محمود. 1- تنزانيا، مؤسسة الرسالة (بيروت، 1971ف)؛ 2- نيجريا، مؤسسة الرسالة (بيروت، 1971ف).

35- شلبي، أحمد. موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء أفريقية منذ دخلها الإسلام حتى الآن، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1983ف).

36- شهاب، حسن صالح. أضواء على تاريخ اليمن البحري، دار العودة (بيروت، 1981ف).

37- صادق، دولت. شرقي أفريقية دراسة في جغرافية الإسلام، المؤتمر الجغرافي الأول (بدون مكان، بدون تاريخ).

38- الطناشي، خديجة أحمد. العلاقات السياسية بين القوى الإسلامية والمسيحية في الحبشة خلال النصر الأول من القرن السادس عشر الميلادي، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين (طرابلس، 1996ف).

39- عابدين، عبدالمجيد. بين الحبشة والعرب (القاهرة، 1947ف).

40- عبدالظاهر، حسن عيسى. الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني في مطلع القرن الثاني عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، دار الهلال (الرياض، 1981ف).

41- العمري، أحمد سويلم. الأفريقيون والعرب، مكتبة الأنجلوالمصرية (القاهرة، 1967ف).

42- عودة، عبدالملك. العرب وأفريقيا، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت، 1984ف).

43- الغنيمي، عبدالفتاح مقلد. حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا (القاهرة، بدون تاريخ).

44- غيث، فتحي. الإسلام في الحبشة عبر العصور (القاهرة، 1962ف).

45- الفاسي، محمد وإيفان هربك. تاريخ أفريقيا العام (اليونسكو، 1988ف) الجزء الثالث.

46- الفيتوري، عطية مخزوم. دراسات في تاريخ شرق أفريقيا وجنوب الصحراء، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1998ف).

47- قاسم، جمال زكريا. الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة، 1975ف).

48- قاسم، عون الشريف. دراسات أفريقيا، العدد السادس (بدون مكان، 1990ف).

49- لويد، ب.س. أفريقيا في عصر التحول الاجتماعي (الكويت، 1980ف).

50- محمد، إبراهيم. دولة زنجبار الحديث في عهد السلطان سعد بن سلطان، منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي (طرابلس، 2000).

51- ويدنر، دونالد. تاريخ أفريقيا، ترجمة: راشد البراوي (بيروت، بدون تاريخ).

الهجرات اليمانية إلى موريتانيا

قراءة في الأنساب والتاريخ

د. حماه الله ولد السالم

أستاذ التاريخ بجامعة نواكشوط

هذه السطور مراجعة لأنساب وتاريخ القبائل الموريتانية ذات "الأصل" اليمني، وهي: قبائل صنهاجة، قبائل عرب الأمصار، قبائل "بنوا حسّان". إنطلاقا من الروايات المحلية والمصادر العربية والدراسات المعاصرة، سعيا إلى التعريف بجانب منسي من تاريخ العرب في غرب الصحراء وأحوازها في أقصى المغرب الكبير.

تقديم:

درجت السيسيولوجيا الاستعمارية على اعتبار الانساب مُشَجَّرَات وهمية لتسويغ الانحدار من أجداد مشتركين هم في الأغلب إسميُّون لا وجود لهم في الواقع؟

والحق ان هذا النظر حسير لسببين جوهريين :

1- جهل الباحثين الغربيين بحقيقة النسب في الشريعة الاسلامية وفي المجتمع والثقافة العربيين.

2- دراسة المجتمعات العربية والاسلامية من منظور المعرفة التاريخية والاجتماعية الغربية دون مواءمة الأدوات التحليلية مع خصائص النسق المحلي.

وبفعل هذه الاسباب وغيرها، انتشرت بين الباحثين العرب والمسلمين دراسات تنحو منحى مناقضا للدين والتاريخ في بحث قضيا الانساب ومتعلقاتها.

إن النسب يشكل أهم مقومات الهوية العربية ـ الاسلامية ولايمكن التخلي عنه مهما

كانت المسوغات، سيما في عصر تواجه فيه هوية الأمة مخاطر جسيمة.

لكن هناك محددات لايمكن تجاهلها عند مقاربة المشجرات الانسابية المحلية:

1. أن الانساب، الفعلية والرمزية، هي ركن الهوية العربية لأهل هذه البلاد.

2. ان النسب الذي لايمكن التحقق من تاريخيته لايمكن الحديث عنه أصلا. مثل من ينتسب لمحتد من عرب لم يفدوا إلى شبه المنطقة أو نُمي إلى عَلَم لم يَرِدْ قدومه في مصدر موثوق أولم يكن له عقب أصلا.

3. ان التحقق من نسب بعينه لايعني التحقق من انتساب المجموعة كلها، إذ قد يكون المحتد الموثوق خاصا بأسر معينة لا بالقبيلة كلها.

4. إن النسب لايعني النقاء العرقي فبنوحسان، وهم عرب لاشك في عروبيّتهم، خالطهم زناتة - كما يقول ابن خلدون - وتابعوهم حذوالنعل بالنعل وانتحلوا أنسابهم وزيهم وشعارهم ونحلتهم من العيش والغزو..في الحديث المعروف ضمن الجزء السادس من تاريخ العبر.

5. مُشجّرات الانساب وثائق لايمكن تجاهلها لأنها كفيلة، إن وضعت في متوالية زمنية منسجمة، بالافصاح عن معان تاريخية خفية. فقد يتم من خلالها الوعي بحقيقة تطور انتشار الاسلام والثقافة العربية في المنطقة تساوقا مع تطور العلاقات التجارية وتقلبات السياسة والتبرمات البشرية المختلفة. بالرغم من أغلب الأنساب في موريتانيا كُتب في سياق الدفاع عن الهوية العربية للموريتانيين "الشناقطة" في المشرق العربي عندما دخلوا في صراع مع المجاورين في الحجاز من أجل نيل حصة من أوقاف الحرمين[1].

لقد شكل دخول الاسلام إلى البلاد الموريتانية وماجاورها أنقلابا في البنية الاجتماعية حيث تم التخلي تدريجيا عن النسب الأموسي والانتقال بصورة حاسمة نحوالنسب الأبيسي،

---

1 -راجع: د. حماه الله ولد السالم: موريتانيا في الذاكرة العربية، قيد النشر لدى مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت. الفصل الخامس.

ولم يكن ذلك مجرد تبدل في طريقة الانتساب بل كان انقلابا في النظم السوسيولغوية نتجت عنه أوضاع ثقافية وحضارية جديدة على مستوى علاقات الأفراد والجماعات ورؤيتها للحياة بل للوجود[1].

وكان هذا الانقلاب أشد أثرا في البلاد الافريقية التي انتشر فيها الاسلام وتميزت على مناطق التخوم الغابوية وإلى اليوم في كل ضروب الحياة.

يحلوللكاتبين والباحثين الغربيين ولا سيما الفرنسيين التأكيد على ان البلاد الموريتانية يقطنها شعبان لا رابط بينهما بالرغم من اسمهما المشترك : البيضان، وهما صنهاجة وبنوحسان ؟

والحق أن البحث عن هذا النوع من الثنائيات المانوية في تواريخ الأمم هوديدن بحاثة الغرب ودارسيه.

لسنا هنا بصدد البحث في أصول التعرب وعلائقه في بلاد البيضان ولا عن الحقائق التي باتت ثابتة عن علاقة صنهاجة باليمن وعمان، بل نحن بصدد التنبيه على حقائق تاريخية حول الانساب في موريتانيا وغرب الصحراء والساحل عموما والمراجعة التاريخية لبعض أصول وهجرات العرب نحوالبلاد في عهود مختلفة.

لقد ظل الباحثون الغربيون ينفون إمكانية التغلغل نحوغرب الصحراء منذ عهود الفينيقيين إلى انتشار الاسلام وحجتهم في ذلك ان عملية الإبحار المسماة : المُسَاحلة التي كانت تقوم بها السفن الفينيقية لم تمكنها من التغلغل جنوبا بفعل شدة التيارات البحرية الاطلسية ؟[2] وبذا لم تقع رحلة حانون "المزعومة" والحال نفسه ينسحب على العلاقات عبر الصحراء فهم ينفونها ابتداءا؟

---

1 . راجع: عبد الودود ولد الشيخ في أطروحته : البداوة، الإسلام والسلطة السياسية في مجتمع البيضان .
وعنوانها بالفرنسية: A.W.CHEIkh,Nomadism, Islam et Pouvoir Plitique dans la societee Maur pree colonial. These de Doctorat , Paris. 1985, 3 vol, vol 1,

2 . راجع: رايمون موني: R.Mony, Tableau Geographique de l~Afrique.., memoire de l~IFAN, DAKAR, 1961

وهم في كل ذلك متوجسون من حقيقة الحضور الفينيقي تأسيسا لما يزومون من تقطيع لأوصال الحضارة والتاريخ في المنطقة. كما هوشأنهم مع صلة اسم حروف لغة التوارق: تيفناق، بالفنيقية ؟ حيث يقول المتعصبون البربر المعاصرون إن معناه: اكتشافنا ؟ وهومجرد تمحل لأن مبنى كلمة: تيفيناق يفصح عن معناها الجلي: الفينيقية.

والأمر ذاته ينسحب ـ وبصورة مضاعفة ـ على الفتح العربي للبلاد الموريتانية فهوفي نظرهم لم يقع بصورة فعلية بل قصارى مده تخوم السوس في بلاد المغرب[1].

والحق إن حجتهم في ذلك داحضة لوجود الشواهد التاريخية الموثوقة على الحملات المتكررة للفاتحين العرب في أواخر القرن الهجري الأول وأوائل تاليه مثل حملات أحفاد عقبة بن نافع الفهري وأحفاده[2] وحملات المشترى بن الأسود في عهد ولاية اسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب على السوس[3]. وتدل الشواهد المكتشفة أخيرا في بلاد الحوض من الشرق

1. ـ راجع: ت. ليفتشكي: "دور الصحراء وأهل الصحراء في العلاقات بين الشمال والجنوب"، : تاريخ افريقيا العام، ج3، ص 341

2. ـ راجع: إبن القاسم: تاريخ إفريقية والمغرب، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990، ص15

3. ـ من أشهر هذه الحملات ما يتحدث عنه أبو الخطاب الأسد أن الأزدي (ت: 145هـ/762م أو 147هـ/764م) فقد اقتبس في رواية من رواياته نقلها ابن الفقيه العبارة الآتية عن القائد العربي المشترى بن الأسود: "غزوت بلاد أنبية عشرين غزوة من السوس الأقصى فرأيت النيل (عله نهر السنغال) بينه وبين الدحو الأجاج كثيب .." وحسب ابن الفقيه فإن بلاد أنبية هي أرض صنهاجة الواقعة بين السوس وغانا أي " الممتدة عبر ميسرة 70ليلة في سهول وصحراوات مما يعني أن هذه الغزوات قد اخترقت هذه المنطقة في نظرنا بمحاذاة الساحل حتى مصب النهر، فلعلها خضدت شوكة الكداليين تحديدا . وينبغي التساؤل عن اسباب ورود اسم أبي الخطاب هذا وعن علاقته بابن الأسود . فأبو الخطاب هو محمد بن أبي زينب الأسدي ويعرف بمقلس الأجدع وكان من أصحاب جعفر الصادق، قبل أن يتبرأ منه الأخير لمغالاته فيه، وقد اكتسب انصارا لآرائه حتى بلغت فرقهم 50 كل منها تسمى الخطّابية، ولا يعرف عن حياته الأخرى سوى أن عيسى بن موسى والي الكوفة من قبل العباسيين قتله عام 760/143، راجع: (مادة: أبو الخطاب) في الموسوعة الإسلامية ط2 (بالفرنسية). وانظر الكشي: معرفة الرجال، بومباي، الهند 1317هـ والنوبختي، فرق الشيعة نشر هاتري ريتر اسطنبول

الموريتاني، قرب أطلال كمبي صالح الدراسة، على وجود حروب وصراعات من هذا القبيل: درع زرده من أحسن دروع تلك العصور ولاصلة له بالجنوب ؟

والمهم لدينا إن التأثير العربي ـ الاسلامي بين صنهاجة اللثام قد صار جليا منذ القرن الثالث والرابع الهجريين بدليل الانتساب الأبوي في المشجرات الانسابية لملوك أوداغست

ولم يأت القرن الخامس إلا وقد تعمق إسلام الصنهاجيين مع الحركة المرابطية التي كان قادتها أهل ورع وفقه مما عزز من نزعتهم العربية سعيا للتعمق في الدين وربط الصلة بأهله، ، حيث كانوا ينزلون من على المنبر من لايحسن العربية ؟ عكسا لما يشاع من عدم اهتمامهم بالعربية وآدابها، وأغلبه كُتب في عهد خصومهم الموحدين.

والمهم أن نفي التسرب المبكر للدماء العربية إلى الحقبة الصنهاجية الأولى قبل المرابطين بله بعدهم، فيه كبير حيف وتسرع في الأحكام، نظرا للنصوص التي أكدت على "بقية الجيش الذي أنفذه بنوأمية " و"النُّبَذِ من سائر الأمصار" في أسواق أوداغست حسب تعبير البكري. ومنهم التجار العرب الخلص إضافة إلى أسماء التجار العرب المذكورين كتب المسالك والممالك المقيمين بالصحراء والسودان في تلك العهود[1].

وفي العهد المرابطي وصل كبار العلماء من أغمات صحبة أبي بكر بن عمر اللمتوني،

1921، أما المشترى ابن الأسود ويَرِدُ اسمه بصيغ مختلفة في المخطوطات، فلا تشير المصادر إلى معلومات أخرى عنه لكننا نحسبه هو القائد المسمى المستنير بن الخراش الذي كان قائد للجيوش في عهد عبيد الله بن الحبحاب 116/724و122/740 فلعله تولى قيادة الحملات على الصحراء والتي كانت تنطلق من السوس في عهد إسماعيل ابن عبد الله بن الحبحاب الذي تولى حكم ولاية السوس (سنة 116هـ /734م) راجع :

- ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، طبعة ليدن، دا، ت، ص: 24 .
- ليفتشكي، مرجع سابق، صص: 342- 343 .

1 ـ أنظر: البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب .. وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، ترجمة وتحقيق دوسلان، الجزائر، 1857، (إعادة نشر دار المثنى ببغداد، وتصوير دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة)، ص 158

وأشهرهم أبوبكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي وهوعربي قح لأنه من مراد صلبية [1]، لكنه عاش في محيط صنهاجي ظل هونفسه يتشبث بالأصل الحميري ؟.

أولا ـ صنهاجة [2]:

ظلت القبائل الصنهاجية تتشبث بالنسب الحميري وتفتخر به في عهد الدولة المرابطية على النحوالمشهور في أيام يوسف بن تاشفين.

وقد مُدِحوبذلك مثل ما أنشده أبومحمد بن حامد الكاتب [3]:

قوْم لهُمْ شرَفُ العُلَى منْ حِمْيَرٍ ... وإذا انْتَموْا لمَتُونَةَ فَهُمُوهُمُو

لمَّــا حَوَوعَلْيَــاءَ كُلِّ فَضِيلَةٍ ... غلَبَ الحياءُ عَلَيْهُمُوا فَتَلَثَّمُوا

ويقول ابن الخطيب :

وَطلَــعَتْ بِمغْــرِبٍ لُمْتُونَهْ ... دوْلَتُــهُمْ ميْمـونة مصــونَةْ

تضُمُّ دِينًا لِعَفَافٍ لِــكَرَمْ ... لمْ يُدْرَ قَدْرُ فَضْلِهَا حَتَّى انْصَرَمْ

منْـها ، أبوبكرٍ حليفُ الدينِ ويوسفُ ، وهْوابْن تاشفِينِ

ويؤكد النسابة عروبة صنهاجة وكتامة وأنهما دخلتا بلاد المغرب قبل الإسلام في عهود قديمة بعد انفجار سد مأرب ، ويلحّون على حميرية القبيلين.

ومن النسابة الذين قالوا بذلك : إبن الكلبي ت147/763م، محمد بن سلام الجمحي ت232هـ/846م، الزبير بن بكار ت256هـ/869م، اليعقوبي ت285/897م،

---

1 . راجع حول الحضرمي وعلاقته بالمرابطين في موريتانيا ونظريته في السياسة ، تحقيق رضوان السيد لكتاب الإشارة في أدب الإمارة للمرادي الحضرمي ، بيروت ، المعهد الفرنسي .

2 . حول معنى هذه التسمية ، راجع : صدقي علي أزايكو : "التأويل الجنيالوجي في شمال إفريقيا" ، مجلة حوليات كلية الآداب بالرباط، 1989- 1990 ، العدد 15 ، صص 9- 34

3 . إبن خلكان : وفيات الأعيان ... جامعة صنعاء ، د.ت ، ج3 ، ص 463

الطـبري ت310هـ/ 923م، الهمـداني ت334هـ/ 945م، الجرجـاني ت523هـ/ 1128م، إبن الأثير ت648هـ/ 1249م، وغيرهم كثير زاد على العشرين.

ولعل ذلك هوماقصده المؤرخ الراحل إبن حامد بقوله:

والْحِمْيَرِيَّةُ في لُمْتُونَ حرَّرَهَا عشرونَ عدْلاً أَمَا تكْفِيكَ عِشْرُونَهْ

لكن إبن خلدون شكك في تلك النسبة وجعلها من تخاريف المؤرخين ومن الأغاليط والأخبار المصنوعة التي يأباها العقل وتنفر منها الملكة السوية بل يرفضها نسابة البربر.[1] لكن السؤال يبقى معلقا وهو: ما صلة البربر عموما وصنهاجة خصوصا بما اكتُشف ويكتشف في اليمن وعمان من لغات ونقوش وشعار وموسيقى تشابه إن لم تطابق ما لدى الأمازيغ في شمال إفريقيا؟

لسنا بصدد الحسم في هذا النقاش ـ وهل نستطيع ـ بل نتركه للمختصين ونولّي وجوهنا شطر أصول عرب الأمصار من القبائل الموريتانية غير الصنهاجية وغير الهلالية؟

ثانيا. عرب الأمصار:

بعد العهد المرابطي توالى قدوم الأفراد والجماعات العربية تعلقا بالقوافل طلبا للرزق أوهربا من تقلبات السياسة في بلاد المغرب الاسلامي لاسيما عبر السوس وتوات أوانسياحا مع هجرة القبائل العربية من بني حسان.

توجد بعض القبائل الموريتانية التي تصر على انتسابها للأرومة العربية اليمانية من خلال تعلقها بالمحتد الأنصاري.

القبائل الأنصارية:

يرى الباحث الموريتاني القدير محمد بن مولود بن داداه الشنافي إن التدرج الأنسابي من الأنصارية إلى القرشية العامة إلى الشريفية في تقاليد البيضان المروية والمكتوبة كان بالتساوق

---

1 ـ راجع: إبن خلدون: العبر..، بيروت: دار الفكر، د.ت، ج6 ص 203 وما يليها.

مع تطور العصبيات السياسية في المغرب الإسلامي وتردد أصداء ذلك الصراع في الصحراء. كما أن التعلق بالنسب الأنصاري يبدووثيق الصلة بأطروحة الأصل الحميري التي انتشرت بين البربر إبان الفتح ثم ألح عليها المؤرخون في العهد المرابطي. ثم يذكر أن الانتساب إلى الأنصار ربما ارتبط بالتشاكل بين النسبة الأنصارية واسم قبيلة إنصارن [= إنزار، ينصر..] المعروفة في النطق العربي ب: بنويتصر أوينويتسر، وهي إحدى كبريات القبائل المسوفية التي كانت تنتشر في الشمال الشرقي الموريتاني حاليا.

وعلى أساس من ذلك يتتبع هذا البحاثة القدير في عمله الشهير: على محاور آوداغست[1] أصول التشكيلات المسوفية من خلال ترميم الروايات التاريخية حول أودغست وسكانها.

ومهما كان حظ هذه الفرضيات من المشروعية فإن هذا الباحث وغيره لا يمكنهم التغاضي عن روايات أخرى بعضها مثير للفضول.

ثم ان ذلك التحليل النمطي لايكفي لتفسير السيرورة المعقدة للتعرب والقبلنة لتكون القبائل] ولافهم ركام الشواهد المحلية والعربية حول المشجرات النسبية والثقافية للمجموعات والافراد.

إن القبائل الموريتانية التي تتعلق بالمحتد الانصاري ليست كثيرة، كما أن هذا المحتد لا يثير الكثير من النقد لدى الكاتبين المحليين.

إننا لن نتتبع رواة قبيل بعينه إلا عرضا، بل سنركز على سياق الروايات وشواهدها فالمشجرات الانسابية البيضانية الانصارية لا تعدورافدين أساسيين :

1- الانتساب لأبي دجانة الانصاري : ويأخذ به التاكاطيون، التيدراريون

2- الانتساب للخزرج الاندلسيين : وبه أخذ البُصَاديُّون والخطّاطيون

---

1 ـ محمد بن مولود بن داداه الشناقي : على محاور أوداغست، عنوانه بالفرنسية :
M.CHENNAFI, sur les Traces d~Awdaghost. in: Tagdawest et leeur Ancienne citee. Paris. 1970, pp90-103

بخصوص الانتساب للأنصار عموما يتحدث ابن حزم في الجمهرة عن الفروع الانصارية التي دخلت إلى مصر وإفريقية والمغرب ويشير في هذا السياق إلى ذرية أبي دجانة وذرية سعد بن عبادة وبني عمومته في الاندلس[1].

ذرية أبي دجانة الانصاري معروفة في صقع إفريقية من القرن الخامس الهجري: ذكرها البكري في حديثه عن قوم من ذرية أبي دجانة في قرية الانصاريّين قرب إفريقية [تونس]، يعرفون ببني جابر بن عبد الله[2].

ويُفْهم من المصادر المتعلقة بنفس الفترة إن المعنيين فروا كغيرهم من سكان إفريقية لما داهمهم الزحف الهلالي الذي طوق إفريقية حتى أنَّ الاقامة بالقيروان لم تعد مأمونة منذ سنة 444هـ. ولذلك لا نعجب أنْ كَثُرَتْ هجرة العلماء والادباء القيروانيين إلى أغمات في عهد كان الزحف المرابطي نحوالمغرب قد قَرُبَ أوانه وهوالسبب الاول في اللقيا الشهيرة بين الامير المرابطي أبوبكر بن عمر اللمتوني والمتكلم القيرواني أبوبكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي. ثم أن رواية قبيلة تاكَاطْ تذكر أنَّ جَدَّها محمد النَّقَاضْ [سُمي بذلك لشهرته في نقض الأحكام]، كان من قضاة مجلس الامير اللمتوني وأنه جاء معه من أغمات كغيره من النبهاء الذين صحبوه. ولعل اسم هذا القاضي تَصَنْهَجَ في إقامته بين المرابطين بدليل أن اسمه الاصلي محمد بن زياد فجعل الترخيم الصنهاجي اسمه محم؟ كما هوشأن اسم حموفي عرب البرابش من الرحامنة وغيرهم من عرب المغرب.

أما بخصوص أولاد تيدرارين[3] فهم ينتسبون إلى المحتد الانصاري من نسب أبي دجانة من خلال جدهم سرحان بن كلي وينسحب على روايتهم السياق التاريخي المتعلق بالتاكاطيين.

---

1 - إبن حزم الأندلسي الظاهري: **جمهرة أنساب العرب**، بيروت: دار الكتب العلمية، 1403هـ - 1983م، 1- 2، صص364- 366

2- البكري: مصدر سابق، ص 47

3 - إبن حامد: **موسوعة حياة موريتانيا**، القسم الخاص بقبيلة أولاد تيدرارين، مودع في دار الثقافة، نواكشوط - مرقون.

وبخصوص الخطاطيين فهم ينتسبون لبني الاحمر ملوك غرناطة وهم، كماهومعروف، من الخزرج ونسبهم الانصاري مشهور مذكور في الاندلس.

أما البصاديون فانتسابهم إلى ذرية قيس بن سعد الانصاري وقد فصل ابن حزم في نسبهم وفروعهم بالاندلس وذكر سراتهم في شذونة واشبيلية وقرطبة وغيرها.

ومدحهم بنسبهم الأنصاري العالم محمد اليدالي ت 1166هـ:

بُصَادُ أنْصارُ خيْرِ الخلْقِ قاطبةً أكْرِمْ بُصَادَ من حيٍّ ومن ناد

يكفيهموأنّهم انْصارُ سيِّدنا أقْفَاءُ آثارِهِ في الْوَسْمِ بالصَّادِ

وعندما أراد العلامة الشاعر محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري ت 1271هـ أن يرثي الشاعر العالم غالي بن المختار فال البصادي مدح قومه أولاد الطالب مالك البصاديين بنسبهم الأنصاري فقال:

وكان من الأعيان أبناءِ مالكٍ ألا إنّهم قومٌ كرامٌ مَصَاقِعُ

وهُمْ من نسْلِ أوْسٍ وخزْرجٍ بهِمْ بُنِيّتْ للمسلمين الصرامع

ويقول الشاعر العالم حَسَّنَا بن الشيخ المعلوم البُصَادِي ت. ق20م:

أيا سائلا عنَّا وإنْ كُنْتَ وَسْنَانَا سَرَاةُ البُصَادِيِّين من نَسْلِ قَحْطَانَا

وأجْدَادُنَا أوْسٌ إذا مَاجَهِلْتَهُمْ وفُرْسَانُنَا سَعْدُ وعمْروَوحَسَّانَا

ولكن التفصيل الادق حول الانصاريين الاندلسيين نجده في مؤلفات ابن الخطيب الاندلسي لاسيما: اللمحة البدرية، كناسة الدكان بعد إرتحال السكان، نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب، وغيرها من التصانيف.

وفي الكناسة فصّل في نسب النَّصْرِيِّين الذين ينحدر منهم بنوالاحمر الذين ينتسب لهم الخطاطيون. وفي نسب النصريين ذكر السلسلة الصاعدة إلى قيس بن سعد الذي ينتسب له البصاديون، كما ذكر أنّ النَّصْرِيِّين كان لهم شعارٌ يَسِمُونَ به مواشيهم وهوحرف الصاد

بالخط الكوفي وهونفسه شعار قبيلة البُصَادِيِّين الذي يَسِمُون به أنعامهم ويمِّيزون به أموالهم. كما ذكر ايضا أن للنَّصْريين شعارا يضعونه على أعلامهم وهو: نَصرَ، وهونفسه كلمة الشرف التي يلتزمها البصاديون وتعرف محليا بـ"التمجيدة".

وفي مستوى آخر كان ابن الخطيب تتبع وجود النصريين بأحواز السوس بالمغرب وأشار إليهم هناك.

وفي كتاب بيوتات فاس لمؤلف مجهول[1] ذكر لبيوتات الانصاريين ومن بني الاحمر في فاس وأحوازها في القرون التالية وكيف استبد بهم الفقر والضيعة والشتات.

وفي القرن الحادي عشر الهجري تمدنا المصادر المغربية الموثوقة بأخبار عن الاسر الانصارية بتارودانت وأحوازها وكيف أسس أبراهيم وابنه أحمد الانصاريان زاوية سيد الناس الشهيرة بتارودانت قبل أن يرثها من حفيدتهما خديجة الانصارية العالم المعروف الناصري الدرعي لتبقى في ذريته منذ ذلك العهد[2]. ولعل هذين الأنصاريين من أجداد قبيلة البُصَادِيِّينَ الموريتانية آنفة الذكر وتسمى أيضا في النطق الدارج: دوبُسَاتْ: تحريف إسمها القديم: أولاد أحمد أبوصاد.

ولاشك أنّ الوصول من السوس إلى الصحراء ميسور سهل، كما أن رواية البُصَادِيِّينَ تفصح عن اسم الجدّ الأعلى لهم وهوأحمد الملقب أبوالصّاد وتَذْكُرُ شهرته بالصلاح والزهد فلعله أحمد بن ابراهيم الانصاري صاحب زاوية سيّد الناس المذكورة.

كما تذكر رواية البُصَادِيِّينَ أنهم كانوا، في القديم، أُسَرًا قليلة العدد تجوب تلك النواحي منذ القرن التاسع الهجري على الأقل.

وقد يتحدث ملاحظ عن وجود الاسماء الصنهاجية في المشجرات الانسابية للقبائل المذكورة وكيف أن ذلك أدعى بها إلى العُجْمة ؟ والحق أن الملاحظة في محلها من حيث المبدإ

---

1 - مجهول: بيوتات فاس، طبعة الرباط، د.ت .

2 - راجع: معلمة المغرب، الطبعة الجديدة، مواد: الأنصار، الأنصاري وما يليها من نفس النسبة. .

لكن السياق التاريخي هوالفيصل في تلك التشابكات اللسانية والاجتماعية.

فوصول مجموعات من عرب الاندلس أوإفريقية أوالمغرب إلى الصحراء وفي عصور متقدمة وحلولها بين مجموعات صنهاجة الخلص لايترك مجالا لغير التأثر بالصَّنْهَجَةِ قليلا أوكثيرا، لكنه لاينفي بأي حال حقيقة النسب الاصلي. ولا أدلّ على ذلك من وجود الحضرمي المرادي ودوره العلمي والديني في أزوكي عاصمة المرابطين ضمن محيط صنهاجي شبه كامل. ضف إلى ذلك أن التشاكل بين الاسماء لاعبرة به: بنوحسان عرب في موريتانيا، وبنوحسان البربر في بني ورياغل من المغرب، والمعلوم أنه لاصلة تجمع القبيلين. والحال نفسه في أعلام بني حسان: تروز، بركني... وهي كلها أسماء بربرية لقادة عرب معروفين.

ثم أن تواصل هذه المجموعات مع بني جلدتها في البلاد الاصلية سهل وميسور عبر القوافل التي تتردد بين المغرب والصحراء على مدار العام.

لا بل أن بقاء آثار الاجداد في أيدي الاحفاد أعظم شاهد على حقيقة النسب وتاريخيته، بدليل وجود نسخة من كتاب إعراب القرآن للعكبري بخط الجد الخامس لابن أطوير الجنة الحاجي الصيامي كانت متداولة إلى أيامه مع ابن الحاج ابراهيم بتججكة[1]. والجد المذكور عربي قرشي من أغمات.

وتَسَرُّبُ العُجْمَةِ إلى الاسماء العربية قديم مشهور، ومنه في بلادنا: بركنّي: تحريف للكلمة البربرية: أبركان: الأسود، وهوحال أسماء أخرى مثل: تَرُّوز، بنيوك، وغيرها من الاسماء الصنهاجية التي تسربت إلى أنساب بني حسان دون أن تغيّر من نسبتهم العربية شيئا.

وإضافةُ: إدو، إدا، معروفة في أسماء القبائل العربية المعقلية التي خالطت صنهاجة وزناتة، مثل: إدومنيع، ويعرفون أيضا باسم آخر: دوي منيع..

والحال نفسه ينطبق على اسماء القبائل الانصارية المذكورة: فالْبُصَادِيُّونَ[2]: أولاد أحمد

---

1 ـ راجع: الطالب أحمد بن طوير الجنة: رحلة المنى والمنة، مخطوط.

2 ـ اليصاديون ويعرفون باسم محلي هو " دَوْ ـ بُسَات": من كُبْريات القبائل الموريتانية ذات الشأن الديني

بوصاد، تحَوَّر اسمهم إلى: إيدوبُسَات، أوإيدُو. بُصاد ثم بقي على النحوالاول لسهولة نطقه على أخوالهم من القبائل اللمتونية، والدليل على ذلك أن جُلَّ البطون البُصادِيّة التي لاخؤولة لها في صنهاجة بقية أسماؤها عربية أما البطون الاخرى فقد تصنهجت أسماؤها: أولاد سيد محمد: إِدَ [أولاد]+ آك[ابن] + ميام [مريم]: أي: أبناء بنت مريم وهي كريمة شيخ قبيل صنهاجي الاصل من كبريات أمهات قبائل الزوايا في موريتانيا، وقس على ذلك. بينما بقيت البطون البُصَادِيّة الاخرى التي لاخؤولة لها في صنهاجة ذات تسميات عربية "حسّانية": أولاد عدي في منطقة الكبلة، أولاد بوي في الشرق... واسمهم أولاد ذي الحمى: أولاد بوي آحمي.

وفي اسم قبيلة تاكّاط[1] نقاش منه انه تحريف صنهاجي لكلمة: أبناء القاضي والمعروف أن جدّ قبيلة تاكاط، كان ـ حسب الرواية الشائعة ـ من قضاة المرابطين مقفل أبي بكر إبن عمر من حملته على أغمات.

وإلى جانب ذلك فانتساب قبيلة كَلْ أنْصَار، ومجموعات أخرى من التوارق في المنطقة، للنسب الانصاري، هومن قبيل تشابه الاسماء التي لارابط بينها والنسب الانصاري الاصلي. وذلك لانتفاء الامكان التاريخي ولعدم مناسبة الزمان والمكان.

ثالثا- قبائل بني حسَّان:

1- دخول بني حسان إلى موريتانيا:

قبائل عربية موريتانية تنحدر من حسان بن محمد بن عاقل بن معقل، من القبائل التي جاءت مع الهجرة الهلالية إلى المغرب الكبير في القرن الخامس.

وقد بدأت هجرتها مع بني سليم وبني هلال من نجد بالجزيرة العربية إلى مصر في عهد

والعلمي والبشري، تنتشر فروعها في شرق البلاد وشمالها وغربها. راجع: إبن حامد: مرجع سابق، جزء قبيلة دو ـ بسات [البصاديون].

1 ـ تاكّاط: وهو النطق المحلي لاسم قبيلة أبناء القاضي: من قبائل الدين والعلم في موريتانيا الجنوبية. راجع: إبن حامد: مرجع سابق، جزء قبيلة تاكاط.

الفاطميين ومنها نحو إفريقية في الخبر المعلوم حتى تاريخ فتح المهدية سنة 555هـ/1161م.

بنو حسان بطن من عرب المعقل، المنحدرين، على الأرجح، من عرب اليمن ومن مذحج على نحو خاص، رغم مايذكر خطأ أنهم من الطالبيِّن[1].

وكان وصولهم مع الهجرة الهلالية إلى شمال إفريقية، ثم عمروا صحاري المغرب الأقصى وتغلبوا على فيافيه[2].

كان المعقل في عهد ابن خلدون (ت 808 هـ) في أواخر المائة الثامنة من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى، (...) بقبلة تلمسان وينتهون إلى البحر المحيط من جانب الغرب[3].

واستفحل شأن المعقل في تلك الكصور(= السوس، توات، وركلان، ...) وفرضوا المغارم على سكانها من زناتة، كما صار المعاقل أنفسهم يقدمون ضريبة إجبارية تسمى جمل الرحيل[المغرم ؟] إلى الدولة المرينية، وذلك قبل أن يصبحوا شيئا فشيئا قيمين للمرينيين على جباية الضرائب من سكان وقبائل تلك النواحي.

وطوال العهد الموحدي والمريني، جزئيا، اكتفى المعاقلة بالإقطاعات الواسعة التي نالوها، عن التعرض لقوافل التجارة بين سجلماسة والسودان، وكانت مواطنهم، في أيام ابن خلدون، من درعة إلى المحيط، وينتجعون من السوس إلى الرمال المتاخمة لمجالات الملثمين[4]، لكن يبدوأن هذا التغلغل جنوبا، حتى الساقية الحمراء، كان قبل عهد ابن خلدون بكثير، فقد ذكر ابن عذاري المراكشي[5]، أنه: " في سنة اثنين وخمسين وستمائة تفاقم أمر

1- راجع: ابن خلدون (عبد الرحمن): العبر، دار الفكر، بيروت، د.ت. ج6، صص: 58،59.

2- ابن خلدون، مرجع سابق

3- نفسه.

4- نفسه

5 ـ إبن عذاري: البيان المغرب في ذكر بلاد إفريقية والأندلس والمغرب، القسم الثالث، تحقيق محمد زنيبر و محمد حجي، ص: 403

على بن يدر [صاحب إمارة في الجنوب] بالخلاف في بلاد السوس وانقادت له بعض عرب الشبانات وبني حسان وذلك قبل أن يتصارع حلفاء الأمس سنوات خمس وسبعمائة.

وفي عهد المرينيين أثخن فيهم يعقوب بن عبد الحق[656-685 هـ/1258- 1286م] وحاصرهم يوسف بن يعقوب [685. 701 هـ/1286- 1306م] وأثخن فيهم ثانية سنة 786 هـ مما اضطرهم للتقدم جنوبا[1].

ويذكر ابن حامد أن أولى الحروب التي خاضها الحسانيون ضد صنهاجة كانت من جهة منطقة إكيدي الواقعة شمال آدرار.

واستطرد بهذا الشأن رواية الشيخ محمد الخليفة الكنتي حول فصول صراع أولاد الناصر ضد إيدوكل اللمتونيين، وكيف انتصر أولائك بدعم وسند روحي من سيد محمد الكنتي، على إيدوكل وحولوا أغلبهم إلى أتباع، ثم تقدم أولاد الناصر وبنوعمومتهم من قبائل بني حسان الأخرى فأطاحوا بحكم إديشلي في آدرار، والأبناط في تكانت والركيبة وانيرزيك في الكيلة[2].

وكانت من نتائج هذا الصراع أن عمق بنوحسان التراتبية الاجتماعية من خلال بنائهم لهرم اجتماعي كانوا هم أنفسهم في قمته، واحتكروا اسم العرب، ويأتي في وسطه فئة الزوايا القيمة على الخطط الدينية والثقافية، ثم تأتي في أسفل السلم، القبائل التي تدفع المغرم (الضرائب الإجبارية) وسموها: آزناكة أو: اللحمة، هذا بالرغم من أن ضرب المغارم قد يشمل أي حساني أوزاوي أنهكته الحروب أواضطر لطلب الحماية، أوكان بصدد الانتجاع في مجال محتكر.

واستطاع بنوحسان، بعد مسار تاريخي معقد، أن ينشروا لهجتهم العربية الملحونة الحسانية على كافة البوادي والمدن، حيث اختفت، تقريبا، اللهجات البربرية الخالصة مثل الصنهاجية وانقرضت اللهجات البربرية السودانية المشتركة مثل اللهجة المسماة: كلام أزير

1- راجع: أبو ضيف (أحمد): أثر العرب في تاريخ المغرب، ص: 222_ 224.

2- ابن حامد، مرجع سابق، ص: 61 وما يليها

(= الآزيرية) وهي مزيج من الصنهاجية والسوننكية ازدهر في مدن الساحل على طريق الملح بين بلاد السودان جنوبا وبلاد الصحراء شمالا (بلاد الحوض في الجنوب الشرقي صعودا إلى آدرار في الشمال الموريتاني) إبان ازدهار التجارة بين تجار الذهب السوننكيين والجمالين المسوفيين. وقد كان هذا اللسان رائجا في تيشيت ووادان وشنجيط. وتراجعت كذلك لغة السونغاي التي كانت رائجة في ولاتة مع عهد الرحالة الحسن الوزان (ق 16 م).

ونشر بنوحسان أيضا عادات تناقض موروث البربر الصحراويين: مثل إطالة شعر الرأس بدل حلقه، وحسر اللثام بدل إلزامه، وكان ذلك مما ساعد على تميز الركاب الحجية التي التي بدأت تنطلق دوريا من المدن الصحراوية على نحومستقل بعد أن كانت تندمج في ركاب حاج السودان المسماة الركاب التكرورية[1].

وتدل أوصاف الرحالين الأجانب، والمسلمين، على أن بني حسّان كانوا، قريبا من نهاية القرن 9(هـ/15م) قد أحكموا قبضتهم على المجال الموريتاني وصاروا يراقبون تجارة المدن ويفرضون الإتاوات على قبائل صنهاجة. ثم استمروا في الانتشار حتى سيطر فرعهم الرئيس: المغافرة، وهم عدة قبائل، على جُلِّ البلاد الموريتانية، وأسسوا بها إمارت ورئاسات قوية: مثل إماراة أولاد مبارك في بلاد الحوض وبلاد الرقيبة [الشرق الموريتاني الحالي]، إمارة البراكنة [الجنوب الموريتاني]، إمارة الترارزة [أقصى الجنوب الغربي الموريتاني]، إمارة يحي بن عثمان [في الشمال الموريتاني]، ورئاسة أولاد الناصر ورئاسة أولاد داوُد وكلتاهما في بلاد الحوض من الشرق الموريتاني.

ويثير إنتساب بني حسان إلى المحتد القرشي تسؤلات عديدة بعضها ينسف الإنتساب من جذوره، ويربط المعنيين مباشرة بالنسب اليمني المذحجي!

أما الأطروحة المدافعة عن الأصل اليمني فأساسها ما صرح به إبن خلدون ونصه: "أما أنسابهم - يعني بني حسان - عند الجمهور فخفية ومجهولة، ونسابة العرب من هلال، يعدون عرب المعقل من بني هلال، وهوغير صحيح، والمعقل يزعمون أنهم من أهل البيت، إلى

1- يراجع: ابن حامد، التاريخ السياسي، النسخة المرقونة، دار الثقافة، نواكشوط، صص: 63_65.

جعفر بن أبي طالب، وليس ذلك أيضا بصحيح، لأن الطالبيين والهاشميين، لم يكونوا أهل بادية ونجعة، فالصحيح والله أعلم من أمرهم، أنهم من عرب اليمن، فإن فيهم بطنين يسمى كل واحد منهما بـ"المعقل" ذكرهما ابن الكلبي وغيره"[1].

وقد أثار هذا الرأي ردودا حادة لدى المتأخرين منها رد أحمد بن خالد الناصري السلاوي ت1315هـ/1897م، في كتابه "طلعة المشتري في النسب الجعفري"، وبيّن سقوط استدلالات ابن خلدون بحوصلتها في سبع حجج [2]:

1. أن المعقل دخلوا في عدد قليل وهودليل قرشيتهم وكونهم ليسومن بني الحارث بن كعب الذين كانوا "جمرة العرب" وأخوال العباسيين ولاحاجة بهم للنجعة.

2. انتقال بني جعفر من الحجاز سببه الحرب مع بني عمهم.

3. انتقالهم من الصعيد للمغرب سببه ضيق العيش في البلاد الصعيدية واتساعها في المغرب.كونهم استكثروا بمن انضاف إليهم دليل جعفريتهم لمايرون من مزيتهم.

4. أما كون نسبهم مجهول عند الجمهور فمردود لأن من سبقهم من النسابة لايعرفهم ومن عاصرهم لم يدون عنهم شيئا.

5. أنهم في عصره كانوا ينتسبون لجعفر بن أبي طالب.

6. أن الهاشميين والطالبيين لم يكونا أهل باديونجعة، مردود لأن الحرب لم تكن بينهم إلا وهم في بوادي الحجاز.

7. أما وجود اسم المعقل في اليمنيين فلاعبرة به شرعا أوعقلا.

وحذا حذوالناري في نفي كلام ابن خلدون عن المعقل، المختار السوسي في كتابه "إيليغ قديما وحديثا".

---

1 ـ إبن خلدون، العبر..، ج6، صص 59و60

2 ـ راجع: أحمدو بن سيدي: موريتانيا: الماضي المتحرك والمكان المؤثر..، نواكشوط، 2004، صص174- 181

وقفاه النسابون الموريتانيون مثل: محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري وهو من علماء قبائل بني حسان في كتابه "الْحَسْوَةُ الْبَيْسَانِيَّةُ في معرفة الأنساب الحسَّانية". وافتخر بذاك النسب في قصيدته الفخرية الشهيرة، ومنها[1]:

فإنْ تسْألوا عنِّي سؤالَ مُبَادِرٍ	أنا ابْنُ أميرِ الرَّكْبِ مِنْ آلِ نَاصِرِ
قدِ انْتَسَبُوا منْ جعْفرٍ لإبْنِ زَيْنَبٍ	كما صحَّحَ الْأَعْلَامُ أهْلُ الدفاترِ
وقِدْمًا رفعْنا في المغارب معْقِلا	زمان سليْمٍ أو هلالَ بْنَ عامرِ

لكن الدارسين المعاصرين يرون أن النسب القرشي لبني حسان مستحيل تماما، لأن معقل لايُعرف في أنساب القرشيين وفروعهم التي تداولها النسابون العرب قديما وحديثا، كما أن الرجل الذي ينتسب له معقل لم يكن له عقبٌ بإجماع النسابين!

وبغض عن هذا الجدل المستفيض، فإن يمانية المعقل إنتسابا أوهجرة مع الهلاليين، واقع تاريخي ثابت لامراء فيه، وهوما يهمنا في هذا العرض.

---

1 ـ أحمدو بن سيدي: نفسه.

دور القبائل الليبية واليمنية في عروبة تشاد

د. محمد المحمد الطوير

شكلت بحيرة تشاد منطقة جذب هامة للقبائل العربية منذ العصور القديمة والوسطى والحديثة، إذ وصل إليها العرب في شكل هجرات كبيرة منذ القرن السابع الميلادي، وبذلك كانت القبائل اليمنية أول من وصل إلى محيط بحيرة تشاد حتى أصبح العرب يشكلون الأغلبية السكانية على الضفاف الجنوبية للبحيرة ثم امتد استقرارهم إلى غرب نهر شاري وشرق وشمال البحيرة مثل مجموعة قبائل الغوالم (Ghawalme) والسلمات (salamat) والحمادية (Hemmadiy) وبني صيد (bana sayd) الذين تركوا تربية الجمال واتجهوا لتربية الأبقار[1].

وتمتع سكان جنوب بحيرة تشاد من العرب بالاحترام والتقدير من بقية السكان بسبب أصلهم ولغتهم العربية مما ساعدهم على الاحتفاظ بشخصيتهم الجذابة في المجال الاجتماعي[2].

وتشير الروايات التاريخية في كانم، الواقعة إلى الشمال الشرقي من بحيرة تشاد، إلى أن بطلاً عربياً قدم من اليمن هوسيف بن ذي يزن، وسيطر على الشمال الشرقي من بحيرة تشاد، ثم بسط نفوذه على عدد من القبائل أصبحت تعرف لاحقا باسم " الكنوري" أوشعب كانم؛ هذا وقد ظلت هذه الأسرة السيفية أواليزيدية تحكم منذ القرن التاسع الميلادي حتى سنة 1846م. وقد تحكموا طوالها بطريق القوافل الذي كان يصل كانم بطرابلس الغرب وغيرها من المناطق الإفريقية الأخرى، وهوطريق قديم منذ أيام القرطاجنيين والرومان[3].

1- jean- claude zeltner, histoire des arabes sur le rives du lac tchad, annales de l'université d'abidjan,f,2- 2,1970, p.110.

2 - ibid.p.110-111.

3 - أمين الطيبي، "وصول الإسلام وانتشاره في كانم - برنو بالسودان الأوسط" مجلة الدعوة الإسلامية، العدد الثالث، ص 180- 181.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن دخول الدين الإسلامي إلى كانم كان بالطرق السلمية ، وعلى أيدي التجار والفقهاء القادمين من شمال إفريقيا ؛ وبفضل هذه العملية اعتنق السلطان حمّي محمد الإسلام في كانم في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، وصار أهل كانم مسلمين ، ويسود بينهم مذهب الإمام مالك ؛ كما كان للعلماء والفقهاء مكانة مرموقة في البلاد ، واتخذ السلطان لقب خليفة ؛ إنه وبفضل هذه التغيرات ظهرت مدارس في كانم تميزت بجودة مستوى الدراسة الفقهية والقرآنية والكتابة باللغة العربية مما ساعد على تدوين المراحل التاريخية لبلادهم[1].

وفي أعقاب انتقال سلاطين كانم إلى برنو في أواخر القرن الرابع عشر استمر الصراع على السلطة بين أفراد الأسرة المالكة في برنو حتى أنهى السلطان على حاجي (1476- 1503) الصراع الأسري وأسس عاصمة جديدة في حوالي 1484 ، وأقام إمبراطورية كانم- برنو الثانية ، وأخذ علي حاجي لقب خليفة في دولته ، وتم ربط علاقات إمبراطورية كانم- برنو الثانية مع دولة المغرب الأقصى في عهد السعديين والدولة العثمانية بشمال إفريقيا خلال القرن السادس عشر[2].

وبصفة عامة فإن القبائل العربية قد وجدت طريقها إلى تشاد (السودان الأوسط) سواء من طرف القبائل القادمة من اليمن والتي استقرت أكثر داخل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد وخاصة القبائل اليمنية في الوقت الذي دخلت فيه بقية القبائل العربية إلى تشاد عن طريق السودان ومصر وليبيا وتونس وغيرها ، ولم تقم أي ممالك خاصة بها ولكنها ساهمت في تكوين حكومات في وسط إفريقيا مثل واداي ودار فور ، وكانم ، وقد كانت على هيئة خمس مجموعات :

1. عرب جهينة الذين قدموا مباشرة من شبه الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر ، كردفان ودار فور.

---

1 - المرجع نفسه ص 181- 182.

2 - المرجع نفسه ص187- 188.

2. عرب الحساونة: قدموا من شبه الجزيرة العربية عن طريق مصر وطرابلس.

3. القبائل القادمة من ليبيا عن طريق تيبستي.

4. " التونجور"(Toundjours) قبيلة عربية منحدرة من بني هلال.

5. " الجلابة "(Djellabas) أتوا مع مجموعات "رابح"(rabeh) من منطقة النيل الأعلى.

وكان عرب جهينة وعرب الحساونة يعرفون باسم "عرب شوا" (Arab chaa)، في حين كان العرب الليبيون يعرفون باسم عرب فزان، بينما عرف عرب التونجور والجلابة باسمهم الأصلي ولا يقولون عنهم اسم العرب، وعرب جهينة هم الأكثر، ويرجع نسبهم إلى عبد المطلب جد محمد ﷺ، وعرب الحساونة أقل عدداً من جهينة، ومن أهمهم بني وائل والدقانا والأسالي، وهم يقولون بأنهم ينحدرون من علي بن أبي طالب، عن طريق ابنه البكر الحسن، وقدموا إلى تشاد بعد جهينة، واحتفظوا بسمات أكثر صفاء؛ أما عرب التونجور فيعتقد انحدارهم من عرب بني هلال وقدموا من تونس، ويتكلمون العربية والكانورية والقورانية، وهم مستقرون في جنوب شرق كانم وفي الواداي؛ أما عرب ليبيا فقد وصلوا إلى تشاد في هجرتهم الأولى عام 1842 بعد معركة قارة البغلة والتي قتل فيها عبد الجليل سيف النصر علي أيدي القوات العثمانية في حين وصلت الهجرة الثانية سنة 1931 بعد معركة الكفرة ضد القوات الإيطالية الغازية موزعين على عدة قبائل رئيسية هي: أولاد سليمان والمقارحة والحساونة والحسون وورفلة والقذاذفة[1].

والعرب في تشاد يصفون أنفسهم بالإبالة وهم الذين يربون الإبل، والبقارة وهم الذين يربون البقر وهم نصف حضر، ويعملون بالزراعة، وتتأثر حياة العرب في تشاد بالظروف الاقتصادية والسياسية، ويسكنون الخيام ويعرفون السرير لطبيعة الأرض بالمناطق الاستوائية، ويتلاءم أعداد السكن وفق ما هوموجود من أنواع الأشجار والصوف ووبر

1 - ibid,pp 5-7.

الحيوانات، أما اللباس فإن الليبيين احتفظوا كثيراً باللباس الطرابلسي كالجرد والطاقية، ولكن الملابس الأوروبية أخذت تحل محل الملابس المحلية[1].

والعمل الأساسي للعرب في تشاد يقوم على تربية الماشية ومزاولة التجارة في برنووالسودان في الوقت الذي يزاول فيه أعمال الحدادة والخشب رجال من طبقة خاصة غير العرب[2].

وساعد الإسلام على زيادة الارتباط بين سكان تشاد المسلمين والعرب، لأن القرآن الكريم كما يصفه المؤرخ الفرنسي "جين شابيل" (jean chapelle) بقوله: "القرآن هوقمة القمم لأنه يمثل كلام الله تعالى الذي نزل في العرب، وهوهبةالسماء للأرض، وهوفضل الله الذي نشره أولئك المسلمون الذين كانت لغتهم الأصلية هي اللغة العربية لغة القرآن وهم سريعوا التأثر بجماله وشاعريته"[3].

وتحمل اللغات المحلية الكلمات العربية المتعددة، وإن كانت محرفةً كالتحيات والسلام وعلامات التعجب وحركات الصلاة. والتعليم في بلاد تشاد كان تعليماً دينياً يتم فيه معرفة الحروف الهجائية ثم حفظ سور القرآن الكريم، ودراسة علوم اللغة والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف سواء داخل المساجد أوالزوايا والكتاتيب، ولكن مع بداية الغزوالفرنسي لتشاد في سنة 1898 بدأت تظهر المدارس الحديثة مصحوبة باللغة الفرنسية

---

1 - ibid,p,8.

2 - انظر jean chapelle,le peuple tchadien editions l'harmattan, 7,rue de l'ecole-polytchnique 75005 paris, 1980., pp.146 – 149.

والذي يشير إلى جملة عدد العرب في تشاد سيكون 450 ألف نسمة بين بدو وحضر وشبه حضر في سنة 1978 بينما كان عدد العرب القادمين من ليبيا بحوالي 6000 نسمة وخاصة الأشخاص الذين ينتسبون في اغلبهم إلى قبلية أولاد سليمان، وكانت تقديرات عدد سكان تشاد في سنة 1978 على النحو الآتي: المسلمون 2.200 مليون نسمة ، الروحانيون 1.420 مليون نسمة، المسيحيون 380 ألف نسمة. المجموع الكلي 4 مليون نسمة.

3 - ibid, pp.146-148.

والحروف اللاتينية، ومما ساعد على انتشار المؤسسات الدينية في تشاد طبيعة المباني ووجود وأدوات الكتابة كأعواد القصب والصمغ. وساهمت الزوايا أيضاً في نشر اللغة العربية والدين الإسلامي والطرق الصوفية كالقادرية والتيجانية حيث ساهم الفقهاء والطلبة في القيام بتحفيظ القرآن الكريم وتعليم اللغة العربية في تشاد[1].

ومازالت العديد من الزوايا التي تم تأسيسها من قبل بعض الليبيين في تشاد تقوم بتقديم خدماتها القيمة كنشر اللغة العربية والمواعظ الإسلامية عن طريق الفقهاء والشيوخ الذين تخرجوا من الزوايا وأخذوا يتنقلون بين المدن والقرى كالشيخ أبو عمر عثمان بن علي الحضيري المتوفى في سنة 1701، وعمل بالتدريس والفتوى والتأليف بتشاد، والذي من أشهر مؤلفاته: شرحه منظومة شيخه محمد بن ناصر الدرعي المسماة نبراس الظلام[2]. وارتحل الشيخ حسن بن محمد الحضيري إلى كانم وبرنو، وظل يؤدي دوره العلمي حتى وفاته في أواخر القرن التاسع عشر، ودفن ببلدة كوكة وشيد له مقام ظل يقصده الزوار من كل مكان[3].

وقدم من طرابلس الغرب إلى تشاد الشيخ رمضان بن أحمد من فزان وعمل في التدريس والتأليف وله قصائد على رواية البخاري بالإضافة إلى وصول العديد من العلماء والفقهاء الليبيين إلى تشاد والذين مازالت مخطوطاتهم موجودة بكثير من المكتبات مثل مخطوط الشيخ عبد الله محمد بن عمر الغدامسي، ومخطوط الشيخ العطار بن محمد بن آدم الفندكي الذي تناول علم الفلك بعنوان " الخيرات وتقويم الكواكب السيارات"بالإضافة إلى مخطوط آخر بعنوان " الإعلان بتاريخ كنو"تناول فيه أخبار تاريخ كانوومولوكها، ومخطوط آخر بعنوان "تسهيل الأمر بشرح الجبر في علم الجهر" أشار فيه إلى أسماء فقهاء من غدامس مثل

1- شعبان محمود محمد راشد، القبائل العربية الليبية في السودان الأوسط ودورها في تاريخ المنطقة (1795-1911) منشورات الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 2003، ص 182- 184.

2- المرجع نفسه ص 185- 186.

3- المرجع نفسه ص186.

الشيخ سعد بن أحمد الغدامسي والشيخ عبد القادر بن الحاج الغدامسي[1].

وتمثل دور الليبيين في بناء الزوايا التي لعبت دوراً في نشر الثقافة العربية بتشاد ما يلي :

1. الزاوية الأسمرية بمدينة كانو.
2. زاوية برني بمدينة زندر.
3. الزاوية السمانية بمدينة كانو.
4. زاوية شمدور.
5. زاوية عين ككلة.
6. زاوية بئر علالي.
7. زاوية فايا.
8. زاوية وجنقة الكبرى والصغرى.
9. زاوية قرو.
10. زاوية ون بشمال تشاد.
11. زاوية وداي.
12. زاوية الشيخ عبد الفتاح بزندر.

,كانت هذه الزوايا وغيرها تقوم بتعليم الأهالي ، وتمنح الطلاب الإجازات العلمية بعد حصولهم على العلوم الكافية كعلم الفقه والحديث والتفسير واللغة العربية وآدابها[2].

وبفضل الدور البارز للعلماء الليبيين تم انتقال المؤلفات الليبية من مخطوطات ونحوها إلى تشاد، وصارت المكتبات بالمدن التشادية وغيرها بالسودان الأوسط تزخر بالعديد من النسخ

---

1 - المرجع نفسه والصفحة.

2 - المرجع نفسه ص 187- 188.

لبعض المخطوطات المتداولة لمؤلفين عاشوا في طرابلس أوتشاد أولغيرهم من المؤلفين المعتمدة مؤلفاتهم في التدريس كمراجع علمية بالبلدين مثل مؤلفات الشيخ أحمد زروق، والشيخ ابن سليم الأوجلي، والشيخ محمد بن محمد طالب السباعي الغدامسي، والشيخ أحمد بن محمد الدردير مؤلف كتاب " شرح الدردير على الخليل".

وترتب على انتشار الثقافة العربية في تشاد انتقال العديد من أبناء هذه البلاد إلى طرابلس الغرب لتلقي العلوم في زواياها ثم عودتهم إلى بلادهم للعمل في نشر التعليم باللغة العربية مثل الشيخ عبد الله سك الفلاني والشيخ أبوبكر بن الحاج عثمان، والشيخ علي بن الحاج عثمان، والشيخ محمد الأمين الكانمي الذي تلقى علومه بزاوية ميزران على أيدي علماء من أمثال: الشيخ محمد أبي طبل والشيخ عبد الله بن غلبون[1].

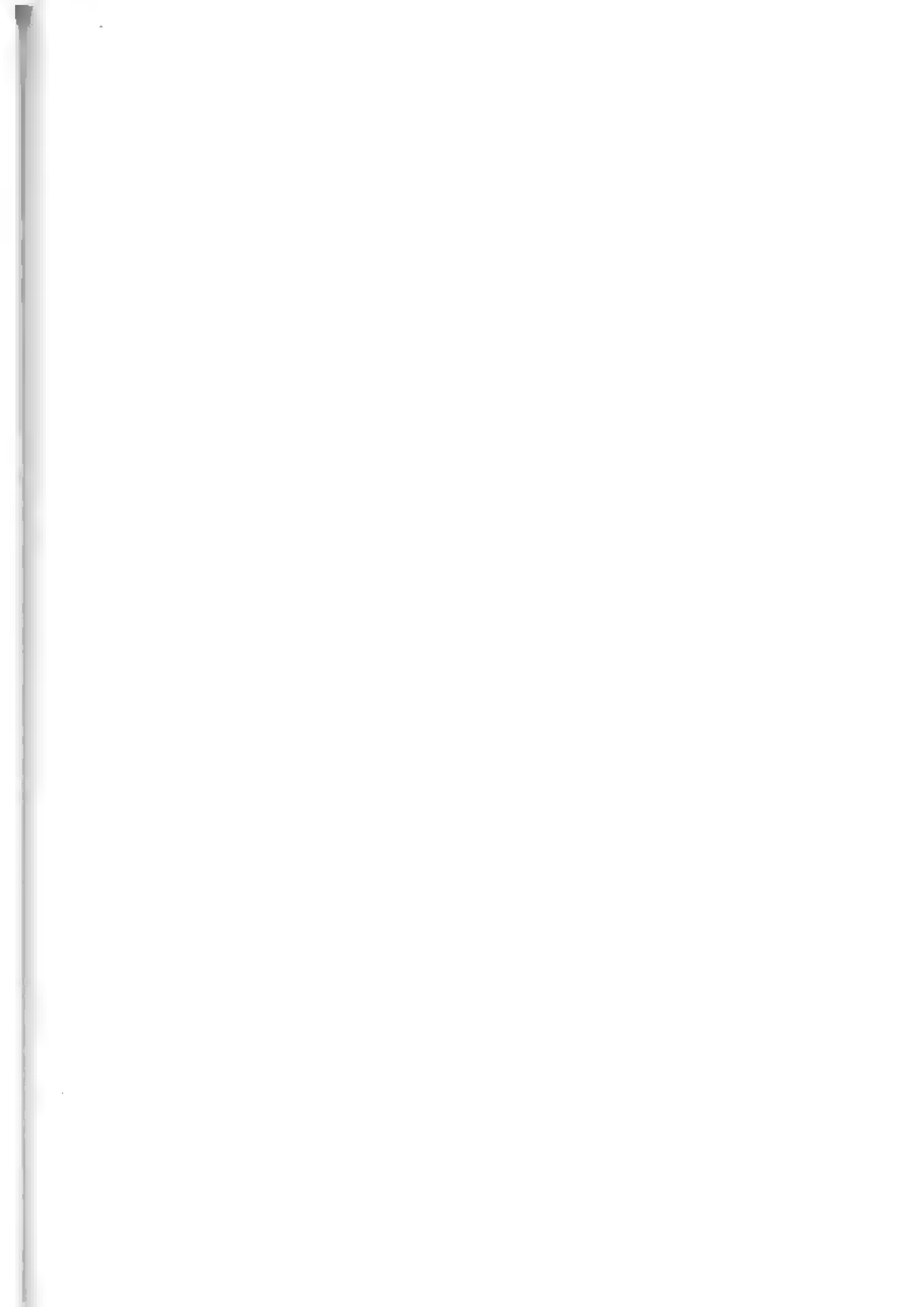
وساهمت حالات الزواج بين السكان العرب القادمين إلى تشاد مع السكان المحليين في انتشار الثقافة العربية، ووحدت أهدافهم وجعلت من الصعب التفريق بينهم في حب الوطن والدفاع عنه، كما حدث أثناء مقاومة الغزوالفرنسي1898، والغزوالإيطالي 1911 على الأراضي الليبية حينما وفدت مجموعات مقاتلة من تشاد لتحارب إلى جانب الليبيين في الوقت الذي سالت فيه دماء المهاجرين الليبيين في معارك الدفاع عن تشاد ضد الغزوالفرنسي بداية من 1898.

الخلاصة:

إن دور أبناء اليمن وليبيا في عروبة تشاد يتميز بالكثرة ولا يخفى عن أحد، مما أدى إلى انصهار الدماء العربية بالدماء الإفريقية، وصارت تشاد تمثل أقرب الدول إلى الأقطار العربية والإسلامية رغم المحاولات الاستعمارية السابقة التي كانت تهدف إلى فصل الثقافة العربية عن الثقافة الإفريقية بمنع الكتابة بالحروف الهجائية العربية والكتابة بالحروف اللاتينية واللغة الفرنسية بدلاً من اللغة العربية.

---

1 - المرجع نفسه ص.188- 189.



المنصور بن أبي عامر والبربر بالأندلس
في آخر عصر الخلافة

د. محمد حناوي

لماذا المنصور بن أبي عامر والبربر؟

إن الهدف من هذا الموضوع هو إثارة تساؤلات لها علاقة مباشرة ببعض القضايا التاريخية الأساسية التي ما تزال في حاجة إلى البحث والاهتمام ؛ من أهمها:

1 - خريطة التوزيع البشري أو التوطين القبلي بالأندلس وعلاقته بالسلطة السياسية القائمة.

2- علاقة هذا التوزيع البشري بوضعية الأرض ونظم استغلالها ، علماً أن الأندلس أو شبه جزيرة إيبيريا إقليم خصب وغني كما تذكر المصادر.

3 - البناء العسكري المتبع في هذا الإقليم الذي يقع في أقصى غرب "دار الإسلام" أو في أقصى الثغور بالنسبة للخلافة الإسلامية.

ولا يستقيم الحديث عن طبيعة سياسة المنصور بن أبي عامر والبربر بالأندلس في آخر الخلافة الأموية دون الإشارة إلى علاقة البربر بالمكونات البشرية الأخرى. ونقصد بها القبائل العربية والصقالبة لأنها مكونات لعبت دوراً أساسياً في تثبيت سلطة ونفوذ الأمويين بالأندلس.

أ .القبائل العربية :لا شك أن القبائل العربية والبربرية قد استقرت في شبه جزيرة إيبيريا منذ الفتوحات الإسلامية. وقد اعتمدت الخلافة الأموية على القبائل الشامية التي استوطنت مناطق وأقاليم غنية كما يتضح من المصادر التي فصلت في الحديث عن الجهات التي نزلت بها الكور المجندة[1] القادمة من المشرق. ولا شك أنها استفادت من امتيازات

1- قدوم مصطلح "الكور المجندة" من المشرق أيام الفتوحات الإسلامية ويعكس الأجناد العربية التي =

اقتصادية متعددة مقابل الخدمة العسكرية التي تقدمها للسلطة الأموية، ولكنها كانت في وضعية تحسد عليها من قبل القبائل العربية والبربرية التي التحقت بها في إطار هجرات متعددة. وقد أدى ذلك إلى إذكاء صراعات مختلفة لا تخدم مصالح السلطة. ولذلك كلفت هذه الأخيرة بعض ولاتها أمثال أبوالخطار الحسام بن ضرار الكلبي (125 هـ - 127 هـ) كي ينظر في توزيع القبائل ويجد توازناً قبلياً أواجتماعياً يحفظ مصالح الخلافة ويبعد الفتنة كما تذكر المصادر[1].

ومن المفيد الإشارة إلى قوة ونفوذ الزعامات القبلية العربية في ظل الأمويين بالأندلس. لقد فصل ابن حيان الكلام في الموضوع مبيناً ما سماه "خاصة قريش ووجوه الموالي وأهل البيوتات"[2]. وأيده العذري[3]، وغيره في تبيان بعض أهم تلك القيادات في الأقاليم الأندلسية المختلفة. ولا شك أن النفوذ العربي القوي ظل قائماً إلى آخر الخلافة على الأقل كما يتضح من إشارات متعددة. يقول المقري في هذا المعنى: "إن عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر.."[4].

ب. الصقالبة: إلى جانب القبائل العربية اعتمدت الخلافة الأموية بالأندلس على قوة أخرى قادمة من تخوم أوربا. ودون الدخول في تفاصيل تهم كيفية مجيء الصقالبة إلى

= استقرت بالأندلس. انظر التفصيل حولها في:

ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر)، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق أ. الأبياري، القاهرة، 1982. ابن حيان (القرطبي)، المقتبس من أخبار بلد الأندلس، تحقيق الحجي، بيروت، دار الثقافة، 1965.

2- ابن الخطيب (لسان الدين الوزير)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، القاهرة، دار المعارف، 1956، ج 1، ص 108.

3- ابن حيان، الحجي، ص 30.

4- العذري (أحمد بن عمر بن أنس العذري)، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965، ص 99.

5- المقري (التلمساني)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إ. عباس، بيروت، دار صادر، 1968، ج 1، ص 293.

الأندلس[1]؛ نقول إنهم شكلوا سنداً سياسياً وعسكرياً مهما خاصة في ظل الخليفتين عبد الرحمن الناصر (ت. 350 هـ) وابنه الحكم المستنصر (ت. 366 هـ). يكفي الإشارة، إلى أن هذا الأخير قرب إليه الصقالبة ربما بشكل كبير، بدليل أن المصادر تتفق على أنهم من المقربين جداً ومن حفظة الأسرار في البلاط. ولذلك كثيراً ما يتم التغاضي عن سلبياتهم وعن تجاوزاتهم في قضايا تهم السلطة نفسها. لقد قال بصددهم الخليفة الحكم ذات مرة: "هم أمناؤنا وثقافتنا على الحرم، فينبغي للرعية أن تلين لهم وترفق في معاملتهم"[2].أكثر ذلك أدى تواطؤ الصقالبة وتدخلاتهم في شؤون البلاط الأموي إلى الاعتقاد "أن لا غالب لهم وأن الملك بأيديهم"[3].انطلاقاً من ذلك يفهم لماذا نكثوا بيعة الخليفة هشام المؤيد الذي تولى المنصور بن أبي عامر حجابته.

لقد انتبه هذا الأخير إلى سطوة الصقالبة وتطاولهم على السلطة ولذلك لم يتردد في إبعادهم ووضع حد لنفوذهم. يقول ابن عذاري في ذلك: "أول عروة قصمها [ابن أبي عامر] من عرى المملكة عروة الصقالبة الخدم بالقصر، موضع الخلافة، وكانوا أبهى حلل المملكة"[4].

لم يقف ابن أبي عامر عند تحجيم دور الصقالبة وإبعادهم عن الشؤون السياسية والعسكرية الهامة، بل سعى، أيضاً، إلى تقليص نفوذ القيادات العربية. وتكشف النصوص المصدرية عن محاولاته ونجاحه في «تأخير العرب وإسقاطهم عن مراتبهم»[5].

1- انظر ذلك في حناوي (محمد)، النظام العسكري بالأندلس في عصري الخلافة والطوائف، (فصل الكور المجندة)، الرباط، دار أبي رقراق، 2003.

2- ابن عذاري (المراكشي)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان (ج. س)، ل. بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، 1983، ج 2، ص 259.

3- نفسه، ص 263.

4- نفسه، ص 259.

5- ابن خلدون (عبد الرحمن)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر من أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1958، القسم الثاني، المجلد 4،

ج. البربر وابن أبي عامر :دفعت عملية إضعاف وإبعاد القيادات العربية والصقلبية بابن أبي عامر إلى اعتماد العنصر البربري الذي فتح له باب الأندلس على مصراعيه بعد أن خبره في موطنه الأصلي أي في العدوة المغربية أوما سماه ل. بروفنسال بـ"بلاد البربر الغربية"[1]، والتي شكلت خزاناً بشرياً لا ينضب من الرجال.

سبقت الإشارة إلى أن العناصر البربرية الأولى قدمت الأندلس منذ الفتوحات. لكن أعدادها كانت قليلة نسبياً، مقارنة بالقبائل العربية وذلك على امتداد عصر الولاة والإمارة ومستهل الخلافة[2]. ومن الملاحظ أن الهجرات البربرية لم تنقطع، ولكن تحكمت فيها ظروف وتوازنات مختلفة.لقد قيل: إن الدولة الأموية منذ بدايتها كانت أميل إلى بربر زناتة منها إلى صنهاجة. وبرر الأستاذ محمود علي مكي هذه المعادلة بالإشارة إلى أن الزناتيين في شمال إفريقيا عادة ما يوالون، الأمويين، أما صنهاجة فكانت عماد الحركات الشيعية.[3]

دون مناقشة هذه الفرضية التي تبدونسبية، إن لم تقل غير واقعية؛ نشير إلى أن الخلافة الأموية كانت في بداية أمرها، أي في عهد عبد الرحمن الناصر تحتاط من البربر. وبعدئذ عمل الخليفة الحكم على استمالة العنصر الزناتي كما تشهد ذلك المصادر. يقول أبومروان الوراق في هذا الصدد: "(...) بنوبرزال فخذ من زناتة من بني يفرن، كانوا قاطنين بالزاب الأسفل من إفريقية؛ فوصفوا

ص 319.

1- **Lévi-Provençal** (E), Histoire de l'Espagne musulmane, T 2, le Califat de Cordoue, Paris, Maisonneuve, 1950, p. 261.

2- يصعب الخوض في قضية الأعداد نظراً للمبالغات التي تطبع أرقام المصادر والاختلافات بصددها. انظر التفصيل في محمد حناوي: النظام العسكري، مرجع سابق. من المفيد الإشارة إلى أن بعض الدارسين يقلل من دور البربر بالأندلس. بل يشك في أصله وذلك بنبرة لا تخلو من عنصرية. انظر على سبيل المثال: **Martinez-Gros (Gab)**, L'idéologie omeyyade, la construction de la légitimité du Califat de Cordoue (X-XIe siècle), Madrid, 1992.

3- انظر مقدمة ديوان ابن دراج القسطلي، تحقيق محمود علي مكي، المكتب الإسلامي، 1389 هـ.

لأمير المؤمنين الحكم بالشدة والشجاعة في الحروب، فأمر بمكاتبتهم، فكانوا جنده.." [1].

لعل صفات الإقدام والفروسية رفعت من إعجاب هذا الخليفة بقتال الزناتيين وبخيلهم. وقد نقلت المصادر ما كان يردده من شعر في شأنهم كأن يقول:

فكأنما ولدت قياماً تحتهم ... وكأنهم ولدوا على صهواتها[2]

وتعزز الأمثال الشعبية أو العامية المتداولة بالأندلس هذا المعنى، إذ تقول إحداها: "لا حر إلا زناتي، ولا فرس إلا مكلاتي"[3].

يبدو أن نجاح البربر في الحروب والفروسية في فترات تاريخية محددة جعل البعض يردد بصددهم: "لا يقتل الأعداء إلا بهم ولا تعمر الأرض إلا بجوارهم"[4].

لكن، في المقابل، قد "يحل البوار بواسطة حروبهم"[5] في فترات أخرى حسب الزعيم البربري ابن بلقين. مع ذلك فإنه، وبعد الحكم المستنصر، انفتح المنصور بن أبي عامر أكثر على البربر من زناتة وفروعها وغيرها كما أكد ذلك ابن خلدون بقوله: "(...) تجرد لرؤساء الدولة ممّن عانده... ولما خلا له الجو من أولياء الخلافة رجع إلى الجند، فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة، فرتب منهم جنداً، واصطنع أولياء، وعرف عرفاه من صنهاجة

1- مجهول، مفاخر البربر، تحقيق ل. بروفنسال، الرباط، 1934، ص 34.

2- ابن حيان، الحجي، مصدر سابق، ص.188

3- الزجالي (أبو يحيى)، أمثال العوام في الأندلس، تحقيق محمد بنشريفة، فاس، 1975، ج 1، ص 207.

3مكرر- لعل تأثر الإسبان بطرق قتال الزناتيين وفروسيتهم يعكسه احتفاظهم بكلمة "Jinete" التي تعني الفارس الزناتي، أمثال العوام، نفسه، ص 207.

4- ابن بسام (الشنتريني)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إ. عباس، ليبيا - تونس، الدار العربية للكتاب، 1975، المجلد الأول، ص 21.

5- ابن بلقين (عبد الله)، كتاب التبيان، تحقيق أمين توفيق الطيبي، الرباط، دار عكاظ، 1995، ص 45.

ومغراوة وبني يفرن، وبني برزال ومكناسة وغيرهم.."[1].

وأكد ابن عذاري في السياق ذاته أن العامري كان "يستدعيهم [البربر] ويتضمن الإحسان إليهم والتوسعة عليهم إلى أن أسرعوا إلى الأندلس"[2].

إن استقدام البربر واعتماده بشكل أوسع من قبل ابن أبي عامر كان إيذاناً لخلخلة وتغيير البنيات السياسية والعسكرية القائمة في عصر الخلافة. لقد أحدث المنصور تغييرات هامة في تركيبة الجند وتراتبيته وطريقة توفير وتأمين أرزاقه. ولذلك نعت ما أقدم عليه بالإصلاح العسكري العامري.هذا كما يمكن النظر إلى هذا الإصلاح من زوايا أساسية لها علاقة مباشرة ببنية الجند ورواتبه وعلاقته بصاحب الإصلاح نفسه. إذأقدم ابن أبي عامر على قلب المعادلة أوهرم التراتبية العسكرية الذي حرصت الخلافة على بنائه. لقد حول هذا الهرم القائم على القيادات العربية والصقلبية إلى آخر احتل فيه الجند البربري الصدارة. بناء عليه وصف بعض الدارسين هذا الانقلاب بأوصاف لا تخلومن بعض المغالاة. فقد لاحظ Gab. Martinez-Gros[3] أن استقبال العامريين للبربر أدى إلى مصادرة النفوذ العسكري العربي الذي تمتعت به الخلافة. وفي الأمر إقصاء للعربية الأموية، مما جعلها تحقد على البربر. وأشار باحث آخر إلى أن "رفع البربر إلى رأس الهرم أضرم الفتنة والكره ضدهم من قبل الأرستقراطية العربية الإقطاعية والصقلبية البيروقراطية.."[4].

ودون الخوض في تفاصيل وأوصاف هذا الانقلاب[5]؛ ربما من المفيد الإشارة إلى بعض الأسباب الرئيسية التي دفعت إلى هذا التغيير.يقول ابن بلقين وهوالمصدر القريب من الفترة بأن ابن أبي عامر كان يهدف إلى: «أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتاً متفرقة... إن همّ أحد

1- ابن خلدون، كتاب العبر، مصدر سابق، ق. 2، م 4، ص 319.

2- ابن عذراي، البيان...، ج 2، ص 279.

3- Marti▬Gros (Gab), L'idéologie omeyyade... op. cit., p. 158.

4- الطاهري (أحمد)، عامة قرطبة في عصر الخلافة، الرباط، دار عكاظ، 1989، ص 172.

5- انظر في: محمد حناوي، النظام العسكري...، مرجع سابق.

الطوائف بخروج عن الطاعة، غلبها بسائر الفئات.."[1]. ومن شأن هذه الخطة تفادي الإخلال بشؤون الدولة الذي قد يتسبب فيه الجند إذا كان "صفاً واحداً"[2] يصعب الارتكان إليه.

يفهم مما سلف أن ابن أبي عامر ربما تأثر بما جاء في مضمون بعض كتب الأحكام السلطانية القديمة القائلة بالمبدأ المشهور "فرق تسد." ويكفي العودة إلى ما كتبه ابن المقفع في رسالة الصحابة[3]، وهي دستور الدولة العباسية في هذا الباب للتأكد من ذلك؛ أوما أشار إليه ابن رضوان حين ذكر: "يستحب للسلطان أن يكون جنده أجناساً متفرقة وقبائل شتى، بحيث لا يتهيأ منهم الاتفاق على رأي واحد في الخلاف"[4].

هذا وإذا إذا كانت سياسة اصطناع الصقالبة من قبل الخلافة تهدف إلى ردع الزعامات العربية أوإيجاد نوع من التوازن معها على الأقل، فإن اتخاذ البربر وتقديمه إلى الواجهة من قبل المنصور أبي عامر كان هدفه أيضاً تقليص نفوذ القيادات العربية والصقلبية معاً. وهما قوتان تصارعتا بشكل مستمر من أجل امتيازات سياسية وعسكرية واقتصادية. إنها صراعات ثنائية تحولت إلى ثلاثية امتزجت فيها المصالح ما بين العرب والصقالبة والبربر.

بعد قلب المعادلة على المستوى الاجتماعي والعسكري، أحدث ابن أبي عامر تغييراً آخر، لا يقل أهمية، مرتبط بوضعية الأرض وأرزاق الجند. لقد قرر ألا ينشغل الجند الذي اصطنعه إلا بالقضايا العسكرية؛ ولا ينصرف إلى الشؤون الدنيوية الأخرى التي قد تبعده

1- ابن بلقين، كتاب التبيان...، مصدر سابق، ص 57.

2- نفسه، ص 57.

3- تحدث ابن المقفع عن طبيعة العلاقات ما بين الجند والسلطان قائلاً: يجب أن يكون« القوم أخلاطاً من رأس مفرط غال، وتابع متحيز شاك، ومن كان إنما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي....»

انظر: الأدب الكبير والأدب الصغير ورسالة الصحابة، تحقيق يوسف أبو حلقة، بيروت، مكتبة لبنان، 1964، ص 194.

4- ابن رضوان (أبو القاسم المالقي)، الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق علي سامي النشار، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1984، ص 379.

عن اختصاصه. وربما تأثر العامري بوصايا بعض كتب الأموال والسياسة التي تنصح الحاكمين ألا يشركوا الجند في أمور لا تهمه كالمستغلات والمتاجر[1] كما يذكر ابن أبي النور. أوالاهتمام بالفلاحة التي قد تعطل المطلوب من الجند أي الاستعداد للدفاع عن مصالح المسلمين ورد الأعداء عنهم[2] . لقد حرص ابن أبي عامر على أن تكون "جميع أجناده من الفرسان خاصة من سائر الطبقات والأحرار جميعهم مرتزقون في الديوان"[3].

كيف نظم المنصور أرزاق الجند في الديوان كي يضمن له الاستمرارية والانصراف إلى الشؤون العسكرية وحدها؟يبدوأنه وضع نوعاً من المعاهدة مع الفلاحين والعامة أعفاهم بموجبها من الخدمة العسكرية مقابل ضرائب تدفع كل سنة رواتب للجند.تشير الإشارات المصدرية المتوفرة إلى أن الفلاحين كانوا لا يرغبون في هجرة أرضهم وفلاحتها والانصراف إلى الحروب. ولذلك رفعوا شكواهم إلى ابن أبي عامر. يقول ابن بلقين في هذا المعنى : "(...) وشكوا إليه ضعفهم عن الملاقاة وشغلهم بالغزوات عن عمارة أرضهم، ولم يكن القوم أهل حرب فقاطعهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم، ويعطوا كل عام ما يقيم به من أجناد من يكفيهم ذلك... فضرب عليهم الإقطاع، وحصّل في الدواوين جميع أموال الناس وكسرها عليهم، وفرض بينهم ما لا يرتزق منه الجيش"[4] كما تجمع المصادر على أن ابن أبي عامر استغنى عن الفلاحين والمطوعة الذين يشاركون في الحروب والحملات العسكرية التي تنظم ضد المسيحيين.وفي المقابل لقد تمّ الاعتماد على الجند البربري المتخصص والمدرب على القتال والذي أشرف عليه بشكل مباشر. أما العامة والفلاحون الذين وُصفوا بأنهم ليسوا "أهل حرب" فعليهم العناية بالفلاحة وإعالة من ينوب عنهم في الحروب.

1- ابن أبي النور (إبراهيم عبد الواحد)، سياسة الأمراء ولاة الجند، مخطوط الاسكوريال (مدريد)، 8 /719أ.

2- إبراهيم (المصري)، إجارة الإقطاع، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، 216 ضمن مجموع.

3- ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ل. بروفنسال، القاهرة، دار الكشوف، 1956، ص 165.

4- ابن بلقين، التبيان، ص 58.

يبدوأننا أمام تحديد مهم أواختصاصات بعض الفئات الاجتماعية حسب إمكانياتها على غرار ما حدث في أوربا" الفيودالية"[1]. وربما يكون ذلك مفيداً لأن استنفار الفلاحين والعامة إبان الحملات والصراعات العسكرية قد يؤدي إلى فساد الاقتصاد من جهة، وإلى ارتفاع تكاليف الحرب من جهة أخرى، ناهيك عن انعدام التجربة في القتال لدى هؤلاء مما قد يجر الهزائم.

هل نجح الإصلاح العسكري الذي بناه المنصور بن أبي عامر؟

يتضح للوهلة الأولى أن ما أقدم عليه المنصور كان مغرياً من الزاوية التنظيمية. فلا شك أنه نجح إلى حد كبير في قلب التوازنات الاجتماعية والعسكرية التي أرستها الخلافة. لقد اعتمد الجند البربري باعتباره أداة عسكرية قوية، ونجح في إخضاع جل المجال الجغرافي بالأندلس والثغور كما يتبين من نتائج الحملات العسكرية الكثيرة التي وجهها ضد المسيحيين[2].

رغم ذلك يمكن القول إن هذا الإصلاح لم يكن شاملاً أوبنيوياً كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين. إنه لا يعدوأن يكون شخصياً وظرفياً أومؤقتاً. وبتعبير آخر ارتباط بالظرفية السياسية والعسكرية التي عاشتها الأندلس في آخر الخلافة، أكثر من ارتباطه بتحولات اقتصادية واجتماعية جذرية. والدليل على ذلك أنه انهار بعد غياب صاحبه مباشرة.ولتدعيم هذه الملاحظة يمكن إعادة قراءة بعض النصوص المصدرية بإمعان لأنها تكشف عن بعض التناقضات الأساسية التي عصفت به.

ومن ذلك مثلاً:

1- في الوقت الذي دفع فيه ابن أبي عامر بالفلاحين، إلى الاهتمام بالأرض والفلاحة وتقديم ضرائب سنوية تكون بمثابة أرزاق الجند المثبت في الديوان، لم تحدد طبيعة تلك الضرائب ومقاديرها وأوقات تأديتها وكم عدد الذين يؤدونها. مع الإشارة إلى أن النصوص

1- انظر بعض التفاصيل في محمد حناوي، النظام العسكري، مرجع سابق.

2- انظر تفاصيلها في: العذري، ترصيع الأخبار...، مصدر سابق. ابن عذاري، مصدر سابق، ج 2.

تشير إلى كثرتها وثقلها ولا شرعية بعضها. وفي الوقت نفسه لا تقدم المصادر إشارات واضحة عن النسب التي يتقاضاها الجند منها كرواتب وهي مخصصة له.

2- يبدوأن الإصلاح الذي همّ الفلاحين بالدرجة الأولى لم يمس أصحاب الامتيازات الكبرى بدليل واضح أن صاحب الإصلاح عمد إلى مصادرة الأراضي بما "لا يرجع إلى قانون"[1]. وأكثر من ذلك أقدم ابن أبي عامر بنفسه على توزيع الأرض كإقطاع على المقربين منه.ذكر ابن عذاري أنه لما انتقل إلى مدينة الزاهرة عام 370 هـ: "أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه، فاقتنوا بأكنافها الدور...، واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة... وكثرت فيها الأرفاق، وتنافس الناس في النزول في أكنافها والحلول بأطرافها"[2] وقد اغتنى البعض من الأراضي التي وفرها له المنصور بن أبي عامر. فهذا أحد كبار الجند يقول رداً عليه: "أعطيتني من الضياع ما انصب علي منها من الأطعمة ما ملأ بيوتي وأخرجني منها"[3].

رغم ما ينم عنه هذا المثال من مبالغة واضحة فإنه يبين أن الإصلاح العسكري العامري اتّسم بالولاء وبالطاعة لصاحبه وحده كما يكشف عن ذلك ابن عذاري حين يذكر أن ابن أبي عامر "استرق الجند بإحسانه"[4]. ويضيف: "أخلص له الجند لما رأوا منه من كثرة جوده وكرم عشرته وسعة مائدته، فأحبوه والتفوا حوله"[5].

إن الأمثلة السابقة كافية للدلالة على التعامل بمعايير أوبمكاييل مختلفة مع الملكية العقارية. ولا يهم هذا السلوك عصر المنصور بن أبي عامر وحده، وإنما يبين أن وضعية الأرض في تاريخ الإسلام ما تزال يشوبها الكثير من الغموض والتعقيد.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن الإصلاح العسكري العامري تميز بالطابع الشخصي المؤقت

1- ابن الخطيب، أعمال الأعلام...، مصدر سابق، ص 98.

2- ابن عذاري، البيان...، ج 2، ص 276.

3- المقري، النفح...، ج 1، ص 579.

4- ابن عذري، البيان...، ج 2، ص 293.

5- نفسه، ص 279.

لأنه بمجرد موت المنصور بن أبي عامر تفرقت الجماعة المستفيدة منه وعادت الأزمات والنعرات والصراعات الاجتماعية والقبلية إلى الواجهة. وانقلبت الأمور بسرعة ضد البربر الذين اتهموا بإشعال نار الفتنة بالأندلس. وهكذا أصبح البربري الزناتي الفارس الذي تغنى الأندلسيون بإقدامه وشجاعته يُنعت "بالبريبري"[1]، احتقاراً له. وهوما تؤكده الأمثال العامية المتداولة[2] بعد غياب ولي نعمة البربر.

ورغم محاولة دولة غرناطة في شخص زعيمها البربري الأمير عبد الله ابن بلقين إعادة الاعتبار للبربر الزناتي والصنهاجي من جديد، فإن محاولاته وإمكانياته كانت محدودة ومرهونة بظروف سياسية وعسكرية أخرى. لقد حدت منها المظاهر الطائفية والنعرات العربية البربرية والصقلبية إلى جانب الصراعات مع المسيحيين وأطماعهم بالأندلس بعد أفول نجم الخلافة وابن أبي عامر في منتهى القرن الرابع الهجري.

1- الزجالي، أمثال العوام...، ج 1، ص 207.

2- تقول بعض تلك الأمثال: "كل ما يجي من الغرب مليح إلا ابن آدم والريح"، " اعطي للبربري شبر وطلب ذراع"، "البربر والفار لا تعلمهم باب الدار"، أمثال العوام...، ج 1، ص 207.



الهجرة العربية الكبرى إلى المغرب الأقصى
في عهد يعقوب المنصور الموحدي

د. محمد المغراوي

مقدمة:

توافد العرب على المغرب الأقصى منذ الفتح الإسلامي سنة 62 هـ في مناسبات عدة، لكن أهمها دخولهم إليه في عصر المنصور الموحدي.

ينقسم دخول العرب إلى المغرب الأقصى إلى مرحلتين اثنتين:

تمتد المرحلة الأولى من الفتح الإسلامي إلى القرن الخامس الهجري: تميزت بدخول عدد محدود من العرب سواء من قادة الفتح الإسلامي، أو الجنود الذين كان أغلبهم من أصول يمنية، أو بعض المهاجرين والدعاة الذين كانوا يقصدون البلاد لأهداف مختلفة، وقد حالف النجاح بعضهم فأسسوا دولا مثل دولتي الأدارسة والفاطميين، أو بعض... وكان المهاجرون العرب القيروانيون من القيسية والأزد ويحصب ومذحج والصدف الساخطين على الأغالبة قد جاؤوا إلى فاس في عهد إدريس الثاني وبالتحديد سنة 805/189، وكان عدد فرسانهم 500 فارس بينما بلغ عدد بيوتهم بفاس ثلاثمائة بيت[1]، فاستوزر عمير بن مصعب الأزدي وولى الكتابة أبا الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي واستقضى عامر بن محمد بن سعيد القيسي[2]. كما استقبل المغرب الأقصى أيضا مجموعة من المهاجرين العرب الأندلسيين الذين استوطنوا مدينة فاس في نفس العهد، قدر ابن أبي زرع عددهم بثمانية آلاف بيت[3]، كما كان من عرب اليمن أيضا بنو صالح الحميريون الذين أسسوا إمارتهم بالريف والتي

1- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، الرباط، دار المنصور، 1973، ص 47.

2- الجزنائي، زهرة الآس، 13، ابن الخطيب، إعلام الأعلام، ق3/ 200، الناصري، الاستقصا، 48/1.

3- الأنيس المطرب، ص 47.

استمرت عدة قرون. وقد نتج عن هذه المرحلة تأثير على المدن المغربية خاصة سواء في الثقافة أوالعمران أوالإدارة، فاصطبغت بطابع مشرقي بين، وسارعت إلى تعريب هذه المجالات إضافة إلى تعريب المدن بنسبة كبيرة.

المرحلة الثانية: بدأت في عصر المرابطين ولكنها بلغت أوجها في عهد يعقوب المنصور الموحدي، ويتعلق الأمر بالاستعانة بعرب إفريقية خاصة من قبائل بني هلال في جيش المرابطين والموحدين، ثم حركة التغريب الكبرى التي تمت سنة 1188/584، والتي أدت إلى بغيير ملامح مناطق عديدة بالمغرب.

ورغم الأثر البالغ لهذه الموجة الثانية فإنها لم تحظ مسألة ترحيل العرب إلى المغرب الأقصى في عهد يعقوب المنصور الموحدي باهتمام كبير في المصادر التاريخية سواء منها الإفريقية أوالمغربية وعوملت كحدث عادي لا يزيد على كونه مجرد تأديب السلطان لقبائل عريقة في التسيب والفوضى. رغم أن هذا الترحيل يعد من أكبر التحركات البشرية التي عرفها تاريخ المغرب الوسيط، ويبدولمتتبع المصادر أن تركيزها الأول كان على ما يقع في الضفة الشمالية حيث كان الصراع بين القوى الإسلامية والنصرانية مصيريا بالنسبة لوجود الدولة الموحدية أوللوجود الإسلامي بالأندلس. هذا بالإضافة إلى آثار الوجود الهلالي في الغرب لم تظهر بشكل أقوى إلا في مرحلة لاحقة، إضافة إلى أن ذات القبائل قد ارتبط دخولها إلى إفريقية سنة 430/ بالدمار وتخريب الديار.

فمن هم بنوهلال، وما هي ظروف تغريبهم إلى المغرب الأقصى ؟

من أبرز قبائل بني هلال التي دخلت المغرب الأقصى الأثبج ورياح وزغبة وجشم وسفيان.

ينتمي بنوهلال وبينهم بنوسليم إلى عرب الشمال أوالعرب العدنانية، وينتسبون إلى جد أعلى يدعى هلال بن عامر. وكانوا بحكم مجاورتهم للأزد من العرب القحطانية بمنطقة نجد بوسط الجزيرة العربية في نزاع دائم معهم، جعل عصبيتهم متأججة على الدوام، ومن المحطات الخطيرة في تاريخهم انحيازهم إلى القرامطة حيث صاروا جندا لهم في البحرين

وعمان، وقدموا معهم إلى الشام في خلافة المعز لدين الله الفاطمي. وبعد انهزام القرامطة على أيدي العباسيين نقل الفاطميون بني هلال وسليم إلى صعيد مصر وتبعتهم قبيلة بني المنتفق[1]، وقد انضمت إليهم قبيلتا زغبة ورياح اللتين كانتا قد سبقتهما إلى غرب مصر بمحاذاة إقليم برقة[2].

أما انتقال هذه القبائل إلى إفريقية فقد تم على إثر إعلان الأمير المعز بن باديس انفصاله عن الفاطميين سنة 1051/443، فقرر الفاطميون في سابقة خطيرة إغراء القبائل العربية من هلال وسليم وزغبة ورياح بالتوجه إلى إفريقية ودعموهم بالأموال والعتاد، أما زغبة ورياح فقد استقر بهم المقام في برقة وطرابلس، وأما بنوهلال وسليم فقد وصلوا إلى إفريقية سنة 1105/449، وهزمت جيش الزيريين بالقرب من القيروان، واستولت عليها وخربتها على ما في الخبر المشهور، ثم تجاوزوها إلى منطقة تونس وإلى الغرب منها أيضا. وبذلك تمكن الفاطميون من تحقيق هدفين اثنين؛ أولهما هوالتخلص من قبائل غير منضبطة، والثاني هومعاقبة الإمارة المنفصلة. وقد أدت هذه الهجرة إلى تدمير خطير لإفريقية وخاصة لقاعدتها القيروان التي ظلت لقرون مركز إشعاع علمي وثقافي قوي بالغرب الإسلامي كله، الشيء الذي أدى إلى تحامل الكثير من المؤرخين على الأعراب بسبب هذه الحادثة خاصة منهم ابن خلدون، الذي لا زالت مواقف المؤرخين المعاصرين رهينة تصريحاته بين مؤيد ورافض. وقد وجدت مواقفه ابن خلدون هوى في نفوس عدد من المؤرخين الأجانب وبعض الشعوبيين المعاصرين فعمموها على الجنس العربي ولم يقفوا بها عند حدود أعراب بني هلال وبني سليم.

بعد هذه الغزوة لم يعد سلطان الدولة الزيرية يتجاوز عاصمتهم المهدية. ولحماية ما تبقى من مملكتهم اضطروا إلى مصانعة الأعراب والتقرب منهم. وبالتدريج استطاع العرب أن يؤسسوا إمارات في بعض مدن إفريقية لكنها ظلت محدودة التأثير.

1- ابن الأثير، الكامل، 369/9؛ ابن خلدون، العبر، 72/6.

2- مصطفى أبو ضيف احمد، القبائل العربية، 57.

ونظرا لشوكة وقوة عصبية العرب الطارئين على إفريقية فقد طرح فقهاء الأندلس بعد أكثر من عقدين من وصولهم إمكانية الاستنجاد بهم عندما اشتد ضغط النصارى على الأندلس في عصر الطوائف، قبل أن يقرروا التخلي عن الفكرة والاستنجاد بالمرابطين بدلا عنهم سنة 475 م. وقد استبعدت فكرة الاستنجاد بالأعراب لخوف الأندلسيين من بقاء الأعراب في الجزيرة الأندلسية أوقيامهم بالإفساد فيها كما عاثوا فسادا من قبل بالقيروان.

وعندما مد يوسف بن تاشفين سيطرة دولته إلى حدود جزائر بني مزغنا اتصل بحدود دولتي بني زيري وبني حماد الصنهاجيتين، مقتربا أيضا من مضارب القبائل العربية، وهكذا دخلت أعداد من العرب في ظروف لم تفصح المصادر عن طبيعتها إلى الجيش المرابطي حيث شاركت أعداد محدودة نسبيا منهم في الجواز الثاني ليوسف بن تاشفين إلى الأندلس سنة 1097/490، وتتابعت مشاركاتهم في عدد آخر من معارك الجهاد في الأندلس. ويبدوأن هذه القبائل ظلت خلال العصر المرابطي تزحف غربا حتى وصلت إلى حدود تلمسان.

فما هي إذن التطورات التي حصلت للعرب مع مجيء الموحدين ؟

بعد أن أخضع عبد المؤمن المغرب الأقصى يمم شطر المغرب الأوسط سنة 547 ؟/ فوفدت عليه وفود من العرب المقيمين بها من الأثبج وجشم فبايعوه، وشاركوا معه في فتح بجاية، لكنهم سرعان ما غيروا مواقفهم خوفا على استقلالهم فتحالفوا مع صنهاجة إفريقية وقلبوا ظهر المجن للموحدين، الشيء الذي دفع عبد المؤمن إلى توجيه حملة قوية بلغ تعداد جنودها 30 ألفا لمعاقبتهم. وقد التأم حلف العرب من الأثبج وزغبة ورياح وبنوقرة وأعرضوا عما كان بينهم من أحقاد، وجمعوا جمعهم وتقدموا لمحاربة الموحدين، وقد تبين لروجار صاحب صقلية أن انتصارهم إن حصل سيكون درعا وردءا له من الموحدين فعرض عليهم خمسة آلاف من الروم فرفضوا لما كانوا يأملونه من النصر، وقد التقى الجمعان بنواحي سطيف سنة 1153/548 فدارت الدائرة على العرب، وفروا على وجوههم في الصحراء لا يلوون على شيء، وأتبعهم عبد المؤمن بجنوده إلى حدود جبال الأوراس، وغنم الموحدين من أموالهم وسبيهم الشيء الكثير؛ لكن بالرغم من هذه الانتصارات فإن عبد المؤمن وهوالخبير بهندسة العصبية القبلية قد عالج الظرف بتدبير سياسي بعيد الغور، فأمر

بإحاطة نساء زعماء العرب وأولادهم بعناية خاصة حتى وصلوا إلى مراكش فأكرم نزلهم، وأرسل إلى العرب يخبرهم بأنه قد بذل لهم الأمان وأحاطهم بالعفو، فوفد عليه عدد من زعمائهم فسرح لهم نساءهم وأولادهم، ومنحهم أموالا جزيلة وصرفهم إلى بلادهم رغبة منه في استمالتهم إلى خدمته أوعلى الأقل مهادنة دولته.

لقد تفطن عبد المؤمن بن علي إلى أهمية العنصر العربي في توازن العصبيات بالمغرب، خاصة بالنسبة للعصبية المصمودية التي كان عليه أن يصانعها منذ البداية. كما تفطن إلى قدرة هؤلاء العرب المتفلتين على خلق مشاكل عويصة في أطراف الدولة التي كانت تطمح إلى توسع جارف.

يبدوأن هذا السلوك لم يكن عفويا بقدر ما كان مقدمة سياسية لما سيأتي فيما بعد من رغبة في إشغال العرب في عمل عظيم باستنفارهم للجهاد في الأندلس، فعندما عاد عبد المؤمن إلى إفريقية على رأس الجيش الموحدي إلى إفريقية سنة 553/ 1159 تمكن من القضاء المبرم على عدد من الإمارات العربية المستقلة بها وفتح إفريقية كلها وجاءته بيعة بعض القبائل من ناحية طرابلس. وخلف الانتصار أصداء واسعة فامتدحه الشعراء، ومما قاله الكاتب عبد الملك بن عياش القرطبي:

وإنما بعثت من جيشها نفلا ألقى نفائسه في كف منتهب

صدرت بالعرب العرباء وانقلبت عن الحسام رياح شر منقلب

وقد ظهر للخليفة منذئذ أن ينقل العرب معه إلى المغرب الأقصى ليكون في مأمن من تقلب ولائهم، فأحلف زعماءهم على مصحف عثمان على السمع والطاعة له، وعلى الاشتراك في الجهاد في الأندلس إلى جانب الجيوش الموحدية، فوافقوا على ذلك لكنهم تراجعوا عندما وصلوا إلى نواحي وهران وقرروا العودة إلى ديارهم، فشرط عبد المؤمن عليهم اصطحاب ألف شخص من كل قبيلة بعيالهم إلى المغرب الأقصى وكانوا من رياح وجشم وبني عدي، وأشار المؤرخ ابن صاحب الصلاة إلى كثرة عدد هؤلاء فذكر أنه "ضاق

بهم الفضاء ونافسوا الحصى والذباب في كثرته"[1].

يتضح أن استجابة أعداد كبيرة من العرب لطلب عبد المؤمن تدل على نجاح خطته، كما أن تراجعهم يدل على ارتباك موقفهم وضعف إرادتهم أمام الانتصارات العسكرية والحنكة السياسية للموحدين. وكتعبير عن ترحيبه باستجابتهم فقد صير هؤلاء جندا له[2]، وقد حددت رسالة رسمية موحدية سبب مجيئهم بالاقتصار على "خدمة الأمر العزيز... ومحافزة الغزوومصابرة الجهاد"[3]. وذكر ابن الأثير أن عدد العرب الذين طلبهم عبد المومن بلغ عشرة آلاف[4]، بينما أشار ابن أبي زرع إلى عدد الأسر الذين جاؤوا إلى المغرب وهم ألف أسرة دون أن يشير إلى عدد المحاربين من بينهم[5].

لقد لعب زعماء العرب دورا سياسيا خطيرا إلى جانب عبد المؤمن عندما اقترحوا عليه مبايعة ابنه بولاية العهد، وكان من قبل قد اتفق مع أبي حفص عمر الهنتاتي أقوى رجل في المصامدة على أن يلي الحكم بعده، الشيء الذي يدل على أن تخطيط عبد المؤمن في الاستفادة من العرب قد بدأ يؤتي أكله. وكان العرب من السباقين إلى مبايعة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الذي عمل هوأيضا على تقريبهم والإحسان إليهم، وقد شجع هوالآخر العرب على الالتحاق بالجهاد في الأندلس، وأمر الفيلسوف ابن طفيل في استنفار حميتهم بقصيدة مشهورة قال فيها:

أقيموا صدور الخيل نحوالمضارب	لغزو الأعادي واقتناء الرغائب
فلا تقتنى الآمـال إلا من القنـا	ولا تكتب العليا بغير الكتائب
ولا يبلغ الغايـات إلا مصمم	على الهول ركاب ظهور المصائب

1- المن بالإمامة، 144.

2- المعجب، 157

3- مجموعة رسائل موحدية، نشر ليفي بروفنصال، ص 118- 119.

4- الكامل، 246/11

5- القرطاس، 199

ومنها قوله:

ألا فابعثوها همة عربية تعز بأطراف القنا والقواضب

أفرسان قيس من هلال وعامر وما جمعت من ضاعن وضارب

لكم قبة للمجد شدوا عمادها بطاعة أمر الله من كل جانب[1]

وكانت مشاركتهم في حروب الأندلس في عهد يوسف مشهودة، فقد شاركوا بفعالية في الصراع بين الموحدين وابن مردنيش بشرق الأندلس[2]، وأول مشاركة لهم في هذا الصراع ذكرتها المصادر كانت في الحملة التي قادها السيد أبوحفص سنة 560/، والتي أدت إلى نشوب معركة فحص الجلاب، التي أبلوا فيها البلاء الحسن بحكم انبساط المنطقة التي حصلت فيها المعركة، وقد لاحظ قادة جيش ابن مردنيش أهمية مشاركة العرب، فنظموا هجوما على الجناح الغربي للجيش للجيش الموحدي والذي كان مكونا منهم، الشيء الذي أدى إلى مقتل سبعة من شيوخ العرب في هذه المعركة[3]. كان للعرب طرق خاصة في القتال، كانت تعتمد أساس على الكر والفر[4]، وتعتمد بشكل أساسي على الفرسان[5]. وكان هذا الأسلوب يؤدي إلى خسائر كبيرة في الجيوش النظامية لأن المهاجمين يهاجمون أطرافها، ولا يلتحمون ببقية الجيش ثم يتراجعون في حالة الشعور بضغط العدو. وكانت هذه الطريقة تنسجم مع حروبهم في الأراضي الصحراوية المنبسطة. لذلك فإن الطبيعة الجغرافية لبلاد الأندلس لم تكن دائما لمصلحة المحاربين العرب، فقد تعذر على المشاركين منهم في حملة يوسف بن عبد المومن على ويذة الاستمرار في المشاركة عندما عاينوا مكان المعركة معتذرين

1- المن بالإمامة، 70.

2- رسائل عزاوي، 81- 89، عنان، 17/2

3- أخبار المهدي، 165/ البيان، 89- 90/ عنان، 16/2- 17

4- العبر، 212/6

5- مرمول، 113/1

بأن "حربهم تحتاج إلى انفساح حيث يروحون ويتصرفون"[1]. وبسبب مشاركتهم في الحروب بالأندلس استقرت أعداد منهم هنالك، فقد ذكر عبد الواحد المراكشي أن "بالجزيرة اليوم من العرب من زغبة ورياح وجشم بن بكر وغيرهم نحومن خمسة آلاف فارس سوى الرجالة"[2].

ورغم كل المحاولات التي بذلها عبد المؤمن وابنه يوسف في استمالة العرب وتقريبهم فقد تابع من بقي من العرب بإفريقية قراقوش الغزي الذي وصل إلى منطقة طرابلس سنة 570/، ويبدوأن مشاركتهم إلى جانب هذا المغامر قد ألهب في نفوسهم الرغبة في الشغب، إذ سرعان ما انضموا إلى علي بن غانية المعروف بالميورقي الذي ظهر بها سنة 580/ وهي نفس سنة وفاة يوسف بن عبد المؤمن. كان انتقال بني غانية إلى إفريقية تحولا استراتيجيا مفاجئا للموحدين دعاهم إلى التحرك على جناح السرعة، خاصة وأنه استطاع السيطرة بسرعة على بجاية ثم على مليانة وقلعة بني حماد، وحاصر قسنطينة، وأظهر العرب الخذلان للوالي الموحدين أبي الربيع سليمان بانضمامهم أثناء معركة استرجاع بجاية إلى ابن غانية. لذلك قرر الخليفة المنصور التوجه بنفسه على رأس جيش الموحدين رغم حساسية الظرف الذي استلم فيه الحكم حتى لا يتقوى التحالف الصنهاجي الهلالي الذي التأم بسرعة بسبب التقاء مصالح الطرفين.

ورغم أن العرب كانوا حاضرين في بيعة الخليفة يعقوب المنصور سنة 1184/580، بحيث كان أول من بايعه أعيان زغبة تلمسان ومن معهم من العرب بقصر مصمودة وهوفي طريقه إلى مراكش. إلا أن بني عمومتهم في الطرف الآخر كان بعضهم في جانب بني غانية. وبعضهم مثل قبيلة زغبة "صاروا يدا واحدة مع بني يادين من زناتة في حماية المغرب الأوسط من ابن غانية وأتباعه"[3].

نظم الخليفة المنصور حملة برية وأخرى بحرية واسترجع المدن التي احتلها ابن غانية،

1- ابن صاحب الصلاة، 418

2- المعجب، 226

3- ابن خلدون، العبر، 48/6

وأمام ضغط القوة الموحدية توغل ابن غانية في صحراء الجريد، واكتفى الموحدين بهذا النصر دون أن يغامروا في تعقب فلول المنهزمين في الصحراء. وقد أعاد ابن غانية ترتيب صفوفه بدعم من العرب الهلالية خاصة من جشم ورياح فاستطاع بواسطة هذا الدعم احتلال توزر وقفصة والتوغل في اتجاه طرابلس إلى أن التقى بقراقوش الغزي الذي كان يسيطر على مناطق شاسعة من طرابلس تمتد إلى زويلة وفزان، فتكون بذلك حلف ثلاثي محركه هو العداء للموحدين، وقد دفع هذا الخطر الذي انتصب وجه الموحدين من جديد الخليفة المنصور إلى التفكير الجدي في كسر شوكته، فانشغل منذ عودته إلى المغرب في إعداد حملة قوية لحسم شره، فتوجه سنة 583/ على راس جيش قوي بلغ تعداده 20 ألف رجل، وعندما نما خبر الحملة إلى بني غانية تراجعوا قليلا إلى الصحراء فأتبعهم المنصور بقطعة من جيشه بقيادة ابن عمه أبي يوسف فانهزمت بنواحي قفصة هزيمة نكراء قتل فيها أغلب الجند والقادة، فقرر الخليفة التوجه على رأس جيشه فتمكن من هزيمة ابن غانية وحلفاءه في معركة الحامة في شعبان 1187/583 وتتبع حلفاء ابن غانية فحاصر قراقوش في قابس حتى استسلمت، واسترجع توزر وقفصة وهدم أسوارها، وتتبع مضارب القبائل العربية بالتخريب. وتقرر لديه تغريب القبائل التي تمكن منها عقابا لهم على مواقفهم، فأنزلهم بمنطقة سهلية في الغالب خصبة الأراضي كثيرة المياه، ووزعت قبائلهم على الشكل الآتي نزلت رياح من بني هلال ببلاد الهبط الممتدة إلى شمال نهر لكوس وسهل أزغار على ساحل البحر، وأنزل قبائل جشم ببلاد تامسنا الممتدة من نهر أبي رقراق إلى نهر أم الربيع والتي كانت قبل ذلك مجالا لبرغواطة ودكالة[1].

أسكن الموحدون القبائل العربية في أراضي كانوا يعتبرونها أراضي مفتوحة ملكا للدولة. ويبدوأن الموحدين قد منحوا للعرب حق الانتفاع في هذه الأراضي مقابل الخدمة العسكرية وأداء الزكوات الشرعية لبيت المال. لكن لا نملك معلومات عن طرق الاستغلال التي اعتمدها العرب، ويظهر أنهم احتاجوا لكثير من الوقت للتكيف مع الظروف الجديدة والتحول من رعاة رحل إلى زراع مستقرين. أما علاقتهم بسكان هذه المناطق من الأمازيغ

1- الاستقصا، 168/2- 169

فلم تشر إليها المصادر مما يجعل باب التساؤل مفتوحا على مصراعيه حول ظروف القرار الموحدي وملابساته، وحول طبيعة العلاقات التي نسجها العرب الوافدون مع مجالهم الجديد.

لكن كل ما قام به الموحدون في هذه الحملة لم يبلغ خط الحسم لأن المنصور اضطر إلى الرجوع إلى مراكش لتدارك تحرك بعض قرابته الذين أظهروا الانتزاء. ورغم اختفاء علي بن غانية عن مسرح الأحداث بعيد ذلك بوفاة غامضة، فإن تولي أخيه يحيى لشؤون بني غانية قد أعاد تكوين الحلف مع الأعراب وقراقوش وظل يحارب الموحدين لعدة عقود بعد ذلك، وتعززت صفوفه بوصول الجماعات الأولى من بني سليم إلى إفريقية قادمين إليها من برقة وشرق طرابلس. وكان من أبرز زعمائها المرحلين مسعود بن سلطان البلط[1]، ولا نعرف الظروف التي تمكن فيها هذا الزعيم من العودة من المغرب إلى إفريقية في عهد محمد الناصر، وتحالف من جديد مع بني غانية ضد الموحدين، كما أنه هاجم القبائل العربية التي تخلت عنه قبل ذلك، إلى أن تمكن القائد الموحدي أبومحمد عبد الواحد بن أبي حفص من هزيمته سنة 1205/600.

وإذا استثنينا استعانة الموحدين بالعرب في الأندلس، فقد أصبحوا متوجسين منهم فلم يكونوا يصحبونهم معهم في حروبهم داخل المغرب، حيث لم ترد إشارات إلى ذلك في المصادر. لذلك لم يستصحب المنصور العرب في جيشه في حملته إلى إفريقية سنة 582 خوفا من غدرهم والتحاقهم ببني عمومتهم "إلا بعضا من أشياخ رياح كبني زيان، رعيا لقدم هجرتهم، وتيقنا بنصيحتهم"[2].

كيف توزع العرب في البلاد ؟ لا نعتقد أن توزيع العرب بالمغرب الأقصى قد تم برغبتهم، بقدر ما كان قرارا سياسيا للدولة الموحدية التي كانت شديدة التمركز، حريصة على ضبط استراتيجيتها الأمنية، فاختيار المنطقة الساحلية من بلاد الهبط إلى نهر أم الربيع قد

1- برانشفيك، إفريقية في العهد الحفصي، 38/1.

2- بيان، 186

تحكمت فيه عدة أمور منها البعد الأمني بحيث تكون هذه القبائل في متناول الحركة السلطانية التي كان تحركها في هذه المناطق أسهل من أي منطقة أخرى إذا ما ظهر منها ما يستدعي التدخل. ثانيا البعد الجهادي، فهذه المنطقة كانت مطروقة من طرف الحملات الموحدية بشكل دائم في ترددها على الأندلس، ومن هنا يسهل على الموحدين تجييش أعداد كبيرة من المحاربين من أبناء القبائل العربية.

تبدومسألة رغبة الخلافة الموحدية في توظيف القبائل العربية في تحمل قسط من العبء الأندلسي مقبولة إلى حد ما في فهم ظروف نقلها إلى المغرب على مراحل، وهذا يحيل على ضرورة الأخذ بعين الاعتبار للتحليل الديمغرافي والاجتماعي للساكنة المغربية، التي لم تكن تزيد في أحسن الأحوال عن بضعة ملايين، لكن مع ذلك فإن التحليل المتأني للمسألة في سياقها التاريخي يدفع إلى طرح عدة تساؤلات من قبيل هل كان توظيف القبائل العربية بسبب قلة الساكنة أم أن الأمر يتعلق أكثر بالظروف السياسية المضطربة التي أحاطت بالدولة الموحدية حتى في أزهى مراحل تاريخها فحرمتها من نعمة الاستقرار، حيث ظلت الجبهات مشتعلة، تارة بالزحف النصراني في الأندلس، وأخرى باضطراب القبائل أوظهور الثوار، وثالثة بظهور منتزين من البيت الموحدي نفسه، الشيء الذي كان يؤدي إلى استنزاف أي قوة عسكرية مهما كان حجمها.

ولعل المنصور في محاولته لإدخال القبائل العربية إلى المغرب الأقصى كان يهدف إلى تحقيق أكثر من هدف؛ فمن جهة أراد إنهاء القلاقل التي خلقها الأعراب للدولة الموحدية بصحراء إفريقية وممالأتهم للقوة المناوئة للموحدين سواء منها قراقوش الغزي أوبني غانية؛ ومن جهة أخرى أراد الاستفادة من طاقة بشرية محاربة في حروب الموحدين بالأندلس.

لقد أدت الهجرة الهلالية إلى تعريب مناطق بدوية شاسعة في السهول الأطلسية والمناطق المجاورة لها، لكن التعريب توقف عند حدود أقدام الجبال. ومع ذلك فقد تأثرت عربية عرب التخوم ببعض التأثيرات الأمازيغية. لقد تفاعل العرب الهلاليون بشكل قوي مع الدولة والمجال وساكنته، أكثر من عرب معقل الذين ساعدهم الانعزال في الصحراء على الاحتفاظ بكثير من مقومات هويتهم بما فيها اللغة.

يبدوأن أعراب إفريقية قد أغرتهم الرحلة إلى المغرب، فهاجرت أعداد أخرى منهم واستقرت بالجهات الشرقية والجنوبية[1].

يظهر مما تقدم أن التاريخ المتقلب للقبائل العربية ومحاولة إعاقتها للتجربة وحدوية الموحدية كان يتطلب موقفا صارما من الخليفة الجديد، خاصة وأن الإيديولوجية الدينية والسياسية للموحدين كانت تنطوي على الرغبة في تأسيس خلافة قوية تعيد للإسلام مجده ليس في الغرب وحده بل في المشرق أيضا، وكانت أصداء هذه النوايا قد وصلت إلى المشرق، فبادر بعض المتنفذين في دولة الناصر صلاح الدين الأيوبي إلى إرسال قراقوش الغزي بجيش قوي إلى منطقة طرابلس ليكون حاجزا بين مصر والموحدين. وقد استفاد قراقوش في مغامرته كثيرا بالقبائل العربية التي يبدوأنها قد حكمت على نفسها بمعاكسة التاريخ والسير في اتجاه مغاير تماما لمخطط الموحدين في تأسيس دولة مركزية قوية بالغرب الإسلامي.

1- العبر، 6/69- 70

استقرار قبائل صنهاجة بتانسيفت
الحدث وبعض أبعاده المجالية

د. محمد رابطة الدين

المنطلق والغاية:

منطلق هذه الورقة حدث سياسي ترتبت عنه تحولات عميقة في الغرب الإسلامي امتدت على مدى أربعة قرون، وغايتها الوقوف على بعض مظاهر هذه التحولات في المجال الخاص بمراكش ومحيطها، كحالة تسمح بتدقيق النظر في مساهمة الفعل السياسي في إنتاج حياة الاستقرار في وسط جغرافي لم تكن مميزاته الطبيعية تؤهله لذلك، وسوف نركز على مظهرين فقط من مظاهر هذه التحولات هما السكان والتعمير.

تحديد المجال:

يقع مجال تانسيفت[1] بين دير الأطلس الكبير الغربي ومرتفعات الجبيلات، ويهم موضوعنا القسم الأوسط من خريطته، وبالذات الإطار الجغرافي الذي يمتد من مراكش ومحيطها جنوباً إلى الضفة الجنوبية لوادي تانسيفت شمالاً.

تحديد الإطار الزمني:

يغطي الإطار الزمني للموضوع الحقبة الممتدة من منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، إلى أواخر العقد السادس من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وإن كانت بداية الحقبة لا لبس فيها ولا غموض، فإن نصفها الأخير قد يثير

1- يعرف أيضاً باسم "الحوز"، وقد آثرنا استعمال الإسم الأول، لسبقه الزمني في الاستخدام وتأخر تداول الثاني الذي يرجع إلى منتصف العقد الثاني من القرن السادس عشر، أنظر: Gaston Deverdun, **Marrakech des origines à 1912**, tome: 1, Rabat, 1959, p. 1, citation * 1; Paul Pascon, **Le Haouz de Marrakech**, tome: 1, Rabat, p. 24.

تساؤل المتأمل لكونه يقع خارج زمن حكم المرابطين. ويرجع الحرص على إدخال هذا الحيز الزمني في الاعتبار إلى ما تمثله هذه الحلقة من تقديم لسابقتها إذ بها اكتملت مراحل تعمير المجال، وبلغ فيها تنوع عناصر السكان ونموهم الديمغرافي وخريطة توزيعهم أقصى درجاته في العصر الوسيط.

أسباب اختيار المجال والزمان:

أما أسباب اختيار المجال والزمان المؤطرين للموضوع فيمكن اختزالها في ملاحظتين هما:

- تميز الفترة بظهور دولتين مركزيتين بالغرب الإسلامي هما على التوالي دولة المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، ثم دولة بني عبد المومن الموحدي في بداية العقد الرابع من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وكل تجربة سياسية منهما كانت سبباً مباشراً لتحرك بشري ضخم إلى المجال، الأول مع قبائل صنهاجة، والثاني مع مصامدة الجنوب وبالذات قبائل الأطلس الكبير المغربي.

- اختيار كلا الدولتين الإطار الجغرافي المشار إليه من مجال تانسيفت موقعاً لعاصمتها مراكش التي أسستها الدولة الأولى، وبلغت توسعتها القصوى في العصر الوسيط مع الثانية، وكانت لهذه الوظيفة السياسية للمدينة، عامل جذب بشري إليها من مختلف أنحاء الغرب الإسلامي ومن خارجه.

الإ ـار البشري للمجال قبل استقرار قبائل صنهاجة:

ينتمي هذا المجال قبلياً إلى وحدة مصمودة الجنوب وبالذات إلى قبيلتي مزميزة وهيلانة[1]، يقع الحيِّز الترابي الأولى بين مراكش شرقاً وركَراكَة غرباً، ويمتد حيِّز الثانية بين مراكش غرباً

1- ابن عذاري، البيان، الجزء الرابع، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1967، ص. 19؛ مجهول، الحلل الموشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، البيضاء، 1979، ص.15 .

ومواطن قبيلة مسفيوة اليوم[1] وعثل وادي إغزر[2] الحدود الطبيعية الفاصلة بين مجالي القبيلتين[3]. وحسبما يفهم من الإشارات المتداولة فإن انتماء هذا المجال إلى القبيلتين المذكورتين كان انتماء تملك دون استيطان لأنه كان فارغاً بشرياً[4] غير أن أهميته الاقتصادية كانت واضحة عند الأهالي، فهومنطقة رعي[5]، وهذا النشاط الاقتصادي جعل منها مجالاً حيوياً لساكنة السفح الشمالي للأطلس الكبير الغربي[6].

حدث الاستقرار وسياقه:

ابتداء من منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، عرف مجال تانسيفت وصول واستقرار كتلة بشرية ضخمة، قدمت من الجنوب شكلت قبائل صنهاجة عناصرها الأساسية، لا يتعلق هذا المجيء وما ترتب عنه من جهة، بمزاحمة على المجال وتنافس عليه بين القبائل التي تمتلك تاريخياً حق التصرف فيه، وشرعية الانتفاع من خيراته وهي هيلانة وهزميرة، وبين قبائل أخرى تجمعها بها وحدة الانتماء إلى الأصل المصمودي والجوار، والتقدير المشترك لقيمته الاقتصادية وجدْواها، وتطلع هذه القبائل إلى الاستفادة

1- ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، البيضاء، 1984، ص. 142 هامش 209، ص. 213 هامش 276..

2- يعرف اليوم بوادي إسيل، ويقع خارج الواجهة الشرقية من أسوار مراكش، راجع: التشوف، ص 341 والهامش 52 من نفس الصفحة.

3- Voir **Marrakech des origines**, 1/ 52; **Le Haouz de Marrakech**, 1/ 373.

4- مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، البيضاء، 1985، ص. 210؛ البيان، 4/ 19؛ الحلل الموشية، 16.

5- البيان: 4/ 19؛ الحلل الموشية: 16؛ محمد رابطة الدين، مراكش على عهد الموحدين - جوانب من تاريخ المجال والإنسان، أطروحة دكتوراه الدولة في الآداب، شعبة التاريخ، تخصص التاريخ الوسيط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2002 (مرقونة)، ص: 9 - 14.

6- Ali Sadki, **Le montagne Marocaine et le povoir central**: un conflit séculaire mal élucidé, Hespéris- Tamuda, volume XXVIII, fassicule unique, Rabat, 1990, p. 18.

منها بتصيب. ولا يتعلق من جهة ثانية بكتلة بشرية طارءة عليه، لا تربطها بأهله لحمة العصبية أوأحلاف المصالح، بغيتها غلب أصحابه على ما في أيديهم وانتزاع أرزاقهم، أوالرغبة في توسيع المجال التي يعديها النزوع الطبيعي إلى استكثار مصادر الحصول على الخيرات. والمؤكد أن هذا الحدث جاء في سياق ظرفية تحول سياسي عميق، كان ظهور الدولة المركزية بالمغرب صلب مضمونها.

عناصر السكان:

بدأت عملية التعمير وإعادة تشكيل الإطار البشري للعاصمة مباشرة عقب دخولها من طرف الموحدين، وبقيت مستمرة بوتيرة غير متجانسة الخصوصيات ساهمت كلها في تنويع عناصر تركيبة ساكنة المدينة، وإحداث تموجات وذبذبات على منحنى تطورها الديمغرافي. ويبدوأن معالجة المؤشرات التي أمكن رصدها في المصادر المتداولة تسمح باختزال عناصر هذه الساكنة في مجموعات ستة واضحة هي:

1- مجموعة مغربية:

تتكون أساساً من مصامدة الجنوب وتمثل القاعدة العريضة للسكان. ميزتان تحكمت فيهما ظرفية دقيقة مجملها إقصاء تجربة سياسية وميلاد أخرى، ومن شأن وضعية من هذا النوع أن ترفع درجة المشاغل الأمنية، وتقوي عناصر الترقب والحذر. ومن المرجح أن تقدير الأمور بهذا الحجم لم يكن غائباً من حسابات الحكم الجديد، ولعل إمعان النظر في طبيعة تركيب الإطار البشري الجديد وحجمه ومهامه لا تستبعد ذلك، فالمؤكد أن هؤلاء السكان الجدد شكلوا درع الحكم الفتي وسنده الأول، وأداة تأمين سلامته خاصة في هذا الظرف الدقيق بالذات. ومهام تميزت بهذه الحساسية القصوى استلزمت في الغالب وضع شروط ضمانها ودوامها، منها ما هونوعي ويتجلى في الولاء السياسي ومنها ما هوكمي وقوامه: الحضور البشري الكثيف المنتج للقوة.

هذه الملاحظات تجعل في المقام الأول قبائل الموحدين المجموعة المرشحة لتشكيل القاعدة البشرية لساكنة المدينة، مما يقوي ذلك تطلعها أيضاً إلى الاستفادة من بعض امتيازات الوصول

إلى الحكم. ومعلوم أن مكونات هذا العنصر كانت تشمل هرغة وأهل تنمل وهنتاتة وكنفيسة وكدميوة وبعض قبائل صنهاجة وهسكورة[1]. وقد قدم البيدق لائحة بأسماء الوحدات التي دخلت المدينة تتضمن ستة، منها أربعة تنتمي إلى صنف قبائل الموحدين وهي: أهل تنمل وهنتاتة وصنهاجة وهسكورة، ثم عبيد المخزن والقبائل[2]، ومن المرجح أن عدم ورود أسماء الوحدات الأخرى في لائحة البيدق لا يعني غيابها لحيثيات مختلفة منها نعته الداخلين الجدد إلى العاصمة بالموحدين، ومنها عدم استبعاد خطة في توزيع المسؤوليات بين هذه الوحدات تجعل البعض منها بعيداً عن مواقع الأبواب التي تم منها الدخول إلى مراكش بعد انتهاء الحصار، ومنها ذكر سقائف خاصة بهم في حومة الصالحة فيما بعد[3].

2- مجموعة من المغربين الأوسط والأدنى:

لعل أبرز مكونات هذه المجموعة تكمن في مجيء قبيلة كومية وحلول عدة أسر تنتمي إلى هذا المجال بالعاصمة الموحدية، لذلك يبدومفيداً تناولها من خلال التميز بين العنصرين:

أ- قبيلة كومية:

دخلت هذه القبيلة الزناتية إلى مراكش واستوطنتها عام 557 هجرية/ 6211 ميلادية، وقدر ابن أبي زرع عدد أفرادها بأربعين ألف نسمة[4]. رقم مثير ما في ذلك من شك؛ خاصة إذا تم استحضار مميزه النوعي المتمثل في كون هذه الإحصائية تهم فقط الفرسان،

1- المعجب، ص 340. وقد أضيفت إليه قبيلة كومية بعد دخولها إلى مراكش.

2- أخبار المهدي، ص 64. وفيما يخص القصد بالقبائل عند الموحدين، من المرجح أن الأمر يتعلق بقبائل مصمودية كانت تستوطن الدير الشمالي للأطلس الكبير الغربي مثل: إيلان وركراكة، وأخرى كانت مواطنها تقع في أجزاء من السفح الشمالي لنفس المجال مثل أوريكة، أهل نفيس وهزرجة. انظر في هذا الصدد: البيدق، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1971، ص 49 - 50 والمعجب، ص 341.

3- محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المغربية، الرباط، 1979، ص 303.

4- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، طبعة دار المنصور، الرباط، 1973، ص 201.

وهومؤشر له قيمته في فهم ظرفية حلول هذه الطاقة البشرية، وكيفما كان حجم المبالغة الذي يمكن أن يلحق هذا التقدير، فالملاحظة التي تبدوموضوعية أكثر هي وجاهة الجانب الكمي من المسألة، إذ المرجح أن الأمر يتعلق بحضور كثيف: تعتبر هذه الخصوصية فيه بالذات أداة ربط عضوية بين وجود كومية في مراكش والغاية منه[1].

1- تسمح معالجة مجموعة من الجزئيات المتعلقة بالفترة بترجيح أهمية القيمة العددية لأهل كومية الذين قدموا مراكش، كشرط أساسي في مكونات هذه الوحدة القبلية يجعل منها طاقة بشرية ذات قوة مؤهلة للقيام بما جاءت من أجله، وهو الإسهام في دعم وحماية البناء السياسي لحكم بني عبد المومن، وهو الاختيار الذي فرضه عبد المومن=

= والقائم على وراثة الخلافة في عقبه، وهيمنة الأسرة على معظم مقاليد السلطة المركزية وغير المركزية. ومن غير المستبعد أن يتم تحول مصيري من هذا الحجم في بنية النظام الموحدي دون أن يثير إما بشكل مكشوف أو مضمر حساسيات الخلاف والرفض لما يخالف تقاليد التشاور في اختيار الزعامة السياسية كما جرت العادة بذلك في تولية عبد المومن. ففي الخطوة تهميش لأهل العشرة، وإقصاء للرجل الثاني بعد عبد المومن في هذه الطبقة من الهرمية الموحدية أو المؤهل للولاية بعده، إذ تم استحضار أسلوب "التراضي" الذي تم على قاعدته تعيين عبد المومن على رأس هرم الحركة الموحدية، إلى جانب هذا وذاك ففي الخطوة مؤشر تحويل مقاليد الحكم من يد أهل الأطلس وهم الذي قام بهم أمر الموحدين، إلى يد إطار قبلي غريب عن المجال وأهله والتجربة السياسية التي ولدت فيه. ولعل في طبيعة بعض الأحداث التي وقعت خلال تاريخ قدوم كومية بالذات ما تستشف منه مؤشرات لهذه الحساسيات منها ردع رموز بارزة في التجربة بعدما أبانت عن مخالفتها، ويتعلق الأمر بأهل هرغة وأهل تنمل، وقتل أخوي المهدي وأتباعه وقريبه بصلتين. وفي غياب ما يلزم من عناصر لفهم موضوعي لهذه الأحداث، يمكن التساؤل على الأقل عن وجود روابط بين الخطوة من جهة وهذه الأحداث من جهة ثانية. أليس في طبيعة الرد واتخاذ الخطوة خطاباً للترهيب والترغيب يقطع الطريق أمام كل معارضة أياً كان مصدرها؟. وفي وضعية سياسية من هذا النوع تصبح الانشغالات الأمنية ذات أهمية قصوى، ويتصدر الحفاظ على ميزان القوة أولوية الأولويات في عمل الحكم القائم، ولعل هذا السياق يسهم في فهم دواعي انتقال كومية إلى مراكش والاستقرار بها، وفي ترجيح الأهمية العددية لهذه الكتلة البشرية.

يراجع في هذا الإطار: أخبار المهدي، ص. 76، 78- 79؛ القرطاس، ص. 194، 201؛ الحلل، ص 151؛ العبر، ج 6، صص 260 - 261.

ب- أسر من المجال:

استقرت بمراكش في هذه الفترة بالذات مجموعة من الأسر ذات أصول جغرافية إما من المغرب الأوسط أوإفريقية، وحسبما يبدوفقد كانت وراء انتقالها في أغلب الأحوال إما أغراض مخزنية[1] أوأهداف علمية[2]، وفي بعض الحالات التقى الأول بالثاني[3]. وإذا لم تسعف الإمكانيات المرجعية المتداولة في الرهان على الوصول إلى تقدير تقريبي لعدد هذه الأسر وحجمها الديمغرافي، فإنها تؤكد الاستقرار الدائم لها بالعاصمة، من المؤشرات الدالة على ذلك تقلد عدد من الأفراد داخل الأسرة الواحدة لمهام مخزنية مثل أسرة ابن داقال الوردميشي التلمسينية التي اشتهرت بتولي خطة القضاء[4]، ومثلها في ذلك أسرة ابن منصور الجنب من المهدية بإفريقية، التي كانت لها مقبرة خاصة بها عند باب تاغزوت[5].

ويقدم الجدول التالي لائحة بأسماء بعض من هذه الأسر:

اسم الأسرة	أصلها الجغرافي	المصدر
ابن داقال الوردميشي	تلمسان	الذيل: 254/1/8
اللخمي	تلمسان	الذيل: 266/1/8
الهمذاني	وهران	الذيل: 339/1/8
ابن منصور الجنب	المهدية	الذيل: 2861/8/
ابن صمغ القرشي	تونس	الذيل: 220/1/8

1- ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، تحقيق محمد بن شريفة، السفر الثامن، القسم الأول، الرباط، 1984، ص 266.

2- الذيل، 8/ 1/ 220.

3- الذيل، 8/ 1/ 254 - 256.

4- الذيل، 8/ 1/ 254 - 256.

5- الذيل، 8/ 286.

3- مجموعة أندلسية:

توفر الإشارات المتداولة المتعلقة بهذا العنصر إمكانية الوصول إلى خلاصة محتواها: أهمية الحضور الأندلسي ضمن نسيج ساكنة العاصمة الموحدية، وهي ملاحظة يمكن رصد بعض تجلياتها في جوانب متعددة من مكونات المدينة، تكفي الإشارة إلى ثلاث منها: أولاها وجود حومة كان أكثر سكانها حسبما يدومن أهل الأندلس وسبتة وهي حومة السبتيين[1]، وثانيها حضورهم البارز في مواقع مختلفة ضمن أجهزة المخزن وخططه وشؤونه من ذلك المهام الإدارية[2] والقضائية[3] والعلمية[4] والطبية[5]، وثالثها تشكيلهم لأحد عناصر الجيش وهوالصنف المعروف بجند الأندلس[6].

اسم الأسرة	أصلها الجغرافي	المصدر
القرطبي	قرطبة	القرطاس: 206، 216
القرطبي	قرطبة	الذيل: 18/1/8
ابن زهر	إشبيلية	القرطاس: 207
السماتي	إشبيلية	الذيل: 26/1/1 - 324
اللخمي	إشبيلية	الذيل: 75/2/5 - 477
الرندي	رندة	الذيل: 8/ 1/ 19

1- البيان المغرب، ق.م: 352.

2- الذيل، 264/1/8.

3- المعجب، 247.

4- ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، حامد عبد الحميد، أحمد أحمد بدوي، بيروت، 1955، ص 232 - 233؛ الذيل، 1/1/ 228.

5- محمد المنوني، حضارة الموحدين، البيضاء، 1989، ص 90 - 91.

6- المن بالإمامة، 313؛ التشوف، 320؛ البيان، ق.م: 101.

4- مجموعة شرقية:

يمكن التمييز داخل هذه المجموعة بين أصناف ثلاثة هي:

أ- العرب[1]:

يصعب جداً نفي وجود عربي ضمن ما بقي من سكان المدينة بعد الحصار، وكيفما كان الأمر، فإن الحصيلة التي يمكن أن تبقى، لا يظهر أن لها قيمة ديمغرافية ذات شأن. أما في فترة حكم الموحدين فيبدوأن تشكيل هذا الصنف تم عبر قنوات متعددة منها: السبي خاصة النساء منه[2]، والرحلات العلمية التي تطلبت من أصحابها إقامة طويلة[3]، والعمل في الجندية حيث كانوا يدخلون في مكونات تركيبة الأجناد المستقرة على الدوام بمراكش[4].

2- الغـز[5]:

لا نعرف ولوعلى وجه التقريب الحجم الديمغرافي لهذا العنصر خلال هذه الفترة، غير

1- يبدو أن حجم المجموعات العربية التي استوطنت المغرب الأقصى خلال هذه الفترة كان مهماً. ومن الملاحظ أن ظرفية دخول هذا العنصر تحكمت فيها أيضاً المشاغل المخزنية المرتبطة ببناء التجربة الموحدية. وكان من ضمن ما نهجته كأسلوب واختارته كآليات لتحقيق ذلك: تنويع عناصر الجند وتوسيع حجم العناصر غير المصمودية في مكوناته بهدف التخفيف من ثقل أهل مصمودة الجنوب، وتعزيز أمن الحكم القائم. انظر: Victoria Aguilar Sebastian, Apportation de los Arabes nomadas à la organizacion militar del ejéreito Almohade, Al-Qantara, vol. XIV, Madrid, 1993, pp. 393-415.

2- أخبار المهدي، 75؛ البيان، ق.م: 346.

3- العباس بن إبراهيم، الإعلام لمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، الرباط، الجزء الأول: ص. 153، 168، 169، الجزء الثامن: 198، 200، الجزء العاشر: 212- 214.

4- المعجب، 241؛ البيان، ق.م: 101.

5- الغز: "طائفة من مماليك الترك المصريين"، ترجع أصولهم الجغرافية إلى "أقصى الشرق على تخوم الصين" دخلوا المغرب الأقصى على الأرجح في بداية عهد الخليفة المنصور، ومن المرجح أن دخولهم كان وراء طلب مخزني غايته تنويع عناصر الجند وتقوية مكوناته البشرية غير المصمودية. انظر المعجب: 256؛ التشوف.347 :

أن تأمل بعض المؤشرات المحدودة يوحي بوجود معتبر لهم أولها: مساهمتهم في تشكيل عناصر الجند، ثم توزيعهم فيما يبدوعلى أكثر من جهة بالبلاد[1]، وأخيراً حضورهم في إضعاف المخزن خاصة في فترة حكم المرتضى[2]، ودون شك فإن طائفة منهم تم توطينها في العاصمة، على الأقل ضمن مكونات الجند الموجودين بشكل دائم في مراكش[3].

عناصر أخرى ذات أصول شرقية:

يبدومن خلال بعض المعطيات المتناثرة، استقرار لعناصر أخرى ذات أصول شرقية، فارسية وتركية في الدرجة الأولى، لكن بنسبة محدودة جداً، وترجع دواعي وصولها واستقرارها إلى أسباب مختلفة منها الرحلة في طلب العلم، ولا يستبعد الاسترقاق أيضاً، من نماذج الأول عمر بن مودود بن عمر السلماسي من أهل سلماس من بلاد فارس[4]، ومن أمثلة الثاني زوجة الوزير ابن جامع التركية الأصل[5].

5- أهل الذمة:

تتكون هذه المجموعة من عنصرين بارزين هما:

أ- النصارى:

شكلت هذه الطائفة إحدى الأقليات الدينية في النسيج البشري لمراكش، وقد ارتبط وجودها بالخدمة العسكرية التي أدتها لصالح الحكم الموحدي منذ وصوله إلى السلطة[6]، ومن المرجح أن يكون تكوينها تم على حساب ما تبقى من جند الروم الذين كانوا يعملون في جيش

1- المعجب: 289 - 290؛ التشوف.347 :

2- القرطاس.258 :

3- ورقات.303 :

4- الذيل.550 - 549 /5/8/ :

5- الأعلام.273 /1 :

6- الحلل.146 :

المرابطين، خاصة وأنها ساهمت في إنجاح عملية اقتحام المدينة بعد الحصار[1].

ويبدو أن تطور الحضور المسيحي في العاصمة الموحدية قد اتخذ منحى عكسياً لتطور الحكم نفسه، ففي فترة قوة هذا الأخير تميز وجود النصارى بمحدوديته وبتقنين دقيق لشروط الإقامة داخل مجتمع المدينة[2]، بينما عرفت فترة التراجع تزايداً ملحوظاً في قيمة هذا الحضور ابتداء من زمن حكم المامون[3]، ولعل بعض مؤشرات هذه الوضعية يمكن رصدها في عناصر أربعة، منها ما له صبغة قانونية ومنها ما له صبغة تنظيمية، أولها انتزاع حق إشهار ديانتهم وممارسة شعائرهم بكل حرية[4] بعدما كان أمراً محظوراً، ثانيها: إقامة كنيسة لهم داخل العاصمة[5]، ثالثها: تخصيص مقبرة لهم لدفن موتاهم[6]، رابعها: تحويل أسقفيتهم من فاس إلى مراكش في عهد حكم الرشيد[7].

1- Marrakech des origines: 1/288.

2- المعجب: 305.

3- يمكن اختزال الظرفية التي أنتجت هذه الوضعية الجديدة للطائفة المسيحية في الأزمة التي كان المخزن الموحدي يعيشها منذ هزيمة العقاب، وما تولد عنها خلال هذه الفترة بالذات من انقسامات عميقة داخل هياكل الحكم، أدت ببعض الأطراف المتصارعة إلى أن تخطب ود القوى المسيحية الإيبيرية قصد دعم جانبها في هذا الصراع ضد المسلمين وبالشروط التي كانت ترضي هذه القوى. ولعل من أبرز انعكاسات هذا الوضع أن أصبح جند الروم في جيش المامون - حسب ابن عذاري - « عمدته في إصداره وإيراده» بل لا يستبعد حضور أيادي قادتهم في توجيه شؤون المخزن خلال العقود الأربعة الأخيرة من تاريخ حكمه. انظر: القرطاس: 250، 251، 254، 255؛ والبيان: ق.م: 298، 360.

4- القرطاس: 250 - 251.

5- القرطاس: 250؛ العبر: 6/ 530 - 531. Pierre de cénival, L'Eglise Chrétienne de Marrakech au XIII Siècle, Hespéris, VII, 1927, pp. 69-83. محمد بن شريفة، كيف ظهر ضريح القاضي عياض، ضمن أعمال ندوة من جامعة ابن يوسف إلى جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، 1990، ص 31 - 33.

6- كيف ظهر ضريح القاضي عياض: 31.

7- **Marrakech des origines**, 1/ 292

2- اليهود:

يبدو أن العاصمة الموحدية لم تعرف في بداية حكم بني عبد المومن وجوداً كمياً ذا قيمة هامة للطائفة اليهودية ضمن مكونات عناصر سكانها لسبب وجيه محتواه: الحظر الذي كان مفروضاً على اليهود فيما يخص المبيت بالمدينة منذ عهد حكم علي بن يوسف[1] وبوصول الموحدين إلى الحكم يبدو أن الوضعية تغيرت، ولربما من الرصيد البشري لهذا العنصر من سكان أغمات إيلان تشكلت نواة هذه الطائفة بمراكش[2].

1- الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق، طبعة الجزائر، 1957، ص 59.

2- أورد Gaston Deverdun مقتطفات من مرثية لشاعر يهودي يسمى ابراهام بن عزرا، وصف موضوعها بمذابح الموحدين، مشيراً إلى أن الشاعر تعرض بإسهاب إلى "الاضطهاد" الذي مارسه عبد المومن، وكانت من بين عواقبه إبادة التجمعات اليهودية الكبيرة في المغرب خاصة في درعة ومراكش. وفيما يخص هذه الأخيرة وأمام سكوت المصادر عن ذات الموضوع، يرى Deverdun أن تاريخ الإشارات الواردة في المرثية يوافق تاريخ حصار المدينة، مرجحاً أن يكون اليهود قد لاذوا بالأسوار طول مدة فترة الحصار، ونجا منهم حسبما يبدو أولئك الذين تظاهروا باعتناق الإسلام.
لعل هذه الكيفية التي تعامل بها Deverdun مع موضوع اليهود بالخصوص تقتضي إبداء بعض الملاحظات:
-إن توسيع وإغناء الإطار المرجعي لعمل المؤرخ، اختيار في البحث محمود ومطلوب، ويفرض في الباحث التسلح بما يلزم من أدوات التحليل المناسبة لطبيعة الجنس الأدبي للمصادر، ولخصوصيات الموضوع ذاته، وما تستلزمه من الحفاظ على مسافة كافية لحماية الدارس من أن يتحول إلى تابع، تحكمه وتوجهه طبيعة مادة موضوعه ونوعية الخطاب الذي تحمله، وحسبما يبدو، فإن هذه الضوابط والشروط غير حاضرة في هذا الجانب بالذات من عمل Deverdun.
-وصف هذا الأخير ما تعرض له اليهود من طرف عبد المومن بأوصاف يبدو أن استخدامها لا يخلو من مبالغة مثل: المذابح، الإبادة... إلخ، ولعل مصدر المبالغة نابع من اعتبارات منهجية وأخرى تهم الموضوع، منها مصدر المادة ذاته. صحيح أن المؤلف عاصر الأحداث حيث توفي في بداية حكم أبي يعقوب يوسف، لكن لا نعرف هل هي معاصرة مشاهدة، أو مجرد سماع أو اعتماد مصدر كتابي؟ ومنها انتماء الشاعر إلى الطائفة اليهودية، وقراءة أعماله كما هو الحال بالنسبة لأعمال المسلمين عن اليهود يجب أن تتم في سياق ما ميز العلاقات بين الطرفين في دار الإسلام ومنها المغرب في الفترة موضوع

وإذا لم نتمكن من تكوين فكرة ولو مجملة عن حجمها الديمغرافي، فمن المرجح أن هذا الحجم لم يعرف الانكماش، من جهة للأهمية الاقتصادية للمدينة، خاصة بعدما تم توسيع خريطتها التجارية بفتح أسواق وفنادق جديدة وتعزيزها بقيسارية عظيمة[1]، ومن جهة ثانية لثقل وزن يهود المغرب آنذاك في حركته التجارية[2]. وإذا كان هذا النشاط الاقتصادي أحد المفاتيح إلى فهم الحجم البارز لساكنة سجلماسة وفاس من اليهود، فإنه يبقى وارداً أيضاً بالنسبة لمراكش، إذ من غير المستبعد أن هذا العامل بالذات ساهم في تمتع الطائفة اليهودية بوجود بشري له قيمته، ومما يقوي ذلك إشارة لابن أبي زرع تتعلق بضحايا دخول يحيى بن الناصر إلى مراكش سنة 629 هجرية/ 1232 ميلادية وكثرة من شملهم القتل من يهود المدينة[3].

4- العبيد:

مما لا شك فيه أن هذا العنصر من السكان لم يكن لأفراده أصل جغرافي واحد إذ الاسم ذو مرجعية اجتماعية قانونية وفقهية، قاسمها المشترك حرمان الإنسان من الحق في الحرية والتصرف الطبيعي اليومي في حياته. ويمكن اختزال أسباب التنوع الجغرافي للعبيد في العاصمة الموحدية في اتساع مجال سيادة المخزن الموحدي، والجوار مع النصارى، والعلاقات التجارية مع السودان. وهكذا شكل الإطار الجغرافي مورداً لإنتاج العبيد من خلال أسرى الحروب

البحث، تجنباً لتدخل الحساسيات - وليست بالقليلة - سواء في النص أو في مشاغل القارئ، ومنها أن النص متن شعري يعتبر الخيال جزءاً من مكونات شاعريته، ولعل هذه الخاصية وحدها تفرض على الباحث التعامل بحذر متزايد مع ما يتضمنه من إشارات لها صلة بالتاريخ، ومنها استبعاد وجود اليهود في مراكش خلال زمن الحصار من جهة لعدم السماح لهم بالإقامة فيها ليلاً، ومن جهة ثانية عدم سماح ظروف الحصار لهم ولغيرهم بالانتقال من أغمات ايلان إلى مراكش، علماً بأن أغمات هي الأخرى كانت تمر من حالة حصار. ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الخامس، الجزء الأول، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ص 304؛ Voir, Marrakech des origines, 1/ 277.

1- الاستبصار: 210.

2- الاستبصار: 210.

3- القرطاس: 253.

المسلمون منهم[1] والنصارى[2] من جهة، وعبر التجارة السودانية التي كان الرقيق السوداني يدخل ضمن مواد مبادلاتها[3] من جهة ثانية.

ويبدوأن مراكش كانت خلال هذه الفترة تمثل مركزاً بارزاً لاستقرار العبيد، اعتباراً للحاجة إلى خدماتهم، فمراجعة بسيطة للمعجم الخاص بالرق في المصادر المتداولة لا يكشف فقط عن هذه الرغبة، بل ويعطي انطباعاً بالقيمة الكمية لحجمهم الديمغرافي رجالاً ونساء، واتساع دائرة تملكهم لتشمل أوساطاً اجتماعية متنوعة ابتداء من المخزن[4] إلى أهل اليسر[5] فالمتصوفة[6] إضافة إلى تقديم مراكش كمركز لرواج تجارة الرقيق ووجود تجار متخصصين في ذلك وبعض المؤشرات المتعلقة بالأثمنة[7]. ولعل بعض عوامل هذه الحالة تكمن في الملاحظات التالية:

1- الحروب:

ساهم هذا العامل في تسهيل عملية انزلاق الأحرار المنهزمين إلى العبودية دون مراعاة للجنس أوالعمر[8]، والحروب خلال هذه الفترة كانت متلاحقة وخريطتها واسعة، والغلبة فيها كانت في أغلب الأحوال لصالح الموحدين، خاصة في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. وبذلك شكل هذا العامل مصدراً لتغذية تجارة الرقيق في العاصمة([9]).

1- أخبار المهدي.77 :

2- Marrakech des origines: 1/ 293-294.

3- الحميري، الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1975، ص 134.

4- الذيل.252 /1/8 :

5- التشوف.405 :

6- التشوف.241 :

7- التشوف.224 :

8- أخبار المهدي: 67، 69، 77؛ الذيل: 1/1/ 228؛ البيان: ق.م: 346؛ الحلل.143 :

9- لا يستبعد أن يكون تعامل الموحدين مع أسرى الحرب كعبيد، يدخل أيضاً في إطار خطاب الترهيب والترغيب، من جهة كتحفيز وتشجيع للعناصر التي اعتمدها المخزن في قوته، ومن جهة ثانية كتحذير

2- أغراض اجتماعية:

شكل العبيد الرجال منهم والنساء قوة إنتاج خدمات يومية لصالح أصناف اجتماعية مختلفة من أهل المدينة في الدور وأماكن العمل[1]، ويبدوأن الاقتصار على فرد واحد في الدار لم يكن هوالقاعدة، إذ يستفاد من المؤشرات المتداولة وجود أكثر من هذا العدد كحالة عادية على الأقل عند الأصناف الاجتماعية الأكثر يسراً في المدينة[2].

3- أغراض عسكرية:

شكل العبيد فيما يبدوعنصراً من مكونات جند الموحدين[3]، وما يهم صلب موضوعنا الصنف المعروف باسم عبيد المخزن لعلاقة وظيفتهم بدعم أمن الخلافة، وهوما يتجلى في إسناد عدد من المهام الدقيقة لهم من خصوصياتها التدخل لحماية الخليفة وحاشيته من الأخطار الطارئة، وهي ملاحظة ترجح استقرارهم الدائم بالمدينة[4].

يتبين إذن أن المدينة عرفت إعادة تعمير ذات قيمة في جانبها النوعي بما تراكم من أفراد وجماعات وقبائل ذات انتماءات جغرافية متباينة وأشكال عيش متنوعة، وفي جانبها الكمي بتكوين إطار بشري أنتج ساكنة ساهمت في إعادة تنظيم مجال العاصمة الموحدية.

لمن كان له منزع معارض. ولعل بعض الصور التي قدمها كل من البيدق وابن عبد الملك عن هذه العملية، تسمح بعدم استبعاد ذلك؛ فقد جمع الأول في خانة واحدة بين الأسرى والماشية، واعتبر الثاني العملية مطابقة للكيفية التي يتم بها تعامل المسلمين مع الأسارى المشركين. انظر: أخبار المهدي: 77؛ الذيل: 1/1/228.

1- البيان: ق.م: 313، 329.

2- الذيل: 8/1/251.

3- القرطاس: 224، 240.

4- أخبار المهدي؛ البيان: ق.م: 405.



المحور الرابع

التمازج البشري وأهميته في ربط المغرب بالمشرق



الوجود اليمني بالأراضي الليبية

ودوره في ربطها بالمشرق

د. محمود أحمد أبوصوة

جامعة الفاتح- ليبيا

يسعى هذا البحث إلى مناقشة جزئية تبدوللوهلة الأولى داعمة ومؤيدة للتفسير الكلاسيكي الغربي الذي يتعمد إغفال تاريخ بلدان المغرب المحلي وإبراز تبعيته. فالعديد من الدراسات الغربية التقليدية ومن نحى نحوها لا تلتفت كثيرا إلا للأحداث الكبرى: كالفتوحات الكبرى، وقيام الدول والإمبراطوريات واضمحلالها. وبالنظر إلى أن التفاسير التي تضمنتها هذه الأعمال كانت قد ذهبت إلى أن المنطقة لم تدخل التاريخ إلا بقدوم الفينيقيين، فقد ترتب على ذلك تجاهل شبه تام للمراحل السابقة والتي اعتبرت غير جديرة بالاهتمام. والأخطر من ذلك أن إصرار هذه الأعمال على هذه الوجهة دعم أطروحتها القائلة بأن المغرب بلاد بلا عباد. وحين تتلطف هذه المدرسة وتتواضع فإنها تذهب إلى أن له تاريخ، ولكنه تاريخ محل وساكن! فهوعبارة عن تاريخ للصراع بين قوى الخير الوافدة المتحضرة(الرومان على وجه التحديد) وقوى الشر المحلية المتوحشة(البربر). ولأن المحليين غير قادرين على التأسيس وبالتالي الاستقرار فإنهم كانوا وباستمرار في حاجة لمن يسوسهم، ويقوم بالعمل، بما في ذلك تحرير الأرض، عوضا عنهم!! فالرومان، يقول جوتيه في هذا السياق، طردوا الفينيقيين، والبيزنطيون ورثوا البلاد بعد طردهم الوندال، أما العرب الذين طردوا البيزنطيين فقد ورثهم العثمانيون الذين طردهم الفرنسيون!

لذلك فالتطرق، على سبيل المثال، لتاريخ الأراضي الليبية في العصر الوسيط وانطلاقا من دور الوافد، في هذه الحالة اليمني، يجعل المرء يرتاب في هذا التناول وينفر منه. والسؤالان اللذان يقفزان للذهن في هذا السياق لماذا الكتابة إذا في موضوع قد يؤكد من حيث التناول

والتحليل دور الوافد ويتجاهل من جديد تاريخ المحليين؟ وماذا يمكن أن يضيف هذا التناول لتاريخ المنطقة المغربية بصفة عامة ولتاريخ الأراضي الليبية على وجه الخصوص؟

في الحقيقة إن محاولة كتابة تاريخ" ليبيا" الوسيط بل والقديم أيضا خارج دائرة التبعية أمر غاية في الصعوبة. فالوثيقة، وكما يقول ابن خلدون لا توجد إلا في خزائن السلطان! وبالنظر إلى أن المنطقة لم تشهد قيام سلطنة سلطان في العصر الوسيط[1]، خيم الصمت حول هذا التاريخ وتضاعفت بالتالي عتمته. لذلك فإنه لا مفر من اللجوء، عند كتابة تاريخ ليبيا الوسيط، ليس فقط لتاريخ الوافد، بل ولتاريخ المناطق المجاورة للأراضي الليبية، إفريقية من ناحية الغرب، ومصر من ناحية الشرق. وهذا الوضع المعقد يزداد تعقيدا حين يتصفح المرء الأعمال القليلة التي عالجت تاريخ ليبيا بصفة عامة وتاريخها الوسيط بصفة خاصة. فهذه الأعمال وبالإضافة إلى أنها تؤكد هذا التناول الذي يكاد يقصر تاريخ المنطقة على تاريخ التواجد الأجنبي، فإن أصحابها لم يشغلوا بالهم بالنتف التي ترد في هذه الأعمال والتي تنوه عرضا بحياة الأفراد وبعلاقتهم بالوافد. فالأعمال الغربية التقليدية، الفرنسية والإيطالية على وجه التحديد، كانت حريصة على إبراز تاريخ المنتصرين[2]، ممثلو الغرب بطبيعة الحال في المنطقة، وتهميش تاريخ المحليين، ولكنها كانت تضطر من حين لآخر للتنويه ببعض أنشطة السكان المحليين وببعض عاداتهم. وبدخول المسلمين المنطقة لم تتغير استراتيجية التناول إذ استمرت هذه الأعمال في تبني المنهج نفسه معتبرة التواجد الإسلامي تواجدا غريبا أولته كالعادة اهتماما خاصا ولكنه اهتمام لا يرقى بطبيعة الحال إلى مستوى اهتمامها بالوافد

1- ففي دائرة السلطان لا تتوفر الوثيقة فحسب، بل وفرصة الثراء، والاهم من ذلك شيوع الذكر؛ يقول الجاحظ بأن " السلطان سوق! وإنما يجلب إلى كل سوق ما ينفق فيها، وقد نظرت في التجارة التي اخترتها والسوق التي أقمتها فلم أر فيها شيئا ينفق إلا العلم والبيان عنه " ! نقلا عن: الدكتور علي أومليل، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1996، 100.

2- وكيف لا يبرز تاريخ الآخر/ الوافد والغرب مبتكر المقولة التقليدية الشهيرة " للمنتصر تعود كل الغنائم": ((To the victor belong the spoils ؛ ولعل أهم ما تنوه به هذه المقولة وتصر عليه في مجال الذاكرة، أن التاريخ حين يكتبه الغرب/ المنتصر يكون على الدوام في شكل غير قابل للنقد؛ وفي هذا الشكل/ إعادة التشكيل، يكون المنتصر دائما على صواب !

الأوروبي. ففي أغلبية هذه الأعمال لا الإسلام ولا المسلمين يرقيان إلى مستوى المسيحية والمسيحيين.

وشح المعطيات الخاصة بالعصر الوسيط، واعتماد فرضية التبعية، فضلا عن التنويه بتاريخ الوافد هي قضايا لا تلام عليها الأعمال الغربية بمفردها، فالمصادر التاريخية الإسلامية الأولى تحمل نصيبها من هذا الوزر؛ فالتفاصيل ذات العلاقة بدخول المسلمين المنطقة في القرن الأول للإسلام والتي صاغتها المصادر الإسلامية بعد قرنين على الأقل، اختزلت تقريبا في المقاومة التي أبدتها بعض المدن. وبالنظر إلى أن هذه الأخيرة كانت تحت السيطرة البيزنطية، فقد تم التركيز على هؤلاء، أما مدن المحليين وأنشطتهم فقد تم تجاهلها. واللافت للنظر أن هذا التوجه استمر حتى بعد دخول كل الأراضي الليبية في الإسلام. فالاهتمام بتاريخ المناطق المختلفة من الأراضي الليبية كان بقدر علاقته بالآخر/ الوافد، إذ أن المتصفح للمصادر الأولى يكاد لا يعثر فيها على أسماء المدن المحلية أوالزعامات المحلية. فبالنسبة لمرحلة الفتح، وفي الوقت الذي نوهت المصادر بمدن ساحل الأراضي الليبية الواقع تحت النفوذ البيزنطي(بنطابلوس، أي المدن الخمس في شرق الأراضي الليبية، وإطرابلس، أي المدن الثلاثة في الغرب) فإن توقفها عند مدينتي برقة وزويلة كان نتيجة استقرار عقبة بن نافع فيهما قبل انتقاله إلى مدينة القيروان! أما الزعامات المحلية، وعلى الرغم من أن هذه المصادر أشارت إلى بعض هؤلاء في سياق تطرقها لمقاومتهم لعقبة بن نافع، فإنها غفلت عن ذكر أسمائهم[1]!! لذلك فإن المرء، وبعد أن أصبحت كل الأراضي الليبية مسلمة يجد صعوبة حقيقية في العثور على عباد في هذه البلاد، فما يعثر عليه الباحث بوفرة نسبية هوأسماء ولاة مدينة طرابلس الذين يتبعون والي القيروان، أما برقة وبالنظر لحسن طاعتها فإنها تعاقب من أجل ذلك ولا تلتفت إليها المصادر! فهذه الأخيرة، وإن كانت تلمح لتبعية برقة لمصر، فإنها

3- ففي سياق تطرق ابن عبد الحكم لحملة عقبة بن نافع التأديبية في جنوب الأراضي الليبية ذكر بأن هذا الأخير، عاقب ملك جرمة ومن غير أن يذكر اسمه.أنظر: فتوح مصر والمغرب، حققه وقدم له الدكتور علي محمد عمر، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ، 2221995؛ والأمر نفسه يتكرر حين يتطرق جميع مؤرخي الإسلام الأول إلى بقية المدن الليبية.

تصر على تجاهل من كان يقوم على إدارتها من المحليين أوحتى من الوافدين. يقول البلاذري بأن أهلها كانوا" يبعثون بخراجهم إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاث أومستحث، فكانوا أخصب قوم بالمغرب ولم يدخلها فتنة"[1]. لذلك، وفي ظل شح المعلومة، اضطر النفر القليل من الباحثين المعاصرين الذين انبروا للكتابة عن هذا التاريخ بالتزود بالنتف التي تضمنتها المصادر العربية الأولى، والأخذ بتأويلات المدارس الغربية، الفرنسية\ الإيطالية.

من الطبيعي أن لا تتطرق الدراسة لكل هذه المشاكل التي احتلت حيزا كبيرا في أعمالي السابقة.غير أن اللجوء لدراسة تاريخ المنطقة من خلال التواجد اليمني أزعم أن له غاية مغايرة. ففي الوقت الذي لا ننفي الحاجة المستمرة للتعويل على تفاسير الأعمال غير المحلية، وعلى دراسة تاريخ ليبيا من زاوية تبعية هذه الأراضي لإفريقية ومصر، فإن الحرص، في الوقت الحاضر على الأقل وبسبب شح المعطيات، على إظهار دور المحليين المسكوت عنه، سيخفف من شدة وطأة ظاهرة التبعية من ناحية، وسيلقي المزيد من الضوء حول ظاهرة التكامل التي لم تشهدها من قبل المنطقة من ناحية أخرى[2].

1- البلاذري، أبو الحسن، فتوح البلدان، بيروت، دار مكتبة الهلال، 1983، 222.

2- يجب التذكير هنا بأن منطلقي لا يمت بصلة للنقاش الدائر بين الماركسيين والمتمركسين حول نظرية التبعية و علاقتها بنظرية المراكز والأطراف، فضلا عن إمكانية أو عدم إمكانية توظيفها لفهم المرحلة السابقة للرأسمالية؛ فما أود لفت النظر إليه هو أن العلاقات المشرقية المغربية تميزت، ومنذ القرن الأول للإسلام، بعلاقة تكاملية نقلت المنطقة من مرحلة التجزئة إلى مرحلة الوحدة؛ وهذا التحول عبر مرحلية تعرضت لها بشيء من التفصيل في كتاب مقدمة في تاريخ المغرب الاجتماعي والاقتصادي، لم تكن أحادية؛ فهذا التحول لم يكن، في اعتقادي، مقتصرا على الجانب الاقتصادي فقط وكما يذهب إلى ذلك الكثير من الماركسيين؛ أو أنه كان بسبب عامل التبعية السياسية الناتجة عن هيمنة المراكز الأيديولوجية على الأطراف؛ إن هذه العوامل وغيرها كانت حاضرة، ولا يمكن تجاهلها، ولكن التغاضي، في ذات الوقت، عن العامل الداخلي أراه تسبب في تعتيم تاريخ المنطقة المحلي وأكد فكرة تبعيته المزمنة؛ بناء عليه فإنني أزعم بأنه لا يمكن اقتراح تفسير شامل لهذه الظاهرة أو لغيرها من الظواهر ذات العلاقة بتاريخ المنطقة في العصر الوسيط من غير أن يتم التنويه بالعامل الداخلي\ المحلي؛ لذلك فإنه وفي الوقت الذي لا نقلل من قيمة الحاجة المقترحة من الماركسيين ومن غيرهم، فإننا نحرص على=

بادئ ذي بدء، يعلم الجميع بأن الفتح الإسلامي للأراضي الليبية شرع فيه مباشرة بعد انتهاء عمروبن العاص من فتح مصر(20هـ). وفي الوقت الذي لم تشهد منطقة برقة مقاومة تذكر، فإن منطقة طرابلس لم ترحب بالجيش الإسلامي الذي ظل محاصرا للمدينة ولمدة تجاوزت الشهر تقريبا. وانطلاقا من فرضية المركز والأطراف التي قمت بتوظيفها في العمل الخاص بتاريخ المغرب، أكاد أجزم بأن اكتفاء المسلمين باختراق أسوار المدينة والعودة إلى مصر من غير أن يتركوا حامية في طرابلس سببه تبعية هذه الأخيرة الطرف، لإفريقية المركز. لذلك فإن توغل جيش عبد الله بن أبي سرح فيما بعد (سنة 27هـ) في الأراضي الليبية لم يواجه بمعارضة تذكر إلا عند اقترابه من مدينة طرابلس. ولكن ولأن هذا الأمير كان على دراية بعلاقة هذه الأخيرة بإفريقية فإنه لم يلتفت إليها وواصل مسيرته باتجاه إفريقية. وعلى الرغم من أن مركز الخلافة كان يواجه في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان بن عفان مشاكل حقيقية، فإن جرائد الخيل التي تغير على إفريقية كانت ترسل من مصر وحتى ولاية معاوية بن حديج سنة 46هـ.. وباستكمال عقبة بن نافع بناء مدينة القيروان سنة 55هـ والانتهاء من فتح إفريقية في فترة لاحقة على يد كل من حسان بن النعمان(سنة هـ 78) وموسى بن النصير (سنة 86هـ)، أصبحت بلاد المغرب خالصة لمركز الخلافة بدمشق.

غير أن هذه التبعية لم تنتج عن نسق واحد الأمر الذي يجعل البعض يستبعد أهميتها وبالتالي قدرتها على تفسير الأحداث التي واكبت عمليات الفتح وما تولد عنها من تغيرات اجتماعية واقتصادية وبالضرورة سياسية. فالمتمعن، على سبيل المثال، في أحداث فتح الأراضي الليبية يخلص إلى أن هذه الأخيرة نعمت، وبسبب بطأ فتح إفريقية وبقية بلاد المغرب، بعلاقة مع بلاد المشرق تأرجحت، ومنذ وقت مبكر، بين التعاون والتكامل. بناء عليه تميزت تبعية المنطقة بمرونة سمحت لها بحرية إدارة العديد من المناطق؛ وغياب هذا العامل في المغربين الأوسط والأقصى، أي سرعة الفتح، أفقداهما استقلالهما وفرض عليهما علاقة أقل ما توصف بها أنها علاقة تنافرية. ولكن الأمر الأكيد بالنسبة لي أن في الحالتين لجأت القيادة الإسلامية لاستراتيجية المركز والأطراف. واختلاف ردود الفعل وتنوعها، في اعتقادي، هوالذي جعل الكثيرين يصرفون النظر عن هذه الجزئية ويغالون في

تأويل الأعراض ! فالمناطق التي رحبت بالمسلمين، تذهب الأغلبية إلى القول بأن هذا الترحيب ناتج إما عن تطابق خلفيتها العرقية وخلفية القادم الجديد، أوعن قلة إمكانياتها، وبالتالي حيلتها ؛ أما المناطق التي قاومت الفتح، فسبب مقاومتها، وبكل بساطة، أنها تختلف عرقيا عن القادم الجديد! إن تبسيط عمليات الفتح المعقدة، والإصرار على تبسيط معظم التغيرات اللاحقة لهذه الظاهرة أفرزت تعتيما أوقع العديد من الباحثين في شراك التفاسير الغربية التي اعتبرت تاريخ المغرب في العصر الوسيط تاريخا مظلما(جوتييه) ! والقول بعدم صلاحية هذه الرؤية\ الفرضية لا يلغي في ذات الوقت وجود مقاومة في بعض أجزاء الأراضي الليبية(طرابلس على وجه التحديد) أوفي بقية بلاد المغرب. إن المقاومة المسلحة وما نتج عنها من تنافر هي حقيقة لا يمكن لأي باحث رصين أن يتجاهلها، ولكن الإصرار على تفسير هذه الظاهرة من منطلق عرقي صرف هوأمر لم يعد من الممكن اللجوء إليه واعتماده في تفسير أحداث تاريخ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب.

مرة أخرى، إن لجوء المسلمين لاستراتيجية المركز والأطراف وحسن توظيفها في فتح بلاد المغرب كان بهدف الحصول على نتائج أكيدة، أي فرض الهيمنة على هذه المناطق وجعلها بالتالي تابعة لمركز الخلافة في دمشق.ولكن خصوصية بطأ الفتح في بعض الجهات وسرعتها في جهات أخرى أفرزت على الأقل نوعين من التبعية. ففي الوقت الذي ساهم، وكما سبق القول، بطأ الفتح في تأسيس تبعية المحصر، إلى حد كبير، دورها في تخفيف تنافر الأقاليم المحلية لليبيا(ساحل وداخل، وبدو وحضر) وفي تطوير علاقة الليبيين بالمشارقة، فإن حرص القيادة العربية ولجوئها المبالغ فيه للعنف(عقبة بن نافع، وموسى بن نصير على وجه التحديد) عند قيامها بفتح بلاد المغرب، أفرز تبعية استهجنتها المنطقة ؛ لذلك فالنزوع نحوالتخلص من هذه التبعية المنافية ليس فقط لتعاليم الإسلام، بل وللتجربة الإسلامية في الأراضي الليبية، كان قد انطلق من المغرب الأقصى(ثورة ميسرة). وانتشار الثورة في إفريقية وطرابلس لاحقا لا علاقة له بما كان يدور في المغرب الأقصى، بل كان بسبب ضعف الأسرة الأموية خاصة بعد وفاة هشام بن عبد الملك(125هـ)، وبسبب انتزاء الأسرة الفهرية بأمر إفريقية(127- 140هـ). وبدخول العباسيين إفريقية سنة 144هـ، الذين عجزوا عن مد

نفوذهم على بلاد المغرب والأندلس، انحصر هذا النفوذ في إفريقية وطرابلس وتأكدت العلاقة التكاملية بين الإقليمين.لذلك، فإنه وفي إطار الخلفية التاريخية هذه يمكن التحول الآن لمعالجة مسألة الوجود اليمني في الأراضي الليبية.

سبق التلميح لمشكلة شح المعلومات ليس فقط الخاصة بدور الليبيين في أحداث القرن الأول للإسلام، بل وبدور المسلمين وبخلفيتهم أيضا في هذا الشأن. فالمعطيات التي تتضمنها المصادر التاريخية الأولى تكاد تقتصر على ذكر أعمال وأسماء بعض الفاتحين، وعلى بعض أعوانهم، أما بقية الأفراد والإنجازات فعلى المرء الذي يريد رصدها أن يتسلح بمبادئ التخمين، والاستنتاج، وفي أفضل الحالات البرهان بالمماثلة. فنحن نعلم على وجه اليقين بأن الحضور اليمني في الجيش الذي فتح مصر كان مميزا من حيث الكم والكيف[1]. ويكاد المرء

= إبراز الدور المحلي/ الداخلي، والمتمثل في هذا السياق في اختيار هؤلاء لشريك، ولأول مرة في تاريخهم، لا يستهجنون سيادته! فبفضل هذه الشراكة التي أنتجت بدورها نوعا خاصا من التبعية يقرر سكان المنطقة اعتبار بداية هذه العلاقة\ الشراكة البداية الحقيقية لتاريخهم! ففي سياق تطرق بعض المصادر المغربية لتاريخ دخول أبناء المنطقة الإسلام ذكر بأن الوفد الذي قدم على الخليفة عمر بن الخطاب بعد فتح الأراضي الليبية، كان محلقا الرؤوس " فقال لهم عمر: مالكم محلقو الرؤوس؟ فقالوا: شعر نبت على الكفر فأحببنا أن نبدل شعرا في الإسلام". أنظر: أبو زكرياء، يحي بن أبي بكر، كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرحمن أيوب، تونس، الدار التونسية للنشر، 1985، 53- 54.

1- إن أهمية التواجد اليمني في جيش عمرو تعكسه مساهمة أفراده في أهم الأحداث المصاحبة لفتح مصر؛ ففتح الحصن الذي نسب وفق رواية عثمان للزبير، شارك في فتحه وفق رواية سعيد بن عفير، شرحبيل بن حجة المرادي؛ ابن عبد الحكم، فتوح مصر، 85- 86؛ كما أنه وبالإضافة إلى أن القائد الذي فتح الإسكندرية كان مدنيا، أي يمنيا، فإن الذي نقل خبر فتح الإسكندرية كان هو الآخر يمنيا، معاوية بن حديج السكوني؛ ليس هذا فحسب، بل إن بلي، ثلث قضاعة، يقول ابن عبد الحكم كانت تقف " عن يمين راية عمرو بن العاص"؛ المصدر نفسه، 143؛ كما أن المتمعن في أسماء المقطين الذين كانوا في جيش عمرو يخلص إلى أن كثافة هذا التواجد لا تضاهيه أية كثافة قبلية أخرى، أنظر: المقريزي، الخطط، الجزء الأول؛ ابن دقماق، كتاب الإنتصار، الجزء الرابع، القلقشندي، صبح الأعشى، الجزء الثالث؛ أخيرا إن أهمية التواجد اليمني في جيش عمرو تتأكد من خلال رواية ابن عبد الحكم الخاصة بفتح برقة. فعدد الرواة الذين اعتمدهم هذا الأخير في روايته خمسة، شكلت نسبة=

يجزم بأن بعض هذا الجيش كان قد دخل الأراضي الليبية رفقة عمروبن العاص، وربما استقر البعض منه بها منذ ذلك التاريخ.ففيما يتعلق بجزئية دخول اليمنيين للأرضي الليبية ضمن جيش عمروبن العاص فهوأمر يقره المنطق وبعض الشواهد أيضا؛ فالمصادر تجمع على أن فتح مدينة طرابلس سنة ثلاث وعشرين كان على يد رجل يمني من بني مدلج [1]. غير أن استقرار بعض هؤلاء بعد رحيل عمروبن العاص لا يمكن للمرء الخوض فيه إلا من خلال الاستنتاج، والتوسع في تأويل بعض النتف الواردة هنا وهناك. فالمصادر تتعمد تجاهل القبائل التي استقرت بالأراضي الليبية صحبة عقبة بن نافع الذي ظل يتنقل بين برقة وزويلة لأكثر من عشرين سنة. فالبلاذري مثلا والذي ذكر العديد من التفاصيل المهمة والمتعلقة بالمعاهدات التي أبرمها عقبة بن نافع مع وجهاء المنطقة لا يذكر أسماء هؤلاء ولا حتى أسماء أوخلفية من كان في صحبته من المشارقة! فهذا الأخير يذكر بأن عمروبن العاص كتب " إلى عمر بن الخطاب يعلمه أنه قد ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب، فبلغ زويلة وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم حسنة طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه، وأمر عماله جميعا أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها في الفقراء ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إليه بمصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر ومن أهل الصلح صلحهم"[2]. إن هذا الوصف مبالغ فيه لا محالة إذ من غير المعقول أن تتحول المنطقة وبمجرد دخول جيش عقبة إليها من منطقة مناوئة لمنطقة ليس فقط مسالمة بل مسلمة. وأعتقد أن رواية البكري تؤكد هذا الرأي. فهذا الأخير يقول بأنه وبدخول عقبة بن نافع جنوب طرابلس "صار ما بين برقة وزويلة للمسلمين"[3].

إن مسألة تنقل عقبة بن نافع وبعض جنده بين برقة وزويلة تلقي المزيد من الضوء على مناطق تجاهلتها المصادر الأولى، وبالكاد تلتفت إليها الأعمال الحديثة. فتنقل هذا الأخير

= الرواة اليمنيين فيها أكثر من ثلاثة أرباع!

1- أنظر على سبيل المثال: البكري، كتاب المسالك والممالك، الجزء الثاني، 655. 1

2- البلاذري، فتوح البلدان، 222. 2

3- البكري، كتاب المسالك والممالك، الجزء الثاني، 650. 3

الذي أدى إلى تحييد المنطقة وبالتالي ربط مصالحها بمصالح مصر، كان قد مكن من كان في صحبة عقبة من الاستقرار في بعض المدن التي تفصل الشمال (برقة) عن الجنوب(زويلة). وهنا أيضا لا تسعفنا المصادر العربية الأولى كثيرا، وكان علينا اللجوء لبعض الأعمال الجغرافية المتأخرة نسبيا. فنص البكري، والذي يعود تاريخ وضعه للقرن الخامس للإسلام، يلمح إلى أن الجيش الذي دخل المنطقة صحبة عقبة بن نافع كان قد استقر بعضه بمدينة ودان. والأهم من ذلك أن نسبة الذين فضلوا البقاء بهذه المدينة شكلت النصف! يقول البكري بأن لمدينة ودان " قلعة حصينة، وللمدينة دروب، وهي مدينتان فيها قبيلتان من العرب سهميون وحضرميون، فتسمى مدينة السهميين دلباك، ومدينة الحضرميين بوصى"[1]. إنه وبفضل تحييد عقبة ومن كان وفي صحبته المناطق الجنوبية أصبح من الممكن الآن، خاصة بعد أن وضعت الحرب الأهلية أوزارها وجعلت معاوية بن أبي سفيان خليفة للمسلمين، التوجه نحوالمناطق الشمالية.

تذكر المصادر بأن أول من دخل إفريقية في خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة 46هـ كان معاوية بن حديج السكوني، أي اليمني. وفي هذه المرة أيضا لا تتفق المصادر حول عدد هذا الجند وحول خلفيته؛ ففي الوقت الذي يذكر ابن عبد الحكم في رواية أولى أن في غزوة ابن حديج هذه كان " معه جماعة من المهاجرين والأنصار" وفي رواية ثانية أنه خرج معه " من المهاجرين والأنصار بشر كثير"[2] ؛ فإن ابن عذاري، والذي يعتمد على روايتي الطبري والرقيق يذكر في مرة أولى أن معاوية بن سفيان وجه " معاوية بن حديج في عشرة آلاف مقاتل " أما في المرة الثانية فقد اكتفى بالقول بان هذا الجيش كان كثيفا[3]. نعلم إذا بأنه دخل مع هذا الأمير جيش، ولكننا لا نعلم يقينا الشيء الكبير عن تركيبته القبلية؟ أمام هذه المعضلة، معضلة شح المعلومات، يجد المرء نفسه مرة أخرى مضطرا للأخذ بمبدأ التخمين. فهل يمكن

1- المصدر نفسه، الجزء الثاني، 658- 659. 1

2- فتوح مصر والمغرب، 211. 2

3- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، تحقيق ومراجعة كولان، وليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، 16، 17. 3

القول بأن وجود أمير يمني يفترض تشكيل جنده من أغلبية يمنية! إن الفكرة مغرية خاصة وأن العادة جرت، طوال سنوات الفتح الأولى، أن توكل مهمة قيادة الجيش أو بعض فصائله إلى بعض رؤساء العشائر. فالعشيرة ومنذ أن انطلقت الجيوش الفاتحة باتجاه العراق والشام كانت تمثل أساس التنظيم الإداري والمالي والاجتماعي والسياسي. بناء عليه فوجود قادة من عشيرة معينة " قد يكون دليلا على اشتراك العديد من أفراد عشائرهم معهم"[1]. ورواية المالكي تدعم في حقيقة الأمر هذا المقترح. فقد ذكر هذا الأخير وفي سياق حديثه عن حملة عبد الله بن أبي سرح بأنه كان مع كل واحد من وجوه وأشراف جيشه " جماعة من قومه"[2]. هذا وتجدر الإشارة إلى أن التوجه نحو مناطق ليبيا الساحلية، واستقرار بعض القبائل اليمنية بها كان متزامنا وحملة ابن حديج الأخيرة على إفريقية. ففي هذا السياق تذكر إحدى المصادر بأن " رويفع بن ثابت الأنصاري كان عاملا لمعاوية بن حديج على طرابلس سنة ست وأربعين، فغزا إفريقية من طرابلس سنة ست وأربعين وفتح جربة، والله أعلم"[3]. كما يفيد البكري بأن عملية التوجه نحو منطقة الساحل الليبي والاستقرار به لم تتوقف بعد رحيل معاوية بن حديج. فصاحب المسالك يذكر، على سبيل المثال، بأن عقبة بن نافع، وقبل توليه أمر المغرب، خرج صحبة بسر بن أرطأة وشريك بن سحيم المرادي، أي اليمني " فأقبل حتى نزل مغدامس من سرت، فخلف عقبة جيشه هنالك واستخلف عليهم زهير بن قيس

1- العلي، صالح أحمد، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، بغداد، مطبعة المعارف، 1953، 29. 1

2- المالكي، أبو بكر عبد الله، رياض النفوس، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة، 1951،10؛ هذا وتجدر الإشارة إلى أنه وفي الوقت الذي لا تذكر المصادر خلفية جند عقبة، فإنها تشير، وفي سياق تطرقها للجند الذي كان صحبة عبد الله بن أبي سرح كان مكونا من ألفي مقاتل من اليمنيين " كانت مهرة.. وحدهم ستمائة رجل. وغنث من الأزد سبعمائة رجل، ومن ميدعان سبعمائة، وميدعان من الأزد"؛ أنظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، 211. 2

3- ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمد الرعيني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تونس، نشر مطبعة النهضة، 1350هـ، 23. 3

البلوي"[1]. إن الحضور اليمني في المناطق المختلفة لم يكن بكل تأكيد على حساب سكان المنطقة. صحيح أن المصادر تتجاهل وجود هؤلاء[2]، ولكن الأحداث اللاحقة تؤكد ليس فقط قيام علاقة وطيدة بين الطرفين، بل والأهم من ذلك تضافر جهود هما في تثبيت قدمي العروبة والإسلام ليس فقط داخل الأراضي الليبية، بل وخارجها أيضا.

فوفقا لما يذكره أحد الباحثين المعاصرين تجاوز تأثير الليبيين واليمنيين منطقة إفريقية وحتى قبل انتقال عقبة إلى إفريقية. فنقلا عن (Jean Lethilleux)، يقول الباحث العربي بأنه وبفضل التعاون الليبي اليمني تم تأسيس مدينتين إسلاميتين في المغرب الأوسط! وهذه المعلومة التي لم تذكرها المصادر التي بين أيدينا، يقول الباحث بأن ليثيواستمدها من " وثائق ليست معروفة، ولأول مرة يعتمد عليها". وهذه الوثائق[3]، يستطرد صاحب العمل " تذكر

1- البكري، كتاب المسالك، الجزء الثاني، 660. 1

2- إن الضرر الذي تسببت فيه المصادر العربية الأولى حين تجاهلت تاريخ السكان المحليين هو ضرر لا يمكن التقليل من شأنه، وبالتالي السكوت عليه، ولكن الأمر اللافت للنظر أن بعض الأعمال العربية الحديثة، والواقعة تحت تأثير المدرسة الغربية التي تزعم بأن المغرب بلاد بدون عباد، لا تكتفي بتجاهل تاريخ المحليين الذين لا تلتفت إليهم إلا عرضا، بل تراها تقصر علاقة بني أمية بالموالي في إفريقية بالموالي الذي هم من أصول مشرقية! صحيح أن الدكتور عز الدين عمر موسى، على سبيل المثال، أشار إلى أن قبائل البتر كانت قد التحقت بالمسلمين وساهمت في الفتح، وهي إشارة تذكرها المصادر العربية الأولى ولا تتجاهلها الأعمال الفرنسية! ولكن حرص هذا الأخير على استبعاد المحليين في إدارة البلاد زمن الفتح(باستثناء طارق، والاستثناء يؤكد القاعدة) وحصر علاقة بني أمية في إدارة البلاد بالموالي ذوي الأصول المشرقية، يؤكد استمرار سريان مفعول الفرضية الغربية القائلة بأن المغرب بلاد بدون عباد لمن يريد الإطلاع على وجهة نظر الدكتور عز الدين عمر موسى نحيله لمقاله الموسوم " قراءة في علاقة بني أمية بالموالي: ولاتهم وعمالهم في إفريقية"، المنشور في: مجلة التاريخ العربي، العدد الخامس، شتاء 1418هـ - 1998م، ص ص 231- 244.

3- إن ما يعنيه المؤلف بالوثائق هي مخطوطات وضعها ثلاثة من مؤرخي المدينة، لم يسبق لأحد أن اعتمد عليها : إن أول هؤلاء سليمان بن إبراهيم بن باتوح، وكان قد ولد في سدراته سنة293هـ \ 905م، وتوفي في وارجلان سنة 407هـ \ 1006م؛ وفي حين يغفل صاحب العمل عن تحديد تاريخ مولد ووفاة ثاني هؤلاء(أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني، فإنه يكتفي بتاريخ تأليف الكتاب=

بأن عددا لا بأس به من المسلمين كانوا مقيمين في طرابلس سنة 23هـ وتوغلوا في جبل نفوسة ثم قاموا سنة 27هـ بملاحقة فرق باتريس البيزنطي(قريقوار) في ضواحي سبيطلة، وقاموا بغارات متعددة. وحسب باستشري[1] فإن سبعة من المسلمين استقروا في جبل نفوسة، ثم اتجه اثنان منهم إلى وادي مية. ولا يعرف هل وصلا إلى الوادي كزوار فقط؟ أم كانت نيتهم الاستقرار خاصة وأن المنطقة معروفة بنشاطها التجاري. ومهما يكن من أمر فعن طريق القوافل القادمة من زنجبار والسودان وصل في 7 رجب 39هـ (658) عبد الرزاق بن عبدان بن عبد الحق المولود بحضرموت، وأسس مدينة أطلق عليها اسم تيميمون. وفي سنة 41هـ(661- 662) وصلت جماعات أخرى إلى وادي مية قاد إحداها أبوحفص عمروس بن فتح الغار من جبل نفوسة، نتيجة عدم الاستقرار، فقام هؤلاء الوافدون ببناء مسجد ثم بنيت حوله المساكن، وبذلك ظهرت سدراته كمدينة للوجود"[2].

إن تحول المركز من الأراضي الليبية[3] إلى القيروان بعد استكمال عمليات الفتح في

= الثالث(656هـ \ 1257) لصاحبه باستشري؛

1- هو باستشري بكر بن هود بن صالح بن قاسم بن عيسى وهو أحد المورخين الثلاثة الذين اعتمد على وثائقهم لوثيو.

2- مزهودي، مسعود، الإباضية في المغرب الأوسط، القرارة، نشر جمعية التراث، 1996، حاشية 4، ص ص: 36- 37؛ هذا وتجد الإشارة إلى أنه يتوجب أخذ هذه المعلومة بشيء من الحذر خاصة وأنه لا أنا ولا المزهودي كنا قد رجعنا للأعمال التي رجع إليها ليثيو. من ناحية أخرى، إن ما يؤكد عملية الحذر أن عملا خاصا ببلاد ورقلة صدر سنة 1975، أي ثمان سنوات قبل صدور عمل لوثيو، أفادت صاحبة العمل بأن سكان المنطقة يرددون رواية شفوية مفادها مقاومة أهل ورجلان، على وجه التحديد، لجيش عقبة بن نافع الذي توغل في المغرب الأوسط في نهاية القرن السابع؛ أنظر:
Rouvillois-Brigol,Madeleine, Le pays de Ourgla(sahara algerien)Paris,1975,11-12.

3- إن المتصفح، على سبيل المثال، لنصي البلاذري وابن عذاري يرى بوضوح كيف أن الدواوين كانت في بادئ الأمر بالأراضي الليبية(ولايتي عمرو وعقبة)، ثم انتقلت بعد هزيمة الكاهنة في لقائها الثاني بحسان بن النعمان إلى القيروان؛ في المرحلة الأولى، وكما تنص على ذلك رواية البلاذري صراحة، تولت هذه الدواوين ليس فقط القيام بمراسلة الخليفة وإخباره بما تحقق من نصر على يد القادة المسلمين، بل وبحفظ الوثائق المتعلقة بالاتفاقيات بين الطرفين؛ فسبب حملة عقبة التأديبية في جنوبي=

المغربين الأوسط والأقصى، فضلا عن فتح الأندلس، لم ينتج عنه بالضرورة تحول كل اليمنيين المقيمين في مدن الأراضي الليبية الداخلية والساحلية إلى المناطق الحديثة[1]. بكل تأكيد انتقل العديد منهم، ولكن أعداد أخرى فضلت البقاء في هذه الأراضي[2]. وهذا التواجد الذي تغفل المصادر عنه مرة أخرى طوال الفترة الفاصلة بين انتهاء مرحلة الفتوحات(92هـ) وقيام ثورة ميسرة(122هـ)، يعود للظهور في الأراضي الليبية مباشرة بعد ثورة ميسرة. ففي سنة 126هـ قاد عبد الله بن مسعود التجيبي(اليمني) أول ثورة في طرابلس ضد الأسرة الفهرية. وعلى الرغم من أن هذا الأخير أخذ "وضرب عنقه"[3]، فإن التحالف الليبي اليمني يجتمع في

= الأراضي الليبية أن ملوك هذه المناطق أخلوا بالاتفاقيات المبرمة بينهم وبين بسر بن أرطاة ؛ نخلص من هذا أن الدواوين يتم إنشائها مباشرة بعد التوصل إلى اتفاق ينظم إدارة المنطقة ؛ بناء عليه، فإنه من المنطقي أن لا تدون الدواوين في إفريقية إلا بعد انتصار حسان على الكاهنة ؛ يقول ابن عذاري بأنه وبعد أن حسن" إسلام البربر وطاعتهم وذلك في شهر رمضان سنة82.. استقامت بلاد افريقية لحسان بن النعمان فدون الدواوين"، أنظر: البيان المغرب، الجزء الأول، 38.

1- يمكننا الاستشهاد بسيرة الصحابي أبي زمعة البلوي؛ فهذا الأخير دخل إفريقية في حملة معاوية بن حديج الأولى سنة 34هـ؛ وبالنظر إلى أن الجيش الإسلامي لم يستوطن إفريقية بعد، فإنه من المنطقي أن يستقر هذا الصحابي بالأراضي الليبية؛ وحين استقر الوضع بالقيروان انتقل من بين من انتقل إليها وأقام بها حتى وفاته؛ حول سيرة أبي زمعة أنظر: أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم القيرواني، طبقات علماء إفريقية وتونس، تقديم وتحقيق علي الشابي، ونعيم حسن اليافي، تونس، 1965،76- 77

2- إن المصادر لا تسعف الباحث كثيرا لدعم هذا المقترح، ولكنها لا تبخل عليه في ذات الوقت ببعض النتف التي تؤكد ما تم التلميح إليه في هذه الدراسة. فالتواجد اليمني كان في اعتقادي على درجة كبيرة من الأهمية في طرابلس في المرحلة اللاحقة لفتح المغرب والأندلس؛ وهذه الأهمية يستشفها المرء من اختيار أحد صحابة رسول الله موطنا له. فالمنيذر الصحابي "يماني من مذحج أو من كندة..وقد صحب النبي صلى الله عليه وسلم" اتخذ مدينة طرابلس موطنا له؛ فهذا الأخير، يقول الشيخ الطاهر الزاوي، قرر البقاء في طرابلس بعد رجوع موسى بن نصير إلى المشرق سنة 95هـ ولم يغادرها "إلى أن توفي وقبره مشهور لا يختلف فيه اثنان" أنظر: ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، بيروت، دار الفتح للطباعة والنشر، 1970،32.

1- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، 252.

منطقة طرابلس في السنة نفسها تحت قيادة كل من عبد الجبار بن قيس المرادي والحارث بن تليد الحضرمي ويجبر والي عبد الرحمن بن حبيب، حميد بن عبد الله العكي على مغادرة طرابلس. ولدراية ابن حبيب بأهمية هذا التحالف لا يكتفي بإرسال والي جديد لطرابلس من أصل يمني(يزيد بن صفوان المعافري)، بل ويرسل في الوقت ذاته بشخصية مغاربية أغلب الظن من أصول ليبية تدعى مجاهد بن مسلم الهواري ليستألف " الناس ويقطع عن عبد الجبار هوارة وغيرهم"[1]. وعلى الرغم من أن عبد الرحمن بن حبيب" اجتمع إليه جمع كثير، فزحف بهم إلى عبد الجبار والحارث بن تليد فلقيهم بأرض زناتة"[2]، فإن عمروين عثمان، صاحب جند ابن حبيب انهزم" واستولى عبد الجبار والحارث على طرابلس كلها"[3]. ومع أن خليفتهما إسماعيل بن زياد النفوسي عظم " شأنه وكثر بيعه " ، فإن الصراع من أجل السلطة والسابق لتوليه والذي نتج عنه قتل عبد الجبار والحارث، تسبب على ما يبدوفي تأجيل أمر استحواذ هذا التحالف على إفريقية.

صحيح أن منطقة طرابلس شهدت العديد من الثورات قبيل سقوط الأسرة الأموية، ولكن الأمر الأكيد أنها، وبسبب الهدوء الذي عرفته طوال فترة الحكم الأموي، لم تسارع إلى محاربة ولاة هذه الأسرة كما فعل مغاربة المغرب الأقصى، ولكنها ترفض وعلى التوالي سلطان الأسرة الفهرية، والأسرة العباسية[4]. ولكن ولأن سكان الأراضي الليبية كانوا

2- ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، 252.

3- المصدر نفسه، 252.

4- المصدر نفسه، 253.

5- إن التركيز على التنافر الاجتماعي، وفق ثنائية جامدة (عرب ضد بربر و بتر ضد برانس، و قيسية ضد يمنية) فضلا عن التركيز على اختلاف المذاهب وتنوعها(خوارج وسنة تارة وسنة وشيعة وخوارج تارة أخرى) فوتا على الجميع فرصة فهم موقف سكان الأراضي الليبية على سبيل المثال من الأسرة الفهرية في بادئ الأمر، ثم في مرحلة لاحقة من الأسرة العباسية.فبسبب التكامل الذي تحقق بين الليبيين والمشارقة طوال عمليات الفتح لم يكتف سكان المنطقة بإعلان الثورة على العباسيين، بل نراهم، وبعد استقرار الإمامة الرستمية بتاهرت، يفضلون التعامل مع شريك الأمس (الأسرة الأموية) الذي أقام ملكا بالأندلس .

ويفضل التعاون الليبي المشرقي بصفة عامة، ومنذ أن دخل عمروبن العاص هذه المنطقة، على صلة وثيقة بالمشرق فقد تمكنوا ليس فقط من الانتقال إليه والاستقرار به منذ فترة مبكرة، بل والمساهمة في تسيير بعض شؤونه. فالكندي يذكر بأن العديد من المغاربة(أغلب الظن من الأراضي الليبية) كانوا قد انتقلوا لمصر وأقاموا سوقا لهم بالفسطاط قبل الشروع في فتح إفريقية[1]. هذا كما يمكن الاعتقاد بأن أبناءهم كانوا قد انتقلوا لبلاد الشام والجزيرة طلبا للعلم وللمغامرة أيضا. ولتوضيح المقترح الأخير بالإمكان الاستشهاد بالحدثين التاليين: يتمثل الأول في تمكن سابق بن عبد الله البربري، على أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز(99- 101هـ) من تولي قضاء مدينة الرقة[2]. أما الحدث الثاني فهويتعلق بتولي مغربي باسم وضاح قيادة الجيوش الأموية في المشرق وفي خلافة الوليد بن عبد الملك(86-96هـ)[3]. وعلى الرغم من أن المصادر لا تشير في حقيقة الأمر إلى موطن هذا القائد المغربي، فإنه، وبالنظر إلى أن الأراضي الليبية كانت قد تميزت في هذه المرحلة عن غيرها بالتعاون التام وبسهولة التحول والاستقرار، فإنه من غير المستبعد أن يكون هذا الأخير أيضا من أصول ليبية.

لكل هذه الأسباب أعتقد بأنه كان على الليبيين وبفضل رسوخ هذه التقاليد أن يسعوا إلى توثيق تحالفهم هذا بعد سقوط الأسرة الأموية، حليف هؤلاء بالأمس، مع جهات مشرقية غير رسمية تؤمن لهم مصالحهم وتوازرهم عند الضرورة. من ذلك فإنه وبعد فشل

1- الكندي، أبو عمر محمد، كتاب الولاة وكتاب القضاة، بيروت، 3051908 1

2- ابن عساكر، تهذيب تاريخ ابن عساكر، دمشق، 1349هـ، 38- 39. وللتأكد من تمكن هذا المغربي من اللغة العربية ومن صناعة الشعر بالإمكان الاستشهاد بالقصيدة الشعرية التي أنشدها أمام الخليفة عمر بن عبد العزيز:

ويتما المرء أمسى ناعما جذلا ... في أهله معجبا بالعيش ذا أنق

غرا أتيح له من حينه عرضا ... فما تلبث حتى مات كالصعق.

أنظر: الأصفهاني، أبو الفرج، كتاب الأغاني، الجزء الخامس، بيروت، دار صعب، 1500.

3- Norris,H.T, The Berbers in Arabic literature. London Longman and New York, 1982,9.

سكان الأراضي الليبية في السيطرة على منطقة طرابلس قرر بعض وجهائها التحول إلى مدينة البصرة صحبة بعض وجوه منطقتي إفريقية والمغرب الأوسط من المخالفين لحكم الأسرة الفهرية. ومن حق المرء أن يسأل عن سبب توجه هؤلاء للبصرة دون غيرها؟ إن أهمية هذه المدينة ليست بخافية عن أحد. فللبصرة يقول ابن حوقل " من استفاضة الذكر بالتجارة والمتاع والجالب والجهاز إلى سائر أقطار الأرض ما يستغني شهرته عن إعادة ذكر فيه"[1]. كما أن استراتيجية الموقع وانفتاح المنطقة على الحضارات الشرقية المتنوعة من ناحية، واجتماع عناصر الاستقرار بهذه المنطقة من ناحية أخرى، أهلتها لأن تحتضن جل التجمعات والتيارات السياسية والمذهبية المناهضة للسلطة المركزية خلال القرن الأول للإسلام. فهذه المدينة التي ساندت علي بن أبي طالب في محاربته طلحة وعائشة في موقعة الجمل، أصبحت تعرف في فترة لاحقة بميلها إلى العثمانية. كما أن الخوارج الذين اتخذوا الكوفة في بادئ الأمر مقرا لهم، انتقلوا بعد مقتل عبد الله بن الزبير لهذه المدينة. بناء عليه، فإنه وبسبب هذا التنوع الاقتصادي/ التجاري، والمذهبي/ السياسي، اتجهت أنظار الليبيين والعديد من المغاربة لهذه المدينة التي مكنتهم ليس فقط من الاستقرار في هذه المدينة، بل ومن التعامل مع أقصى أسواق المعمورة. ففي سياق حديث الشماخي عن ورع بعض أتباع المذهب الإباضي في مدينة البصرة أفاد بأن بعض هؤلاء كان في القرن الثاني للإسلام من تجار الصين[2].

إن مقومات بهذا الحجم ما كان لأبناء الأراضي الليبية الذين اشتهروا عبر العصور بالتجارة تجاهلها. بناء عليه يرسلون في مرحلة أولى أحد وجهاء جبل نفوسة (أبوعبد الله عبد الحميد الجناوني) والذي يمهد لعلاقة أوثق تتبناها هذه المرة مجموعة من الأفراد تطلق عليها الأعمال الإباضية مصطلح حملة العلم[3]. تأسيسا على ذلك، فإنه وما أن يعود الجناوني حتى

1- ابن حوقل، أبو القاسم، كتاب صورة الأرض، ، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 2141979 1

2- الشماخي، كتاب السير، طباعة حجرية، قسنطينة، 94،103

3- إن ما يقصد باصطلاح" حملة العلم" هو سفر بعض وجهاء المنطقة من أتباع المذهب الإباضي للمشرق للقاء أئمة المذهب والتزود من علمهم. غير أن المتمعن في الأحداث اللاحقة يتيقن من أن سفر هؤلاء لم يكن بغرض التزود بعلم هؤلاء فحسب، بل والأهم من ذلك للحصول على التأييد المادي والمعنوي=

تسارع هذه المجموعة المكونة من وجهاء طرابلس وإفريقية والمغرب الأوسط(إسماعيل بن درار الغدامسي ،وعاصم السدراتي، وأبوداود النفزاوي، فضلا عن عبد الرحمن بن رستم الفارسي) بالرحيل إلى البصرة حيث تقيم حوالي خمس سنوات. ولأن الطرف الليبي، وبفضل التغيرات التي عرفتها المنطقة طوال مرحلة الفتح، كان أوثق صلة بالشريك المشرقي توكل لإسماعيل بن درار الغدامسي مهمة\ وظيفة تفوق في الأهمية دور بقية مهام أفراد حملة العلم. ففي الوقت الذي كلف أبوعبيدة التميمي أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري بالإمامة، فإنه ينزل عند رغبة إسماعيل الذي أراد أن يتولى القضاء. يقول الشماخي بأن إسماعيل هذا " هوالسائل لأبي عبيدة عند الوداع- بعد أن تعلموا خمسة أعوام- عن نحوثلاثمائة مسألة من مسائل الأحكام. فقال له أبوعبيدة: أردت أن تكون قاضيا يا ابن درار! فقال له: أرأيت أن ابتليت بذلك يا شيخ؟ فابتلى بالقضاء"[1].

إن هزيمة أتباع أبي الخطاب المعافري، وانسحاب عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط لم تضع حدا للتآلف الليبي اليمني. فبعد ولاية محمد بن الأشعث على إفريقية والتي دامت" ثلاثة أعوام وعشرة أشهر في خلافة أبي جعفر المنصور"[2]، تتجدد مقاومة التحالف اليمني الليبي ضد الوجود العباسي. فوفقا للشماخي أنه وبعد أن أوقع ابن الأشعث بأتباع أبي الخطاب المعافري، اجتمع أتباع أبي حاتم يعقوب بن حبيب التجيبي، أي اليمني " في حيز طرابلس..عام أربعة وخمسين، فأرسل إليهم والي طرابلس خمسمائة فارس، فقاتلهم أبوحاتم فهزمهم..وأتاه جيش ثان من إفريقية فتلقاهم قرب قابس فهزمهم. ودخل طرابلس

= لذلك فإنه وما أن "بلغوا بلادهم رأنسوا من أنفسهم قوة، اجتمع من اهتم بأمر المسلمين ومن له النظر من الشيوخ وتشاوروا بموضع يقال له صياد، غربي مدينة طرابلس، فاتفق رأيهم على تولية أبي الخطاب المعافري" أنظر: الشماخي، أبوالعباس أحمد بن سعيد، كتاب السير، 25 الجزء الخاص بتراجم علماء المغرب إلى نهاية القرن الخامس هـXIم ،تحقيق ودراسة محمد حسن، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 251995.

1- الشماخي، كتاب السير، تونس، 47. 1

2- ابن عذاري، البيان المغرب، الجزء الأول، 73. 2

مع هزيمتهم وبقي بها شهرا...ثم أرسل أبوجعفر يزيد بن حاتم..عام خمسة وخمسين ومائة..فلما التقى الجمعان مات أبوحاتم وتوفي أهل البصائر من أصحابه ومن يلتمس الشهادة"[1].

وعلى الرغم من أن الأسرة الرستمية أقامت إمامتها بالمغرب الأوسط بعد مقتل أبي حاتم التجيبي(إمام الدفاع)، فإن الليبيين(من سكان جبل نفوسة) وبعض اليمنيين الذين انتقلوا إلى الجبل لم يدعموا هذه الإمامة في المغرب الأوسط فحسب، بل وساهموا في اقتطاع الأراضي الواقعة خلف شريط طرابلس الساحلي وضمها لسلطان صاحب مدينة تاهرت. واستمرار تأثير التواجد اليمني بمنطقة الجبل(جبل نفوسة) حتى بعد تأسيس الإمامة الرستمية بتاهرت سنة 161هـ، نستشفه من الرواية التالية. ففي إمامة عبد الوهاب بن رستم(171-208هـ) طالبه أهل المنطقة بتولية السمح بن أبي الخطاب المعافري عليهم؛ وعلى الرغم من أن هذا الأخير كان وزيرا لعبد الوهاب وكان به" ظنينا (فإنه) آثرهم على نفسه وقدمه عليهم"[2]. ليس هذا فحسب، بل ولأن التواجد اليمني الليبي بجبل نفوسة لا يزال قويا حتى إمامة عبد الوهاب بن رستم، فإن هذا الأخير يلجأ، وبسبب كثرة الفتن في مدينة تاهرت، إلى الجبل حيث يقيم فيه لمدة سبعة أعوام[3].

بعد هذا العرض الموجز لبعض الشواهد ذات العلاقة بالتواجد اليمني في المنطقة، وبدور الليبيين في تغيرات القرون الأولى للإسلام من حق المرء أن يسأل عن الفائدة المرجوة من هكذا عرض؟ أكاد أزعم بأن قراءة تاريخ ليبيا الوسيط على هذا النحو يضيف بعدا تم تجاهله عن وعي تارة ومن غير وعي تارة أخرى؛ فقد جرت العادة، وكما سبق التنويه في مقدمة

1- الشماخي، كتاب السير، تونس، 36- 40.

2- المصدر نفسه، 72.

3- إن الشماخي، وعلى الرغم من أنه يستعرض مجموعة الانشقاقات التي عرفتها الإمامة الرستمية غداة تولية عبد الوهاب بن رستم أمر تاهرت (معارضة ابن فندين، وظهور النكار، والمعتزلة)، فإنه يزعم بأن تحول هذا الإمام إلى جبل نفوسة كان بسبب عزمه على الحج" فمنعوه خوفا من المسودة أن يمسكوه..فأقام بجبل نفوسة في تلك النوبة سبعة أعوام"، أنظر: كتاب السير، 53- 66.

العمل، على اعتبار كل بلاد المغرب بلاد بدون عباد، فهي مسرح تتصارع فوقه قوى أجنبية يعمل اللاحق منها على طرد السابق. وهذه الفرضية ساهم في بنائها باحثون فرنسيون في مرحلة الاستعمار؛ صحيح أنه وكما ذهب إلى ذلك الخطيبي أن مما " لا شك فيه أنه كان يوجد علماء من ذوي النيات الحسنة، ولكن وجود نظام كالنظام الاستعماري يملك إدارة قوية، ومنطقا سياسيا جعل المؤرخين وعلماء الاجتماع يكونون عرضة للاستخدام بطريقة أوبأخرى"[1]. واللافت للنظر أن عدوى هذه الرؤى تسربت العديد من عناصرها لأعمال زعم أصحابها بأن هدفهم كان تعرية هذه الأطروحات ودحضها. من ذلك أن عبد الله العروي الذي انتقد بل وانتقص في كتابه القيم " تاريخ المغرب" هذه الأطروحة، لا يكتفي بتصنيف العرب ضمن الشعوب الوافدة، بل ويزعم بأن استراتيجية الفتح الإسلامي لا تختلف على غيرها من استراتيجيات الجيوش التي تمكنت في السابق من احتلال المغرب. فالعرب، يقول هذا الأخير، تصرفوا " كالوندال والبيزنطيين، أي كورثة، ومن يدعي أنهم خرموا عقد سيرورة المغرب فإنما يتذرع بشيء غير موجود لإبداء أحكام واهية"[2]. ليس هذا فحسب، بل تراه يستطرد قائلا بأنه وعندما يراجع" المرء وقائع الفتح العربي ويقارنها بأحداث الغزوالوندالي والغزوالبيزنطي لا يمكن إلا أن يسأل: أي جديد في كل هذا؟ ".

في الختام إن صعوبة البحث في تاريخ ليبيا الوسيط، فضلا عن دور سكانه في ربط بلدان المغرب بالمشرق، يجب أن لا تثنينا عن الاستمرار في بحث هذه الجزئية التي أراها على درجة كبيرة من الأهمية. والأهمية التي أعنيها لا علاقة لها بالتعصب لهذا الإقليم أولغيره من الأقاليم. فآخر شيء أفكر فيه، في حقيقة الأمر، الدخول في مهاترات إقليمية مهمتها الترويج لنزاعات إقليمية معاصرة ! من ناحية أخرى من يذهب إلى تفسير جزء كبير من تاريخ الأراضي الليبية من منطلق فرضية التبعية، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتبنى أطروحة منافية لظروف العصر، أوالعصور قيد الدراسة.

1- عبد الكبير الخطيبي" التاريخ وعلم الاجتماع بالمغرب: مذكرة حول مشكلة الإيديولوجية" في: البحث العلمي، 1967، 139.

2- مجمل تاريخ المغرب. الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، 1984، 114.

إن الغرض من إبراز دور ليبيا والليبيين بالنسبة لي له أكثر من مبرر. فجل المهتمين بتاريخ المغرب العربي من مشارقة ومغاربة أيضا كانوا قد درسوا ما اصطلح على تسميته بتاريخ دول شمال أفريقيا دون أن تشكل ليبيا جزءا من هذه الدول. وهذه الرؤية غير العلمية التي نسجت خيوطها مدرسة الإستشراق الفرنسية لم تكن وليدة الصدفة. فجهود فرنسا كانت تنصب في المقام الأول على إنتاج دراسات تتعلق بعادات وتقاليد سكان كل منطقة من مناطق المغرب الواقعة تحت سيطرة فرنسا[1]. وهذا الحرص المؤسس على الفرضية التجزيئية، يتأكد من خلال اهتمام الباحثين الفرنسيين بتاريخ هذه البلدان السياسي. بناء عليه أصبح تاريخ تونس في العصر الوسيط هو على التوالي تاريخ الأغالبة والفاطميين والحفصيين؛ وفي الوقت الذي لم تركز الأعمال الفرنسية كثيرا على تاريخ الجزائر السياسي لمرحلة ما قبل القرن التاسع عشر، ولأسباب ليست خافية، فإنها نوهت كثيرا بتاريخ المغرب الأقصى المتمثل هوالآخر في تاريخ بعض أسره الحاكمة(الأدارسة، والمرابطون، والموحدون)؛ وبالنظر إلى أن ليبيا لم تقع تحت نفوذ فرنسا، ولم تحظ باستضافة أي من الأسر المشرقية التي أسست معظم دويلات بلدان المغرب، أصبح تاريخها غامضا، وبالتالي غير جدير بالاهتمام.

من ناحية أخرى إن لفت النظر لتاريخ ليبيا، أولغيرها من البلدان التي لم تحظ بتاريخ سياسي يستمد شرعيته من كيان سياسي محلي، له هدف إضافي مهمته دحض المقولة الشائعة من أن المرء لا يقرض غير الموسر(One lends only to rich). فنحن نعلم الآن بأن غياب حروب حقيقية فوق الأراضي الليبية طوال مرحلة الفتح، وبطأ فتح إفريقية وانتقال الدواوين

1- ففي هذا السياق يمكن للمرء أن يذكر بما فعلته فرنسا في المغرب الأقصى؛ ففي سنة 1904 أنشأت بعثة علمية في مدينة طنجة هدفها "البحث في عين المكان عن الوثائق التي تسمح بدراسة المغرب وبتحديد تنظيمه وحياته، ليس فقط بواسطة الكتب والمخطوطات ولكن أيضا بالمعلومات الشفوية، وبواسطة تقاليد القبائل والزوايا والعائلات... ومن أجل إنشاء الوثائق المغربية فقد كان من اللازم إقامة جدول للمغرب ولقبائله ومدنه وزواياه والعثور على أصولها وتشعباتها وصراعها وتحالفاتها، وتتبعها في التاريخ عبر مختلف العائلات المالكة ودراسة نظمها وأعرافها. وباختصار معرفة الميدان الذي قد ندعى للعمل فيه يوما ما وذلك حسب قدر المستطاع". أنظر: الخطيبي" التاريخ وعلم الاجتماع بالمغرب..."، 140.

للقيروان في فترة لاحقة ، فضلا عن غياب مركز سياسي في هذه المنطقة ، تسببت مجتمعة ليس فقط في تعتيم جوانب مختلفة من تاريخ الأرض الليبية ، بل وفي نسب العديد من إنجازات القرن الأول للإسلام لمنطقة إفريقية ؛ فبالنظر لقيام أسر تمتلك الدواوين والعلماء (الفقهاء ورجال الدين) ، فإن نسب أي حدث مجهول الهوية لإفريقية لا تجابهه عادة أية معارضة ؛ في المقابل ، تقوم المعارضة ولا تقعد حين تنسب هذه الحوادث لمناطق لم تتمتع بمراكز كبرى ! فدخول التاريخ ظل مرتبطا بوجود كيان سياسي ، أووكما عبر عن ذلك الجاحظ " سوق السلطان " ؛ لذلك فإن لفت النظر إلى تاريخ ليبيا والليبيين ، وفق هذا المقترح ، يمكن أن ينجز ، والأهم من ذلك أن يمكن الباحث من حسن استغلال وبالتالي توظيف العديد من النصوص والوثائق التقليدية والتي أعدت في الأصل للتنويه بتاريخ الوافد ، أوبتاريخ المركز. فإعادة كتابة التاريخ ، وفي هذا المعنى تأويله وبكل تأكيد ليس تغييره ، ممكنة حتى في غياب المكتشفات الأدبية والأثرية الجديدة.

مرة أخرى ، إن التركيز على تاريخ الليبيين في عصر ينسب المرء فيه أكثر ما ينسب إلى الأسرة ، أوالقبيلة ، أوالمهنة ، وفي أفضل الحالات للمدينة\ القرية قد يفهم منه أنني أسعى ، ومن منطلق التناول القطري أنني أعمد إلى تطويع الوقائع وبشكل تعسفي ، وإلى تضخيم دور الليبيين في القرن الأول للإسلام وجعل مساهمتهم المساهمة المحورية والأساسية لأحداث ذلك القرن ! بكل تأكيد ليس هذا ما أهدف إليه ، فمن يذهب إلى أن الأراضي الليبية كانت تابعة لمصر ولإفريقية في العصرين القديم والوسيط ، وأن تاريخ المنطقة يصعب فهمه خارج هذه العلاقة ، لا يمكن أن يكون البعد \ التفسير القطري ملاذه. فاللجوء إلى هذه النتف وتضخيمها ، فضلا عن مبدأ اللجوء للبرهان بالمماثلة هي من الأمور التي يمكن التعويل عليها لمن أراد كتابة تاريخ منطقة خلت من كيان سياسي ، ولكنها وهذا أكيد لم تكن خارج التاريخ.

فالمتمعن في تاريخ المنطقة للمرحلة السابقة لدخول المسلمين يخلص إلى أن جهود سكانه في الحد من النفوذ الأجنبي ، فضلا عن المساهمة في تقليص نفوذه في إفريقية على سبيل المثال ، كانت متواضعة ، ولكن لا يمكن لباحث محايد تجاهلها.فالأعمال الغربية والتي تشير في

حياء إلى نظم الأراضي الليبية الداخلية السياسية والاقتصادية، تذهب إلى أن تجارة العبور كانت بمثابة العمود الفقري لاقتصاد الليبيين. وسيطرة هؤلاء على هذه التجارة على ما يبدوأزعجت روما كثيرا الأمر الذي جعلها توفد(Balbus) سنة 21 قبل الميلاد إلى جنوب الأراضي الليبية لتضع بذلك حدا لهذا المنافس وتسيطر على مدينة جرمة[1] . ولأن لهذا المجتمع ديناميكيته، وهي ديناميكية يصعب في حقيقة الأمر تجاهلها، فإن الجغرافي الفرنسي، جوتييه، يضطر للاعتراف بحيوية أفراده التي مكنتهم من السيطرة على طرق القوافل التي كانت تصل البحر المتوسط بإثيوبيا[2] . وسيطرة بهذا الحجم لا بد وأن رافقتها اتفاقيات مع سادة الأسواق الداخلية، وبالضرورة مع سادة الأسواق الخارجية. ودون حاجة منا للعودة لتاريخ العلاقات الليبية المصرية، على سبيل المثال، فإن الأمر الأكيد أنه وكما كانت مصر أهم معابر انتقال الأفراد والمعدات من الشرق إلى الأراضي الليبية، ومن ثم إلى بقية بلدان المغرب عبر ليبيا\ الليبيين في العصرين القديم والوسيط، فإن انتقال المغاربة إلى الشرق\ مصر في العصر الوسيط على وجه التحديد كان يتم من خلال الأراضي الليبية، والأهم من ذلك بفضل حسن إطلاع الليبيين على هذا الشرق.

إن هذه الخلفية المسكوت عنها هي التي استوجبت هذه الوقفة. لذلك فالتطرق للتواجد اليمني بالأراضي الليبية وفق وجهة النظر المقترحة لم يكن له من غاية سوى إلقاء بعض الضوء على تاريخ هذا الجزء من الوطن العربي والذي لم تنصفه الأعمال الأولى وبالكاد تلتفت إليه الأعمال المعاصرة. كما أن السعي إلى إبراز علاقة الليبيين باليمنيين على أكثر من مستوى له غاية محددة. ففي الوقت الذي تهدف هذه الدراسة إلى إبراز دور الليبيين في ربط المشرق بالمغرب على المستوى الرسمي(من خلال تعاملهم مع الفاتحين الأول الذين اتخذوا

1- R C C.Law " The Garamantes and the trans-saharan enterprise in classical times".In: Journal of African history,VIII,2,1967,190.

2- E F,Gautier, L'Islamisation de l'Afrique du nord: Les siecles obscures du Maghreb.Paris,1927,190؛ هذا كما أشار المؤلف نفسه في عمل آخر إلى أنه كانت ثمة علاقات تجارية مهمة تربط مدينة لبدة بمدينة غدامس؛ أنظر: Anciennes voies du commerce transsaharien .In: Geo.Ann.Stockholm,1935.

برقة وزويلة مركزا لإدارة المغرب) فإنها تبرز، وفي نفس المرحلة تقريبا، علاقات غير رسمية تمهد في فترة لاحقة لظهور تعاون تجاري، وفقهي/ مذهبي وسياسي بين الليبيين وبقية سكان بلدان المشرق من خلال مدينة البصرة. لذلك فإن التواجد الأجنبي(اليمني في هذه الحالة) والذي أقام بين أظهر سكان المنطقة في أقاليم الساحل والصحراء والجبل، عجل في التخفيف من مخاوف السكان المحليين من الوافد الجديد الذي تعود في الماضي على التمركز في ساحل المنطقة[1]. فما يلاحظه المرء على استراتيجية الوافد الأجنبي(الأوروبي تحديدا) أنها كانت، وعلى الدوام، تسعى إلى استغلال مقومات المنطقة وعزل سكانها، ثم اتهامهم بتهم شتى. فهم همج تارة، وبربر تارة أخرى. وحتى تعزل القوى الوافدة هؤلاء عن مناطق نفوذها المتحضرة والمحضرة، يلجأ بعضهم(الرومان) لبناء تخوم " الليمس" مهمتها فصل فقراء المنطقة ومتوحشيها/ بربرها عن أثرياء المنطقة الأجانب ومتنوريها. واللافت للنظر أنه وبعد مضي أكثر من ألف وسبعمائة سنة تلجأ إسرائيل، الوافد الغريب للمنطقة، لنفس الاستراتيجية! فحتى يثبت هذا الوافد حدوده داخل الأرض الفلسطينية يقوم ببناء جدار يفصل المحليين عن الوافدين. لذلك فالقول بأن استراتيجية التواجد الإسلامي/ المشرقي في المنطقة لا تختلف عن استراتيجية الوافد الغربي هي في حقيقة الأمر مغالطة يجب الكف عن ترديدها. بناء على كل ما تقدم فإنه على من أراد الحديث عن المنطقة(ليبيا وبقية بلدان المغرب) في ظل التواجد المشرقي، وبصرف النظر عن تشابه\ تطابق خلفيات المشارقة والمغاربة أواختلافها، يجب أن لا ينسى البديهية التالية، وهي أن المنطقة لم تنعم على المستوى الاجتماعي من قبل بتحول شبه تلقائي مكنها، غداة دخول المسلمين المنطقة، من الانتقال من مرحلة التجزئة إلى مراحل

1- أضطر هنا وللمرة الثانية على الأقل للفت النظر إلى فرضية عبد الله العروي المتأثرة بالأطروحة الفرنسية؛ فبعد أن يؤكد هذا الأخير تطابق الاستراتيجية العربية واستراتيجيات الوندال والبيزنطيين يعود ليؤكد هذه الفرضية في مكان آخر من الكتاب وفي موضوع مكمل لأول؛ يقول العروي بأننا " نستطيع أن نتكلم على نجاح عربي إسلامي إذا أدخلنا في حسابنا النتائج البعيدة لعمليات الفتح، لكن إذا اقتصرنا على الفترة المحدودة بالقرنين السابع والثامن رأينا بوضوح أن العرب لم يخضعوا مغرب الوسط وإنما اكتفوا بإخضاع تلك المنطقة التي كان يراقبها من سبقهم وبتكاليف أقل أحيانا" أنظر: مجمل تاريخ المغرب، 118.

التعاون والتكامل والوحدة [1].

كلمة أخيرة، صحيح أنني تعمدت في هذه الدراسة التركيز على العامل الاجتماعي والمتمثل في انصهار الليبيين واليمنيين فوق الأراضي الليبية منذ العقد الثالث للإسلام وعملهم معا طوال القرون الأولى للإسلام. ولكن تحول المنطقة وسكانها من مرحلة الضعف والتشرذم إلى مرحلة القوة والتوسع، تدين لعوامل أخرى يفوق بعضها العامل الاجتماعي المنوه به في هذه الدراسة. فبالإضافة للعامل الاقتصادي الذي قمت بتوظيفه في عديد الأعمال السابقة، فإن العامل الديني أراه يحتل مكانة لا تضاهيها أية مكانة أخرى. وإذا ما تعمدت في هذه الدراسة تجاهله فسبب ذلك أن هذا العامل يحتل حيزا كبيرا في الدراسات التقليدية، الغربية على وجه التحديد والحديثة، العربية وغير العربية.

---

1 - يمكن في حقيقة الأمر تفسير هذا التحول من منطلقات مختلفة، ولكن وحتى لا أزج بنفسي مجددا في محاجة قد لا ينتج عنها غير الإطالة، رأيت الاكتفاء بما يذكره الجابري في سياق حديثه عن أهم مقومات بناء الدولة العربية وانتشار مؤسساتها في العصر الوسيط : فهذه المقومات تتكون من ثالوث حضاري يهدف إلى التوحيد والوحدة، وإلى التمصير والتمدين، وإلى العقلنة. أنظر : " المجتمع الحضاري العربي بين فلسفة التاريخ وعلم المستقبلات " في : مجلة الوحدة، السنة الأولى، العدد السادس، 1985.

اليمانيون في إفريقية (البلاد التونسية)
في القرن الأول والثاني للهجرة

د. راضي دغفوس
أستاذ التاريخ الوسيط بالجامعة التونسية

المقدمة:

تندرج العلاقات بين اليمن وشمال إفريقيا ـ لا سيما البلاد التونسية ـ في إطار الهجرات العربية ـ بصفة عامة (الهجرات السامية) من شبه الجزيرة العربية ـ بما فيها اليمن ـ نحومنطقة الشرق الأوسط (الهلال الخصيب) وكذلك نحوشمال إفريقيا والقرن الإفريقي. وترجع هذه الهجرات إلى الألف الرابع قبل الميلاد وقد تواصلت في العهد الوسيط في إطار حركة الفتوحات الإسلامية التي أسميتها من جهتي الانتشار الإسلامي خلال القرن الأول للهجرة دون اعتبار الهجرات الأخرى.

وسوف أدرس في هذه الورقة النقاط التالية :

ـ أولا : التذكير بالأصول المشتركة من حيث الإنتماء بين سكان اليمن وسكان تونس.

ـ ثانيا: اليمانيون ومساهمتهم في الانتشار الإسلامي في بلاد المغرب بما فيها إفريقية (البلاد التونسية) في القرن الأول للهجرة.

ـ ثالثا : دور اليمانيين في تاريخ إفريقية الوسيط.

1 -الأصول المشتركة:

أشير قبل كل شيء إلى أن العرب ينتمون إلى الشعوب السامية التي لها صفات مشتركة من ناحية اللغة واللهجات. فاللغات السامية ـ منها العربية والعبرية وكذلك اللغات العربية الجنوبية المختلفة تتشابه في جذور الأفعال والأصوات وأصول المفردات. كما هناك تشابه بين الساميين في ميدان التنظيم السياسي والاجتماعي والديني وفي مجال العادات والتقاليد

الاجتماعية والطقوس الدينية.

ودون الرجوع إلى مختلف النظريات التي صاغها العلماء حول الوطن الأصلي للساميين فالملفت للانتباه هوالنظرية الخامسة التي تؤكد على أن شبه الجزيرة العربية هي موطن الساميين وأن الساميين هاجروا منها واستقروا في منطقة الهلال الخصيب ومصر وإفريقيا الشمالية والقرن الإفريقي لعدة أسباب منها الجغرافي (الجفاف وتغير الجو) ومنها السياسي (ضعف الحكومات) ومنها الاقتصادي (تغير طرق التجارة الشرقية).

انطلقت هذه الهجرات منذ الألف الرابعة قبل الميلاد في شكل موجات مختلفة وبصفة منتظمة إلى حدود القرن السابع بعد الميلاد. نذكر خاصة:

- هجرة الأكاديين إلى بلاد الرافدين
- هجرة الكنعانيين إلى الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وربوع الشام
- هجرة الآراميين نحوالشام والعبرانيين نحوفلسطين.

وفي حدود سنة 500 قبل الميلاد جاءت الموجة الخامسة التي حملت الأنباط إلى شمالي شبه الجزيرة العربية حيث أقاموا دولة عاصمتها البتراء كما نزل التدمريون في شرقي حمص وأقاموا دولة تدمر.

ولعل الموجة الأخيرة من هذه الهجرات تهم جموع العرب الذين خرجوا من الحجاز ونجد وعمان واليمن وحضرموت ليشاركوا في عملية " الفتوحات الإسلامية " أوالانتشار الإسلامي في غضون القرن السابع للميلاد وقد استقروا في كل من الشام والعراق ثم مصر وبلاد المغرب وكذلك الأندلس.

وللحديث عن العلاقات بين اليمن وإفريقيا الشمالية - بما فيها البلاد التونسية - لا بد من الرجوع إلى النظرية الإفريقية التي أكد أصحابها - منهم ركس سميث بالخصوص - على أوجه الشبه العرقية وكذلك التشابه في اللغة وانسجام التجاوب الاجتماعي بين العرب والبربر. ومما يذكر هوأن علم الأجناس والدراسات الإثنية تؤيد الفكرة القائلة بأن شمال

إفريقيا هومهد الساميين. أما الدراسات الأنتروبولوجية فتطرح قضية أصل الإنسان وأصل الجنس الأبيض ومن ضمنه الساميين أي العرب والبربر.

بالنسبة للعلماء العرب لا بد من الإشارة إلى نظرية ابن خلدون التي عرضها في المقدمة وفي تاريخ البربر. وأكد فيها بالخصوص على العلاقات القديمة بين بربر شمال إفريقيا (أوالمغرب) وعرب شبه الجزيرة العربية ومنهم أهل اليمن.

يعتبر ابن خلدون أن " أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب الذين يغزون إلى إفريقية والبربر من بلاد المغرب أخبار عريقة في الوهم والخلط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة ". ويذكر في هذا الإطار قصة إفريقش بن صيفي في عهد موسى " الذي غزا إفريقية وأثخن في البربر وأنه سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وقال ما هذه البربرة فأخذ هذا الاسم عنه"[1]. ويواصل ابن خلدون أن إفريقش " لما انصرف من المغرب حجز هنالك قبائل من حمير فأقاموا بها واختلطوا بأهلها ومنهم صنهاجة وكتامة ". ويؤكد في هذا المضمار أن ابن الكلبي والطبري والمسعودي وكذلك البكري وابن الأثير ثم نسابة البربر فيما بعد يشاطرونه هذا الرأي الذي يقول إن أصل البربر من الشام وأنهم طردوا من فلسطين أيام داوود الذي قتل ملكهم جالوت ".أما المؤرخ المسعودي فيشير إلى " أن ذا الأذعار من ملوكهم قبل إفريقش وكان على عهد سليمان غزا المغرب ودوخه وكذلك ابنه ياسر الذي بلغ وادي الرمل ولم يجد فيه مسلكا لكثرة الرمل فرجع ". هذا ويضيف ابن خلدون " أن إفريقش بن صيفي من ملوك التبابعة غزا المغرب وإفريقية وقتل جرجيس وبنى المدن والأمصار وباسمه سميت إفريقية ولما رأى أن هذا الجيل وسمع رطانتهم قال: " ما أكثر بربرتكم"[2] فسموا البربر" والبربرة معناه اختلاط الأصوات غير المفهومة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن البربر شعبان: برنس ومادغيس الملقب بالأبتر.

أما البرانس أولاد برنس فهم من نسل مازيغ بن كنعان. والبتر هم بنوبر بن قيس بن

1- المقدمة، دار الفكر، بيروت، 16- 17.

2 - تاريخ العبر والمبتدأ والخبر، الجزء السادس، 117.

عيلان وهذا رأي النسابة البربر الذين قسموا قبائل البربر - على منوال التقسيم العربي للقبائل العربية (انظر ابن الكلبي وابن حزم وغيرهم من كتب الأنساب)- إلى مجموعتين كبيرتين البتر والبرانس من أب واحد وهوبر أوبربر (حسب الصولي). يذكر ابن الكلبي من جهته أن كتامة وصنهاجة من شعوب اليمانية التي تركها إفريقش مع من نزل. وتفيد رواية أخرى أن البربر أوزاع اليمن. ويرى المسعودي أن البربر هم من غسان الذين تفرقوا بعد حصول سيل العرم في اليمن واستقروا في عدة أماكن خارج اليمن.أخيرا يؤكد ابن عبد البر أن البربر أصلهم من ولد النعمان بن حمير بن سبأ - أي من أحفاد قحطان - الجد الأعلى للقبائل اليمانية.

من خلال استعراض آراء المؤرخين والنسابة العرب نلاحظ وجود اختلاف كبير بينهم بخصوص أصل البربر وسبب تسميتهم. لكن ابن خلدون قد فند في نهاية المطاف الرأي الذي يقول إن البربر " أبناء إبراهيم عن طريق كنعان بن حام بن نوح " وبالتالي فإنهم أقارب للفلسطينيين وليسوا منهم.وقد اعتبر أحد المؤرخين العرب المحدثين (د. سعد زغلول عبد الحميد) أن الفرضية القائلة أن أصل البربر من الشام فيها شئ من الحقيقة على أساس أنها تعبر عن الهجرات الفينيقية التي استقرت في المغرب وفي إفريقية منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد وقامت بتأسيس مرافئ بحرية ومحطات تجارية على السواحل التونسية مثل أوتيكا (سنة 110 قبل الميلاد) ثم قرطاج (سنة 814 قبل الميلاد).

إن هذه الإشارات التاريخية - رغم الطابع الأسطوري التي يميزها - تبين قدم العلاقات بين اليمن والبلاد التونسية كما تطرح قضية الأصول المشتركة بين سكان البلدين : حمير من ناحية والبربر من ناحية أخرى.والسؤال المطروح هوكيف تطورت هذه العلاقات في العهد الإسلامي وما هي مساهمة اليمانيين في حركة الانتشار الإسلامي في المغرب وإفريقية ؟

2-اليمانيون ومساهمتهم في الانتشار الإسلامي بإفريقية

بعد ظهور الإسلام في بداية القرن السابع للميلاد وتأسيس دولة المدينة سنة 622 م حصلت هجرات من الجزيرة العربية في اتجاه منطقة الهلال الخصيب وإفريقيا الشمالية وذلك في نطاق حركة الفتوحات الإسلامية أوالانتشار الإسلامي. وشارك عدد كبير من

اليمانيين (أفراد وقبائل) في هذه الهجرات التي أدت بهم إلى الاستقرار في الأمصار الجديدة (البصرة والكوفة بالنسبة للعراق والفسطاط بالنسبة لمصر) وكذلك في الأجناد الشامية. وتذكر المصادر العربية - من كتب تاريخ وكتب فتوح وبلدان وكتب أموال - أن نسبة اليمانيين في معارك الشام والعراق (اليرموك والقادسية خصوصا) كانت هامة من حيث الحجم مما يدل على قيمة المشاركة اليمانية في هذه الحركة[1].

كما أن اليمانيين شاركوا أيضا بأعداد وافرة في الانتشار في البلاد المصرية. وفي خلافة عثمان بن عفان شرع العرب المسلمون - بما فيهم أهل اليمن - في التوغل في بلاد المغرب: برقة وطرابلس ثم إفريقية. ويشير ابن عبد الحكم في هذا الإطار أنه تم إرسال - سنة 27 هـ / 647 م - ما لا يقل عن 2000 رجل من اليمن (600 من مهرة - 700 من غنث و600 من ميدعان) في الجيش الذي أسندت قيادته إلى عبد الله بن أبي سرح.

وشاركت أيضا في معركة سبيطلة عناصر يمنية من قبائل مراد وكندة ولخم وجذام وبلي إلى جانب الأنصار (وهم من الأزد) وصداء وبهراء والمعافر. من ناحية أخرى نجد العديد من القادة اليمانيين الذين ساهموا في أحداث القرن الأول بإفريقية: معاوية بن حديج السكوني (من كندة) - شريك بن سمي الغطيفي المرادي (من مذحج) - رويفع بن ثابت الأنصاري وزياد بن الحارث الصدائي.

من جهة أخرى تذكر المصادر مشاركة عناصر يمانية تنتمي إلى قبائل كندة وحمير وسبأ ولخم وبلي وكانت مستقرة في مصر منذ عهد عمرو بن العاص في الحملة التي قادها معاوية بن حديج سنة 45 هـ / 665 م. ويشمل ذلك الجيش الذي يعد 10.000 مقاتلا شخصيات يمانية مرموقة مثل الأكدر بن حمام اللخمي - كريب بن الصباح الأصبحي - أبوزمعة البلوي - حنش بن عبد الله السبئي.

وقد بدأت عملية الاستقرار الحقيقي في البلاد التونسية في العهد الأموي لا سيما بعد

---

1 - أنظر دراستنا بالفرنسية حول اليمن الإسلامي، مطبوعات الجامعة التونسية، جزءان، 1995؛ ودراستنا بالعربية حول إشكاليات الانتشار في الإسلام المبكر، مركز النشر الجامعي، تونس، 2001.

تأسيس القيروان سنة 50 هـ / 670 م. ومن المعلوم أن الجيش الذي أرسله يزيد بن معاوية تحت قيادة عقبة بن نافع الفهري سنة 62 هـ / 681 م يشمل مقاتلين يمانيين من بلي وحضرموت وحمير وغسان والأنصار كما نجد ضمنه بعض الوجوه الكبرى مثل خالد بن حيان بن الأعين الحضرمي وأوس الأنصاري.

وبعد نهاية الفتنة الثانية في المشرق كلف الخليفة عبد الملك بن مروان سنة 73 هـ حسان بن النعمان الغساني - أحد أشراف أهل الشام من أصل يمني - بإنهاء المقاومة البربرية وإتمام عملية فتح إفريقية وإخضاعها للنفوذ الأموي. وقد شمل الجيش الذي أعده لهذه المهمة 40.000 رجل منهم عدة عناصر مستقرة في الأجناد الشامية وتنتمي إلى قبائل غسان والمعافر.

أما القائد موسى بن نصير الذي كلفه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بإنهاء فتح كامل بلاد المغرب فقد أرسل العديد من الحملات البحرية في المتوسط منها الغزوة على مدينة سرقسطة في جزيرة صقلية قادها رجل من حمير اسمه عياش بن أخيل والغزوة الثانية في جزيرة سردينيا بقيادة يمني آخر من الأزد يسمى عبد الله بن حذافة.

إذا نجح العرب المسلمون في فتح إفريقية وكامل بلاد المغرب في عهد حسان بن النعمان وموسى بن نصير قبل أن يتحولوا صحبة البربر إلى الأندلس في حدود سنة 93 هـ / 711 م. وقد لاحظنا أن القبائل اليمانية - بمختلف بطونها وعشائرها - لعبت دورا رائدا في عمليات الانتشار في إفريقية والمغرب والأندلس.

وبعد فتحها أسندت ولاية إفريقية تارة إلى قيسيين وتارة أخرى إلى يمانيين والملفت للإنتباه في هذا الشأن هوالسياسة المرنة التي انتهجها الولاة اليمانيون إزاء السكان البربر وهي سياسة أساسها تأليف القلوب وإدماج العناصر المحلية البربرية مع العرب المسلمين في إطار مجتمع منسجم لا تفرقة فيه بين مختلف الأجناس.

من ناحية أخرى تواصل استيطان اليمانيين في إفريقية في القرن الثاني للهجرة. ولعل خير برهان على ذلك ما جاء في بعض المصادر - من كتب تراجم وطبقات - حول أسماء العناصر

اليمانية التي استقرت في عدة مواقع بإفريقية مثل خالد بن حيان بن أعين الحضرمي وخالد بن أبي عمران التجيبي والأكدر بن حمام اللخمي والفقيه بن محب بن حي المعافري وسعيد بن مسعود التجيبي وزياد بن أنعم المعافري وعمران بن عبد المعافري وعبد الرحمان بن زياد بن أنعم المعافري غيرهم.

كما نجد في نفس هذه المصادر عدد كبير من العناصر التي تحمل نسبة حميري وتجيبي ومرادي ومعافري وصدفي وحضرمي وهودليل قاطع على كثافة الهجرة اليمانية وأهمية الاستيطان اليمني في ربوع إفريقية خلال القرنين الأول والثاني للهجرة. أما الدليل الثاني على نفس الظاهرة فيتعلق بأسماء المواقع الموجودة في منطقة مجردة والوطن القبلي التي ربما لها علاقة بالجموع التي أقرها والي القيروان يزيد بن حاتم بعد تسريح قسم من الجيش الأموي الذي ساهم في عمليات الفتح. نذكر بالخصوص لزدين- كلبين- مهرين- بلي والأنصاريين وهي أسماء مواقع ربما اشتقت من أسماء قبائل الأزد وكلب ومهرة وبلي والأنصار التي تنتمي كلها إلى المجموعة اليمنية.

وتقدر مجموع العناصر العربية ومنها اليمانية التي استقرت في إفريقية في العهد الأموي بحوالي 50.000 شخص.أما الجيوش التي أرسلها خلفاء بني أمية ثم بني العباس من الشام ومن العراق ومن فارس لقمع الثورات البربرية فيقدر عددها بين 150.000 و180.000 رجل وإذا استثنينا منهم القتلى في مختلف المعارك يبقى حوالي 110.000 استوطنوا بإفريقية وتحول ما يقارب 40.000 رجل إلى الأندلس ليستقروا بها.

إذا أصبح العنصر المضري أكثر حضورا في إفريقية في العهد العباسي وذلك على حساب العنصر اليمني الذي كان مسيطرا قبل ذلك. وقد كان اليمانيون مستقرين بالخصوص في المدن مثل القيروان وتونس والزاب وكذلك سوسة وصفاقس وقابس وقسطيلية.يذكر اليعقوبي أن القيروان " فيها أخلاط من قريش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان وبها أصناف من العجم من أهل خراسان " ومن أهم البطون اليمنية نذكر كلب والمعافر وتجيب والصدف وغيرها. من ناحية أخرى أنشأت حول القيروان قرى يمنية مثل قرية الجهنيين (من جهينة) وقرية صدف (من كندة) وغيرهما.أما في تونس فنجد

حضورا قويا بالنسبة لبعض القبائل اليمنية مثل تجيب والأزد والمعافر وتنوخ والأنصار إلى جانب كندة وبلي والصدف.وفي منطقة الزاب تواجدت عناصر من الأزد وكلب. كما نجد عناصر من غافق والصدف وتنوخ (في صفاقس)، من رعين (في سوسة) وأخيرا من الأنصار في (قابس وبلاد الجريد).أما مدينة الأربس ـ وهي عبارة عن معقل حربي هام يقع على تخوم جبال أوراس العامرة بالبربر من كتامة وجراوة وغيرهم ـ فقد استقرت فيها بعض العناصر اليمانية من غافق والكلاع الذين يرجع دخلوهم لإفريقية إلى عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك.

3-دور اليمانيين في تاريخ أفريقية الوسيط:

بعد الانتشار ثم الاستقرار في إفريقية لعب اليمانيون أدوارا متعددة في تاريخ البلاد التونسية خلال العهد الوسيط.

ـ من الناحية العسكرية:

شاركت العناصر اليمنية في الحملات البرية والبحرية التي قادها العرب المسلمون من إفريقية في اتجاه المغرب الأوسط من ناحية وجزر المتوسط من ناحية أخرى. كما ساهم اليمانيون ـ كما أسلفنا القول ـ في عمليات فتح بلاد الأندلس بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير. وتوضح المصادر حضورا لعديد منهم في جيش طارق الذي بلغ عدده 12.000 رجل كما تبين انتمائهم إلى قبائل الصدف ولخم وسبأ والسكاسك وحمير والأنصار.

أما القادة فتذكر منهم علي بن رباح اللخمي وسبيح اللخمي وعياش بن أكيل الحميري وحنش بن عبد الله الصنعاني إلى جانب أسماء ثلاثة قادة آخرين شاركوا في الحملات التي استهدفت مواقع في جنوب بلاد غالة وشرق أسبانيا: السمح بن مالك الخولاني الذي فتح مدينة نربونة وعنبسة الكلبي الذي قاد عدة غارات في اتجاه منطقة البروفانس وبلنسية وأخيرا عبد الرحمان الغافقي الذي عينه الخليفة هشام بن عبد الملك واليا على الأندلس والذي بقي اسمه مرتبطا بمعركة بلاط الشهداء ضد القائد الإفرنجي شارل مارطال.

ـ من الناحية الاجتماعية:

كون اليمانيون في إفريقية أرستقراطية حقيقية بمختلف درجاتها لا سيما في المدن مثل القيروان. والجدير بالذكر أن القبائل اليمنية اختطت في العاصمة الأفريقية منازل ومساجد صغيرة تحمل أسماء مجموعة من الشخصيات المتميزة مثل أبي عبد الرحمان الحبلي المعافري وحنش الصنعاني وعلي بن رباح اللخمي. كما توجد بالقيروان عدة مواضع تحمل أسماء يمنية كرحبة الأنصار وحارة يحصب ومقبرة البلوية. مما يدل على أهمية الحضور اليمني في المجال الحضري.

من جهة أخرى أنشأ بعض قادة الجيوش أسرا أصبح لها جاه وسلطان بالقيروان ومن هذه البيوت والأسر تذكر المصادر بيت بني معاوية بن حديج الكندي وبيت أبي حسان اليحصبي وبيت بني مسلمة بن سوادة الجذامي وبيت يزيد بن منصور بن عبد الله بن يزيد الحميري.

ـ من الناحية الإدارية:

تواجد اليمانيون بكثافة في دواليب الحكم بإفريقية سواء بالنسبة للولاية والدواوين أويقية الوظائف مثل الحجابة والكتابة والشرطة والجباية والقضاء.كان عدد ولاة المغرب اليمانيين في العهد الأموي خمسة من مجموع عشرة. وفيما يلي أسماؤهم: موسى بن نصير ثم ابنه عبد الله بن موسى، بشر بن صفوان الكلبي، عقبة بن قدامة التجيبي، حنظلة بن صفوان الكلبي؛ أما في العهد العباسي فقد أحصينا سبعة ما بين سنة 144 وسنة 184 تاريخ تأسيس الدولة الأغلبية. وفيما يلي قائمتهم: محمد بن الأشعث الكندي، عمر بن حفص المهلبي، يزيد بن حاتم المهلبي، روح بن حاتم المهلبي، حبيب بن نصر المهلبي، محمد بن مقاتل العكي؛ كما تواجد اليمانيون بكثرة في سلك العمال في المناطق الإفريقية (طرابلس والزاب بالخصوص) وفي الدواوين التي أنشأها حسان بن النعمان وطورها من بعده موسى بن نصير.

تولى اليمانيون كذلك خطط الحجابة والكتابة وصاحب الشرطة والجباية والقضاء. وقد

تفردت كتب الطبقات والتراجم بذكر القضاة اليمانيين مثل عبد الرحمان بن رافع التنوخي ويزيد بن الطفيل التجيبي وعبد الرحمان بن زياد بن أنعم المعافري وماتع بن عبد الرحمان الرعيني وأبوكريب المعافري وعبد الله بن عمر بن غانم الرعيني ولعل أشهرهم سحنون بن سعيد التنوخي.إذا هذا الحضور الهام في المؤسسات الإدارية والسياسية بإفريقية يدل بصفة واضحة على المساهمة الفعالة لليمانيين في تركيز الحضارة العربية الإسلامية في كامل الجناح الغربي للخلافة

- من الناحية الإقتصادية :

لعب اليمانيون أدوارا هامة في عملية إعادة توزيع الأراضي وتغيير النظام العقاري بإفريقية. وتشير المصادر إلى دور حسان بن النعمان الذي استحوذ على الملكيات الشاسعة التي كانت بأيدي الإمبراطور ورجال الإدارة والجيش البيزنطي وقام بتوزيعها على العرب ومواليهم وعلى البربر الذين أسلموا.

كما أن موسى بن نصير الذي وسع مساحة الانتشار وزع أراضي جديدة مما سمح بتكوين نظام عقاري يعتمد على الملكيات الكبرى. وقد أفرز هذا النظام بدوره أرستقراطية عربية في أغلبها يمانية. وساهم الوالي يزيد بن حاتم المهلبي في تدعيم الملكية الكبرى حيث سرح عناصر الجيش الأموي بإفريقية وأقرهم في الأراضي الزراعية الممتدة في الشمال على ضفاف نهر مجردة.

في ميدان الحرف مارس اليمانيون عدة مهن واعتنوا بالتجارة. ويعود الفضل إلى الوالي اليمني يزيد بن حاتم الذي قام بتنظيم أسواق القيروان وخص كل تجارة بسوق وعين على رأس كل سوق منها أمينا يقوم بمراقبة البضائع ويمنع الغش.

- أما من الناحية الدينية :

مثل اليمانيون أكثر من نصف أعضاء البعثة التي وجهها الخليفة عمر بن عبد العزيز في بداية القرن الثاني للهجرة لتعليم أهل إفريقية أصول الدين الإسلامي ونشر مبادئه بينهم. والملاحظ أن هذه البعثة العلمية تعد عشرة فقهاء منهم سبعة من اليمن :- أبوعبد الرحمان

عبد الله بن يزيد المعافري - أبومسعود سعد بن مسعود التجيبي - موهب بن يحي المعافري - أبوثمامة بكر بن سوادة الجذامي - أبوسعيد جعثل بن هاعان بن عمير بن اليثوب الرعيني إسماعيل بن عبيد الله الأنصاري - أبوالجهم عبد الرحمان بن رافع التنوخي وبالتالي يمكن القول إن اليمانيين ساهموا بصفة فعالة في عملية التعريب وأسلمة البربر بإفريقية منذ القرن الثاني للهجرة وتوصلوا إلى تكوين عدة أجيال تحفظ القرآن وتلم بعلوم الشريعة.

- من الناحية الثقافية :

تميز اليمانيون الذين استوطنوا في المدن التونسية بالمحافظة على عاداتهم وتقاليدهم التي نقلوها معهم إلى جانب نمط عيشهم. كما ساهموا في العهد العباسي في نقل علوم العقل والكلام التي تعتمد على الجدل والمناظرة. ويرجع الفضل الكبير للوالي يزيد بن حاتم المهلبي الذي جلب العلماء من المشرق إلى إفريقية فأصبحت القيروان في عهده قطبا أساسيا من أقطاب الثقافة العربية الإسلامية. ونذكر على سبيل المثال النحوي عوانة الكلبي واللغوي قتيبة الجعفي والأديب أبومالك أبان بن الصمصامة بن الطرماح الذين وفدوا على القيروان ورسخوا فيها إبداعات اللغة العربية.

من ناحية أخرى رحل عدة علماء يمانيين من إفريقية والمغرب إلى المشرق طلبا للعلم منهم عبد الله بن غانم الرعيني وعبد الرحمان بن أشرس الأنصاري وعبد الله بن أبي حسان الأنصاري وزكريا بن محمد بن الحكم اللخمي وسحنون بن سعيد التنوخي.

وللتدليل على كل هذه الخصوصيات التي تميز اليمانيين عن بقية العناصر العربية التي استوطنت بدورها بإفريقية يمكن لنا التوقف قليلا عند الثورات البربرية التي اندلعت في القرن الثاني وأهمها الثورات الخارجية ضد الحكم الأموي ثم العباسي.

ما يهمنا ليس استعراض أحداث هذه الثورات ولكن نريد فقط الإشارة إلى أن اليمانيين شاركوا في هذه الثورات وساندوا البربر في مطالبهم المتعلقة بطرح الضرائب المسلطة عليهم والتي يعتبرونها مخالفة للشريعة الإسلامية. نذكر بصفة خاصة ثورة سنة 126 / 744 في منطقة طرابلس وثورة سنة 131 / 748 بقيادة عبد الجبار بن قيس المرادي والحارث بن

تلد الحضرمي. وخلال ثورة الإباضية في طرابلس سنة 140 / 757 وقع تعيين أبا الخطاب المعافري إماما لأول دولة إباضية في المغرب.

إن اليمانيين أصبحوا جزءا لا يتجزأ من المجتمع الإفريقي في العصر الوسيط ولا شك أنهم ساهموا إلى حد كبير في عمليات الأسلمة والتعريب ونقلوا من جهة أخرى العديد من تقنياتهم لا سيما في الميدان المعماري.ولعل السائح الذي يزور الجنوب التونسي اليوم يلاحظ الشبه الكبير في نوعية البناء وأساليبه وأدواته في واحات الجريد مع البناءان الموجودة في عدة مدن يمانية مثل صنعاء وشبام وغيرهما.

الخاتمة:

إن الهجرات اليمانية إلى بلاد المغرب بما فيها إفريقية تندرج إذا في حركة أوسع تهم التحركات البشرية بصفة عامة منذ مئات السنين لكن هذه الهجرات كانت لها نتائج عديدة أهمها تعريب المنطقة المغربية ونشر الإسلام ومبادئه في هذه الربوع التي تعاقبت عليها حضارات مختلفة وديانات متنوعة مثل اليهودية والنصرانية لكنها لم تصمد أمام الدين الإسلامي. كما ساهم اليمانيون بشكل مكثف في عمليات الانتشار ثم الاستقرار في إفريقية والمغرب في القرنين الأول والثاني للهجرة ونجحوا إلى حد كبير في صهر السكان وإدماجهم في بوتقة الحضارة العربية الإسلامية.

التواصل الفكري بين المشرق والمغرب
وأثره في بناء دول المغرب خلال العصر الوسيط
- ابن تومرت والدولة الموحدية نموذجا -

د. صالح معيوف مفتاح
جامعة سبها

المدخل المنهجي لموضوع الدراسة:

إن دراسة تراثنا الفكري الإسلامي يحتاج منا استخدام الأدوات المنهجية الممكنة والتي تنسجم والرؤية الموضوعية لهذا التراث دون أن نمارس النقد من الخارج أوما يسمى بجلد الذات وتطبيق رؤى المدارس الغربية على هذا التراث؛ وهذا لا يعني عدم الاستفادة من أدوات هذه المدارس ولكن بالقدر الذي يتناسب والذهنية العربية الموضوعية؛ صحيح أنه لا يمكن أن نتجرد من العاطفة تجاه هذا التراث ولكن لا يجب أن لا تهيمن هذه العاطفة على أحكامنا في نقد التراث وتنقيته مما لحق به من موروث تمثل في جانب كبير منه وخاصة السياسي والديني، فضلا عن في توظيف الرؤية الفقهية لخدمة الحاكم الأمر الذي جعل الفقه كمفهوم عام ينساق وراء مطالب الحاكم السياسي ويصل به إلى درجة التأليه والقداسة وهوما يسمى بالخطاب التبريري الذي يسوقه الفقهاء إرضاء لرغبة الحاكم وتبريراً لأفعاله. إن هذا التوجه أوقع الخطاب الديني في إشكالية التناقض، إذ اعتبرا الرأي الفقهي هونص مواز للنص الديني القرآن الكريم والحديث الصحيح الأمر الذي ترتب عليه قطيعة معرفية مع النص الديني والانسياق مع الخطاب الفقهي التبريري الذي استباحه الحاكم وفق متطلباته الذاتية ورؤيته السياسية لتغليف أعماله برؤية دينية تستمد مشروعيتها من الله تبارك وتعالى وفق نظرية التفويض الإلهي التي نادى بها أبوجعفر المنصور في بداية العصر العباسي؛ وقبل ذلك وظفت بأشكال مختلفة الأمر الذي ترتب عليه أن كل أعمال الحاكم هي أوامر إلهية يجب

احترامها والخروج عنها خروج عن الدين وليس معارضة سياسية.

هذا الخطاب الفقهي التبريري الذي نجده يتعايش مع مستجدات كل عصر هوالذي خلق الأزمة السياسية بدء من تأويل النص إلى استبعاد النص أحياناً واخذ الرأي الفقهي المبني على القياس الأمر الذي ترتب عليه التضييق في دائرة المباح ووضع سياج من المحرمات والممنوعات، ومثل ذلك إعادة القراءة التاريخية لبعض الأحداث الكبرى في تاريخنا الإسلامي واعتبار ذلك من المسكوت عنه وعدم التعرض له بالتحليل أوإعادة القراءة، مثال ذلك الفتنة الكبرى وما شابها من مغالطات ظلت تضخم عبر التاريخ إلى أن أصبحت أحداثها تكتنفها حالة من القداسة غير المبررة ،وكذلك حروب الردة الأمر الذي جعل المؤرخ العربي يتعامل بحذر مع هذه الأحداث.

وللوصول إلى موضوعنا يمكن القول:

أنّ حركة التواصل الفكري والمذهبي بين جناحي الدولة العربية الإسلامية المشرق والمغرب ما فتئت تتفاعل بشكل مستمر وسلسل بعد أن توطد الإسلام في أرجاء بلاد المغرب ومن ثم الأندلس حيث تتحدث كتب الرحلة والتراجم عن الأعداد الكبيرة من طلبة العلم الذين وفدوا من المغرب والأندلس إلى المشرق مكة والمدينة ودمشق وبغداد.

كما أن هجرة المشرقيين إلي بلاد المغرب والأندلس كان لها طابع سياسي في اغلب الأحيان تمثلت في حركات المعارضة السياسية للدولة المركزية وخاصة الدولة الأموية التي أسست نظامها السياسي من منتصف القرن الاول على مبدأ النظام الوراثي الاستبدادي الذي من خلاله تم استبعاد أي مشاركة سياسية من القبائل أوالفئات الأخرى.

أمام وطأة الدولة المركزية وبطشها بكل معارضيها الذين سموا بالخوارج- حسب تسمية مؤرخي السلطة وإطلاق النعوت الدينية حسب الرأي الفقهي الذي تم توظيفه لصالح الخليفة أوالحاكم- كما أسلفنا- فأن هذه المعارضة التي استعملت نفس أدوات السلطة وهي توظيف الدين في الدعوة لأهدافها السياسية حيث رفعت شعارات دينية متعددة لتجد قبولها لدى عامة الناس مثل - لا حكم إلا الله- وأن الأمر شورى بين المسلمين وبذلك

ظهرت فرق متطرفة مثل : الأزارقة وأخرى أقل تطرفاً مثل الصفرية وفرق معتدلة مثل الإباضية التي وجدت لها قبولاً ليس في بلاد المغرب فحسب إذ أن أول دولة قامت على المذهب الإباضي كانت في جنوب الجزيرة في عمان 138هـ قبل الدولة الإباضية الخطابية في طرابلس 140هـ الأمر الذي يؤكد رؤيتنا في موضوع هذا البحث بأن الحركات السياسية التي قامت في بلاد المغرب لا تخرج عن كونها معارضة سياسية نظام السلطة المركزية ، فالمذهب الإباضي على سبيل المثال نشأ وترعرع في البصرة في بلاد العراق على يدي إمام المذهب أبوعبيده مسلم بن أبي كريمة ولكن نتيجة قمع السلطة المستمر لهذه المعارضة تسرب إلى الأطراف عن طريق الدعاة حيث تضعف الدولة المركزية ، كما أن دعوات هذه المعارضة تجد صداها بل قبولا لها في الفئات الاجتماعية التي تعاني من عسف الولاة إضافة إلى أن الأسلوب الذي اتبعه الأمويون في إدارة السلطة المركزية اعتمد بشكل كبير على العصبيتين القيسية واليمنية ؛ إن اختلال المعاملة بين العصبيتين وتغلب إحداهما على الأخرى تجد صداها في ولايات الأقاليم، الأمر الذي خلق حالة من عدم الاستقرار السياسي والظلم الاجتماعي بإرهاق العامة بمختلف أنواع الجبايات.

كل هذه العوامل والظروف المتأزمة تركت المجال فسيحاً لأن تتبنى قبائل المغرب هذه الأفكار السياسية المعارضة وتقاتل من اجلها ، خاصة أنها تدعوإلى مبدأ المشاركة في الحكم ، وفق مبدأ الشورى بغض النظر عن اللون أوالجنس وإلا ينحصر الحكم في قريش"وفق أحاديث القرشية" _ التي ثبت وضعها _ وعدم مطابقتها للواقع التاريخي.

ومنذ أواخر القرن الأول الهجري بدأت هذه الأفكار تتسرب إلى الأطراف ومنها إلى بلاد المغرب ؛ وبسبب الظلم السياسي والاجتماعي الذي كانت فئات واسعة من المجتمع تعاني منه وجدت هذه الأفكار طريقها بين العديد من القبائل المغربية.إن تأزم الموقف هذا والذي تجاهلته الأسرة الأموية أدى إلى اندلاع ثورة الصفرية في قبائل زناته سنة 122هـ بقيادة ميسره المطغري ضد عبيد الله بن الحجاب والي المغرب ، الأمر الذي نتج عنه فوضى سياسية عارمة في كل بلاد المغرب.

وحالة المغرب هذه وظهور حركة الخوارج بها لم يكن حالة منعزلة عن بقية أوضاع

الدولـة العربيـة الإسـلامية ؛ غـير أنـه يتوجـب التنبيـه إلى أن هـذه الثـورات لم تكـن دعـوة للاستقلال أورفضا للوجود العربي كما تزعم بعض الآراء بل كانت عبارة عن ردود فعل استوجبتها وضعية سياسية معقدة تمتد جذورها بعيداً في التاريخ السياسي الاقتصادي للدولة العربية الإسلامية وهي مبدأ الحاكمية وكيفية اختيار الحاكم أوالنظام الوراثي الاستبدادي الذي كرسه معاوية مؤسس الدولة الأموية.

إن النظام الاجتماعي سواء في الجزيرة العربية أوفي المغرب يرفض بل يأنف من الخضوع للحاكم السياسي نتيجة لطبيعة البدوي الذي يعيش طليقاً في الصحراء دون قيود سياسية أواقتصادية، مفضلا عنها قيود قيمية أخلاقية تتماشى وعرف قبيلته. بناء عليه فإنه، ونتيجة انتشار هذه الأفكار بين العديد من القبائل المتضررة، رفع السلاح في وجه السلطة الأموية في المركز وفي الأطراف. وهكذا وتحت ضربات هذه القبائل، ضمن عوامل أخرى، انهارت الأسرة الأموية سنة 132هـ ؛ واللافت للنظر أن هذا التغير، سقوط الأسرة الأموية وقيام العباسية، لم يوقف ظاهرة المعارضة، إذ استمرت هذه الأخيرة متسببة في ظهور دول مستقلة. وهكذا ظهرت في المغرب كيانات سياسية مستقلة مثل الصفرية في سجلماسة سنة 142هـ، والإباضية في المغرب الأوسط سنة 160هـ. فضلا عن قيام الإمارة الأغلبية سنة 184هـ في القيروان والتي كانت في حقيقة الأمر تابعة لبغداد، ولكنها كانت تبعية اسمية.

كما أفرزت حركة التواصل هذه لوناً آخر من الدول. فالفكر الشيعي كان هوالآخر يجتذب الأنصار في بقاع مختلفة من دار الإسلام. وكما شنت الخوارج عديد المعارك ضد الأمويين فإن الشيعة فعلت الشيء نفسه. ولكن قيام العباسيين، أبناء عمومة رؤوس الشيعة، لم ينه معارضة هؤلاء. لذلك فإنه وبعد وقعة فخ التي تعرض فيها العلويون إلى شبه أباده على أيدي أبناء عمومتهم العباسيين فر من نجا منهم إلى خرسان شرقاً، وإلى بلاد المغرب. وإلى هذا الأخير دخل أدريس بن عبد الله بن الحسن والذي سمي فيما بعد بأدريس بن عبد الله الأكبر تميزا له عن أبنه الذي حمل نفس الاسم. وبدخوله أرض المغرب وجد ترحيباً كبيراً من بعض القبائل المغربية وخاصة قبيلة أوربة التي كانت تتطلع من خلاله إلى تحقيق مشروع سياسي لبسط الهيمنة على بقية قبائل المغرب. ونظراً لما يمثله من رمز ديني وأهلية في الحق

السياسي بانتسابه للبيت النبوي وما كان يمثله ولازال هذا النسب للبيت النبوي من وقع في نفوس المغاربة، تمكن من إقامة إمارة في المغرب الأقصى.

هذا ملخص مختصر للمرحلة الأولى للأوضاع السياسية. أما فيما يتعلق بنموذج الدراسة أوالمرحلة الثانية من البناء السياسي لدول المغرب فهوإن أتسم بخصوصية مغربية إذ أن نسيجه الاجتماعي كان مبنيا على أساس قبلي (صهناجة الصحراء بالنسبة للمرابطين والمصامدة بالنسبة لموحدين) فأن هذه الدول لا تخرج عن كونها تعبيراً عن وضعية سياسية متأزمة للدولة العربية الإسلامية ومحاولة إصلاحها من الأطراف. ومن خلال تتبعنا لخطوات ابن تومرت التي قام بها من أجل قيام الدولة نخلص إلى أنها تصب في إصلاح وضعية سياسية ودينية. والخطوات هذه بالامكان الوقوف عليها من خلال عرضنا لمجموعة من المعطيات.

I-الأوضاع السياسية في المغرب زمن ظهور ابن تومرت

لقد كانت دولة المرابطين تسيطر على المغرب وحاضرتها مراكش التي أسسها يوسف بن تاشيف في سنة 454هـ على أرجح الروايات بعد أن قدمت، من وراء جبال الأطلس من صحراء شنقيط، قبائل صنهاجة الصحراء المتكونة من أكثر من سبعين قبيلة، من أهمها لمتونة وجدالة ومسوفة. وحسب ما ذكره بان خلدون فإنها كانت تدين بدين المجوسية في بدء أمرها. وبعد مجيء الداعية عبدالله بن ياسين وحّد كلمة هذه القبائل وصحح إسلامها وفق المذهب المالكي وأصبح ابن ياسين الزعيم الروحي لصنهاجة الصحراء التي انتقلت إلى المغرب في سنة 436هـ. وكان المرابطون قوم متقشفون جبلوا على الجهاد ومحاربة القبائل المارقة ويحترفون الجندية كعقيدة حيث ساهم المرابطون في توحيد الأندلس ومحاربة النصارى الأسبان والانتصار عليهم في معركة الزلاقة الشهيرة، ولكن نتيجة اتساع رقعة الإمبراطورية وكثرة الحروب الداخلية والخارجية في جبهة الأندلس والمغرب الأوسط بدأ بناء هذه الدولة يهتز من الداخل وخاصة بعد وفاة مؤسسها الفعلي يوسف بن تاشفين. فيتولى ابنه علي إمارة المرابطين، والذي كان مترددا ضعيف الشخصية، الأمر الذي مهد لسيطرة أشياخ المذهب المالكي، الذين استغلوا ورعه وتواضعه، على مقاليد الأمور في الدولة وكونوا طبقة نخبوية حاكمة من علماء المذهب الذي كان يعتمد في أساسه على علم الفروع دون الأصول.إنه وفي

ظل هذه التغيرات تعرضت إمارة المرابطين لمزيد من الضعف الذي سيهيأ الأرضية لداعية سيتمكن من تأسيس إمارة على أنقاض هذه الإمارة. ولكن وقبل التطرق لهذه الإمارة الجديدة أرى من المناسب التوقف عند الأوضاع في المشرق.

2-الأوضاع السياسية والفكرية في المشرق الإسلامي

قبل أن يتوجه أبن تومرت[1] إلى المشرق لتلقي علومه على عدد من أساتيذه تجدر الإشارة إلى الأوضاع السياسية التي كانت تعيشها دولة الخلافة في بغداد ففي نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجريين الموافق لنهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر الميلاديين كانت الخلافة العباسية تواصل تدهورها تحت وصاية السلاجقة الذين استلموا هذا الدور بعد إقصاء البوهيين الشيعة عن هذه الوصاية ولم يحافظ السلاجقة على وحدة العالم الإسلامي بل دفعوه إلى أقصى حدود التفتت، وقامت دويلات إقطاعية حقيقية من الأتابكة الذين هم عبيد للسلاجقة استغلوا ثقة أسيادهم لاقتطاع أوصال الدولة الإسلامية إلى إقطاعيات يحكم كل إقطاعية أتابك "الأب الأمير باللغة التركية" ويحولها إلى إمارة وراثية، وكان هذا الإقطاع العسكري نتيجة عجز الخلافة في بغداد عن سداد مرتبات الجند الذين عوض قادتهم عن ذلك بإقطاع مدن وأقاليم من جسم الدولة العباسية، الأمر الذي ترتب عنه قيام دويلات داخل دولة لم يبق منها ألا رموز باهته هي الدعوة للخليفة مع السلطان السلجوقي على المنابر. كذلك كانت الخلافة الفاطمية في مصر في طور الانهيار رغم هيمنتها على قسم كبير من المشرق الإسلامي، إذ وصلت في بعض الأحيان إلى بغداد عن طريق

1- هو عبدالله محمد بن عبدالله بن تومرت، المنعوت بالمهدي الهرغي، ينسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو من جبل السوس ونشأ هناك وتلقى علومه الأولى. ينقل ابن خلكان في الوفيات على النحو التالي محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر ابن يحي بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن ابن طالب. أما من حيث تاريخ مولده فقد تضاربت الآراء حول ذلك فمنها ما يجعله 463هـ ومنها من يصل به 472هـ ونجد روجيه لوطورنو يرجح التاريخ الأخير.

الوزير البويهي الشيعي الإسماعيلي " البسساسيري" الذي حكم بغداد باسم الخليفة الفاطمي لمدة عام، كما كانت تمارس سياسة التخريب بعنف شديد على أيدي طائفة الحشاشين، أحدي أخطر الجماعات الإرهابية. في هذا المناخ الذي تفككت فيه وحدة الدولة الإسلامية في المشرق واحتدمت الصراعات الداخلية، وصارت الدولة الإسلامية اضعف من أي وقت مضى، وانتشرت الانهزامية والإحباط والتشاؤم، في هذا المناخ تعرض العالم الإسلامي لمحنة شديدة وهي الحملة الصليبية الأولى التي شنت على الدولة الإسلامية عام 489هـ/1092م ومكنت الصليبين من الاستيلاء على عدد من المدن في سوريا وفلسطين واغتصبت بيت المقدس عام496هـ/1099م حيث نصبت للسكان المسلمين مجزرة عظيمة قتل فيها أكثر من 70 سبعين ألف مسلم حسب المصادر الصليبية واستعبد من لم يمت منهم واغتصبت النساء ثيبات وأبكاراً وكون الصليبيون أثر هذه الحملة أربع إمارات صليبية: 1- إمارة بيت المقدس ويحكمها جودفرّي؛ 2- إمارة انطاكية ويحكمها بوهمند؛ 3- إمارة طرابلس ويحكمها ريمند؛ 4- إمارة الرها ويحكمها بلدوين.

ولقد كانت المدارس الفكرية في المشرق تتمثل في المذاهب الدينية التي اصطبغ بعضها برؤية فكرية عقلية مثل المعتزلة والسنة المعتدلة وكذلك الشيعة التي كانت لها رؤية سياسية في نظام الحكم إضافة إلى المذهب الأشعري الذي يلتقي مع المعتزلة في عدد من الأفكار، إذ نجد الفكر المعتزلي العقلي تتكيء عليه بعض المذاهب الأخرى ولوبدرجات متفاوتة مثل الشيعة والأشاعرة.

في هذا الجو السياسي المضطرب والمشحون بكل صنوف التقهقر والانهزام، كان لابد من بروز أفكار وحركات دينية إصلاحية تدعوإلى التوحد وجمع الكلمة لمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية كما لا يغرب عن بال الجميع من ظهور أفكار تدعوللنكوص والتقوقع والانعزال عن واقع الناس ومعاناتهم.

كان المشرق آنذاك يجتاز مرحلة حافلة بالنشاط الثقافي، وكان الإسلام يواجه منعطفاً خطيراً في تاريخه، وهكذا فإن القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي يعد في تاريخ الفكر والأدب الإسلاميين من أكثر القرون إنتاجاً وازدهاراً ذلك أن صراع السنة مع مذاهب

الأقليات، والشيعة وغيرها بالمشرق الإسلامي كان فيه أقوى حافز على تجديد النشاط العلمي وتقويته فظهر جيل من الأساتذة، وتميز في نفس الوقت بحذقة في الجدل وتجده في العلم، وأسست مدارس مثل النظامية التي أسسها الوزير نظام الملك(ت.485هـ / 1092م)، فكانت تعمل على نشر تعليم رفيع المستوى، فضلا عن انتصارها للمذهب السني في صيغته الأشعرية.وليس من باب الصدفة أن استدعى مفكراً كالغزالي الذي كان يريد "أحياء" علوم الدين وهويدخل فلسفة صوفية في تأويل الرسالة الإسلامية، كان الغزالي يربط بين الروحي والزمني باحتفاظه بنظرة واقعية معينة ويبقائه قريباً من الحياة اليومية.

3- رحلة ابن تومرت العلمية

تلقى ابن تومرت تعليمه الأول في منطقة السوس بالمغرب من خلال المساجد والكتاتيب وكان أول ما تعلمه القرآن الكريم ثم انتقل إلى الأندلس لتلقي العلم على أيدي علماء اللغة العربية والفقه وعلم الكلام حيث حددت تلك الفترة بسبع سنوات في بعض الروايات رغم عدم وجود تفاصيل وافية عن هذه الفترة الطويلة نسبياً التي قضاها ابن تومرت في الأندلس.

ولكن على عادة طلاب العلم في المغرب والأندلس فإن الرحلة العلمية إلى المشرق تصبح ضرورية ولازمة من وجوه كثيرة أولها الوقوف على مصادر النبع والالتقاء بمختلف المدارس الفقهية والكلامية وثانيها التعرف على أحوال المشرق الاجتماعية والسياسية والالتقاء بعلماء لم تتح لهم ظروفهم السفر إلى أبعد من بغداد أومكة أوالمدينة.

لقد كانت رحلة ابن تومرت في بداية القرن السادس 502هـ ؛ وكما أشرنا فإن الأوضاع السياسية في المشرق عندئذ كانت متردية. ومن الطبيعي أن ينشأ عن هذا الوضع رد فعل فكري وحماس ديني يستنهض الهمم ويحفز النفوس لمواجهة الخطر المحدق؛ وقد التقى ابن تومرت بكوكبة من هؤلاء العلماء أوالتقى بأفكارهم مثل: الكيا الهراسي، وهومتكلم من الدرجة الأولى كان يلقي دروسه في المدرسة النظامية ببغداد ولا شك أن ابن تومرت استطاع بفضله أن يتوسع في معرفة عقيدة الأشعرية التي كان الأمام الغزالي أحد منظريها وقد أخذت العقيدة الأشعرية خطاباً تبريرياً يتساوق والمستجدات التي حلت بالدولة العباسية بعد

تغلب السلاجقة عليها التي كان فيها الفقيه دور خطير رسمته له السلطة المتغلبة وهم سلاطين السلاجقة وهوما يسمى بإمامة الاستيلاء.

فالفقيه في نظر الإمام الغزالي هوالواسطة بين الخليفة والسلطان والرعية، لإقناع الرعية بطاعة السلطان لذلك أدرك السلاطين السلاجقة ضرورة إرضاء الفقهاء فما أن قامت الدولة السلجوقية حتى عولت على استرضاء فقهاء السنة وعلى رأسهم الغزالي الذي نجح في عقد أواصر الوفاق بين الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة الأوائل، والحق أن الغزالي كان مؤهلا لهذا الدور فهوفقيه أشعري على مذهب الشافعي في الفقه. ومعلوم أن الأشرعية كانت "أيديولوجية الحكام" كما أن انطواءها على قدر من العقلانية بدعمها المنطق الأصولي الذي أسسه الشافعي يمكن بأن يحقق الغاية المنشودة والظفر في صراع جدلي مذهبي مرتقب.

لم تتوان السلطة السلجوقية في تأسيس المدارس"النظامية" وتشييد الخوانق لتسهما معاً في توطئة الرؤوس بالطاعة للسلاطين وقد كان الغزالي أحد الأساتذة في المدرسة النظامية في بغداد التي تركها في آخر القرن الخامس هـ إلى فارس.

لقد دخل الغزالي معترك السياسة، لكن من باب التبرير للسلطان الجائر المتغلب"ليسوغ حكم حاكم غير مستوفي الشروط مبرراً ذلك بأن" الضرورات تبيح المحظورات بل أوجب طاعة المتغلب حتى ولوكان جائراً.منظومة الغزالي إذن قوامها الخليفة والسلطان والفقيه، فبهم يضمن "بقاء الشريعة" فالخليفة بحده الغزالي "ضرورة من ضرورات الشرع الذي لا يمس"[1]

سقنا هذه المقتطفات من آراء الغزالي للربط بين ما كان الغزالي يدعوإليه وما وجد فيها ابن تومرت من أفكار تبرر العمل الذي سيقدم عليه وهوتعدد الحاكمية وجواز إمامة المتغلب الأمر الذي جعل بعض المؤرخين مثل البيدق يقرر بأن الإمام الغزالي التقى بابن تومرت وحاوره في أمر المرابطين وفتواه بتغيير حكمهم رغم أن هذا لا يتفق مع السياق التاريخي حيث تذكر المصادر أن الأمام الغزالي غادر المدرسة النظامية في بغداد سنة 500هـ أي قبل وصول

---

1 - اسماعيل، محمود، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي" طور الإنهيار 2".

ابن تومرت إليها بأربع سنوات 504 على أرجح الروايات [1].. ولكن ليس بمستبعد أن يكون ابن تومرت قد استعمل أسم الغزالي كوسيلة من وسائل الدعاية لمذهبه وهذا لا ينفي أنه أطلع على كتبه واستفاد منها [2].

كما استفاد ابن تومرت من نظرية الشيعة في الإمامة؛ والشيعة، وكما يعلم الجميع هم الذين شايعوا علياً وقالوا بإمامته نصاً ووصية أما جلياً أوخفياً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده... قالوا: وليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة، وينتصب الإمام بنصبهم بل هي قضية أصولية وهي ركن الدين لا يجوز للرسول عليه السلام إغفاله وإهماله ولا تفويضه للعامة... وثبوت عصمة لائمة وجوباً عن الكبائر والصغائر [3].

ولا شك أن ابن تومرت أخذ من الشيعة مبدأ الإمام أوالمهدوية وهنا لابد من الإشارة إلى المهدي والمهدوية لنعلم الأسباب التي جعلت ابن تومرت يتعلق بهذا اللقب ويدعيه لنفسه. باختصار شديد صارت فكرة المهدية تدور حول المهدي الذي سيأتي في آخر الزمان لكي يعود بالمسلمين إلى طريق الحق، بعد أن تكون الأرض قد امتلأت ظلماً وجوراً، فيقيم دولة مترامية الأطراف ويخضع لسلطانها العرب والعجم ويقيم العدل بعد هذه الفترة من الظلم والفساد.وساعدت المؤثرات النفسية والاجتماعية والسياسية ممثلة في ظلم الحكام واضطهاد المحكومين على ظهور هذه الفكرة، وازدهار المهدية باعتبارها الأمل الذي يتجدد كلما اشتد الظلم بالناس، وكلما دعت الحاجة إلى مصلح يقود الناس إلى طريق العدل ويرشدهم إلى طريق الهدى بتطبيق ما جاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة [4].

كما يشير ابن خلدون في المقدمة الجزء الثاني إلى أمر الفاطمي "أعلم أنّ المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على مر العصور، أنه لابد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل

---

1 - زنيبر، محمد، المغرب في العصر الوسيط" الدولة. المدينة. الاقتصاد"

2 - المرجع نفسه، 120.

3 - الشهرستاني، كتاب الملل والنحل، 145.

4 - عبد الرازق، عبد الله: الطرق الصوفية في أفريقيا.

البيت يؤيد الدين ويظهر العدل يستولي على الممالك الإسلامية، ويسمى المهدي، ويكون خروج الدجال وما بعده من شروط الساعة[1]. ويورد جملة من الأحاديث والأسانيد التي أشار فيها إلى ضعف رواتها وأسانيدها أوالطعن في بعض الرواة إلا أنه أشار إلى قاعدة صحيحة متبعة في صحة الأحاديث حيث قال إلا أن المعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على التعديل، فإذا أوجدنا طعنا في بعض رجال الأسانيد بغفلة أوبسوء حفظ أوبضعف أوسوء رأي تطرق ذلك إلى صحة الحديث وأوهن فيه.

وقد تبنى ابن تومرت هذه النظرية وأكد عليها ليشبع طموح العامة في وجود مصلح ينتقم من ظلم المرابطين وخاصة أنه أذاع ذلك في قبائل المصامدة المناوئة لقبائل صنهاجة المرابطين أصحاب الدولة وهذا توقيت ذكي من ابن تومرت لتحقيق الإجماع حول مهدويته معتمداً في ذلك على بلاغته ووعظه ويذكر مؤلف كتاب الحلل الموشيه"مؤلف مجهول" ولما كان بالسوس الأقصى قام فيهم خطيباً وقال الحمد لله الفعال لما يريد، القاضي بما يشاء، لا راد لأمره ولا يعقب لحكمه وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله المبشر بالإمام المهدي الذي يملأ الأرض قسطا وعدلاً كما ملئت جواراً وظلماً، يبعثه الله إلى نسخ الباطل بالحق وأن يلي مكان الجور العدل، والمغرب الأقصى منبته وزمانه آخر الزمان يقول البيدق :- " سمعت الخليفة عبدالمؤمن يقول لما فرغ الإمام المهدي من كلامه هذا بادر إليه عشرة رجال من اتباعه الملازمين له كنت أنا واحداً منهم فقلنا له، يا سيدي هذه الصفة لا توجد إلاّ فيك فأنت هوالمهدي" فبايعناه في أثناء ذلك على ما بايع به الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يكونوا يداً واحدة على القتال والدفاع، فبايعه أصحابه تحت شجرة خروب... وسمى أصحابه بالمهدية"[2].

أعلن ابن تومرت نفسه إماماً للامة الإسلامية بل أنه ذهب إلى أبعد من ذلك إذ أضفى على نفسه صبغة العصمة من الخطأ في الفكر والخاطر والفعل واتخذ لحركته شعار التوحيد،

---

1 - المقدمة، الجزء الثاني.

2- نقلا عن: روجي لي تورنو كتاب حركة الموحدين في المغرب ص33.

فأتباعه هم الموحدين وهوإمام الموحدين، لأن ابن تومرت ينفي الصفات عن ذات الله تعالى وهوفي هذا متأثر بالمعتزلة بل أنه أخذ منهم هذا المبدأ.[1]

كما نعت ابن تومرت المرابطين بالمجسمة والجرازمة وهي جاءت من الجرزام وهوطائر أسود وله جناحان أبيضان.وابن تومرت لم يكن صاحب مدرسة فكرية تعرف به لها فلسفتها وأفكارها وقضاياها ولم يكن ابن تومرت رجل فكر بحث فقط، ولا كان رجل سياسه فقط، بل أنه في الحقيقة جمع في شخصه رجل الدين ورجل العلم ورجل السياسة فهوفي دينه، ذهب في عبادته وتقشفه إلى درجة التصوف ويعتبر ابن تومرت رجل سياسة لأنه هوالأول الذي خطط لقيام دولة الموحدين[2].

وابن تومرت كان خليط من الأفكار من المعتزلة الأشاعرة والشيعة ولم يتأثر بمدرسة واحدة من مدارس الفكر التي كانت تعيش في زمانه ولا هوتعصب لإحداها بل أن استقراء تراثه الفكري وتفحص أعماله السياسية ومآثره الدينية يبين لنا بجلاء بأنه أخذ من كل مدرسة من مدارس الفكر والمذاهب الفقهية، وما يتوام ومعتقداته ويتلاءم مع أهدافه.

ولما كان ابن تومرت موحداً على طريقة المعتزلة، ويذهب إلى تأويل الآيات التي تتصل بذات الله، كوجه الله ويد الله والاستواء على العرش أخذاً في هذا بطريقة المعتزلة الذين يناقشون مثل هذه الآيات ويؤولونها متخذين في ذلك مناهج علم الكلام، فإنه هاجم المرابطين الذين لا يؤولون مثل هذه الآيات، واتهمهم بالتجسيم والكفر لأنهم في زعمه يضيفون صفات بشرية ومادية للذات الإلهية[3].

4- عودة ابن تومرت ومواجهته للمؤسسة الدينية المرابطية

عندما أخذ ابن تومرت طريقة في الرجوع إلى بلاده كان قراره قد حُسم، لقد عزم على أن يكون داعياً ومرشداً للناس باسم الدين الصحيح بدأ عمله بمصر وترك هناك عدة تلاميذ،

1- مراجع عقيله، سقوط دولة الموحدين ص34.

2- المصدر السابق، ص38.

3- المصدر السابق، 40.

وعلى ظهر السفينة العائدة به إلى المغرب أخذ يعظ الركاب ويلومهم بشدة على ميلهم لارتكاب المعاصي، وشوهد في مدن المغرب التي توقف بها مدة في طريق العودة وهويقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هكذا كان نشاطه في تونس وقسنطينه وبجاية وتلمسان، فلم يكن يتورع عن البوح بنقده للحكام والأعيان في كل بلد، ولم يكن يتردد في تحدي الجماعات بل الجماهير، بمناسبة الاحتفال بالأعياد ويعنفهم على التفاخر بمظاهر الزينة والتبذير، فكانت السلطات تتأذى من دعوته فتطارده في كثير من الأحيان وتخرجه من البلد.وإذا كان الحكام بدءوا يرون فيه عنصراً خطراً ومشوشاً فلم يكن كذلك موقف بعض الفئات الاجتماعية التي كانت متذمرة من الإدارة القائمة، وكان هناك عدد من العلماء والطلاب المتأثرين بالمذاهب الفكرية الواردة من الشرق مثل الاشعرية والتصوف، يمارسون نوعاً آخر من المعارضة للحكم المرابطي[1].

في مواجهة فقهاء المالكية:

كان تحرك ابن تومرت يرتكز على شعار واحد ما فتئ يذكر به لتبرير أفعاله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.وهومبدأ أساسي في الإسلام يحظى بالقبول والتأييد لدى جميع المؤمنين على اختلاف نزعاتهم.قام ابن تومرت يدعوإلى هذا المبدأ خلال عشر سنوات من 514- 524هـ سنة وفاته بقريته تنمل.

أدرك ابن تومرت وهويشرع في دعوته أن المرابطين كانوا فوق كل اتهام في أعين الناس، فعلى المستوى الديني كانوا يحظون بمساندة أكبر الفقهاء في المغرب الإسلامي مثل ابن رشد وابن الجد وعياض قاضي سبته المشهور. وكانت دائرة على ابن يوسف "الأمير المرابطي" بمراكش تتكون أساساً من علماء فقهاء مالكيين وكان الشعب تعود على احترام تلك الشخصيات واتباعها دون اعتراض، لأنهم كانوا يتكلمون باسم الدين.

فرأي ابن تومرت أن لابد من البدء بالقضاء على تلك الهالة التي تحيط بالفقيه، فتؤثر

---

1 - زنيبر، محمد، المغرب في العصر الوسيط، 121.

على عقول العامة وتجردها من كل حس نقدي[1].فالتقوى عندهم كانت هي التعرف على الفقه المالكي وتطبيقه ولم يكن يشوش بالهم الامتيازات الخاصة التي كان يحصل عليها أصحاب المناصب الدينية من قاض، وإمام، وأستاذ، التي كانت تجعل منهم طبقة محظوظة داخل المجتمع، ولم يكن في طاقة المرابطين على أي حال أن يوقفوا مثل هذا التطور، ذلك أنّ الفقهاء أصبحت لهم اليد الطولي في شؤون الدولة، وكان نفوذهم يمتد من الدواليب الكبرى إلى الصغرى في الإدارة، على كل المستويات.

في مثل هذه الظروف كان من الممكن للمصلحة الخاصة أن تلتبس بالمصلحة العامة، والذي كان يجوز فيه استعمال الدين كقاعدة للدنيا، لم يعدم ابن تومرت حججاً لصالح دعوته حيث:

1- ندد بوقوف فقهاء المالكية عند حد الجانب الشكلي إذ لم يكونوا يهتمون إلاّ بالفروع في حين كانوا يهملون روح الدين الحقيقي وذلك بسبب تخليهم عن البحث في أصول الدين وأصول الفقه وهذا يعني أنهم لم يكونوا يأخذون من تعليمهم الديني إلا ما يتعلق بالمعاملات الدنيوية.

2- ندد بموقفهم الفكري كشكل من أشكال التجسيم أوالتشبيه وهوما يتنافى في نظره مع عقيدة التوحيد في الإسلام، فهؤلاء العلماء الذين وضعوا أنفسهم في خدمة المرابطين كانوا عاجزين عن تصور الإلاه في حقيقته، وهذا ناتج بصورة منطقية، عن جهلهم بعلم الكلام، وهوالعلم الذي كانت دراسته آنذاك مهملة في المغرب بدعوى أنه علم خطير.

3- ندد بتعصبهم الذي ظهر بالخصوص في الاستقبال العدائي الذي استقبلوا به تأليف الغزالي، وبالأخص كتابه المشهور "الأحياء"، فقد لوحظ أن أولئك الفقهاء مارسوا ضغوطاً مختلفة على الأمير علي بن يوسف حتى يصدر حكماً على ذلك الكتاب في قرار رسمي[2].

---

1 - المرجع نفسه، 122.

2 - زنيبر، المغرب في العصر الوسيط، 123.

وعندما وصل ابن تومرت إلى مدينة فاس أظهر ما كان يظهره في كل رحلته وهوالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحدث فيما كان يتحدث فيه من العلم وكان جل ما يدعوإليه علم الاعتقاد على الطريقة الأشعرية، وكان أهل المغرب ينفرون من هذه العلوم، ويعادون من ظهرت عليه.

فجمع والي المدينة الفقهاء واحضره معهم، فجرت مناظره كان فيها التفوق لابن تومرت، لأنه وجد جواً خالياً والقى قوماً صياماً عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع، فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على والي المدينة بإخراجه لئلا يفسد عقول العامة، فأمره والي البلد بالخروج، فخرج إلى مراكش حاضرة المرابطين، وكتب يخبره إلى علي بن يوسف أمير المسلمين، فلما أحضر بين يديه وجمع له الفقهاء للمناظرة، فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول، حاشاً رجل من أهل الأندلس اسمه مالك بن وهيب كان قد أخذ من كل العلوم بنصيب إلاّ أنه كان لا يظهر إلاّ ما ينفق في ذلك الزمان.

ولما سمع مالك بن وهيب ما قاله ابن تومرت في حضرة أمير المرابطين علي بن يوسف أشار على الأمير بقتله، وقال: هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمع كلامه أحد إلاّ مال إليه، وإن وقع هذا في بلاد المصامدة ثار علينا من شره كثير – عبدالواحد المراكشي[1].

وهنا يتبادر السؤال الأساسي لماذا بلاد المصامدة؟ لقد عرف مالك بحسه مدى المعارضة التي تبديها قبائل المصامدة لدولة المرابطين الصنهاجية الأمر الذي يجعل التفاف المصامدة حول رجل منهم يحمل هذه الأفكار أمراً في غاية الخطورة وهوالتقاء العصبية والدين لدعم شوكة الحاكم "ابن تومرت" على رأي ابن خلدون.

يمكن أن نجتز طرفاً من هذا الحوار الذي دار بين ابن تومرت وعلماء المالكية في دولة المرابطين بحضرة علي بن يوسف عندما وصل ابن تومرت إلى مراكش أخذ في نشر أفكاره حيث بدأ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكسر المعازف وإراقة الخمور والتعرض للنساء المرابطيات اللاتي كن يخرجنا سافرات الأمر الذي لفت انتباه رجال الدولة والفقهاء فقرر

---

1 - المراكشي، عبد الواحد، كتاب المعجب، 272.

الأمير علي بن يوسف استدعاء هذا الداعية ومناظرته من قبل العلماء في دولته قال الملك سلوا هذا الرجل ما يبغي منا؟ فأنتدب له قاضي المرية وأسمه محمد بن اسود، فقال ما هذا الذي ينقل عنك من الأقوال في حق الملك العادل الرحيم المنقاد إلى الحق المؤثر طاعة الله تعالى على هواه؟

قال ابن تومرت أما ما نقل عني فقد قلته، ولي من ورائه أقوال وأما قولك إنه يؤثر طاعة الله تعالى على هواه وينقاد إلى الحق... فهل بلغك يا قاضي أن الخمرة تباع جهاراً وتمشي الخنازير بين المسلمين، وتؤخذ أموال اليتامى...؟ وعدد من ذلك شيئاً كثيراً، فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه وأطرق حياء ففهم الحاضرون من فحوى كلامه أنه طامع في المملكة لنفسه ولما رأوا سكوت الملك والخداعه لكلامه لم يتكلم منهم أحد فقال مالك بن وهيب، وكان كثير الاجتراء على الملك أيها الملك إن عندي لنصيحة إن قبلتها حمدت عاقبتها وإن تركتها لم تأمن غائلتها فقال الملك ما هي: قال إني خائف عليك من هذا الرجل وأرى إنك تعتقله وأصحابه وتنفق عليه كل يوم ديناراً لتكتفي شره، وإن لم تفعل ذلك لتنفقنّ عليه خزائنك كلها ثم لا ينفعك ذلك[1].

فقال الأمير علام نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق؟ وهل السجن إلاّ أخو القتل ولكن فأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء كانت تلك نصيحة أحد كبار فقهاء الدولة المرابطية وهويبان بن عثمان ولكن نتيجة لقصر نظر الأمير ومحاولة بطانته التخلص من الحرج الذي وقعوا فيه أمام ابن تومرت وجرأته في حضره علي بن يوسف تقرر أن يطرد من مراكش ولكن إلى أين يذهب لم يتم تحديده المكان فاختار ابن تومرت مكانه المناسب للالتجاء فيه وهي مدينة تنمل في جبال الأطلس حيث توجد قبائل مصمودة التي منها قبيلته "هرغة" إذ بعد هذه المناظرة وسقوط الخطاب المرابطي من الضربة الأولى انفتحت أمام ابن تومرت أفاق أخرى للدعوة وتكاثر اتباعه خاصة بعد أن علموا بعجز فقهاء الدولة المرابطية عن مناظرته وإفحامهم أمام هرم السلطة ورئيس الدولة والطبقة الحاكمة إذا هذه

---

1 - المراكشي، المعجب، 273.

المناظرة أدت هدفها السياسي قبل أن تؤدي هدفها الديني حيث ضربت النواة الأساسية لدولة المرابطين المتمثلة في المؤسسة الفقهية المسيطرة[1].

خلاصة:

وفي ختام هذا البحث يمكننا الخروج بالقراءة التالية:

- إن التابو الذي وضعته السلطة المركزية من دولة الخلافة سوى الأموية أوالعباسية جعلته في منزلة القداسة الدينية وطوقته بجملة من الآراء الفقهية جعلت من الممنوعات بل من المحرم مناقشة مبدأ المشاركة في السلطة الأمر الذي جعل المعارضة تستخدم نفس الأدوات وهي توظيف آراء فقهية مغايرة لتحقيق مطالب سياسية تراها مشروعة من خلال طرح ديني لها يجد صداه لدى العامة أي محاربة السلطة بنفس أدواتها.

- إنّ التواصل الفكري مع المغرب كان تعبيراً عن هذه الأفكار وبلورتها في مشروع سياسي عام لا يخص إقليم المغرب ذاته بل يدعوإلى إصلاح المؤسسة السياسية المركزية نفسها.

- المهدي ابن تومرت كان صاحب مشروع سياسي وديني إصلاحي عام ليس الهدف منه تقويض بناء دولة المرابطين وحسب بل تغيير كامل البنية السياسية والعودة إلى الأصول الدينية في النظام السياسي للدولة العربية الإسلامية بدليل إدعاؤه المهدوية والدعوة لها، كذلك نلاحظ من توسع الدولة الموحدية شرقاً والوصول إلى إفريقية كان يرمي إلى ذات الأهداف التي رسمها الموحدون للدولة الإسلامية وما وجود الدولة الحفصية في تونس الإنتاج لهذا الهدف وهوالوصول إلى المشرق.

- إنّ عدم القراءة الدقيقة لأحداث هامة في التاريخ الإسلامي قادنا إلى التسرع في إطلاق أحكام تتسم بعدم الموضوعية أوالدقة فهناك وقفات يجب أن نقف عندها بتجرد وموضوعية دون المس بالثوابت العقلية في الدين.

- وأمثلة ذلك الوقوف على حروب الردة وإعادة قراءة أحداثها وفق منهجية

---

1 زنيبر، المغرب في العصر الوسيط.

معاصرة، كذلك اجتماع السقيفة وما جرى فيه من خلاف بين المهاجرين والأنصار بسبب النظام السياسي.

- كذلك توظيف بعض الأحاديث أووضعها بالأحرى لخدمة أغراض سياسية ثبت عدم توافقها مع الواقع التاريخي بينما رسخت في أذهان العامة كمسلمات دينية دون المساس بها.

وبذلك فنحن بحاجة لغربلة هذا التراث بمختلف تنوعاته السياسية والفقهية ولا يبقى في دائرة المسكوت عنه.

الهجرات الهلالية

من خلال بعض الكتابات الفرنسية المعاصرة[1]

د. محمد الشريف

جامعة عبد الملك السعدي- تطوان

أثارت هجرة القبائل العربية نحو بلاد المغرب- وما تزال- نقاشا مثيرا بين المؤرخين منذ القرن التاسع عشر الميلادي[2]، وما فتئت نتائج هذه الهجرة وانعكاساتها على التطور

1- قدم هذه الدراسة في ندوة (التحركات البشرية والهجرات اليمانية الى الشام وشرق وشمال افريقيا قبل الاسلام وبعده) التي نظمتها كلية الاداب بالرباط يومي مع المركز العالمي لدراسات وابحاث الكتاب الاخضر طرابلس – ليبيا، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية دمشق.

2- نتوفر على بيبليوغرافية عربية مهمة حول الهجرة الهلالية. إلا أننا لم نعتمدها كثيرا في هذه الدراسة المركزة على الكتابات الفرنسية حول الموضوع. انظر على سبيل المثال: يونس عبد الحميد، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، القاهرة، 1956؛ ممدوح حسين، "العرب الهلالية في إفريقية ودورهم في الحروب الصليبية"، الكراسات التونسية، عدد خاص 117- 118، 1981، ص 73- 90؛ الشيخلي صباح، "الهلاليون في المغرب"، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، عدد 71،70، 1982؛ مصطفى أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين، الدار البيضاء، 1982؛ محمد حسن، القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، تونس، 1986؛ قيقة عبد الرحمان، من أقاصيص بني هلال، تونس، الدار التونسية للنشر، 1987؛ عمرو أبو نصر، تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد المغرب، بيروت، د. ت.؛ التقي العلوي، "أصول المغاربة: القسم الثاني. الهلاليون بالمغربين الأدنى والأقصى"، مجلة البحث العلمي، الرباط، العدد، 33، ص 69- 125، عدد 35، 1985 ص 385- 436؛ سير- ة بني هلال، أعمال الندوة العالمية الأولى حول السيرة الهلالية، تونس، 1990؛ راضي دغفوس، "معركة حيدران والصر/نوفمبر اع الزيري الهلالي"، الكراسات التونسية، عدد خاص 169- 170، 1995، ص 11- 26؛ أمين توفيق الطيبي، "بنو هلال ودورهم في الجهاد في افريقيا والأندلس إلى نهاية القرن السادس، الثاني عشر"، ضم كتابه: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، =

الحضاري لبلاد المغرب وهويته الحضارية تغذي جدلا حادا بين الباحثين المعاصرين، وهوجدل لا يخلومن اعتبارات إيديولوجية في بعض الأحيان.

ومن المعلوم أن القبائل الهلالية السليمية ظلت تنتجع بالواحات الغربية في خط التماس بين بلاد المغرب ومصر منذ أواسط القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. ويرجع تواجد زغبة بجهة طرابلس إلى سنة 429 هـ/ 1030م، وقد ذكرت وقتذاك عند الحديث عن نزاع بينها وبين أحد رؤساء زناتة[1]. ويفهم هذا الأمر إذا نظرنا إلى الوضع الاقتصادي والاجتماعي بمصر وبلاد المغرب وقتذاك[2].

وتعزوالرواية التقليدية أسباب ترحيل القبائل العربية الهلالية نحوبلاد المغرب إلى رغبة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الانتقام من نائبه على إفريقية، المعز بن باديس، بعد إعلانه الانفصال والاستقلال التام عن الدولة الفاطمية في مصر منذ سنة 441 هـ/ 1049م[3].

ومما لا شك فيه أن شظف العيش قد دفع بهذه القبائل إلى الهجرة نحوبلاد المغرب قبل سنوات الأربعين من القرن الخامس الهجري/ 11م. ويبدوأن نسقها كان سريعا وحجمها كبيراً إلى حد أن الجموع الأولى بلغت جهة طرابلس، وبالتالي فإن تسرب عرب الهلالية إلى بلاد المغرب سبق معركة حيدران (**443 هـ/1052م**) التي انهزم فيها الجيش الزيري، وكان مسارا بطيئا شمل البلاد الليبية منذ بدايات القرن الخامس الهجري/ 11م انطلاقا من

= 1997، ص 73- 86؛ نوره محمد عبد العزيز التويجري، "استخدام القبائل العربية أداة سياسية في يد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي"، مجلة التاريخ العربي، الرباط، عدد 29، 2004، ص 81-130.

1- ابن حوقل، صورة الأرض، ص 145

2- انظر التفاصيل في: محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، الجزء الأول، جامعة تونس الأولى، 1999، ص 28

3- ابن شرف، رسالة الاستقصاء، تحقيق حسني عبد الوهاب، دمشق، 1320هـ ص 110؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 278؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 9، ص 217-220.

الواحات الغربية، وتزامن مع حركتي البدوالواقعتين في أطراف البلاد العربية، السلاجقة مشرقا والمرابطين مغربيا[1]. وبذلك يحتمل أن يكون بنوهلال قد وصلوا طرابلس قبل سنة 441 هـ من تلقاء أنفسهم بحثا عن الكلأ كما هوطبعهم، أوأن تحركهم، شأنه في ذلك شأن تحرك قبائل المرابطين الملثمين، قد ارتبط بالرغبة في السيطرة على المسالك الصحراوية الرابطة بين مصر وبلاد السودان الأوسط والغربي، التي كانت تتحكم فيها القبائل الإباضية من زناتة وغيرها[2]، وبذلك يُعتقد أنه قد لا تكون ثمة علاقة بين نزوحهم من مصر وإجراء المعز بن باديس[3].

ومهما كانت أهمية العوامل الاقتصادية، فإن الدولة الفاطمية حاولت الاستفادة سياسيا من هذه الهجرة وتأطيرها. فقد خضع انتشار القبائل إلى خطة مسبقة[4]، منحت بموجبها البلاد إقطاعات للقبائل[5]. ولقد أسفرت "غزوة بني هلال وبني سليم الكبرى" عن نتائج سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية كان لها الأثر الكبير في تاريخ المغرب وحضارته.

ومن المعلوم أن أغلب المصادر التاريخية العربية التي تتحدث عن الهجرة الهلالية تعتبرها "زحف جراد" و"كارثة" حلت ببلاد المغرب، أوْهَنَتْ اقتصاده، وأتلفتْ معالمه ومنشآته الحضارية، وأوقعته في هوة سحيقة[6]. ويستمد هذا الموقف جذوره من روايات المعاصرين

1- محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، م. س. ص 31

2- نفسه

3- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج 2، الدار البيضاء، 1994، ص 93

4- انظر رأيا مخالفا لهذا عند التقي العلوي، " أصول المغاربة..."، م. س. ص 388، حينما يكتب: "نلاحظ ان غزاة بني هلال في زحفهم هذا لم يتقيدوا بأية خطة مرسومة مسبقا من خطط الغزو المنظم..."

5- يقول ابن خلدون في هذا الصدد: " واقتسمت الأعراب بلاد افريقية سنة 466 هـ وكان لزغبة طرابلس وما يليها، ولمرداس بن رياح باجة وما يليها، ثم اقتسموا البلاد ثانية، فكان لهلال من تونس إلى المغرب وهم رياح وزغبة والمعقل وجشم وقرة والأثبج والخلط وسفيان". (ابن خلدون، كتاب العبر، ج 4، ص 32)

6- G. Marçais, Les Arabes ■ Berbérie du XIe ■ XIVe siècles, Constantine, Paris,

للحدث من أمثال شعراء القيروان ومؤرخيها، وخاصة الحصري وابن رشيق وابن شرف القيرواني وأبوالصلت[1]. أما المصادر الأخرى التي تحدثت عن الهجرة الهلالية وانتشارها، فإنها جاءت في الغالب متأخرة (الإدريسي، ابن الأثير، ابن عذاري، التيجاني، ابن خلدون... ألخ).

ومن الواضح أن هذه النظرة لم تتضح إلا بعد ثلاثة قرون أوأكثر من تاريخ قدوم الهلاليين لافريقية، وتجسدت في ما كتبه ابن خلدون في إطار نظريته العامة عن علاقات البدووالحضر. وهذا الأخير لا يعبر عن الحقيقة كاملة بقدر ما يترجم عن مواقف متباينة لأهل عصره تجاه الأعراب، لا تخلومن الإعجاب تارة، والإدانة أخرى[2]. ففضلا عن كونه يشيد بأسهم وسجيّتهم وعلوأخلاقهم، فإن ذلك لم يمنع ابن خلدون من وصفهم بوحشية لا مثيل لها، إذ قال "سارت قبائل ذياب وعوف وزغب وجميع بطون هلال إلى إفريقية كالجراد المنتشر لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه حتى وصلوا إلى إفريقية سنة ثلاث وأربعين"[3].

وما يثير التعليق انطلاقا من موقف صاحب المقدمة الذي كتب تحت تأثير الأزمة الخانقة التي كانت تتخبط فيها بلاد المغرب في القرن الثامن الهجري/ 14م هوقراءة بعض المؤرخين الفرنسيين للهجرة الهلالية ونتائجها على ضوء موقف صاحب المقدمة، واختلافهم في تقييم نتائجها وأثرها في تاريخ بلاد المغرب وحضارته. إذ تحدث البعض منهم عن "الكارثة الهلالية" التي لم تقتصر انعكاساتها على الفترة التي عقبت الزحف الهلالي مباشرة (خاصة بعد هزيمة حيدران سنة 443 هـ)، إنما سحبت على الفترة اللاحقة من تاريخ بلاد افريقية والمغرب.

1913; Id. La Berbérie musulmane et l'orient au Moyen Age, Aubier, Paris (nouvelle éd. Afique Orient, Casablanca, 2003)
E. F. Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord, Paris, 1952

1- راجع H. R. Idris, La Berbérie Orientale sous les Zirides, Paris, 1962

2- محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، الجزء الأول، جامعة تونس الأولى، 1999، ص 2
Jacques Berque, " du nouveau sur les Bani Hilal?", Studia Islamica, XXXVI, 1972, p. 100-101

3- ابن خلدون، تاريخ، ج 4، ص 31.

وعلى عكس ذلك، اعتبر مؤرخون آخرون أن قدوم الهلاليين قد سرّع فقط صيرورة انهيار افريقية الزيرية التي كانت "على شفة هاوية"، وذهبوا إلى أن نظرية الحدث الحاسم، أو "الكارثة الهلالية"، غير قادرة على تفسير التحولات الكبرى التي عرفتها البلاد المغربية، والتي ابتدأت في القرن الخامس الهجري / 11م، وتواصلت تفاعلاتها أكثر من قرنين من الزمن. ومن نافلة القول أن الهجرة الهلالية لا تشكل الموضوع الرئيسي في مقدمة ابن خلدون ولا في كتابه "العبر"، وإنما أشار إليها ابن خلدون ضمن عدد كبير من أسباب الاضطرابات الأخرى.

التوظيف الإيديولوجي لنظرية ابن خلدون عن علاقات البدو والحضر:

اعتبرت أغلب المؤرخين الفرنسيين ورواد السوسيولوجية الكولونيالية أن دخول العرب لبلاد المغرب عقب "الغزوة الهلالية"، هي -إلى جانب اعتناق البربر للدين الإسلامي- الحدث الحاسم في تاريخ المغرب. وبذلك أصبحت الموضوع الأساسي لتاريخ شمال إفريقيا منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر، وبالذات منذ بدايات استعمار الجزائر[1]. وغالبا ما اعتبروا تلك "الغزوة" نكبة الكبرى وبليّة (Fléau) ابتلى بها المغاربة، ونقطة تحول سلبية في تاريخ المنطقة.

فقد كتب (جورج مارسي) يقول بخصوص قدوم العرب لبلاد المغرب: "لقد أحسّت إفريقية الشمالية بألم عميق، وإلى الأبد، بهذه النكبة". وفي مكان آخر يصرح قائلا: "إن أسلمة بلاد البربر تطرح قضية تاريخية، لا أمل لنا في حلها"[2]، وتساءل (كريستيان كورتوا) من جهته عن الأسباب التي أدت ببلاد البربر لكي تكف/ تتخلى شيئا فشيئا عن

1- A. Carette, Recherches sur l'origine et les migrations des tribus de l'Afrique septentrionale. Exploration scientifique de l'Algérie, Paris, 1853. E. Mercier, Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale, Paris Constantine, 1875. Id. Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus anciens jusqu'à la conquête française, Paris, 1888

2- Georges Marçais, La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age, Paris, 1946, p. 35

"رومانيتها"[1]، وهوبذلك يريد أن يكمل البحث الذي بدأه (إميل فليكس غوتيي) الذي راح يبحث عن تفسير الكيفية التي أصبحت بها إفريقيا الشمالية أرضا "مشرقية"، أي أرض إسلام، ولماذا لم تتمكن من أن تصبح دولة مغربية مستقلة بعد انهيار سلطة خلفاء المشرق[2]. ونفس الباحث رأى في الزحف الهلالي مجرد تبديد " للثروات الهائلة التي كان قد تم خلقها على عهد السيطرة الرومانية"[3].

أما بالنسبة لـ (شارل أندري جوليان)، فإن الهجرة الهلالية تمثل "هجمة شعب بدوي مخرب"، وهي الحدث الأهم في العصر المغربي الوسيط[4]، يقول: "كانت زحفة بني هلال بلا منازع أخطر[5] حدث عرفته بلاد المغرب أثناء القرون الوسطى. فهي التي أثرت أكثر من الفتح الإسلامي تأثيرا طبع المغرب بطابع لم تمحه القرون. ذلك أن هذه البلاد كانت قبل مجيء الهلاليين إذا استثنينا الإسلام، بربرية اللغة والعادات في أعماقها. وكانت تسترجع شيئا فشيئا التقاليد السياسية البربرية كلما تخلصت من سلطان المشرق...". ويضيف قائلا: " وأفسد مجيء الهلاليين هذا الانسجام بين نمطين من الحياة يفرضها مناخ المغرب وتضاريسه، وبهم عمت البداوة، وتحولت الأراضي المعدة لزراعة الحبوب والخضر والأشجار المثمرة إلى غير ما جعلت له، واختنقت قرى ومدن صغيرة وخربت"[6].

1- Courtois, Les Vandales de l'Afrique , Paris, 1955, p. 7, 91 et ssq., 126- 130, 359

2- E. F. Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord, Pars, 1973, pp. 129- 130, 247
…,Id, Mœurs et coutumes des musulmans, Paris, 1931.

3- E. F. Gautier,Le passé de l'Afrique du nord: Les siècles obscurs du Maghreb, Paris, Payot, 1937, p. 422.

4- Ch. A. Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, Payot, Paris, 1936, p. 374

5- في الترجمة العربية للكتاب وردت كلمة "أهم"، وهي ترجمة غير دقيقة (شارل اندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ج 2، 1983، ص 97- 98).

6- شارل اندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ج 2، 1983، ص 97- 98.

ولقد وظف المؤرخون وعلماء الاجتماع بعض المعطيات التاريخية التي تتضمنها مقدمة ابن خلدون وكتابه "العبر" حول البدوالعرب، ليقيموا صرحا نظريا بخصوص ثنائية العربي- البربري، وتناحر البدوي- الحضري. وإلى ذلك يشير (جاك بيرك) بقول إن: "تناقض العربي والقبايلي، قد أصبحت حيزا مشتركا سنة 1845"[1]، كما نبّه (إيف لاكوست) بدوره إلى أن "الأكثرية الساحقة من المؤرخين الفرنسيين لإفريقيا الشمالية، قد وقّعوا على موضوعة الغزوات العربية في القرن 11م... ويواجهون بطريقة منهجية، البدوي، الذي يشبهونه عادة (وخطأ) بالعربي، أي الغازي الأجنبي، ويعارضون، بالحضري البربري، المواطن الأصيل، وضحية الغزو"[2].

والواقع إن الإيديولوجية كانت حاضرة في صميم الأبحاث التاريخية الفرنسية التي اتخذت تاريخ بلاد المغرب وحضارته موضوعا لها، ولم يعد خافيا مدى تسخير البحث التاريخي والسوسيولوجي لخدمة الإدارة الاستعمارية الفرنسية ببلاد المغرب. ذلك أن معارضة البدوي بالحضري، سرعان ما أصبحت عنصرا محوريا في الكتابات الفرنسية، وقد كرستها بجلاء كتابات (إيميل فيليكس غوتيي)، أحد ألمع منظري الاستعمار، و"واضع نظرية النزاع البدوي والحضري، وغزوات العرب"، والذي يصفه (إيف لاكوست) بأنه "تمكن من أن يكون اللولب الإجباري لكل تفكير تاريخي حول إفريقيا الشمالية وحول النظرية الرسمية"[3]. إن تاريخ إفريقية الشمالية بأسرها، بالنسبة لـ(غوتيي)، ليس منذ القدم سوى مبارزة شاسعة ودائمة بين "جنسين متعارضين أساسا من وجهة بيولوجية، في تصرفهما الأبدي... فخلال ألفين كاملين من السنين، ومنذ القدم حتى يومنا هذا، كان المغرب دائما منقسما قسمين لا يتحدان، هما البدووالحضر"، ذلك لأن " غرائز البدوي الأصيل تختلف تماما (عن غرائز الحضري)، فهوشيوعي من خلال نمط حياته... أما من وجهة سياسية،

1- Jacques Berques, " Cent vingt ans de sociologie maghrébine", Annales E.S.C , N° 3, 1956 .

2- إيف لاكوست، ابن خلدون، م. س. ص 83- 84.

3- إيف لاكوست، ابن خلدون، م. س.، 94

فهوفوضوي، عدمي وعميق الاختيار للتخريب الذي يفتح له آفاقا. إنه المدمر، المنكر، حتى انتصاره ليس بمنجزة"[1].

ومن نافلة القول أن أطروحة (جورج مارسي) الموسومة بـ (العرب في بلاد البربر)[2] - وهي سابقة على أطروحة غوتيي[3] - ، هي التي قدمت المادة التاريخية لجل الأعمال التاريخية اللاحقة. إلا أنها في الحقيقة أطروحة كامنة ومتضمنة في كتابات (ميسنيي)[4]، وبصفة خاصة في كتاب (كاريط): "بحوث في أصول وهجرات قبائل الرئيسية بإفريقية الشمالية"[5] الذي صدر سنة 1853. وفي هذا الكتاب تطرق كاريط للـ"غزوات العربية"، قائلا: "كان هجوم العرب الفاتحين كالإعصار يقتلع الأشجار ويهدم المنازل، وهجوم الهلاليين كالحريق الهائل الذي يذر الأشجار والمساكن دمارا تذروه الرياح. فما أبقاه الإعصار قضى عليه الحريق".

ولقد لاحظ عبد الله العروي[6] وغيره[7]، كيف أن المؤرخين الفرنسيين، والمتأخرين منهم خاصة يخلطون عن عمد بين "العربي" و"البدوي"؛ فهم "لا يقنعون بالوصف بل يتعدونه إلى الاتهام. لا يكتفون بالقول: هذا ما يفعله البدوالرحل، بل يؤكدون إن هذا هوما يفعله

1- مذكور في إيف لاكوست، م.س.، ص 84- 85

2- G. Marçais, Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècles, Constantine, Paris, 1913

3- E. F. Gautier, Le passé de l'Afrique du nord, Paris, 1937

4- E. Mercier, Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale, Paris Constantine, 1875, Id. Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus anciens jusqu'à la conquête française, Paris, 1888

5- A. Carette, Recherches sur l'origine et les migrations des tribus de l'Afrique septentrionale. Exploration scientifique de l'Algérie . Exploration scientifique de l'Algérie. 1840-41, Paris, 1853

6- مجمل تاريخ المغرب، ج2، م. س. ص 97

7- إيف لاكوست، ابن خلدون، م.س، ص 83 وفي ص 84 نقرأ: "لقد استخدمت ترجمة مقدمة ابن خلدون سنة 1863 لتقدم لهذه الموضوعة، التي أصبحت شبه رسمية، تكريسا متألقا بوجه خاص من مثل القول بأن: أحد أعظم المفكرين العرب يؤكد (أو يبدو أنه يؤكد) موضوعة مؤرخي العصر الكولونيالي).

العرب حيثما كانوا، رغم أنهم يعرفون أن ابن خلدون، أوالإدريسي، يقول العرب ويعني بهم الأعراب، أي البدو، وإن كانوا أصلا من جنس آخر. لكن الأغراض تدفع كتاب عهد الاستعمار إلى استغلال الاشتراك في المعنى، ... مع أن التشابه عرضي فقط. كان دوسلان، مترجم مقدمة ابن خلدون[1]، أول من تعمّد الخلط، فوضع كلمة عرب كلما وجد لفظة أعراب أوبدوأورحل. ورسّخ الفكرة أن العربي مخرّب بطبعه". ويتساءل عبد الله العروي منتقدا المدرسة الكولونيالية: "بأي عصى سحري، مثلا، يتحول البدوي مخرب الأمصار وهادم الدول عندما يكون زناتيا أوهلاليا، إلى مخطط حواضر ومؤسس إمبراطوريات عندما يكون لمتونيا أومرينيا أوزيانيا؟ "[2]

ولا يخفى أن العديد من الكتاب الفرنسيين المتأخرين كانوا يرمون من وراء كتاباتهم إلى إحياء العصبية البربرية، وغرس فكرة لدى الأجيال المغاربية مفادها أن العنصر البربري هوالأصل، وأن العرب هم الغزاة الدخلاء. وهي سياسة اعتمدتها الإدارة الفرنسية في تنفيذ مخططها الاستعماري الرامي إلى تفكيك وحدة الشعب المغاربي وفصله عن واقعه العربي الإسلامي[3].

والواقع أن إرادة التقسيم، بصفتها المحرك الأساسي في السياسة الاستعمارية الفرنسية هي التي تبنت "أطروحة" التعارض بين البدوي (العربي) والحضري (البربري) ببلاد المغرب. "فهذه الأسطورة ليست ثمرة الصدفة- كما يقول إيف لاكوست- . وقد حيكت بوعي، وانطبعت في إطار الإيديولوجيا الاستعمارية... فالجنرالات الفرنسيون منذ بداية احتلال

1- من المعلوم أن البارون دو سلان ترجم كتاب العبر إلى اللغة الفرنسية سنة 1852 - 1865 وصدر بالجزائر في أربعة أجزاء، وأعيد طبعه بباريز سنة 1925، وسنة 1965. وترجم المقدمة سنة 1862.

2- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج2، م. س. ص 103

3- ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، الجزائر، 1984، ج1، ص 35؛ نفسه، "التوجه المعادي للعربية والإسلام في السياسة الفرنسية في الجزائر (1830- 1962)"، مجلة التاريخ العربي، الرباط، العدد 32، خريف 2004، ص 107

الجزائر، جهدوا في تفريق "لعرب" وأهل القبائل"[1].

ومن الواضح أن هذه "الأسطورة" كانت تهدف إلى إظهار العرب والإسلام كقوى استعمارية تسلطت على السكان الأهليين (البربر) لتسلب منهم ممتلكاتهم وهويتهم على الخصوص، ومن ثمة، يصبح دور الحماية الفرنسية هوالدفاع عن البربري المضطهد، الذي حافظ، رغم طول "الاستعمار الإسلامي" على أصالته، وعلى استقلاليته[2]. وتلح كتابات هؤلاء المؤرخين الاستعماريين على أن حواضر بلاد المغرب قد انكمشت والأراضي الزراعية تقلصت بفعل انتشار البداوة التي ارتبطت - حسب رأيهم- بالهجرة الهلالية[3]، وذلك حتى ينتهوا أخيرا إلى الحكم بأن "العهد الروماني" هوالفترة التي عرفت فيها بلاد المغرب الاستقرار، وتطور الزراعة وانتشار العمران. وتماثلها في ذلك فترة "الاحتلال الفرنسي" التي أعادت هي أيضا أمجاد رومة ووضعت حدا للفوضى والاضمحلال، بل تميزت كذلك بالاستقرار واتصفت بالرقي والتقدم. فبلاد المغرب (والجزائر بصفة خاصة) - حسب هذه النظرة المتحيزة- ما هي إلا قطعة من الغرب الأوربي عاشت فترات مظلمة تحت الاستبداد الشرقي (الإسلامي) قبل أن يسترجعها الفرنسيون الذين يعتبرون من خلال هذه الأحكام المتحيزة آخر الفاتحين وأكثرهم تحضرا وإنسانية"[4].

ومن البين أن موضوعة "احتلال العرب" لبلاد البربر ابتداء من القرن الحادي عشر، قد كانت لها في الإيديولوجية الاستعمارية أهمية مزدوجة. فهي من جهة تجعل الفرنسيين آخر المستولين على بلد عاش دائما في حالة عبودية، ويؤمل أن يبقى كذلك أبدا. وهي من جهة

1- إيف لاكوست، ابن خلدون، م.س، ص 97- 98

2- عبد الصمد الديالمي، "ملامح تطور السوسيولوجيا في المغرب" المستقبل العربي، 81، 1985، ص 74

3- انظر على سبيل المثال ما كتبه جورج مارسي في: La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age, op. cit. pp; 208-214

4- ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، م.س. ص 35؛ نفسه، "التوجه المعادي للعربية والإسلام في السياسة الفرنسية في الجزائر (1830- 1962)"، مجلة التاريخ العربي، الرباط، العدد 32، خريف 2004، ص 107

أخرى، تقدم ضمانة تاريخية للسياسة التي ترمي إلى المعارضة المنهجية بين البربر والعرب[1].
أضف إلى هذا أن تجريم العرب ووصفهم بـ "الجتاحين المخربين المضرين" كان مجرد تبرير لإضفاء الشرعية على "الحضور الفرنسي" ببلاد المغرب، واعتباره ينطوي على "مهمة فرنسا الحضارية"، ولا شيء يعبر أحسن عن هذا التوجه من كتاب لويس برتراند[2]، عضو الأكاديمية الفرنسية، والمنشد الرسمي للحكومة العامة في الجزائر، الذي يتحدث عن "منطقة البربر المسيحية" المرموز إليها بشخص القديس أوغسطينوس، وقد بقيت زمنا طويلا خاضعة للمجتاحين الشرقيين، ثم عادت بفضل فرنسا إلى حضن الغرب، والدين المسيحي.

وقد تصدى لنقد هذه الأطروحات ودحضها، عدد من الدارسين والمؤرخين، عربا وفرنسيين، نذكر من بينهم (إيف لاكوست) الذي أبرز جليا ثغراتها وتهافتها في كتابه "العلامة ابن خلدون"[3]. فهو يعتبر المقابلات بين العربي البدوي، وبين البربري الحضري، مجرد تبسيطات مغلوطة، و"أن سائر البدو ليسوا عربا، وأن كل البربر هم بعيدون عن أن يكونوا سوى حضريين. فالمجموعات "العربية" الأصيلة التي قدمت من الجزيرة العربية، وأقامت في إفريقية الشمالية، لم يكن لها سوى فعاليات جد محصورة. والذين يسمونهم "عربا" في المغرب، ليسوا سوى بربر يستخدمون اللغة العربية... وإذا ما كان قسم من السكان المستمرين في استخدام اللغة البربرية حضريين فعلا... فإن القسم الأخير ممن يتكلمون البربرية هم بدو أو أنصاف بدو... فعلام يستند القسم الأكبر من موضوعة مسؤولية العرب التاريخية، من أجل محاولة تبديل هذه البداهة، التي تنفي بشكل بارز معادلات العربي- البدوي، والبرابرة- الحضريين.

1- إيف لاكوست، ابن خلدون، م.س، ص- 98

2- L. Bertrand, Un grand africain, le maréchal de Saint- Arnaud; Le sang des races, Paris, 1930; L'Islam et psychologie du musulman, Paris, 1923

3- Yves Lacoste, Ibn Khaldoun: Naissance de l'histoire passé du tiers monde, Ed. F. Maspero, Paris، ترجمه دميثل سليمان وصدر بعنوان: ابن خلدون، (دار ابن خلدون، ط. 2، 1978)

ويؤكد (روبير برونشفيغ) بدوره على "أن الفوارق العرقية لا تمثل إلا جانبا من أهمّ الاختلافات الموجودة، من حيث نمط العيش، لا سيما بين الرحل والمقيمين، أومن حيث الفئات الاجتماعية. فحياة الترحال ليست حكرا على بعض الأجناس البشرية، إنما هي منبثقة عن بعض الظروف الجغرافية المعينة المتلائمة على وجه الخصوص مع الصحراء والسباسب، إلا أنها قابلة للتقدم أوالتقهقر حسب الملابسات التاريخية. على أن حياة الترحال لم تظهر في شمال افريقيا مع العرب. فمنذ العصور القديمة السحيقة، كانت تظعن بتلك الربوع قبائل بأكملها، بحثا عن المرعى لماشيتها المتكونة من الغنم والمعز. ومع ظهور الإبل في عهد الإمبراطورية الرومانية، كانت بعض فروع من القبائل البربرية تظعن على ظهور الجمال، قبل مدة طويلة من قدوم العرب الأوائل، لا سيما في البلاد الجزائرية الحالية. ولكن في العهد الإسلامي، وخلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، إثر نزوح أعراب بني هلال وبني سليم من الشرق، أحرز ذلك النمط من أنماط العيش، الدور الأول في تلك الربوع وحافظ عليه إلى عهد قريب"[1].

وعلاوة على طابعها الرسمي، فإن موضوعة "مسؤولية البدوي التاريخية" ونظرية المعارضة الأبدية بين البدووالحضر، لتعارض مع عدد كبير من الوقائع التي تنشأ عن أكثر الملاحظات الجغرافية بساطة. إن التعارض البدوي الحضري، لوسلمنا بوجوده، لا يتعلق بالأقسام العرقية واللغوية. وفوق ذلك، يستطيع رعاة وقرويون أن يتعايشوا داخل تشكيل سياسي واجتماعي بالغ التصغير، وتكون وحدته هي، مع ذلك، جد قوية. وقد بين (ر. برونشفيغ) مثلا، أنه فيما يتعلق بإفريقية وُجدت في العصر الوسيط قبائل متشكلة، متساوية الحقوق، وذات أقسام حضرية وبدوية، تكمل إحداهما الأخرى[2]. إن التعارض الأساسي

1- Robert Brunscvig, La Berbérie orientale sous les Hafsides, tome 2, Paris, 1947, p. 159 ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان: روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 162

2- La Berbérie Orientale... op. cit. II, 421

المشهور بين الحضر والبدويجب أن يعاد إلى قياس أصح. وليس أقل من أن نعرف بأن إفريقيا الشمالية عرفت مراحل اضطراب خطيرة بنوع خاص، وطويلة. فهل هي بالضرورة نتيجة "الغزوالبدوي"؟ ولكن، هل حصل "غزو" حقيقة؟ ويضيف إيف لاكوست موضحا: "إن سلاطين المغرب كانوا يجهدون في استجلاب القبائل العربية بدلا من البحث عن كيفية صدها، وغالبا ما كانت القبائل مكرهة على التخلي عن الأراضي التي تجتازها لكي تقيم في مناطق أخرى. ولم تكن الهزيمة الكبرى التي تكبدتها القبائل العربية على يد الخليفة الموحدي في سطيف سنة 1152م بهدف قطع الطريق على هذه القبائل، بل كانت على العكس ترمي إلى دفعها للقدوم إلى مراكش والقيام بخدمته.

وهكذا فإن عبارة "الغزوة" غير صحيحة إطلاقا، للدلالة على تنقل القبائل العربية في القرن 11م عبر إفريقيا الشمالية. إن عبارة "الإبعاد" بالرغم من إفراط معناها، تصلح أن تكون أساسا أكثر دقة. كما أن الأمر يعني، في أغلب الحالات، دعوة للقبائل، وتقييدا حقيقيا. وقد كتب جورج مارسي يقول: "يخطىء الظن من يعتقد بأن سلاطين البربر كانوا في حالة عدوان دائم مع العرب... إن حضورهم كان معتبرا أحيانا بمثابة حدث مرغوب فيه".

ويضيف إيف لاكوست قائلا: "إن التناحر الأساسي بين البدووالحضر، بين العرب والبربر، لا يتفق والحقيقة التاريخية. الأمر يتعلق بأسطورة. ولقد آمن بها مؤرخون رزينون، بالرغم من أن أبحاثهم تدحض هذه النظرية في العديد من النقاط الأساسية. إن جورج مارسي، وهوأحد أهم دارسي قضية العرب والبربر، قد سجلها منذ البداية في مقدمة كتابه، بالرغم من أنه جمّع من الوقائع ما يجعلها الدليل على أنه لم يكن ثمة "غزوة" حقيقية[1].

إن هذه الأطروحات التي كانت لصيقة بالسلطات الاستعمارية الفرنسية، قد أحياها مؤخرا المؤرخ الهادي روجي إدريس في خاتمة كتابه حول "افريقية الزيرية". ولئن حاولت أطروحة هذا الأكاديمي تخطي ابن خلدون واستغلال المصادر المعاصرة للحدث، فإنها تهوّل بدورها من حدث الهجرة الهلالية، وتلقي باللائمة على القبائل العربية فيما أصاب افريقية

1- إيف لاكوست، ابن خلدون، م.س، (في مواضع مختلفة).

من اضطراب وانحلال. يقول:

"لقد شهدت نهاية عهد المعز بن باديس(442- 454 هـ/1050- 1062م) كارثة سياسية واقتصادية لم يسبق لها مثيل، ألا وهي "غزوة" أو"زحفة" بني هلال. ذلك أن الخليفة الفاطمي، بناء على النصيحة المكيافيلية التي أسداها إليه وزيره [اليازوري]، قد أسلم إفريقية إلى جحافل الأعراب الرُحل الذين كانوا يضايقونه. وفي ظرف بضع سنوات أصبحت نكبة الأمير الناكث للعهد أمرا مفروغا منه"[1].

ولقد كرر الهادي روجي إدريس هذه النظرة الكارثية للتاريخ في خاتمة كتابه حينما كتب يقول: "ولا ريب أن غزوة بني هلال تمثل بداية عهد جديد. ولا حاجة لنا – عند ذكر هذه الكارثة الخارقة للعادة- إلى تأكيد أهمية استعمال الظرفيْن "قبل" و"بعد"."[2]

وحسب الهادي روجي إدريس فإنه على عكس جميع الصراعات وجميع التخريبات التي سبقتها، فإن "الأعراب الهلاليين الزاحفين بأعداد غفيرة وبأقل فوضى مما كنا نعتقد، قد استولوا على السهول وعلى عدد كبير من المدن التي خُرِّبت وأصبحت في وضع متخلخل، وطردوا السكان المستقرين من البربر المستعربين والبربر الرحل والمتجعين، الذين فروا زرافات ووحدانا، فالتجأ الأولون إلى الجبال والتجأ الآخرون إلى لمراكز القادرة على التصدي للغزاة"[3].

ويجدر بنا التذكير بأن الهادي روجي إدريس هوتلميذ لـ(روبير برونشفيك)، وحضّر أطروحته تحت إشرافه، وعلى هديه سار في تنظيم فصولها وأبوابها، ولربما تأثر ببعض

1- H. R. Idris, La Berbèrie Orientale sous les Zirides, Xe- XIIIe siècles, vol. I, Paris, 1962, p. 206، الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، 1992، ص 245

2- H. R. Idris, La Berbèrie Orientale sous les Zirides, Xe- XIIIe siècles, vol. II, Paris, 1962, p. 828، (الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج2، ص 448)

3- Idem, p. 829، (الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج2، ص 449- 450)

خلاصات أستاذه المشرف حول "مسؤولية العرب" الرحل فيما آلت إليه الأوضاع بافريقية. فقد كتب روبير برونشفيك يقول: "وهكذا فقد ظهرت في إفريقية الحفصية، في أغلب مناطقها، بمظهر الأرض المخصصة لظعن البدوالرحل، أوالخاضعة لسيطرتهم. فقد أجلوا عددا كبيرا من السكان المستقرين، واكتسحوا جموعا غفيرة أخرى، ولم تستطع الدولة نفسها، التي هي دولة حضرية، من حيث الجوهر والغاية، إلا بشق الأنفس أحيانا، الخلاص من ذلك السيل الجارف المدمر والمنذر بالخطر.

ذلك أنه ينبغي أولا وقبل كل شيء إبراز ذلك الجانب المدمر من نشاطهم، لأنه يمثل أبرز وأقرب سمة للواقع، من طبائعهم ونشاطهم. فمما لا شك فيه أن البدوقد عملوا على تقهقر الزراعات وتقلص عدد سكان المدن والقرى. إذ أن مجال تحركاتهم لا يتحمل سوى وجود سكان مشتتين، كما أنهم، هم أنفسهم، يشترطون التصرف في فضاء أوسع لاستيعاب عدد محدود من البشر نسبيا. وتبعا لذلك فقد قلبوا الاقتصاد رأسا على عقب وخرّبوا، خلال توسعهم نحوالغرب، أكثر من مركز معمور، لا سيما في منطقة السباسب، وأكثر من منطقة زراعية كانت مزدهرة في أوائل العصر الوسيط. ولكن الأخطر من ذلك بدون شك، هوأن أعمالهم التخريبية لم تكن تتوقف أبدا عند المرحلة الأولى من غزوتهم، بل إن تلك الأعمال المريعة قد تواصلت وتكررت عبر العصور. وقد تسببوا إلى حد كبير في اختلال الأمن الذي كان يعاني منه السكان المقيمون والرحّالون على حد سواء، وفي الفوضى السياسية التي انتشرت في أغلب الأحيان. ولقد ألحّ مؤلفوالرحلات والجغرافيون والمؤرخون في كتبهم، على الرعب الذي أثاره العرب الرحل في إفريقية. ففي كتاب من كتب التراجم، مثل "معالم الإيمان"، وفي كتاب من كتب مناقب الأولياء الصالحين مثل "مناقب سيدي ابن عروس"، يتكرر ذكر أسمائهم باعتبارهم مرادفا للفوضى والدمار. وفي حياتهم اليومية نراهم يتمردون على الدولة لا يحترمون الزراعات ويسلبون القوافل، ويعيثون فسادا في الأرياف ويبدون استعدادهم دوما وأبدا لاقتحام المدن. فكانوا بتلك الصورة يثيرون ويغذون في نفوس ضحاياهم مشاعر الحقد والرعب. ويبدولنا وكأننا تجاه عالمين متناهضين، يحاولان البقاء بصعوبة جنبا إلى جنب، وتعمل خلافاتهما الجوهرية على الإخلال بالأمن الداخلي للبلاد

بدون انقطاع"[1].

ولقد أثارت أطروحة الهادي روجي إدريس جدلا في أوساط المؤرخين ومن بين الذين تصدوا لنقدها يبرز إسم (جان بونسي). فقد ذهب في نقاشه إلى أن الهادي روجي إدريس لا يعمل سوى على تكريس الحكم السلبي حول أثر القبائل العربية التي بعث بها الخليفة الفاطمي إلى افريقية الزيرية في القرن الخامس الهجري، والذي صاغه كل من ابن خلدون والتجاني في القرن الثامن الهجري/ 14م، بعد ثلاثة قرون من ذلك الحدث. وأن خلاصاته لا تعدوأن تكون اجترارا للأطروحة التي رأت النور منذ (إميل فليكس غوتيي) بصفة خاصة، والتي تستند على فحص "يخلومن الروح النقدية لكتابات ابن خلدون والتجاني". والاعتماد على مثل هذه المصادر المتأخرة، دون أخذ ما يجب من حيطة منهجية تجاهها، قد يوقع المؤرخ في مغالطات تاريخية، خصوصا وأن المصادر المعاصرة للأحداث لا تقدم مثل تلك الصورة السلبية عن القبائل الهلالية، بل حتى المؤرخين الفرنسيين السابقين أمثال (جورج مارسي) وشارل أندري جوليان، لا يتبنون الأطروحة "الكارثية " للقبائل الهلالية، بل إن (غوتيي) نفسه احتاط من إطلاق أحكام مطلقة عن الدور السلبي للهلاليين - حسب بونسي- وشبه أثر هجرتهم وزحفهم على البلاد الإفريقية "بخميرة في رغيفة" وعن إسهام جديد للقبائل العربية الرحل[2]. ودون أن يتبنى جان بونسي هذه الأطروحة، فإنه يشير إلى بعض المؤرخين الأفارقة الذين يتحدثون عن "زحف بطيء" لموجات الرحل، وعن تطور لا يشكل فيه قدوم القبائل الهلالية سوى "محطة نهائية"، وهوما يفند النظرة "الكارثية" التي يتبناها الهادي روجي إدريس، خصوصا وأن عددا من النصوص التي جمعها الهادي روجي نفسه، تنقض أطروحة "الكارثة الهلالية" من أصلها.

1- R. Brunschvig, La Berbérie Orientale sous les Hafsides, II, pp. 159-161، روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 162- 163 (ويستشهد الهادي روجي إدريس بهذه القولة في نقاشه لمنتقديه كما سنرى)

2- Jean Poncet," Le mythe de la catastrophe Hilalienne", Annales ECS, 1968, p. 1100

وفي بحثه عن أصل المشكلة يعتقد جان بونسي إن القطيعة التي أحدثها أمير إفريقية الزيري مع الخليفة الفاطمي العبيدي لم تكن سوى تكريس لفعل تمتد جذوره إلى رحيل الخليفة الفاطمي إلى مصر سنة 971 م. فقد صاحب معه مؤيديه من عساكر كتامة ورؤساء جندها، وعدد كبير من الأطر الإدارية العليا، والقوى البحرية التي كانت تضمن سيطرة العبيديين على البحر، كما صحب معه كنوز عدة راكمها خلال وجوده بإفريقية، وهوما شكل نزيفا في مقدرات إفريقية الاقتصادية، الأمر الذي أثار حفيظة الطبقة التجارية والسكان الحضريين الذين رأوا بلادهم تنحدر إلى مرتبة ولاية، بعدما كانت مقر السلطة العليا.

ويرى جان بونسي أن ربط تخريب الزراعات، وطمس الآبار، ونسف الزروع، وإشعال الحرائق، وتخريب الأمصار في الحواضر وفي القرى بالقبائل الهلالية، لهو رأي يتجاهل أن المخربين الحقيقيين المنظمين كانوا هم جماعات النهابين الباحثين عن إرهاب الساكنة الحضرية والقروية لابتزازها إلى أقصى حد، بإجبارها على أداء الإتاوات لهم، أوأنها في أغلب الأحيان، أعمال السلاطين أنفسهم، الراغبين في معاقبة السكان الثائرين، أوإرغام السكان المحاصرين على الاستسلام لهم. من ذلك مثلا ما يذكره الهادي روجي إدريس نفسه، نقلا عن ابن الأثير، من أن تميما حاصر قابس سنة 474 هـ/ 1081- 1082م حصارا شديدا (دن أن يتمكن من احتلالها)، وضيق على أهلها، وعاث عساكره في بساتينها المعروفة بالغابة، فأفسدها"[1]. وعانت القلعة بدورها من حصارات كثيرة وطويلة سيرها ملوك القيروان وتم تخريب ضواحيها أكثر من عشر مرات، من قبل السلطان لا من قبل الهلاليين.

ويبرز (جان بونسي) كثرة التناقضات التي نجدها بين من يلقون المسؤولية على الهلاليين في جميع المصائب التي حلت ببلاد المغرب، وبين معطيات المصادر التي تتحدث عن الصراعات الداخلية، وعن هذه الفوضى المولدة للفتن من جميع الأنواع، والتي ترجع أسبابها إلى فترات سابقة، وبعضها أسباب خارجية عن إفريقية. ويبرز جان بونسي أسباب خراب القيروان وانحدار افريقية الزيرية قائلا:

1- الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج1، ص 342 (النص الفرنسي، ص 300)

"إن خراب الدولة الزيرية أوبعبارة أدق، هجران القيروان من قبل برجوازيتها ومن قبل من تبقى من حاشية السلطان، مع ثرواتها، يعكس لنا الانحدار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي المرتبط بعوامل عميقة ومتشعبة[1]. فقد خرجت المقاطعات الطرفية عن سلطة المركز، مثل جهة طرابلس والجريد، وبرزت "جنهوريات برجوازية صغيرة" يرأسها مجلس شورى، كما هوالشأن في تونس وسوسة وطرابلس. وفي أحيان أخرى نجد أرستقراطيات محلية لم تكن تريد البقاء في تبعية أمراء القيروان، وأداء الإتاوات وتقديم الهدايا لهم، تطلعت للاستقلال كما هوالشأن بالنسبة لصفاقس وقابس وبنزرت مثلا. وغالبا ما نسجت هذه الكيانات الصغرى روابط مع المحاربين الرحل لتأمين حمايتها عسكريا، وحماية خطوط التجارة والتجار. وهذه الوضعية لا تختلف كثيرا عما ساد سابقا من خروج للمناطق الهامشية عن سلطة الدولة المركزية.

فتوسط المراكز الحضرية الجديدة بالمناطق الغربية والجنوب الغربي من بلاد المغرب، وغموثرائها، وتسرب التأثيرات التجارية، والأنشطة الفلاحية المختلفة والمبادلات، والتقدم التقني، وظهور اقتصاد يقوم على المعاملات النقدية، والعلاقات الجديدة التي ربطت السكان بالخارج، وظهور واحات- موانىء للقوافل التجارية الصحراوية، ونشأة وتوسع عواصم جديدة، وظهور سلالات حاكمة جديدة، كل هذا يمثل الأساس الذي انبنى عليه الانحلال الزيري".

يضاف إلى ذلك النزاعات الداخلية بحواضر افريقية بين الشيعة والسنة، والصراع الصنهاجي مع المحور الأموي- الزناتي، وتراجع قيمة الدينار والدرهم الزيريين، وما نجم عنه من ارتفاع الأسعار وازدياد الأزمة الاجتماعية، خاصة بعد هزيمة حيدران، لما تمكن الجنود الفارون ورقيق الأرض والبؤساء من الانقضاض على الأثرياء في المدن والأرياف، والقيام بعمليات سلب ونهب وقطع الطرقات، وهوما حمل أهالي القيروان على الهجرة.يتزامن ذلك مع الضغط الخارجي وما عرفته الأوضاع بحوض البحر الأبيض المتوسط

1- Poncet, Le mythe de la catastrophe hilalienne, op. cit. p; 1118

من تغيرات ساهمت بدورها في الانحلال الزيري، ومنها تطور الجمهوريات الإيطالية - بيزة وجنوة وأمللفي، والبندقية...- وتقوية الجانب النورماندي في جزيرة صقلية[1].

والواقع أن هذا التوصيف ينسجم مع عدد من النصوص التاريخية، التي استشهد بها الباحث محمد حسن في أطروحته حول "المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي[2] - وكلها تفيد، بانخرام الوضع بإفريقية قبيل الهجرة الهلالية.

ففي سنة 395 هـ/1004م " كانت بإفريقية شدة عظيمة، انكشف فيها الستور، وهلك فيها الفقير وذهب مال الغني وغلت الأسعار وعدمت الأقوات وجلى أهل البادية إلى أوطانهم، وخلت أكثر المنازل، فلم يبق لها وارث. ومع هذه الشدة وباء الطاعون، هلك فيها أكثر الناس من غني ومحتاج... وجاء خلق من أهل الحاضرة والبادية إلى جزيرة صقلية... وقيل أن أهل البادية أكلوا بعضهم بعضا"[3]

وفي سنة 409 هـ/ 1018م أي بعد ثلاث سنوات من استئصال شأفة الشيعة بالقيروان، ظهر الغلاء مصحوبا بالحروب الكثيرة، وأصبح قطاع الطرق ذارعين يمينا وشمالا بواحات الجريد وأريغ. وفي نفس تلك الحقبة، ومنذ سنة 408 هـ، دار الصراع بين زناتة وصنهاجة بناحية طرابلس، حتى أن عددا هاما من السكان أجلي من واحات الجنوب الشرقي، وتحول إلى وادي أريغ ووارجلان[4].

وفي سنة 420 هـ بلغت زناتة مشارف القيروان، وأعادت الكرة ثانية بعد خمس سنوات، وبقيت الحرب سجالا بين الطرفين إلى حد سنة 428 هـ/ 1036م لما تمكن المعز من صد هذا الهجوم والتقدم إلى بلاد الزاب.

وفي سنة 430 هـ/ 1038 كثر الخصب بإفريقية، لكن جهة طرابلس عرفت آنذاك

1- J. Poncet, " Le mythe de la catastrophe hilalienne", op. cit. , pp; 1102-1111

2- محمد حسن، م.س.، ص 31- 33

3- الشماخي، كتاب السير، تحقيق محمد حسن ص 294

4- ابن عذاري، البيان، 1، 269

هول الجوع والتشرد، في الجزر المتوسطية والواحات، حتى أن هذه الكارثة التي سميت "بسنة فراورا" ظلت راسخة في المخيال الشعبي، وأضحت مرجعية تاريخية. وفيها استولى هاجس الخوف لاستيلاء اللصوص على الطرقات وكثرة الغارات، وخراب العمران، كما برزت مسحة من التشاؤم لدى علماء العصر الذين أكثروا من "ذم أهل هذا الزمن".

ومن هذه النصوص إشارة هامة وردت في النويري، وتتعلق بما آلت إليه البلاد من وهن وتفكك عند وصول الهلالية إليها، إذ قال: "ودخلت العرب، فوجدوا بلادا خالية طيبة كثيرة المراعي، كانت عمارتها زناتة، فأبادهم المعز"[1].

ولقد تبنى (كلود كاهن) - وهوالذي ظل أسير "النظرية التقليدية" المعادية لبني هلال- هذه النظرية النقدية التي دافع عنها جان بونسي، واعتبرها نظرية "مقنعة وصحيحة"[2].

ولم تزحزح هذه الانتقادات والاعتراضات من قناعة الهادي روجي إدريس حول الدور السلبي للقبائل الهلالية، بل دفعته للرد عنها في مقال بعنوان: " حقيقة الكارثة الهلالية"[3]، قبل أن يردفه بمقال آخر تحت عنوان: "الهجرة الهلالية ونتائجها"[4] وفي كلتا الدراستين / الردّين نجده متشبثا بالخلاصات التي دافع عنها في أطروحته/ كتابه[5].

ففي رده على كلود كاهن، ساق الهادي إدريس عشر ملاحظات، نجدها مفصلة في رده

1- النويري، نهاية الأرب، ج 24، ص 211

2- Claude Cahen, " Quelques mots sur les hilaliens et le nomadisme" Journal of Economic and Social History of Orient, 9, 1968, pp. 130- 133

3- Hady Roger Idris, "De la réalité de la Catastrophe Hilalienne", Annales ESC, 1968, pp. 390-396

4- H. R. Idris, "L'invasion hilalienne et ses conséquences", Cahiers de civilisations médiévales, 1968

5- وقد ساهم هنري طيراس بدوره في النقاش مساندا أطروحة الهادي روجي إدريس. Henri Terrasse, " Citadins et grands nomades dans l'histoire de l'Islam", Studia Islamica, 29, 1969, p. 12, note 1

والجدير بالذكر أن هنري طيراس لا ينفصل عن المدرسة الفرنسية الاستعمارية

على جان بونسي[1]، وهذه الملاحظات هي التالية :

1- كانت إفريقية "قوة عظمى حقيقية" قبل الفاطميين.

2- كانت تعتمد على "مواردها الإقليمية" أساسا، من دون إهمال الموارد المتأتية من المبادلات التجارية الخارجية.

3- "عدم انضباط المناطق الطرفية للسلطة المركزية" هي إحدى ثوابت تاريخ الغرب الإسلامي برمته.

4- من المفارقة التاريخية التصريح بأن "الإحساس بهذه الصعوبات كان يزيد من صعوبة الإبقاء على تبعية سكان إفريقية للقاهرة. فوجود هذا الإحساس، وهوإحساس عصري، يحتاج إلى إثبات، فمن كان يحس به؟ إن التبعية للفاطميين لا علاقة لها بالاضطرابات الداخلية.

5- لم يكن هناك على عهد الزيريين " غلبة الفقهاء" أوغلبة " المذهب الإسماعيلي" مطلقا. ربما كان ذلك في البلاط، فتشيع صنهاجة كان تشيعا سطحيا أكثر من تشيع باقي السكان، وخاصة سكان القيروان، والمدن التي كانت ضد التشيع حتى النخاع كانت تابعة للفقهاء والعلماء المالكيين.

6- أعترف أن الهلاليين لم يكونوا مسؤولين بصفة مطلقة عن الفوضى التي سادت البلاد. لنفترض أنها كانت في حالة كمون. فالصراع المستمر بين الرحل والمستقرين يؤكد ذلك. ولكن من ينكر أن مرضا ما بإمكانه - عندما يتعدى حدا معينا- أن يهلك الجسم الذي كان قد تعود عليه. فهشاشة التوازن بين نمطي الحياة يفسر قطيعته عقب الزحف الهلالي، وغلبة الترحال.

7- لا شيء يسمح بتأكيد أن "الأرستقراطيين المحليين" فضلوا التفاهم مع الزاحفين

1 H. R. Idris, "L'invasion hilalienne et ses conséquences", Cahiers de civilisations médiévales, 1968

عـوض البقـاء خاضـعين للزيـريين. فالوقـائع المتعلقـة بهـذا الجانـب مرتبطـة بعامـة النـاس لا بالأرستقراطية.

8- إن وثائق "الجنيزة" توحي أن هناك انحطاطا للتجارة الخارجية لإفريقية الزيرية قبـل الغزوالهلالـي. ولكننـا لا نعـرف الأهميـة المطلقـة ، ولا النـسبية للمبـادلات التجاريـة ، ولا انعكاس ذلك الانحطاط على اقتصاد البلاد وعلى المستوى المعيشي بصفة عامة.

9- من الواضـح أن الرّحـل حينمـا يخربـون الزراعـة ، فـإن ذلـك يـتم "مـن دون إرادة مسبقة" لفعل ذلك.

10- أوافق على الملاحظات المتعلقة بـ"البداوة - سياسيا على الأقل- لمجموع العالم الإسلامي في القرن العاشر والحادي عشر للميلاد. وأدين "الذاتية" التي تدفع بالباحث إلى التركيز على هـذا العنـصر أوذاك ، مـن دون سـند مـصدري. ومـن هنـا ، وللتخلـي عـن "أسطورة " الكارثة الهلالية ، أطالب بالوثائق التي تدحض الفكرة ، وأعيب على جان بونسي كونـه لا يقـدم أي سـند مـصدري لأطروحتـه ، ولا يحتفظ إلا بالأحداث التي تؤيد أطروحة مناقضة لكل الوثائق المستعملة ، ولكل ما تعلمتـه طيلـة ثلاثين سنة من البحث حول عقلية المجتمع المغاربي في العصر الوسيط الأعلى[1].

ولقد رد جان بونسي على جواب الهادي روجي إدريس في مقال مركز[2]، لم يـر فيـه الهادي روجي إضافة جديدة إلى النقاش.

واعتبر (جاك بيرك) أن هذا "الجدل" يمكن أن يصبح عقيما طالما أننا لم نجمع ، حول الحدث نفسه ، وحول إطاره وآثاره ، كمّا مصدريا ووثائقيا واسعا ومباشرا[3]. وينتقد النظرية التقليدية التي تدين بني هلال وتعتبرهم سبب قطيعة في تاريخ بلاد المغرب ، وبسببهم أصبح

-1 H. R. Idris, " L'invasion hilalienne et ses conséquences", Cahiers de Civilisations médiévales, 1968, p. 357, note 5

-2 Jean. Poncet," Encore à propos des Hilaliens. La mise au point de R. Idris", Annales ECS, 1968, p. 660- 662

-1 J. Berque," Du Nouv[illegible] sur les Beni Hilal," Studia Islamica, 36, 1972, p. 110

المغرب "بلد اقتصاد ضال"، حسب تعبير هنري تيراس[1] pays d'économie égarée الذي وجد الاستعمار صعوبة كبيرة في جعله يستقر على أسس متينة - كما يستشف ضمنيا من هذه المقولة.

كما أنه ينتقد كثيرا من المؤرخين الذين "يدافعون، بالوكالة، عن الممالك الصنهاجية التي كانت قائمة، ويصفون الحكم الذي قام على أنقاضها بالفوضوي" ويتساءل في خاتمة مقاله مستنكرا: " لكن لماذا الحديث عن الفوضى، عوض الكلام عن التعدد، وعن العودة إلى الأصول؟ "[2]

واضح أننا أمام نظريتين متناقضتين: "النظرية التقليدية" المعادية لبني هلال التي دافع عنها المؤرخون الفرنسيون المتأخرون وينعتها جاك بيرك " بالفكرة التاريخية الشائعة المبتذلة " Une vulgate historique". وقد أحياها الهادي روجي إدريس؛ و"النظرية النقدية" التي يذهب أصحابها إلى أن الهجرة الهلالية لم تعمل سوى على تسريع الانهيار الزيري، وأن الأوضاع بإفريقية كانت متأزمة قبل قدوم العرب إليها.

يتصدى العروي لنقد التيارين معتبرا أنهما يسبحان في بحر العموميات ولا يبرحان أبدا مستوى الأنماط التبريرية. يصف الأول بالتبسيط والتلفيق، ويرى أن أصحاب التيار الثاني يظهرون "أن المجتمع المغلوب كان، قبل تفتته وانهياره أمام فاتحيه، جائرا استغلاليا، منقسما على نفسه، تحكم فيه أقلية دخيلة أغلبية ناقمة عليها ومغايرة لها في العقيدة أواللغة أوالعرق... ولذا نراهم يرددون، بعلم منهم أوبغير علم، تلك البراهين التي عوّدنا عليها كل دارس يروم تبرير فتحا من الفتوحات، ... وتتلخص في القولة التالية: كل فتح لا بد أن تسبقه أزمة عميقة في البلد المفتوح".

وبما أن الجميع يعتمد على نفس المصادر (الأخبار، المناقب، الأحكام الفتوى) التي

-2 H. Terrassa, "L'ancien Maroc, pays d'économie égarée", Revue de la Méditerranée, 1947

-3 Ibid, 111; " En lisant les nawazil Mazouna", Studia Islamica, XXXII, 1970, pp. 31-39

كتبها في الغالب فقهاء يعادون في نفس الوقت أمراء بني زيري وأشياخ القبائل الهلالية. فلا عجب إذا وجد فيها كل فريق ما يؤيد نظرته. فلا يمكن، والحال هذه، الفصل بينهما مهما طال النقاش"[1]. وما يمكن في آخر التحليل أن يرجح كفة إحدى النظريتين حول المسألة المطروحة، حسب العروي، هوشهادة وثائق أصيلة عن تطور التجارة البعيدة في أواسط القرن الخامس / 11م... مثل وثائق الجنيزة القاهرة، التي تؤيد النظرية النقدية، بما أنها تتضمن رسائل تشير إلى نوع من الانحطاط الذي مسّ مجموع الغرب الإسلامي "سنوات عدة قبل وصول جحافل البدوالحجازيين"[2]. وبالتالي فإنها تعتبر البداوة (بمعناها السياسي العسكري) نتيجة أكثر مما هي سبب وباعث.

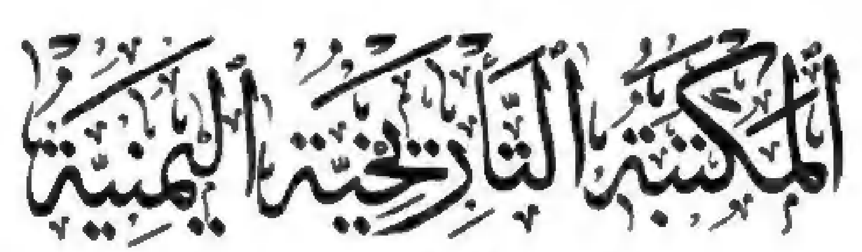
ويرى كلود كاهن بدوره أن " التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وحده الذي يمكنه الفصل فيما إذا كانت مساهمة الأعراب الرحل في حياة إفريقية، ابتداء من منتصف القرن 5/ 11م قد خربت البلاد أم لا، قد حولت محاور التجارة الخارجية أولا، وإن لم تكن الأزمة ترجع إلى عقدين من قبل قدوم العرب، وإن لم تكن ترتبط بأزمة عامة ضربت حوض البحر المتوسط برمته"[3].

خلاصة القول إنه يمكن التمييز بين اتجاهين كبيرين في أبحاث المؤرخين الفرنسيين المتأخرين والمعاصرين حول الهجرات الهلالية وآثارها المختلفة على بلاد المغرب: اتجاه أول يمثل "النظرية التقليدية" حول الهجرة الهلالية، وقد غلبت عليه النظرة السلبية لتلك الهجرات، كما هوواضح من كتابات جورج مارسي وإميل فيليكس غوتيي ومن لف لفهما، والتي يجب فهمها على ضوء الخلفية الإيديولوجية الكامنة وراءها، والانعكاسات المترتبة عن الترجمات غير السليمة للمصادر الأساسية حول الموضوع إلى اللغة الفرنسية. أما الاتجاه الثاني ويمكن نعته بـ "النظرية النقدية"، ويمثله باحثون من أمثال جان بونسي وجاك بيرك وإيف لاكوست وكلود كاهن وغيرهم الذين تصدوا للأحكام والمغالطات الواردة في كتابات مؤرخي الاتجاه الأول.

1- العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج2، ص 97- 98

2- نفسه، 103

3- J. Berque," Du Nouveau sur les Beni Hilal," Studia Islamica, 36, 1972, p. 110


المكتبة التاريخية اليمنية

إننا أبناء الأمة العربية مستهدفون جميعاً
باستراتيجيات وتكتيكات بات واضحاً
أنها لا تريد لنا خيراً، وهي تتربص بنا
وتحيك المكائد من حولنا وفي داخل
قلاعنا. وها قد اتضحت النوايا
واتضحت الصورة، ليس فقط على سبيل
ما يحدث في العراق وفلسطين، بل في
أجزاء كثيرة من وطننا العربي الكبير
ولعل من أسوأ الخطط وأبلغها أثراً تلك
التفرقة المفتعلة ما بين المشرق والمغرب،
وتلك النّزعات التي تظهر هنا وهناك
داعية إلى مزيد من الفرقة والتمزق
وصرف الأنظار عن الخطر الخارجي
المُحدق بنا من كل جانب. ولعل هذا ما
يحفّزنا إلى مزيد من الحذر والبحث
العلمي الموضوعي الجاد في ما يجمعنا
ويوحّدنا كتلة واحدة كالبنيان
المرصوص يشد بعضه بعضاً.



المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر